رحلة لجوء

عبدالله اليبرودي

دار تفاصيل الكلم للنشر و التوزيع - الدمام

رحلة لجوء – عبدالله اليبرودي

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

القصص العربية - سوريا – ديوي : ٨١٣,٠٣٩٥٦٥

رقم الإيداع : ١٤٣٨/٣٨٨٩

ردمك: ٤-٣٧٣٩-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

للتواصل مع المؤلف : @abu_alyabrode

جميع الحقوق محفوظة للناشر (دار تفاصيل الكلم للنشر و التوزيع) و لا يحق للغير نسخ هذا المحتوى أو طباعته أو إعادة نشره بشكل كامل أو جزئي بأي شكل من الأشكال و الوسائل إلا بموافقة خطية منه

رحلة لجوء

عبدالله اليبرودي

٢٠١٧

تبقى مرحلة الإهداء أصعب ما يمر به الكاتب و ذلك لكثرة توارد الأسماء على الذهن و لصعوبة التفضيل بينها لذلك أهدي هذا العمل إلى:

السائرين على درب الأمل و الباحثين عن حياة جديدة في بلاد قد يُكتب لهم الوصول إليها إذا ما ملكوا الصبر و الإرادة

بينَ المَوتِ والحَيَاة

مرَّ إحسان من أمام باب المهجع فلمحني وأنا أهمُ بقصد الصلاة فطلب مني أن أنادي إبراهيم، أيقظت إبراهيم ومضيت لشأني ، وقف إبراهيم معه فترة وجيزة ثم عاد.
استيقظ مهند فسأل إبراهيم ما الذي جرى فقال :" إن الدولة قد أخلت السجن بشكل كامل بعد أن قامت بتفخيخه ".
بدأنا نتأمل وجوه بعضنا و علامات الحيرة و الاستغراب باديةٌ على كل منا فقد يهرب الشرطة خوفاً من زخ الرصاص المتواصل منذ أيام خصوصاً بعد ما جرى هذا اليوم من مجازر فيهم - فقد سرى الموت اليوم فيهم بشكل كبير - أما أن يقوموا بتفخيخ السجن فهذه مسألة غريبة لم تكن لتخطر على بالنا لا بد لنا الآن من استغلال الوقت والاستعداد لأي حدث قد يطرأ علينا .
بدأت خيوط الشمس تتسلل إلى السجن بسرعة و لا يزال إطلاق النار بشكل متقطع موجوداً دون أن نفهم من الذي يفعل ذلك فقد سقطت سرية العسكر والتي كانت تشكل حامية السجن الأخيرة ، والشرطة لم يبقى منهم سوى شرطيين هما عمر وأنس وهما من شرطة المحارس الذين لا يحملون سلاحا أصلاً ، بدأنا نسمع أصوات صراخ وتكبيرات مترافقة مع أصوات الرصاص تتعالى في الخارج وبدأت حركة في ممرات السجن دون أن نفهم شيئاً سأل إبراهيم إحسان مجدداً بعد أن مر أمام الباب :"ما الذي يحدث" ؟
فقال :" يقوم كل من طلال ووجدي بتكسير باب المطبخ الذي يؤدي إلى سرية العسكر باستعمال أحد الأسرّة الحديدية ".
بدا الأمر خطيراً فأصوات الرصاص ما زالت موجودة والموت قد يقبض روح أي إنسان في ظل هذه المعمعة .
بدأت حركة السجناء تتسارع في الخارج دون أن نفهم شيئاً مرَّ بهاء أخيراً أمام الباب فاغتنمنا الفرصة حتى نستفهم منه ما يجري فقا:" ل إن السجناء يقومون بالهروب من خلال الباب الفاصل بين المطبخ والسرية و التكبيرات التي تسمعونها إنما هي تكبيرات الثوار احتفالاً بخروج السجناء إليهم ".
عندها لم يبق لدينا خيار في سلوك الطريق الذي يسلكه السجناء وهو الهرب من خلال الباب الذي يفتح الآن نادينا إحسان رئيس الجناح الذي يمتلك المفاتيح الآن وطلبنا منه أن نحاول كما يحاول زملاؤنا الهرب.
ثم بدأنا نستعد للهرب من السجن وبدأنا نحاول الاحتياط للحالات التي قد تواجهنا فارتدينا المناشف تحسباً لاحتمال إلقاء القنابل الدخانية والتي عانينا منها في الاستعصاء السابق .
فُتِح الباب أخيراً وبدأنا نخرج و الخوف يتمالك جميع النفوس ويزداد مع سماع أزيز الرصاص بدأنا نركض بسرعة من غرفتنا في الكتلة الثانية نزولاً من الجناح الذي نقطنه باتجاه المطبخ الموجود في الكتلة الأولى .

يبدو أننا خلال نزولنا كنا متأخرين فقد شاهدنا الناس المرضى الذين لم يكونوا قادرين على المشي منذ فترة، شاهدت أحدهم يحبو على يديه غير قادر على المشي فتمالكه الأمل عندما رآنا و سأل أحدَنا أن يحمله.. تصدى مروان و خالد لطلبه ورفعاه ومشيا به لكن مساعدتهما لم تدم طويلاً فالأجساد منهكة والنفوس خائفة فلم يطل بهما الأمر حتى تركاه ومضيا في حال سبيلهما .

وصلنا أخيراً إلى باب المطبخ الذي يفصل داخل السجن عن خارجه حاولنا الخروج فوجدنا الباب يرتفع عن الأرض مسافة طابق كامل والدرج حديدي ضيق ما إن وصلنا إلى الدرج حتى سمعنا أصوات الرصاص تتزايد فعدنا هاربين بسرعة إلى المطبخ .

صاح عندها وجدي بنا وقال :" إن هذا الرصاص إنما هو احتفالاً بخروجكم لا تخافوا واخرجوا بسرعة".

طمئننا كلامه نوعاً ما و لكن لم نمل إلى تصديقه كثيراً و لكن كان لا بد من المحاولة مرة أخرى كما فعل زملاؤنا ركضنا على الدرج مجدداً وبدأنا ننزل بسرعة ثم بدأنا نركض لا نلوي على شيء و نبحث عن الجدار محاولين أن نستتر به في حال حصل إطلاق نار باتجاهنا، لم أكن قادراً على أن أميز المشهد أو المكان بأكمله فقد وجهت نظري باتجاه من سبقني من السجناء وسرت خلفهم مسرعاً محاولاً إدراكهم وكلما أجلت طرفي حولي شاهدت الناس الذين تآكلت أجسادهم نتيجة الجوع و المرض حتى أن أحدهم كان يجر شخصاً بالعربة والشخص المجرور قد بات كتلة عظام لا أكثر ولعله قد لا يصل إلى أهله اليوم .

كثيرون هم الناس الذين كانوا ينظرون إليك وكأنك الأمل بخروجهم أو سحبهم من هذا الخطر الذي يعيشون فيه ولكن كل إنسان كان يمشي ويحاول تجاهل نظرات الشخص المقابل التي كانت تستقبله بالأمل وتشيعه بنظرات اللوم و العتاب .

كانت نظرات الأشخاص إليك تشعرك بأنك تنفذ المثل القائل إذا جاءك الطوفان فضع ابنك تحت قدميك ثم اصعد لتستنشق الهواء رغم ذلك لم يكن للإنسان مجال أكثر للتفكير من النجاة بنفسه .

إشراقة الصباح التاريخية التي نعيشها أنستنا أي انتباه لهذا الجو الجميل الذي يسود اليوم ، خرجت من باب السجن الكبير دون أن أميز شيئا حتى قابلت أخيراً رجلاً يحمل السلاح عندها أحسست بالاطمئنان لوصولي إلى بر الأمان . سعدت برؤية ثائرٍ مسلح لأول مرة فقلت له :" سلمت يمينك يا أخي ".

ولكنه لم يزد على أن وجهني باتجاه السرية تابعت الركض حتى وصلت إلى حيث يتجمع السجناء وعند وصولي إلى السرية حيث يقترب السجناء جميعاً من بعضهم محاولين الالتفاف على بعضهم خوفاً من أصوات الانفجارات المتواصلة بدأت أبحث عن أبناء قريتنا ووجدتهم جميعاً أثر التعب كان بادياً على خالد أكثر من غيره فقد وقع في منتصف الطريق وهو يحاول الوصول إلينا

وبعد أن وقع لشدة تعبه جثا على ركبتيه وبدأ يزحف باتجاه السرية باحثاً عن بر الأمان الذي سبقناه إليه .

خرج معظم السجناء بالإضافة إلى الشرطيين .

مباشرةً ودون أية مقدمات بدأ أحد الثوار يصرخ قائلاً :" من منكم شرطي ؟ أي شرطي ليظهر وحده و عليه الامان ؟!".

لكن أحداً لم يجبه نظرت حولي فإذا عمر الشرطي قريبٌ مني وقد اصفر وجهه خوفاً من مصيره الذي سيحمله إليه الثوار.. صاح الثائر مرة ومرتين دون أن يجيبه أحد ثم وصل إلى الشرطيين أخيراً بعد أن تصدى لمهمة إرشاده أحد المرشدين الذين يرشدون أي سلطة كانت فمخبر الأمس للنظام بات مرشد اليوم للثوار .

لكن الثائر لم يكتفِ بالشرطة بل طلب المزيد فصاح مجدداً :"العوايني يخرج لوحده !".

انقلب معظم السجناء عندها إلى مرشدين وبدأوا يدلون على بعضهم .

كان أحد الشباب معنا في الغرفة يكره شخصاً آخر و يعتبره عميلاً للنظام وكان يصرح بأنه سيرشد الثوار عليه في حال دخولهم حتى يقتصوا له منه، لكن خالد نهاه عن الفكرة وقال له :" إنك لن تجني شيئاً من ذلك اترك الرجل لحال سبيله ودع ماضيه يتكفل ربه بحسابه عليه".

توقف الرجل فعلاً ولم يخبر عن خصمه لكن زملاءه الباقين أوردوا اسمه ليأخذه الثوار بتهمة العمالة للنظام.. انتهى اقتصاص السجناء من بعضهم لكن مكاننا هذا لا يبعث على الاطمئنان فما تزال قذائف الهوان تتساقط والخوف من الطيران موجود .

لم يهتم السجناء المحرَرون بهذه المسألة فالجوع قد أنهكهم وبدأوا يبحثون عن الطعام الموجود حتى يقيموا أصلابهم .

حوت الغرفة قليلاً من الطعام بدء السجناء يتقاسمونه و مضى بعض الوقت دون أن نعرف أين نتجه.

رأيت إبراهيم أخيراً فأشار لي باتجاه أبي علي فلم أكن أعرفه سابقاً ولكنه كان مشغولاً مع الثوار ، مضى بعض الوقت ثم طلب منا الثوار الخروج باتجاه الخارج، خرجنا فعلاً ثم بدأ أحد الثوار المسلحين يتكلم قائلاً :" نحن نريد سجناء الثورة ونحن نعرف أن عددهم ٦٥ شخصاً الباقون سيذهبون إلى أهلهم بعد أن يعرضوا على محاكمة تظمن لهم حكما عادلاً".

لا شك أن كلامه إنشائي فما هي المحاكمة العادلة التي سيخضع لها رجل قضى في السجن ٤ او ٥ سنوات بتهمة التهريب او القتل أو الاغتصاب هل سيعود ليحاكم وكأن أعوامه الماضية ذهبت هباء منثوراً؟ .. أياً يكن فهو كلام إعلامي لا أكثر .

اكتشف السجناء أنهم تحولوا من سجناء بيد النظام إلى سجناء بيد الثوار ولكن لم يكن لهم إلا أن يستسلموا لمصيرهم ويسيروا مع الثوار حيث شاءوا بدأنا نمشي والشمس تختبئ خلف الغيوم والضباب ينتشر بكثافة عالية لدرجة تبعث على الاطمئنان من ناحية الطيران .

مشينا قليلاً وبدأ السجن الذي قضينا فيه أياماً مديدة من عمرنا يتصاغر في أعيننا وبدأت أحاديثه التي كانت بالأمس واقعاً نعيشه تتحول اليوم إلى ذكرى أليمة أضعناها من عمرنا في هذا المكان .
و أخيراً خروج من غياهب سجون النظام بعد سنتين وعشرة شهور و عشرين يوماً .
مدةٌ طويلة جدة حسب ما كنا نتخيله فلم تكن مخيلتنا تتجاوز العشرين يوماً التي سمعتها عندما حقق معي المحقق .
أياً يكن فقد باتت هذه الأيام مجرد ذكرى وها نحن نسير للنساها ولنجد الأمل الذي انتظرناه طويلاً مشينا وقتاً طويلاً دون أن نعرف أين نحن أو أين نتجه باستثناء أبناء درعا البلدِ جيرانُ المنطقة الذين كانوا يعرفون المكان جيداً وصلنا أخيراً إلى مزرعة دجاج طلب منا الثوار الدخول إليها حتى يقضوا عملهم بسرعة امتثلنا لأمرهم ودخلنا ولم نعرف ما يريده منا الثوار .
بعض الشباب كان محظوظاً وهو صمادي فما هو إلا وقت قليل حتى جاء المنادي يناديه ليمضي معه.
مضى صمادي إلى بيته أخيراً بعد أن ودعنا وتابعنا نحن الانتظار لم تنتهي مسألة تصفية الحسابات في السرية سابقاً فما إن دخلنا المزرعة حتى بدء طلال يتأمل في الوجوه بحثاً عمن يشم منهم رائحة ولاء للنظام حاول إبراهيم ثنيه عن عزمه و ألا يأخذ الناس بالظنة لكن الرجل صرخ بوجهه قائلاً :" له أتشفع في حد من حدود الله ".
انثنى ابراهيم عندها و اعتزل جانباً و صرح لي عن غضبه قائلاً :" ما إن يحسن أحدهم تركيب كلمتين مع بعضهما بالفصحى حتى يرى نفسه عبقري زمانه وقراقوش عصره ".
كان طلال كمن يعيش في مملكته التي استعادها بعدما كانت مسلوبة منه و خصوصاً بعد أن وجد أن معظم الثوار من أبناء بلده .
العنجهية هي عنوان العسكر قبل و بعد الثورة فحتى مع انشقاق طلال عن الجيش إلا أنه استمر في السير على خطا تلك الأيام السابقة عندما كان ملازماً أولاً في الجيش لم يكن طلال الوحيد هو الذي يبحث عن العواينية ولكن أبا جاسم أيضاً ابن بلد طلال كان يبحث عمن ضايقه أيضاً فقد تم إنزاله إلى المنفردات فترةً طويلة وهو يبحث عمن يحمله المسؤولية مع أن نزوله كان بتهمة السرقة لا لشيء آخر .
بدأ أبو جاسم يؤنب كل من يحاول نصحه حتى صديقه علي الذي كان مجرد حلاق، ولكنه اعتبرهاعمالة مضى الوقت ولم يكن بأيدينا شيء سوى انتظار أوامر الثوار و الذين تحولوا إلى سجانين جدد بالنسبة إلينا .

بدأ الوقت يتطاول علينا في هذه المزرعة ونحن نعاين عنجهية طلال تارةً وحماقة أبي جاسم تارةً أخرى وكان أفضل شيء نتسلى به هو أن نتابع المصورين الذين لم يملوا ولم يتوقفوا عن تصويرنا منذ تحريرنا .

عندما تم نقلنا إلى سجن غرز كان من ضمن المنقولين معنا أنس ومحمد، أنس من الطيحة من ريف درعا ولكنها أقرب ما تكون إلى ريف الشام في حين أن محمد فلسطيني من مخيم اللد في اللاذقية إلا إنه كان سابقاً مسجلاً في نفوس درعا و يبدوأن هذا الأمر جاء في صالحهما، فقد عانيا في فترة سجنهما في غرز من ناحية الزيارات و المصروف إلا أنهما لم يكونا ليحلما بالخروج لو انتقلا إلى سجنٍ آخر..
همَّ خالد أن يرفع الورقة التي حكم فيها بالمؤبد أمام الكاميرا حتى يصورها ولكنه تراجع خوفاً من أن يقصف الطيران قريتنا ، لا شك أن الطيران لن يقصف قريتنا لهذا السبب ولكن خالد كان حريصاً لدرجة غريبة.

في صيدنايا لم يكن مسموحاً إلا لأقرباءنا من الدرجة الأولى بزيارتنا أي الأب و الأم والزوجة والابن والاخ، لكن في غرز قام بعض أهل القرية بزيارتنا، وكان ذلك عند وصولنا إلى السجن والآن مضى زمن طويل عاش فيه ناس ومات فيه آخرون ولم نكن نعرف مشاعر الآخرين تجاهنا ولم نصادف من أبناء قريتنا حتى الآن سوى أبا علي و الذي انشغل بعمله مع الثوار عنا .

بعد لحظات وصل بدر قريبي و إبراهيم فاحتضن ابراهيم بحرارة كانت حرارة المشهد تدفع بدراً للبكاء فرحاً بهذا اللقاء بعد غياب قارب الثلاث سنوات .

تأثر بدر فعلاً لكننا لم نشعر بكبير تأثير فقد بدا أننا فقدنا الرغبة بالبكاء منذ زمن بسبب ما لقيناه من مصاعب ومتاعب جعلت اللقاء الاول سعيداً جداً بالنسبة إلينا .

بدأ شباب قريتنا يتوافدون أخيراً بدر ثم وليد ثم باسل ، بدء وجودهم معنا يشعرنا بأننا وصلنا إلى بر الأمان فعلاً

بدء المكان يموج ـ بالإضافة إلى السجناء ـ بالمسلحين من أقربائهم الذين سارعوا عند سماع الخبر إلى البحث عن أصدقائهم، بالإضافة إلى أبناء قريتنا قدم إلينا عبدالله من صيدا و الذي كان يعمل في نقل الموتى من السجناء منذ فترة.. كانت مفاجأة رؤيته أكبر من رؤية أبناء قريتنا فقد كان معنا في السجن ولم نتوقع منه أن يكون مع الثوار خاصةً وأنه كان يدخل إلى السجن ليحمل الموتى إلى الخارج ولكن يبدو أن الشجاعة لا علاقة لها بالحلم وحسن الخلق.. مضى الوقت دون أن نعرف ماذا يريد منا الثوار حاول أحدهم أن يقوم بتبيلغنا ماذا يريد ولكن المكان كبير و العدد كبير أيضاً ولم يصغ أحد لكلامه استشاط الرجل غضباً فأطلق الرصاص في الهواء حتى ينصت له الجميع ولكن الرجل لم يزد على ما قاله في بداية لقائنا للثوار بأن كل إنسان سيخضع لمحاكمة عادلة ويمضي إلى بيته، لم نكن نعرف ما هو سبب التأخير ولم يكن لنا إلا الانتظار أو الاتصال بأهلنا في الخارج ننبأهم بخروجنا أخيراً.. بدأت أفكار الشباب تعمل لتجول بما سيؤل إليه حالنا مع الثوار، فقالوا "أنهم سينقلوننا إلى بناء مكوّن من طابقين ويضعوننا في الطابق العلوي ويتم التحقيق في الطابق السفلي "

تنوعت الأفكار و الإبداعات لتوقع الطريقة التي سيقوم بها الثوار بتنظيمنا و لكن الثوار كان أغلبهم من البدو كون الكتيبة الكبرى المشاركة في التحرير هي كتيبة قيس قطاعنة وهي في معظمها من البدو و مع هذه الجلافة البدوية كان الثوار غير قادرين على تنظيم أنفسهم وباتت محاولات تنظيمنا المتوالية

تذهب أدراج الرياح.. بعد طول انتظار قاربت الساعة الثانية عشرة ظهراً فطلب منا أحد الثوار التوجه جميعاً إلى باب داخل المزرعة يقسمها إلى قسمين ثم بدأ الثوار أخيراً بالكتابة وبتدوين المعلومات عدد السجناء المحررين كان ٣٠٠ تقريباً أو أقل بقليل وكان سجناء صيدنايا المنقولين من المحسوبين على الثورة ٢١ شخصاً بالإضافة إلى شخص حكم بالسجن في بداية الثورة إلا أن حكمه لم يكن طويلاً مقارنة بمحكومي صيدنايا والذين تتراوح فترات أحكامهم بين سبع سنوات وهو حكم صمادي ثم تتدرج لتزداد مع طلال وابي فادي المحكومين بـ ١٠ سنوات، هؤلاء الثلاثة كانوا من العسكر المتهمين بمحاولة الانشقاق أنس كان حكمه ١٠ سنوات كونه كان متهماً بمحاولة اغتيال زهير الأسد ابن عم بشار الأسد، وباقي الشباب باستثناءنا كانت أحكامهم ١٥ عاما و حكم بسام كان ٢٢ عاماً في حين كنا نحن أصحاب السبق في الحكم حيث حكمنا بالإعدام ثم تم تخفيفه للمؤبد كل هؤلاء كانت محاكماتهم ميدانية غير قابلة للطعن أو التدقيق أو المراجعة ومستثناة من أي عفوٍ يمكن أن يصدر عن الدولة، باقي السجناء ممن كان الثوار يعدونهم من اصحاب الثورة هم الموقوفون الذين كانوا يودَعون في الجناح الثالث عشر ريثما تتم محاكمتهم أو إخلاء سبيلهم وهذا ما يحدث غالباً فعلَ كلامُ الثائرِ فعله في نفوس السجناء فقد قضى بعضهم دهراً طويلاً بين جدران السجن و لا شك أنه لن يفوت الفرصة في الخروج الآن وقد بات على مرمى حجر واحد من الحرية فليكذِب إذن وليدعي أنه من الثوار الشرسين ومن معاندي النظام العنيدين حتى ولو كان خادمه المخلص وعينه التي لا تنام في يوم من الأيام.. قبل أن يبدأ التسجيل من قبل الثوار وجدنا رامي زميلنا في الغرفة والذي لم يعد منذ أن انطلق البارحة إلى عمله في مكتب العقيد خليل فراح يشرح لنا ما حصل معه فقال :" بعد أن جاوزت الساعة الثانية ليلاً هدأ الرصاص ثم وبعد لحظات ودون أن أشعر وجدت نفسي وحيداً في المكتب بالإضافة إلى السمري حاجب العميد والذي وجد نفسه في وضع مشابه لوضعي عندها قررنا أن نخاطر ونخرج إلى الثوار..

دخلت إلى مكتب العقيد وقمت بأخذ جوالاته إضافة إلى حاسوبه الشخصي وانطلقت باتجاه الثوار في الخارج الذين رفعوا السلاح مباشرة في وجهي طالبين مني رفع يدي استجبت لأمرهم وأخبرتهم أني حاجب العقيد جئت لأخبرهم بأن المكان خال ولا أحد في الداخل ـ لم يكن الثوار ليثقوا برامي فهم لا يعرفونه أصلاً وقد تكون المسألة خدعة ـ فانتظروا حتى الصباح ليدخلوا ودخلت معهم وأنا من قمت بفتح الباب لكم ".

لم نعد نعرف من فتح الباب ولكن ما يهمنا أننا غدونا في الخارج وليكن الفاعل من يكن بدأ الثوار بتسجيل الإسم إضافة إلى الجرم الذي أودى بالشخص إلى السجن تحول عندها معظم السجناء من جميع التوجهات والأطياف إلى مناضلين سابقين وتهمتهم الوحيدة هي التظاهر.

من جملة السجناء كان هناك إحد الحلاقين مسجوناً بتهمة السرقة الموصوفة إلا أن ورقته كان مكتوب فيها أنه مطلوب للمخابرات الجوية أيضاً بتهمة التحريض أي بعد أن ينهي حكمه في الجناية التي ارتكبها سيتم نقله مجدداً إلى المخابرات الجوية ليبدأ التحقيق معه من جديد بتهمة التحريض

أشار الحلاق إلى الرجل الذي يسجل الأسماء و دله على مكان تهمة التحريض فقام الرجل بتسجيله على أنه من المتظاهرين السابقين عاد جرم المظاهرة ليبدو أنه هو الجرم الوحيد المرتكب وبدا أن جميع السجناء هنا مظلومين على عكس ما حدث معنا عند بداية اعتقالنا فقد كانت كلمة مظاهرة عندما يسألك أحد العسكريين أو الشرطة عن تهمتك كافيةً لتنال القسط الأوفى من العذاب حتى تعود لتتمنى أن تهمتك كانت القتل العمد أو المخدرات لا التظاهر، حتى فطن أحدهم بعد ذلك لهذه المسألة فقال عندما سأله أحد الضباط ليضربه "ما هي تهمتك ؟" فأجاب "بأنها تشابه أسماء" رغم أن التهمة الجديدة لم تخفف من الضرب الذي نتلقاه إلا أننا سرنا على درب الرجل دفعاً للشر الأعلى بالشر الأدنى..

أخيراً.. بدأنا نشعر بأننا ننجز عملاً فقد بدأ من يقوم الثوار بتسجيل اسمه وجرمه يتوجه إلى السيارة ليتم نقله إلى المحكمة الشرعية..

جاء دورنا أخيراً بعد طول انتظار فطلب منا الثوار الصعود إلى السيارة بدأنا بالصعود فعلاً ولكن سرعان ما عاد بدر ليطلب منا النزول نزلنا فعلاً و توجهنا باتجاه سيارة أخرى طلب منا بدر التوجه نحوها، وأخيراً بتنا أحراراً من قبضة النظام والثوار جميعاً فقد كانت السيارة (الوانيت) لثوار قريتنا صعدنا نحن الستة بالإضافة إلى محمد وأنس الذين وجدا في الانزواء لنا خير عملٍ يمكن أن يقوما به بدأت العجلات تعمل وبدأت السيارة تسير بسرعة ناثرة التراب خلفها .

يومٌ للتاريخ وتحولٌ كبير بل تحول تاريخي من قبضة النظام إلى مطلق الحرية أخيراً لاشك أن الأيام التي قضيناها كانت صعبة جداً وربما مات فيها بعض الأشخاص أو الكثير منهم ولكن ما إن انطلقت السيارة حتى بدأ السجن يختفي ويتلاشى من أمامنا كما تتلاشى ذكرياته أيضاً حتى أننا بتنا نعاني صعوبة في معرفة مكانه فقد مشينا طويلاً هذا الصباح حتى ابتعدنا عنه مضت فترة الصباح بخير دون أن نسمع صوت طائرة أو أي شيءٍ يسبب الرعب مع مسير السيارة بدأنا نعاين قرى محافظتنا درعا مجدداً، لم نكن لنحلم بهذا اليوم كل مايحدث معنا في هذه اللحظات كان في عداد المستحيل الذي لا يمكن تصوره فضلاً عن وقوعه .

لا بد لنا أن نسلم بالأمر كما سلمنا عندما أغلق علينا سجن صيدنايا ولكن الآن نسلم ونشكر على هذه النعمة التي نعيشها الآن من مدينة إلى أخرى انتقلنا بسلاسة وبسرعة وكانت إما آثار الرصاص بادية على الجدران أو أن أعلام الاستقلال قد رسمت على الجدران الأخرى.. من نصيب إلى النعيمة إلى صيدا لنمُرَّ من مساكن صيدا حيث تم اعتقالنا، ولكن عندما تم اعتقالنا كانت المساكن عامرة بالجنود والظباط و اليوم هي فارغة مدمرة لم تترك النار مكاناً فيها إلا ودخلته، لم نعايش من السعادة برؤية المساكن على هذا الوضع كما عايشنا من الخوف عند بداية اعتقالنا، المساكن التي تم قُنصنا منها وقُتل الكثيرين منا و الذين جاوز عددهم ١٢٠ بالإضافة إلى اعتقال أكثر من ٢٠٠ شخص مهدمة مخربة لا روح فيها ولا حياة والقبو الذي التجأنا إليه لنحمي أنفسنا من وابل النيران والمدافع والذي لم يبق سلاح إلا واستهدفه كان لايزال شامخاً على يميننا شاهداً على تقلب الأيام وتبدل الدول .

م تكن السرعة الكبيرة التي تسير بها السيارة لتسمح لنا بالتأمل في هذا المكان أو لنتشفى منه . بعد قليل وصلنا إلى ثانوية اليرموك ولم يبق منها شيء إلا جدران قد جعل منها الرصاص ما يشبه الغربال لا ما يشبه المدرسة، بعد أن وصلنا طريق المسيفرة بدأ الشباب يعبرون عن فرحهم بإطلاق الرصاص بشكل متواصل ما إن دخلنا القرية حتى أمسك كل الثوار سلاحهم وبدأوا يتناوبون بإطلاق النار في الهواء تجمهر الناس في بداية طريق القرية وكانت أغلب الدراجات النارية حاضرة في هذا العرس الذي تشهده القرية اليوم مع إطلاق الرصاص أطلق الشباب العنان لصافرات السيارات و الدراجات النارية حتى لكأنما نشهد عرساً بكل معنى الكلمة .

وأخيراً وبعد أن قام الثوار بالسياحة بنا في كل طرقات القرية عادوا ليضعونا أخيراً في المكان الذي تجمهرنا فيه قبل سنوات محاولين البحث عن حل لمساعدة أهلنا المحاصرين في درعا والآن نتجمهر فيه مجدداً لنحتفل بخروجنا أحراراً و لنعرف أن الثوار وجدوا طريقهم الوحيد لنيل الحرية ألا و هو الرصاص .

في الأيام السابقة للثورة كانت أحلام الناس في القرية تتدرج في البساطة والطموح فالحلم الذي بات متفقاً عليه بين أغلب السوريين هو إنهاء الدراسة الجامعية و من سما في همته و حلمه سعى إلى نيل شهادة الطب البشري وربما دفع الرجل حياته بأكملها ثمناً لدراسة أولاده فيقضي الأعوام الطوال في بلاد الغربة حتى ينهي أبناؤه دراستهم .
ولكن دخول كلية الطب لم يكن بهذه السهولة فقد كان باب المنافسة مفتوحاً للجميع مما جعل معدلات القبول ترتفع إلى درجة ٢٣٦ من ٢٤٠ .
لم يستسلم أهل القرية ممن يرغب بإنهاء دراسته لهذه العقبة فانطلق إلى بلاد الغربة حتى يكمل سعيه لتحقيق حلمه ، ومن الشباب الذين توجهوا هذا التوجه كان الدكتور هلال و الذي كان متفوقاً خلال دراسته في أيام الثانوية ولكن التوفيق جانبه أيام دراسته في الثانوية العامة فقد نجح في السنة الأولى و الثانية ولأنه لم يحصل على المعدل الذي يمكنه من الاستمرار في دراسة الطب أراد المحاولة مرة ثالثة و لكن الحظ جانبه حيث صدر مرسوم يمنع الناجح لسنتين متتاليتين من إعادة الثانوية مرة ثالثة عندها لم يعد يمكن له أن يتابع دراسته داخل سورية لذلك يمم الرجل وجهه شطر أوكرانيا حيث يمكنه متابعة دراسته والعودة طبيباً .
عرفت الرجل معرفة شخصية لطبيعة القرية التي تمكن أهلها من التعرف على بعضهم بسهولة صادفته في أحد الأيام حيث كنت أتوجه إلى الجامعة فسألته عن أحواله فأخبرني أنه يسعى الآن إلى تعديل شهادة الطب من جامعة دمشق بعد أن أنهى دراسته في أوكرانيا وأخبرني أنه كان يقضي أيام العطلة الصيفية بالتدرب في مشفى السويداء القريب إلى قريتنا .
مضت الأيام واندلعت الحرب و كما أحرقت معها معظم أحلام السوريين أحرقت أحلام هلال و عائلته فالرجل الذي أصبح طبيباً يفتخر به كل أقربائه عموماً وكلٌ من أبيه و أمه خصوصاً و يعتبرانه أكبر إنجازٍ أنجزاه في حياتهما اختفى في ليلة شديدة السواد غاب هلالها و غيب معها خبر هلال
كنا في سجن غرز عندما سمعنا خبر اختفاء الرجل دون أن يعرف أحد عن مصيره شيئاً ولم يكن الخبر الذي وصلنا يحمل مفاجئة بالنسبة لنا فكل أبواب الجرائم باتت مفتوحةً في قريتنا من قتل وسرقة و فَتح باب الخطف لا يضيف جديداً وربما كان خاطفوه يبحثون عن النقود ولن يطول الوقت حتى يفرجوا عنه بمجرد استلامهم المبلغ الذي يطمحون إليه .
كل الجرائم التي كنا نسمع بها كنا نعزوها مباشرةً إلى النظام أو إلى مؤيدين له يسعون إلى إجهاض الثورة بأي وسيلة .
مضت الأيام وانتهت أزمتنا في السجن وتم تحريرنا و إخراجنا بفضل من الله تعالى وحده وبسواعد الثوار الذين كنا نعاينهم في حصارهم للسجن و اقتحامهم له .
بعد خروجنا من السجن قام الثوار بعمل مأدبةٍ كبيرة دعوا إليها أهل السجناء الذين تم تحريرهم أخيراً.
أيامُ فرحٍ غامر نعيشها في قريتنا الوادعة يشاركنا فيها جميع ساكنيها بالتهنئة والتبريك .
قام الثوار بدعوة بعض السجناء الذين تم تحريرهم معنا وهم عبدالله صيدا و عمران وهو من انخل .

تعهد أحد الثوار عندما كنا في المزرعة بعد التحرير بأن المذنب سيلقى عقوبته و البريء سيمضي إلى بيته، لكن عمران زميلنا في السجن سابقاً لم تقدم له سنوات سجنه الكثيرة والتي بلغت ثمان سنوات مزيداً من العبر و الدروس فالرجل الذي كان متهماً بتشكيل عصابة أشرار وتم حكمه لهذه التهمة بالسجن ١٢ عاماً تابع عمله داخل السجن و لكن منفرداً هذه المرة دون عصابة تساعده ولكن جو الفرح الذي كنا نعيشه جعل ماضي السجناء أمراً لا يعني أحداً فهي دقائق فرح نعيشها مع بعض ثم يمضي كل منا إلى طريقه..

انتهت المأدبة بعد أن قام الرجال الحاضرين بالغناء و التصفيق للانتصارات الأخيرة التي تمت على طريقة أهل حوران أي بتأدية رقصة الجوفية ثم مضى كل إنسان إلى بيته لقيت خالد فسألته عما ينوي عمله الآن هل ينوي الإستقرار أو السفر إلى الوجهة الوحيدة بالنسبة لأهل القرية وهي عمَّان فقال :" أنه ينوي السفر الآن ولكنه سيعود بعد فترة قريبة حتى يعمل هنا مع الثوار بأي شيءٍ كان ".

بدا وأن جميع السجناء المحررين سيختارون السفر لأن أهلهم قد سبقوهم إلى الخارج .

رغم البلاء و المصائب التي كان يعيشها أهل القرية إلا أن الانتصارات التي يحققها الثورة خففت من وطأة الأزمة و أضفت جواً من الفرح على القرية بأكملها .

أخلت المحكمة سبيل أحد الرجال و الذي كان قد أطلق النار على أحد أقربائه بعد تبرئته من التهمة لقيته فسألته عن حال سجنه فأخبرني أن هشام يقرؤك السلام .

لم يكن يحوي سجننا سوى هشام واحد وهو من قرية النعيمة فأخبرني أنه لايزال مودعاً في السجن في قبضة الثوار حتى الآن .

بدا حظ هشام تعيساً جداً فقد اتُهِم بارتكاب جريمة قتل ولم يكن الفرق بين أن يخضع لحكم الأحداث أو الراشدين سوى يوم واحد أي أن عمره حين ارتكب الجريمة كان قد جاوز الثمان عشرة سنة بيوم واحد تم حكمه لذلك بالسجن المؤبد ورأى الأمل مجدداً عندما قام الثوار بتحريره ولكن يبدو أن ظنه في نيل الحرية المنشودة بعد سجن دام عشر سنوات لم يكن في محله فهو لا يزال قابعاً في السجن حتى الآن .

يبدو أنه حتى مع التحرير كانت مسألة الخروج من السجن مسألة حظ

في الأيام التالية للتحرير بدأ الجميع يحسم خياراته فيها إما السفر أو الاستقرار.

نوى أغلبنا السفر في حين أن إبراهيم استدعى زوجته وقرر البقاء في القرية والمضي في صف الثوار.

كل الجرائم التي حصلت في القرية كانت تسجل ضد مجهول كمقتل أحد قادة الثورة خلال وجودنا في السجن و اسمه عبدالله و الذي بدا من مقتله أن الثورة عاجزة عن توقيف المجرم فضلاً عن معاقبته سأل أحد الأشخاص إبراهيم :" بالله عليك لماذا قمنا بالثورة وخرجنا في المظاهرات أليس نصرة

للمظلوم إذا كنا عاجزين عن نصرة المظلوم الذي بيننا و الاقتصاص له فكيف سننصر مظلوما بعيداً عنا ".

كان الرجل محقاً في كلامه فرغم مجهود الثوار في المعارك الأخيرة إلا أن هذا لا يعني أن نتناسى الجريمة التي حصلت ونبحث عمن ارتكبها .

أصبح من الواضح أن من يُقتل أو يُختطف يتجاوزه الزمن ولا أحد يبحث عن مصيره مقتل عبدالله و غيره ممن قتل في القرية و خطف هلال جرائم كانت تتوالى دون اكتشاف للفاعل .

وفي إحدى الليالي وبعد أن عاد الركون إلى قريتنا خصوصاً وبعد مضي وقت طويل على تحريرنا بدا قصيراً جداً بالنسبة إلينا لأنها أيام فرح سمعنا بأن جريمة خطف هلال قد تبين من قام بها ومن كان وراءها، ويبدو أن الفطنة جانبت الجميع في توقع الفاعل الذي كان يعتقد معظم الناس أنه من النظام أو من أذنابه .

مفاجأة أو صدمة تعيشها قريتنا الخاطف من الثوار و الخاطف ليس فرداً و إنما مجموعة عدة أفراد من الثوار قاموا بالتآمر جميعاً واتصل أحدهم بهلال عندما كان في أحد السهرات طالباً منه لقائه في أحد الأماكن خرج الرجل من سهرته ومضى إلى من طلبه وأبقى مساهريه في حيرة ينتظرون عودته دون نتيجة .

و أخيراً اتضح الفاعل دون إجبار أو ضرب كما كان يفعل النظام مع معتقليه و إنما بسهولة ويسر لم تتضح الصورة كيف تم الكشف عن الجريمة ولكن سرعان ما سرت إشاعات تتحدث بأن أحد الخاطفين كان يتبجح بما فعله مع هلال فسمع أحدهم بمفاخرته وطار بالخبر إلى القرية مباشرة وبدأ كل من شارك في هذه الجريمة يعترف بشكل طوعي .

تبين أن الخاطفين أغلبهم من كتيبة مقاتلة في القرية والتي كان يفترض بها أن تكون إسلامية دل جميع الخاطفين على بعضهم و أصبح معروفاً تماماً من شارك في هذه الجريمة وبطبيعة الحال المبرر موجود لديهم فقد اتهموا هلال بأنه كان مخبراً للنظام يزود ضباطه بما يحتاجون إليه من معلومات و أخبار تفصل حياة القرية تفصيلاً كاملاً .

ولكن أياً كانت الجريمة التي ارتكبها هلال و أياً كان المبرر الذي يدعيه الثوار لتسويغ عملهم لم يكن مقبولاً بالنسبة لأهل هلال وعشيرته .

وبدا و أن القرية ستشهد صراعا عشائرياً من جديد .

الشخص الذي يمثل السلطة في القرية الآن هو قائد جيش اليرموك والذي قام بأخذ أحد الخاطفين وتوجه معه إلى أحد شيوخ القرية ليدلي الرجل اعترافا كاملاً بأسماء الخاطفين وكيف تمت العملية .

لم يكن للثوار مع خطفهم لهلال أن يبقوا متحفظين على مصير الرجل سواء كان حيا أو ميتاً حتى لا يعيش أهله في أمل موهوم بعودة الرجل إذا كان ميتاً، لابد الآن من تدخل كبار العائلتين في القضية حتى لا يحرق طيش الشباب القريةَ .

مضى الجميع باتجاه كبير عائلة هلال وهو والد أحد قادة الثورة و الذي استشهد منذ زمن .
لم تعد الوساطات و الوجاهات الآن تستقبل بالتأهيل والترحاب و إنما بفوهات البنادق فلم يكن قائد اليرموك الوحيد صاحب القوة العسكرية فقد مضى قائد الكتيبة الأخرى المنافسة لليرموك إلى الأردن تاركاً الكتيبة تحت قيادة قريب لهلال، جاءت الوساطة حتى تحاول التخفيف من حدة التوتر بين الطرفين، فأحاط المسلحون التابعون لكتيبة قريب هلال و الذين يحملون الأسلحة بيت كبير العائلة واعتلى أحدهم حاملاً الرشاش البي كي سيه على سطح المنزل، وبطبيعة الحال لم تأت الوساطة أيضاً دون قوة فمعظمهم يحمل السلاح وأحدهم يحمل الأر بي جيه .
الوساطة التي تسعى إلى تخفيف التوتر تحمل معها الأسلحة الثقيلة !
ليلة عصيبة قد تحرق الجميع إذا تهور أحدهم ولكن دخول البيت و التحاور اقتصر على الوجهاء و بقي المسلحون في الخارج جميعهم على أهبة الإستعداد و بانتظار سماع صوت إطلاق النار حتى يشفوا غليلهم .
كان الهدف من الوساطة بعد أن تبين الفاعل هو عدم الغرق في دوامة الثأر و رفع الجريمة إلى محكمة شرعية تقضي بحكم يرتضيه الطرفان، وإذا ارتضى الطرفان المحكمة فلا بد لهما أن يرتضيا حكمها حتى ولو حكمت بإهدار دم هلال وتصحيح عمل الثوار بالنسبة لأهل هلال أو حكمت بتجريم قائد الكتيبة ومجموعته وقتل جميع المشاركين.. بالنسبة لقائد الكتيبة ومجموعته؛ حاول في هذه المحاورة من بات يمثل شرعي جيش اليرموك أن يوضح للجميع أنه لابد لنا أن نرتضي الحكم الشرعي في هذه المسألة ولابد من محكمة تفصل في الأمر.. انتهت الجلسة سريعاً ودون فائدة فالجميع يقبل بالحكم الشرعي ولكن الحكم الشرعي الذي يوافق هواه و يكون في صالحه فلم يكن مقبولاً لعائلة هلال ولو في الخيال أن تعتبر المحكمة عمل الثوار الذين جنوا على ابنهم صحيحاً ولم يعد من الممكن الآن مراجعة الثوار في عملهم، خصوصاً وأن هلال لم يتبين مصيره حتى الآن.. عاد الأمل إلى أهل هلال برجوع ابنهم بعد أن عرفوا من اختطفه ولكن يبدو أن الغموض الذي كانوا يعيشونه سابقاً كان أكثر إراحة لهم من هذا الأمل و الذي قد لا تمضي فترة طويلة حتى يتبين أنه وهم بالإضافة إلى الصدمة في قضية خطف الرجل فقد أضفى وضعه العائلي مزيداً من المأساة على قضيته فالرجل كان الشاب الوحيد الذي رُزق به أبواه بالإضافة إلى تسع بنات وقد ضحى أبوه بكل ما تسنى له حتى يعود طبيباً من أوكرانيا بالإضافة إلى أن الشاب كان متزوجاً ولديه بنت أيضاً لم يعرف أحد كيف ستنتهي هذه المشكلة وهل ستتوقف عن حصد الضحايا أم أن هلال سيكون الضحية الأولى و الأخيرة .

انتهت جرائم عديدة في القرية دون اكتشافٍ للفاعل أما جريمة خطف هلال فقد تبين من قام بها وهم بالإضافة إلى قائد الكتيبة الثورية و مرافقه عدةُ عناصر ممن يتبعون لكتيبته بلغ عددهم التسعة جميع من قام بهذا العمل كان ينتمي إلى الكتيبة الثورية قبل أن تتوحد مع الكتيبة الأخرى التي كانت موجودةً في القرية...

نكبة جديدة تتعرض لها القرية باختطاف ابن من أبناءها على يد آخرين من أبناءها أيضاً حاولت الوساطة الأخيرة أن تسعى إلى اقناع الجميع بالتحاكم إلى المحكمة ولكن والد هلال كان يعيش في عالم آخر فكل كلمة أو اتفاق أو حل يأمل الجميع الوصول إليه كان يعلق أبو هلال التفكير فيه حتى يتبين له مصير ابنه و لم يزد اكتشاف خاطفيه مصيره إلا غموضاً.

فقائد الكتيبة المتهم في هذه القضية كان يشير بإصبع الاتهام إلى المحكمة الموجودة في المسيفرة والذي بدا الوصول إلى قاضيها صعباً و لا يقدم جديداً عن مصير هلال .

حاول إبراهيم الذي خرج من السجن مؤخرا أن يجد الحل المناسب و الحل الذي يراه الجميع مناسباً هو الخضوع للمحكمة الشرعية، ولكن تقديمهم لحل المحكمة الشرعية كان يبدو ضبابياً جداً و لا ينهي المشكلة، فالكتيبة بقائدها و عناصرها مستعدة للتحاكم إلى الشرع إلى حد معين يغض الطرف أولاً عما ارتكبوه بحق الرجل و ربما ينتهي في تصورهم بإعطاءه جائزةً على فعلهم .

و أبو هلال ينتظر معرفة مصير ابنه أولاً ثم يفكر في الحل المقدم.. حاول إبراهيم أن يقوم باحتواء قريب هلال و الذي يقود كتيبة أخرى أيضاً و الذي يمثل القوة العسكرية لعائلة هلال حتى لا يطيش أحد الشباب و يسبب المزيد من المشاكل للقرية، وقام بالإضافة إلى ذلك بدعوة عدد من وجهاء القرية للاجتماع في مضافة أحد وجهاء القرية للرسو على حل يتفق عليه الجميع .

قام أقرباء هلال المنتمون للكتيبة الأخرى بزيارة إبراهيم في بيته في أحد الأيام وكنت حاضراً للزيارة لم يتطرق الحاضرون للكلام عن المشكلة وإنما تشعب الحديث بهم في أوديةٍ كثيرة وراح أحدهم يحدثنا عن معركتهم التي دخلوا بها السويداء و التي جرت خلال وجودنا في السجن ، فقال :" اتفقنا مع بعض الضباط المنشقين على الدخول إلى منطقة معينة داخل السويداء لا يحتاج اقتحامها إلى قوة كبيرة ، بالإضافة إلى أنها تحوي العديد من مضادات الطيران و الأسلحة الثقيلة استمر الثوار يتوافدون على قريتنا عدة أيام بانتظار المضي إلى المعركة . وفي اليوم الذي انطلقنا به إلى هناك كان الجو بارداً في قريتنا و لم نفطن كيف ستكون تلك البرودة في السويداء ولم نضع في حسباننا أننا قد نحاصر أو نتضايق فاكتفينا بطعام قليل يقيتنا يوماً أو يومين .

عند وصول الثوار إلى المنطقة التي يفترض أن يقوموا باقتحامها لم يتسن لهم البدء في المهمة فقد بدأت الثلوج تهطل بغزارة و بدأ البرد يجعل المنطقة التي دخلها الثوار أشبه بصحراء واسعة يكسوها الثلج لم يعد بإمكان المقاتلين الهجوم إلى النقطة المستهدفة وليس بإمكانهم التراجع الآن فعليهم انتظار انتهاء هذه الموجة.. مضى اليوم الأول بصعوبة و ظن الثوار أنهم سينهون مهمتهم سريعاً فبدأوا

يأكلون الطعام دون التفكير في عاقبة نقصانه و لم يأتي اليوم الثاني حتى بدأ الجوع يسيطر على الجميع والثوار شبه تائهون لا يعرفون أين يجب أن يتجهوا .
رغم أن مصير الموت إما من الجوع و البرد أو نتيجة الإشتباك بات محتماً إلا أن يد العناية الإلهية قد مكنت بعض من يعملون في التنسيقيات في محافظة السويداء من التواصل مع الثوار فكان أحدهم يجلب الخبز ويضعه على مسافة قريبة من الثوار حتى يقوموا هم بأخذ الطعام البلاء أمام الثوار يغلق من باب و يفتح من باب آخر فرغم إغلاق الباب جزئياً أمام مأساة الجوع إلا أن التحركات المتواصلة قد فضحت موقع الثوار وبات موقعهم مستهدفاً من قبل النظام بدا و أن الثوار سيموتون لا محالة فلا بد الآن من محاولة الهرب ..
بدأ الجميع ينسحب و شكلت الثلوج عائقا أمام حركة الجميع سقوط الثلج المتواصل أنهك أحد المقاتلين من الثوار و اسمه أحمد وجعله عاجزاً من اعتلاء بعض الحجارة والقفز إلى الناحية الأخرى وبدأ الرصاص يستهدف الثوار ويوقعهم بين قتيل وجريح حاول زميل له أن يسحب أحمد فقام بربط كلتا يدي أحمد بحزامه ليسحبه ولكنه لم يتمكن من ذلك فسرعان ما أفلت أحمد الحزام و أوقعته أحد الرصاصات جريحاً يشخب دماً ".
لم يتمكن زميله من معاودة النظر إلى أحمد فالرصاص يجعل هم الإنسان الوحيد حياته
عاد الرجل الآخر و الثوار إلى القرية بعد أن عاينوا مقتل رفيقهم أحمد وأضاعوا شاباً آخر اسمه محمد لم يعرف طريق العودة .
مشى محمد عدة أيام دون أن يتبين مكانه ودون أن يتمكن أحد من إنقاذه، فرغم مروره بقرى السويداء إلا أنه كان يخشى أن يقوم أهل القرية بتسليمه للنظام وهذا يجعله يفضل الموت على التفكير بهذا الحل..
أنهك البرد والجوع محمد وقضى على حياته مما جعل المعركة التي تمت وكأنها صفقة خاسرة لقي معظم مقاتلوها حتفهم..
تمكن جنود النظام من أسر عدة أشخاص في المعركة كانوا قد التجؤوا إلى بيت قريب دخل أحدهم الحمام وعندما خرج وجد العسكر في استقباله فقاموا بتصفيته مباشرة عند الخروج هو ورفاقه من سلم من القتل لم يسلم من الإصابة ومن سلم من الإصابة لم يسلم من الأسر ومن سلم من ذلك كله لم يسلم من برد تلك الأيام القارس .
معركة خاسرة على جميع المستويات خاضها الثوار دون حسبان لعواقبها.. كنا لا نزال في سجن غرز عندما سمعنا بأن الثوار يفكرون بالهجوم على مناطق في السويداء وكنا نتابع نتائج المعركة على التلفزيون الرسمي الذي كان يبثها بافتخار وكأنه قد حقق انتصاراً لا يدانيه انتصار..
مات محمد في هذه المعركة نتيجة البرد والتعب و الجوع، وعندما افتضحت جريمة خطف هلال ربط أهل القرية ربطا عجيباً بين القضيتين فقد بدأ الناس يتحدثون أن والد محمد كان يتوعد هلال بأنه سيلقى أياماً سوداء لما تسبب به لابنه وفي المقابل وحسب كلام أهل القرية كان هلال يعزو أي مصيبة

قد تصيبه في المستقبل إلى والد محمد، فحسب رأي أبو محمد : هلال هو من قام بإخبار النظام عن عزيمة الثوار على المعركة رغم أننا في السجن سمعنا بالمعركة قبل وقوعها .
القرية تخسر أبناءها إما بجرائم مجهولة الفاعل أو بمعارك خاسرة تخاض دون تخطيط أو حسبان للعواقب..
انتهت الجلسة مع الشابين إلى الرؤية الظبابية التي تم الإتفاق عليها سابقا وهي الخضوع إلى محكمة شرعية في الإجتماع الذي تمت دعوة الوجهاء إليه وصل الجميع أملاً في الوصول إلى حل .
جاء جميع كبراء القرية من شيوخ ووجهاء إلى الاجتماع و الذي اسضافه الشيخ محمد أحد وجهاء القري، وبعد كلام كثير وصل الجميع إلى الحل الذي تم الاتفاق عليه أساساً وهو خضوع الطرفان لمحكمة شرعية وحتى يتم ذلك كان لابد من إرسال بعض الوجهاء إلى الطرف المُعتدى عليه وهو والد هلال واستبيان ما يريد الرجل واقناعه في حل المحكمة الشرعية ولكن حل المحكمة الشرعية الذي يتبناه الجميع لم يكن حلاً أساساً وإنما يزيد من غموض القضية ويبدو لوالد هلال عند تقديم هذا الحل له بأن الجميع قد اتفق على إهدار دم ابنه بتهمة الجاسوسية بالرغم من أنه قد يكون بريئاً وما جعل هلال الحلقة الأضعف هو أنه الضحية لا أكثر وقد تجاوز الزمن قضيته ولا فائدة من الاقتصاص من خاطفيه وليمض الآن كل إلى حياته .
بالرغم من انتهاء الإجتماع باتفاق الجميع على تشكيل وفد يقوم بزيارة أهل هلال يبين لهم أن القرية جميعها معهم بقلبها و أن مصاب والد هلال هو مصابنا جميعاً إلا أن الوجهاء بدأوا ينسحبون من هذه المهمة ويلقي كل منهم المهمة على عاتق شخص آخر ولكن الاجتماع انتهى بتقرير الزيارة في اليوم التالي للاجتماع وفي اليوم التالي بدء إبراهيم بلملة الكبراء حتى يدعموه في كلامه مع عائلة هلال .
قام بالاستعانة بعدة وجهاء من القرية وصل عددهم إلى ثلاثة ثم وصل الجميع إلى بيت الشيخ الذي يخطب الجمعة حتى يطلبوا منه المساعدة في هذه المهمة ولكن الرجل رفض المسألة نهائياً وقال أنه قد تورط مرة ولا يريد التورط مرة أخرى فالأهل مفجوعون بمصاب ابنهم وقد يشطحون في الكلام إلى درجة لا يحتملها . مضى الجميع باتجاه بيت أبو هلال و بعد أن سلم الجميع وجلسوا في مضافة والد هلال أخيراً استمر والد هلال بتجاهل الجميع فترة .
حاول إبراهيم عندها أن يكسر الجمود و يبدأ بالتحدث، فأوضح ما اتفق عليه في الاجتماع من مشاركة أهل القرية جميعاً لوالد هلال بمصيبته وهم يعتبرون خطف هلال كخطف واحد من أبناءهم ولابد من معاقبة المذنب والمعاقبة يجب ألا تتم بطريقة عشوائية تضع القرية في دوامة من الفوضى و إنما عن طريق محكمة شرعية يرتضيها الطرفان .
واستمر الجميع بالدندنة حول هذه الفكرة إلى أن أنهوا حديثهم ولكن والد هلال ردد ما يردده دائماً :"اجلبوا لي ابني أولا ثم نتفاهم على الحل". ولكنه لم ينهي كلامه عند هذه النقطة فقال :" كما أن هلال ابن لي فهو ابن لأمه ولابد لها من أن تتكلم ".

فدخلت والدة هلال وبدأت الحديث بنبرة عالية تشوبها بحة الأم التي يحترق كبدها على غياب ابنها فقالت :" إن كانوا تسبب بقتل ابني بإعطائه لفلان من الناس فليلقوا المصير ذاته ويجلبوا لي ابني لا يهمني مشكلتهم مع من أو ما هي المخاطر التي قد يتعرضون لها كل ما يهمني الآن هو عودة ابني إلى حضني، وأنا متأكدة أن الشرع لا يقول بهذا لا يقول بخطف هلال ثم بتجريم المخطوف لأنه بات قتيلاً ".

أنهت أم هلال كلامها الواقعي موقعة الحزن في قلوب جميع من خاطبتهم . مع انتهاء الجلسة بدا أن الجميع عاجز عن إيجاد حل لقضية هلال وبدا كأن القضية لن ترسو على بر وستسمر دون إيجاد حل إلى أجل غير مسمى .

رغم وجود هذه المشكلة في القرية إلا أن الأطراف البعيدة عنها كانت تعيش حياتها بشكل طبيعي قام أحد رجال القرية بدعوة المعتقلين وأهلهم إلى مأدبة غداء، فقام الجميع بتلبية الدعوة وبالإضافة إلى أهل القرية وكان الرجل قد دعا شيخاً حمصياً كان يقيم في البلدة المجاورة لنا أي في المسيفرة و بدا وجوده في القرية يضفي طابعاً إيمانياً يتقوى به الجميع تكلم الشيخ كلمة تؤثر في الجميع مزج فيها بين الإيمان بالآخرة وبين الواقع الذي نعيشه فذكر أحد الأحاديث التي تبين أن من قال لا اله الا الله دخل الجنة وأضاف شارحاً :" لا تقل لا اله الا الله ثم يكون عملك لا اله الا تجارتي اي تترك فرائضك في سبيل تجارتك لا تقل لا اله الا الله ثم يكون عملك لا اله الا هواي أي تتبع شهواتك غير آبه بأوامر الله عز وجل ".

ثم قال أخيراً :" احمدوا الله على قيام الثورة الشامية فلولا الثورة لرأيتم الحسينيات تقام الآن بدلاً من المساجد وهذا ما كنا نشهده في حمص ولكنه تأخر في الوصول إليكم لقيام الثورة ولولا الثورة لكان زواج المتعة قد أصبح أمراً اعتيادياً عندكم تقدمون من خلاله أعراضكم على طبق من ذهب لكل من هب ودب". أنهى الرجل كلمته وانتهت الدعوة التي حظرها قائد الكتيبة و رفيقه اللذان قاما باختطاف هلال فيما يشبه التحدي و اللامبالاة بمشاعر أهل هلال الذين فهموا المسألة أنها تحدٍ فعلا وبيّت بعضهم قبول التحدي و الرد عليه بالطريقة التي يرونها مناسبة.

من ظُلم النّظام إلى فوضى الثّورة

القرى التي باتت محررة وغابت قوة النظام العسكرية عنها انفتحت على كل الاحتمالات و باتت كل الفصائل التي شاركت في تحرير النقاط المحيطة بالقرية تزيد عدد مقراتها حتى تبسط سيطرتها أكثر و أكثر و بالرغم من وجود الفصائل المسلحة التي تبدو منظمة في عملها إلا أن تنظيمها بقي محصوراً في إدارة نفسها ولم تكن قادرة على ضبط الأماكن التي تسيطر عليها كما تسيطر على عناصرها مما جعل المناطق المحررة تبدو مسرحا للفوضى ومرتعا لبعض الفوضوين
عندما بدأت الثورة السورية كان النظام يعتقل الأشخاص ويظهرهم على التلفاز حتى يعترفوا بأنهم قبضوا مبلغاً مالياً مقابل تظاهرهم و هذا ما حدث معي، وحدث مع هلال أيضاً ولكن بصورة مختلفة فبعد أن قامت مجموعة من الثوار باختطاف هلال أودعوه أولاً في أحد بيوت القرية ثم قاموا وحسب كلامهم بتسليمه للمحكمة الموجودة في القرية المجاورة لقريتنا أي في المسيفرة .

كان لا بد من وجود مبرر يبرر عمل قائد الفصيل و رفاقه فقاموا بتصويره بأنه يعترف بأنه عميل للنظام ..

لم تكن المشكلة تنحصر في ظهور هلال في الفيديو ولكن المشكلة الأكبر في الطريقة التي تم بها انتزاع الاعترافات منه فقد بدأت الإشاعات تسري أنهم قاموا بعد تعذيب هلال بقطع أصابعه مما جعل الرجل مستعدا لقول أي كلام يملى عليه .

لم يكن هناك داع لقطع أصابع هلال فقد خَبرنا الرجال في المخابرات الجوية يعترفون بما لا يمكن أن يكون أكثر من خيال بمجرد أن يتعرضوا للقليل من التعذيب النفسي كلمة واحدة يقولها المحقق : "سأحبسك عرفياً مدة سنة ". عندها يُسقط في يديك و تسلم بكل شيء وتبدأ تروي القصص و الحكايا من خيالك كما فعل زميلنا في سجن صيدنايا سابقاً بشار الشيخ علي و المبرر للثوار أيضا أن الرجل لن يعترف ما لم يتم تعذيبه وبين مبررات النظام في انتزاع الاعترافات، ومبررات الثوار في ذلك أصبح المعتقل لدى الطرفين هو الخاسر الأكبر .

لم يتبين أحد مصير هلال حتى الآن وأزعج التصرف الأخير للثوار الذين قاموا باختطاف هلال أهل هلال و الشباب من أقاربه فقد حضروا وليمة أحد وجهاء القرية التي أقامها لذوي المعتقلين بعد خروجهم من السجن و اعتبر أقارب هلال من حظر ممن قام باختطاف هلال رجلاً غير مبال بجرمه وبعد عدة أيام و في الطريق الواصل بين قريتنا و قرية المسيفرة المجاورة أطلقت النيران باتجاه سيارة قائد الكتيبة حسب كلامه .

لم يصرح الرجل من كان وراء ذلك ولكن بدا واضحاً أنه يتهم أهل هلال بذلك .

حاول العقلاء عندها أن يتداركوا المسألة قبل أن تكبر فطلبوا قائد الكتيبة و من ساعده بعمليته عدم التجول بشوارع القرية حتى لا يبدو و كأنهم يفتخرون بعملهم و يسخرون من مشاعر أهل هلال قبل الرجل و رفاقه ذلك فعلاً و أوقفوا جولاتهم في القرية .
مع كل العمل والجهود التي تمت أملاً في إخضاع الطرفين للحكم الشرعي قبل أبو هلال أخيراً بالتوجه إلى المحكمة و قبل كذلك قائد الكتيبة ومجموعته.. توجه أبو هلال إلى المحكمة فعلا و توجه قائد الكتيبة ومجموعته إلى المحكمة في أوقات متباينة.. تعددت المحاكم وتنوعت : محكمة المسيفرة تخضع لجبهة النصرة وهي من قال قائد الكتيبة أنه قام بتسليم هلال لقاضيها الذي يتولاها و الذي أنكر أنه استلمه حسب الإشاعات التي سرت، و محكمة في بلدة الجيزة تتبع للجيش الحر .
وبعد أخذ ورد و ذهاب ومجيء إلى محكمة الجيزة أصدرت المحكمة بياناً بأنها قامت بالتحقيق مع قائد الكتيبة ورفاقه وتبين لها أن المجموعة قامت بتسليم هلال إلى قاضي محكمة المسيفرة وأن المجموعة بريئة و أن هلال كان عميلاً فعلاً، لم أعرف إن كان هلال عميلاً أم لا و تعجبت من البيان الذي يقول أن المجموعة سلمت هلال للقاضي الذي ينكر ذلك أساساً وبدا البيان متناقضاً .
سألت أحد الشباب المقاتلين في القرية عن رأيه في المسألة فضحك ثم قال:" إنها محكمة جيش حر هذا أمر طبيعي فأكبر قضية تشتريها ب ٥٠٠٠٠ ل س ". لم يعد أحد يثق بالمحاكم شرعيةً كانت أو غير شرعية فهي تتناسى القتيل و تتباكى على مصير القاتل فتقرر في النهاية أن الصفح هو الأنسب بحق المجرم .
وتبين أن أبا هلال كان مغبوناً بهذه المسألة لكنه لم يستسلم للأمر الواقع وبدأ الناس يتحدثون أن الرجل ينوي الإنتقام ويبيته فهو يشتري بعض الأسلحة الآن حتى يحين الوقت الذي يصفي فيه حسابه اختفت قضية هلال باختفاء والد هلال الذي توجه هو و عائلته إلى السويداء قضيةٌ بسيطة جديدة تبين عجز القرية عن حلها وتنبأ أن القرية حتى ولو اكتشفت المجرم في يوم من الأيام فهي لن تستطيع معاقبته وفي أحسن حالاتها ستقوم بتأنيبه .
جهود متواصلة بُذِلت ولكن دون التوصل إلى حل أو نتيجة وانتهى التفكير في القضية بمجرد غياب أطرافها وعادت القرية إلى ركونها.
كان لابد مع تحرر القرية من إدارة نفسها بنفسها وإيجاد البدائل عن مؤسسات النظام التي كانت تدير المنطقة ومما تعارفت عليه القرى كبديل ثوري للنظام المجالس المحلية وهي مجموعة من عدة أشخاص تتولى إدارة شؤون القرية في النواحي الخدمية من ماء وكهرباء..
عندما خرجنا من السجن كان المجلس موجوداً وكان يقوم بعمله ولكن قريتنا لم تكن تشكر العمل بل تتهم المجلس بأنه يتبع العائلة الأكبر في القرية ويتحيز لها لإن معظم أعضائه تابعون لهذه العائلة كانت المدة التي يجب أن يتولاها المجلس هي ٣ شهور وقد شارفت المدة على الانتهاء فكان لابد من التجهيز لكادر جديد يقوده بدء طبيب القرية يجتمع مع عدة رجال من أهل القرية فقرروا الدعوة للانتخابات بطريقة تسترضي جميع أهل القرية .

وبحثاً عن الأمان فلن يتم الإعلان عن يوم الانتخاب بطريقة علنية للإبتعاد بمكان تجمع الناس عن أي قصف محتمل .
كانت الطريقة أن يقوم عدة رجال منهم خطيب المسجد و طبيب القرية و وجهاء آخرين بالمرور على معظم بيوت القرية طالبين منهم إرسال شخص أو شخصين تثق بهم العائلة حتى يتمكنوا من القيام بانتخابات نزيهة يشارك فيها كامل أهل القرية حتى يسلم المجلس من الانتقاد بالعنصرية و التحيز لصالح عائلة معينة.
بدأ العد العكسي للانتخابات التي ستتم في بيت أحد وجهاء القرية في يوم الخميس .
سبق اجتماع الإنتخاب عدة إجتماعات تحضيرية حاول خلالها المجتمعون تبيين ما سيلقى على عاتق المجلس من مسؤولية وما هي الطريقة التي سترضي أهل القرية في اختياره .
انطلقتُ في يوم الخميس باتجاه البيت الذي ستنعقد فيه الإنتخابات حتى أشاهد كيف يمكن أن تتم عملية تحول ديمقراطية للسلطة في قريتنا عن طريق انتخابات نزيهة .
دخلت البيت و كان الإجتماع ينعقد في الطابق الثاني الذي كان يغص بالحاضرين وكان يشرف على الانتخابات كلٌ من طبيب القرية و صديقي إبراهيم بالإضافة إلى شيخ آخر صديق لإبراهيم .
وضاق المكان لدرجة أننا جلسنا خلف المشرفين على الانتخابات رغم أنني وصلت متأخراً إلا أن الإنتخابات لم تكن بدأت بدأ التصويت على من سيتولى المناصب و المسؤوليات .
رغم أن كل آملٍ بسلطة قد جمع معه عدة أشخاص حتى يضمن منصبه فقد طلب مني أحدهم مساعدته بالتصويت على مجموعته حتى يضمن النجاح بشكل كامل .
يبدو أن التزوير يجري في دمنا و مهما حاولت جاهداً أن تكون انتخاباتك نزيهة فلابد من بعض المخالفات.
أولُ شيء تم التصويت عليه هو من سيلتزم بجلب الخبز للقرية وكانت المنافسة مفتوحة بين إسماعيل وهلال وقد حسمت لصالح هلال بفارق بعض الأصوات ثم بدأت المنافسة على المناصب التالية ولكنها كانت منافسة شبه معدومة فلم يكن يترشح منافسين كما هو مفروض و إنما يترشح شخص واحد ثم يفوز بالتزكية لعدم وجود المنافس .
أدت التزكية إلى تسليم زهير المكتب الأمني لعدم وجود منافس له وكذلك معظم المكاتب تسلمها أصحابها لعدم وجود المنافس .
كل مهمات المجلس المحلي هي مهمات خدمية أي أن أعماله في معظمها لا مردود لها لذلك كان على المترشحين أن ينسوا المردود المادي، ولكن رغم ذلك لم يسلم أعضاء المجلس المحلي من الإتهام بأن عملهم هذا للسعي وراء السرقة لا أكثر وحتى مع المجهود الكبير الذي بذله الجميع للتخلص من تهمة التحيز و العنصرية إلا أن ذلك لم يغنِ شيئاً ، فالعائلة الكبرى في القرية حالياً شكلوا بشكلٍ طبيعي غالبية مقاعد المجلس وبدا أن المجلس يشكل نسخة مكررة عن المجلس السابق مع بعض التعديل .

مع انتهاء اليوم الحافل الذي تمت به الانتخابات أبدى جميع المشرفين فرحهم و رضاهم لإقبال القرية على الإنتخابات ومشاركتهم الفاعلة فيها .
رغم المنافسة الضعيفة و الانتقادات التي وجهت للانتخابات و مشرفيها إلا أنها كانت تجربة فريدة عاشتها قريتنا لأول مرة و أظهرت من الجميع حب المشاركة و التعاون بحثاً عن مصلحة القرية وقام من يرغب بممارسة الديمقراطية الحميدة بقضاء وطره أخيراً و حتى و إن كانت المسألة تقف عند سقف صغير هو المجلس المحلي ولكن قد لا يطول الزمن و يرتفع هذا السقف ليصل إلى اختيار الرئيس .
انتهت ملحمة انتخابات المجلس المحلي أخيراً بعودة معظم كادره السابق إلى العمل وتمديد فترة عمله هذه المرة إلى ستة شهور بدلاً من ثلاثة حتى يتسنى لأعضاء المجلس تبيين جهودهم بشكل واضح تسلم إسماعيل الرئيس السابق للمجلس قيادة المجلس مجدداً و تسلم الدكتور رضوان المكتب الطبي و تسلم زهير المكتب الأمني و الذي أُحدث بشكل جديد ولم يجد من يملأه سوى زهير الذي تطوع بذلك وتسلم أبو أسعد المكتب الإغاثي مجدداً الذي كان يشغله سابقاً .
رغم وجود الكوادر إلا أن بعض المكاتب بقيت شاغرة فاقترح علي إبراهيم أن أرشح نفسي لتولي المكتب الإعلامي و أفوز بالتزكية بشكل تلقائي رفضت الفكرة أولاً و لكني بعد أن فكرت وجدت فيها فرصة نادرةً للتعرف على عمل المجلس فقبلت ذلك، بالإضافة إلى أن أبا أسعد رئيس المكتب الإغاثي طلب مني مساعدته في مهامه و التي تكون في أغلبها في خارج القرية فدفعني الفضول إلى قبول طلبه مباشرة و اتفقت معه على الخروج من القرية إلى حيث ينعقد اجتماع مسؤولوا الإغاثة بعد عدة أيام .

في الوقت الذي كان يتم فيه تصوير المقابلة التلفزيونية معي لم أكن أشك أني سأكون شغل الناس الشاغل حينها ومع مضي الوقت عايشت جزءاً من ردود فعل بعض الضباط العلويين الحاقدين في فرع المخابرات الجوية في القصاع من ضرب و إهانة وشتم وكنت متخوفاً أن تلاحقني جريرة المقابلة إلى صيدنايا وعندها سيسعدون بالتسلي بتعذيبي ولكن مضت فترة صيدنايا رغم قساوتها دون اكتشاف أمري .
ومع مضي الزمن بدء جميع من حولي ينسى أني ظهرت في يوم من الأيام على التلفاز كان هذا داخل السجن وهو وضع مختلفٌ تماماً عن الخارج فالناس لم تنس ذلك و السؤال الأول الذي كان يطرح من أي شخص يلقاني يدور حول مسألة المقابلة .
أياً يكن فقد باتت تلك الأيام من الماضي و لم يعد البحث فيها مفيداً .
تسلم أبو أسعد المكتب الإغاثي أخيراً وطلب مني الذهاب معه إلى اجتماع الإغاثيين فلبيت الدعوة وتوجهت إليه في صباح أحد الأيام قبل أن تجاوز الساعة الثامنة صباحاً . بدءنا نمشي في طريق

المسيفرة الذي يحوي السيارات التي ستقلنا ولم يكن بالإمكان ركوب الباصات لإنها تتوجه باكراً باتجاه المحافظة "درعا" .
انتظرنا طويلاً ثم وجدنا إحدى السيارات التي كانت تتوجه إلى القرية المجاورة "قرية المسيفرة" حيث ينوي الرجل تبديل عبوة الغاز خاصته من المسيفرة لأنه لا يحب أن يكون مغبوناً في حقه حيث يرى أن بائعي القرية يستغلونه استغلالاً غير مشروع بزيادتهم لسعر العبوة عن القرى المجاورة .
أنزلنا الرجل في قرية المسيفرة وبدءنا ننتظر سيارة أخرى تقلنا باتجاه هدفنا في بلدة الجيزة . لم نمضي في طريقنا و نحن صامتين و إنما كان أبو أسعد يحدثني عن ذكرياته و عن معاناته مع القرية خلال عمله في المكتب الإغاثي فقال :" نحن أول من قام بإدخال عبوات الغاز إلى قريتنا في الأيام الصعبة و التي كان تواجد الغاز فيها نادراً قمنا بجلبها من المحافظة المجاورة أي محافظة السويداء و بيعها لأهل القرية".
و هو يثني دائماً على جهود صديقه الشيخ حسين الذي يراه صاحب فضل كبير على العمل الإغاثي ليس في قريتنا فقط و إنما في المنطقة الشرقية بأكملها ولكن معاناته مع أهل القرية تكون دائماً باتهامه بالسرقة و الغش رغم أنه حسب كلامه لا يلقى مقابل عمله هذا أي جزاء .
وصلنا أخيراً إلى قرية الجيزة وبدأت أشعر بأني أدخل مدينة لا قرية فالكثافة السكانية عالية جداً و الناس جميعاً تتوجه إلى عملها و أسواق الخضار و المطاعم و محلات الملابس تعمل رغم أن الوقت مبكر ، وتتجاوز عقبة الكهرباء بتشغيل المولدات وهو نشاط يجعلنا نشعر بالغيرة و نتمنى أن نشاهده في قريتنا .
مشينا قليلاً ثم توقفت بجانبنا سيارة سوداء نزل منها شخص جسمه رياضي جعله زيه الأسود و نظاراته السوداء أشبه برجال المخابرات .
نزل الرجل فاستقبله أبو أسعد بالسلام و السؤال عن الحال سلمت عليه فحدق بي وقال :" أنا أعرفك". قلت له :" ربما تكون مشتبها بشخص آخر ". فدخل أبو أسعد مباشرةً على الخط و قال :" لا شك أنك رأيته على التلفاز ".
وأكمل شرحه ليبين له أني كنت معتقلاً نتيجة شهودي لمجزة صيدا في ٢٠١١/٤/٢٩ فخفض الرجل رأسه وقال :" مجزرة صيدا! لاشك أني رأيتك في الاجتماع الذي تم في قريتكم قبل المظاهرة بيوم أو يومين ". ولكني أكدت له أني لم أحظر أي اجتماع فقال :" أياً كان لقد كنت ضد التظاهر و الخروج في ذلك اليوم ولكن لم يستمع إلي أحد و قد آلت النتيجة إلى ما رأيت".
انتهى الحديث سريعاً بوصولنا إلى المكتب الذي سيلم شمل الإغاثيين و لكن بدا أننا أول الحاضرين فكان علينا أن ننتظر.
لم يطل انتظارنا فسرعان ما جاء أحدهم وفتح باب أحد المحلات التجارية حيث سيتم الإجتماع .

دخلت أنا و أبو أسعد وبدأ الناس يتوافدون إلى المكان ولم ينحصر الحضور في فئة عمرية معينة فبعضهم قد جاوز عمره الخمسين ومنهم من هو دون العشرين احتواهم مكان واحد بحثا عن مصلحة القرى التي ينتمون إليها.
وبعد أن اكتمل النصاب ووصل الحاضرون بدأ النقاش الذي تشعب في أودية عديدة والمحور هو كيفية جلب المساعدات من مختلف المنظمات و إيصالها إلى مستحقيها مع التأكيد دائماً على ضرورة توثيق العمل المنجز بالصوت و الصورة .
رغم النشاط الذي تشهده قرية الجيزة إلا أن النظام كان نشيطا أيضاً و كانت طائراته تحلق في سماء القرية التي أصبحت مدينة .
طلب المجتمعون من أحد الشباب أن يتعرف لهم على الطائرة فقال إنها ميغ ـ و بأسوأ حالاتها قد لا تتسبب بقتل أحد أما المروحية فنادراً ما يمر تحليقها في سماء القرية دون تسببها بكارثة. فاطمئن الجميع عندها و تابعوا نقاشهم دون إعطاء أهمية للأمر .

مع دخول الثورة مرحلة المواجهة العسكرية كانت الأمور تتعقد أكثر و أكثر فبين مؤيد للجيش الحر و جاعل منه الممثل الوحيد في الصراع العسكري وبين شاكر لجميل جبهة النصرة و معتبرا أياها جزءاً من الثورة زاد التعقيد أكثر و أكثر .
ومع القصف المستمر من قبل النظام للمناطق المحررة استطاع النظام أن يستغل هذا الخرق بأن يوحي بأن المشكلة في القصف إنما هي تواجد مقرات لجبهة النصرة أو الفصائل الإسلامية الأخرى مع أن قريتنا تقصف عادة دون تواجد لأي فصيل إسلامي فيها .
بدأ المجتمعون يتناقشون في أن يطلبوا من قيادة مقرات الجماعات الإسلامية التوجه إلى أماكن بعيدة خالية من المدنين حتى لا يغدو وجودهم ضمن المناطق المكتضة بالسكان حجة للنظام حتى يقصف تلك المناطق ويعرض بالتالي أرواح الكثير من الناس للخطر ولكن النقاش كان عقيماً دون فائدة .
فأحدهم يرى الجماعات الإسلامية المجاهدة هي المؤثرةُ حقاً و البعض الأخر يرى أنها تبحث عن أجندة أخرى لا تتناسب مع الثورة التي طمح الشعب السوري إليها منذ البداية .
حتى أن الخرق في النقاش وصل إلى أنه كيف يجب أن نخاطب الجمعيات التي ستزودنا بالمساعدات فقال رئيس المجلس :"أنه يجب أن نكلم هذه الجمعيات بطريقة بعيدة عن الصبغة الإسلامية ".
ففهمها أحد المجتمعين على وجه أخر و هو أن الرجل يتخلى عن الإسلام مقابل معوناتهم فانتهره قائلاً :"لا بارك الله فينا إذا تخلينا عن إسلامنا من أجل مساعداتهم".
لم يطرح رئيس المجلس فكرة التخلي عن الإسلام و إنما أراد أن يسمع كل شخص ما يرغب سماعه فالجمعيات الإسلامية نصدر لها الرسالة ببعض النصوص الدينية ثم نشرح لها ما نريد و الجمعيات الثانية نصدر لها ما ترغب سماعه .

انتهى النقاش بعد ساعة و نصف تقريباً بتوضيح رئيس المجلس أبو عمر لكل شخص مهمته و ما يجب أن يعمله ثم بدأ الأفراد بالإنصراف .

خرجنا لنر المدينة تزداد ازدحاماً فقد بدء الطلاب يغادرون مدارسهم باتجاه بيوتهم بعد أن أنهوا يوماً جديداً من أيام دراستهم.. خرجنا لنلتقي مع الشخص الذي التقيناه قبل بداية الإجتماع حيث حظر جزءاً من الإجتماع ثم غادر.. لم نكن نملك سيارة فتبرع الرجل أن يقلنا باتجاه مفرق المسيفرة .

خرجنا معه في سيارته فعلاً ثم بدء يكلمنا عن معاناته في أنه لا يجد من قادة الثورة من يكون أهلاً لتلقي المعلومات فقال :" كنت أخدم في غرفة معزولة ولكني كنت أنام على بنك من المعلومات و أبحث عن أي شخص أزوده في المعلومات في الجيش الحر و لكن عبثاً و دون فائدة كنت أحس نفسي كنزاً مهدوراً لا أحد يوليه اهتماماً".

سأله أبو أسعد عن رأيه فيما حصل مع أحد قادة الجيش الحر و الذي سرت إشاعات باختطاف أحد الجماعات الإسلامية له ثم قتله، فقال :" بالنسبة إلي إن كان ذهب فلا رده الله و لا يختلف بالنسبة إلي النظام عن الجيش الحر عن النصرة كلهم بطابع واحد ولكن النصرة تختلف عن الجيش الحر بأنهم أكثر تنظيماً قد يكون عدد الجيش الحر ٣٠٠٠ و النصرة ٢٥٠ ولكنهم منظمون ".

انتهى الحديث بعد أن وصلنا إلى وجهتنا فسلمنا على الرجل وغادرنا سيارته لم يعد يعرف أحد عند أي حد يمكن أن تتوقف دوامة الثورة و من ستبتلع أيضاً و قد بدأت بابتلاع قادتها الرجل الذي تم اختطافه ثم اغتياله هو قائد في المجلس العسكري وهو مقيم في الأردن و عند دخوله الأراضي السورية تمت تصفيته .

لاشك أنه واقع صعب جداً لم يعد يمكن لأحد أن يأمن على نفسه كانت هذه الجلسة الوحيدة التي حظرتها من اجتماع الإغاثيين .

ولكن الاجتماعات لم تتوقف هنا فمن المفترض أن المجلس المحلي قد تأسس و عليه أن يبدأ عمله كان من المفترض أن يكون الإجتماع يوم الخميس توجهت بعد صلاة العصر إلى حيث ينعقد الإجتماع المفروض.

بدأت أبحث عن الناس و لكن يبدو أنه لا يوجد أحد انتظرت قليلاً ثم مضيت بعد اقتناعي بعدم انعقاد اجتماع اليوم .

في اليوم التالي أي في يوم الجمعة واجهت أحد أعضاء المجلس فقال لي :" الإجتماع اليوم بعد الصلاة".

سلمت بالأمر الواقع ومضيت بعد الصلاة باتجاه البيت الذي قصدته البارحة و لكن دون نتيجة فلا أحد هنا أقنعت نفسي بأن الإجتماع تم تأجيله إلى الأسبوع القادم تركت البيت ومضيت وبعد أكثر من ساعة راسلني أبو أسعد ليخبرني بأن الإجتماع منعقد الآن !!!

سلمت بالأمر وعدت وأخيراً وجدت أعضاء المجلس مجتمعين لم أكن فرحاً للاجتماع و إنما لأن سعيي في الوصول إليهم مجتمعين قد تكلل أخيراً بالنجاح .

لم أكن أملك الخبرة الإعلامية و لا أعرف ما هي وظيفتي كإعلامي فكنت بحاجة إلى أن يلقنني أحد ما علي فعله فأعطاني أحدهم دفتراً و قلماً لأسجل النقاط التي يقوم الدكتور رضوان بتلاوتها وهي ما يتفق عليه المجتمعون بعد التصويت و التفكير في النقطة المطروحة وباعتبار الجلسة تأسيسية فقد كانت عبارة عن وضع البنود لمهمات كل شخص في المجلس .

انتهت الجلسة أخيراً دون نقاش حاد كونها كانت عبارة عن جلسة سرد للمهام لا أكثر .

مضى المجتمعون بعد أن أنهوا اجتماعهم و قد بين الدكتور رضوان وظيفة كل واحد منهم في حين كنت أتأمل الدفتر الذي أعطيته و أحاول مسرعاً أن أدون ما يقال في المجلس دون أن أعرف إن كان ما أفعله هو صحيح إعلامياً أم أن علي التدوين فقط .

جلسة أولى تتبعها جلسات لا أعرف إن كان يجب أن أتفاءل أم أن مصير المجلس المحلي سيكون كمصير المجلس العسكري ومصير أعضائه سيكون كمصير قائد المجلس العسكري .

نحن الآن في فوضى لا أحد يعلم متى سينتهي مدها و هل هناك أحد قادر أصلاً على إيقاف بركان الفوضى أم أنه سيحرق الجميع .

بين النّجاح الفرد والفشل الجماعي

قبل أن ينعقد المجلس المحلي الجديد و قبل أن تتم الإنتخابات سبقت تلك الإنتخابات عدة إجتماعات تحضيرية كان الهدف منها هو التعرف على عمل المجلس السابق و إنجازاته و هل أدى واجباته التي كانت مفروضةً عليه أم أنه ضيعها.

كل الإجتماعات كانت تنعقد في بيت أحد الوجهاء ولكن النصاب الذي كان يطمح إليه الدكتور رضوان والمجتمعون بشكل عام و الذي يبرز مشاركة واسعة للقرية لم يصل يوماً إلى حده . دخلنا الإجتماع فكانت الفئات العمرية الحاظرة متنوعة بين الشباب و المسنين و لكن المميز في الإجتماع الأول أن بعضاً ممن يفترض بهم حضور الإجتماع و غالبهم من المتقدمين في السن غائبون و السبب هو توجههم إلى الجارة التي كانت شقيقة في يوم من الأيام أي إلى محافظة السويداء و الهدف هو تمثيل لجنة المصالحة الوطنية التي تمثل المفاوض باسم الأهالي مع النظام على أمل تحصيل أي مكسب من النظام.

تأخر الأعضاء ولم يكن للحاظرين إلا أن يبدأوا الجلسة و الكلام الآن في حضرة رئيس المجلس الحالي.. طلب منه الدكتور رضوان أن يبين له و للحاظرين جميعاً عمل المجلس فبدأ الرجل يتحدث والنقاط الأساسية التي يدور حولها عمل المجلس هي تأمين الخبز و الماء و الكهرباء فقال :" بعد أن واجهنا مشكلة كبيرة مع فرن القرية الوحيد كان لا بد لنا أن نبحث عن خيار بديل فقد كان تعاملنا مع مخبز القرية عبارة عن صفقة خاسرة فحين يكلفنا يوم عمل كامل معه ما يقارب ١٥٠٠٠ ليرة سورية تقريباً نتكلف أقل من هذا المبلغ بكثير في القرية المجاورة أي في المسيفرة و قد عرضنا على مالك الفرن أن نسلمه مبلغاً مالياً مقطوعاً يمثل أجرته مع ربحه و نقوم نحن بالعمل بدلاً عنه و لكنه رفض وكان كمن يضع العصي في العجلات و يعيقنا عن العمل فلم يكن لنا عندها خيار سوى اللجوء إلى الخارج ".

استمر رئيس المجلس يشرح معاناته مع مالك فرن القرية بشكل مفصل حتى بدأ بعض الحاظرين يمل ويلتجأ إلى الأحاديث الجانبية حتى يقطع الوقت مما أزعج أحد الرجال الكبار الحاظرين في المجلس فطلب من المتحدثين السكوت مما أزعج المتكلمين و كادت تحصل مشاجرة لولا أن الرجل المسن كان حكيما متمهلا و انتهت المشكلة في حينها .

حتى المجلس المحلي الذي يفترض بأعضائه أن يضعوا الحلول لمشاكل القرية لا يخلو من مشاكل بين أعضائه.

قبل أن تنتهي الجلسة وصل أخيراً بقية الأعضاء والذين كانوا قد توجهوا إلى السويداء لحظور اجتماع المصالحة.

النتيجة من الحوار مع النظام باتت بسيطة معروفة دائماً تتلخص ببضع كلمات "سلمونا الأرهابيين و سنفعل لكم كل ما تريدون خبز ماء كهرباء باختصار سنفتح لكم أبواب الجنة لكن سلمونا الإرهابيين أولاً".. أياً يكن فقد كانت محاولة كغيرها من المحاولات التي لم تتكلل بالنجاح .
انتهت الجلسة وانصرف جميع الحاظرين باتجاه بيوتهم بعد أن تصالح المتخاصمون و عاد كل شيء إلى طبيعته.. كانت هذه الجلسة قبل أن يتم انتخاب المجلس الجديد و بعد انعقاد المجلس المحلي الذي تم انتخابه أخيراً حظرت الجلسة الأولى ولم يكن فيها سوى سرد مهمات كل شخص .
الجلسة الثانية كانت بعد أسبوع كامل و المشاكل ذاتها موجودة .
مشكلة الخبز و التي تم تجاوزها أخيراً بعد أن تم الإتفاق مع مخبز المسيفرة ، و المشكلة الأكثر تعقيداً الآن هي مشكلة الماء حيث أن قريتنا تحتوي ٣ أبيار للماء و لكن جميعها تتزود بالماء من القرية المجاورة المسيفرة و مع وجود مشكلة الكهرباء و المتمثلة بانقطاعها في معظم الأحيان لم تعد هذه الأبيار تتزود بالماء إلا نادراً مما جعل معظم أهالي قريتنا يضطرون إلى شراء الماء حتى يتابعوا حياتهم بشكلٍ طبيعي.
اقترح العامل على تصليح الأعطال الكهربائية أن يتم شراء الوقود مقابل مبلغ مالي و يتم وضعها في محطة إرواء قريتنا و التي توجد في المسيفرة حتى تعمل المضخة ولكن الشيخ حسين قال :" قد درسنا هذه الفكرة ووجدنا أن تكلفتها أكبر من إنتاجها بكثير فبنفس المبلغ نحن قادرون على شراء عدد أكبر من صهاريج الماء".
استمر النقاش طويلاً و المفاضلة بين اقتراح العامل و اقتراح الشيخ دون أن يصل المجتمعون إلى نتيجة تذكر انتهى الاجتماع ومضى الحاظرون إلى بيتهم و بقيت المشكلة معلقة حتى الأسبوع التالي.
الأسبوع التالي إجتماع آخر و الإقتراح البديل الآن أن يقوم أهل القرية بحفر بئر و ذلك بالاستعانة بأهل القرية المقيمين في الخارج ولكن الإقتراح لم يلقى تأييداً فقال بعضهم :" لا نظن أن أهلنا في الخارج سيكونون على قدر هذه المسؤولية و نخشى أن يخذلونا في منتصف الطريق و قد جربناهم و لم تكن النتيجة مرضية دائماً فالأفضل البحث عن حل آخر".
إجتماع آخر يتتهي و وضع القرية المائي لا يزال على حاله و لم يصل المجلس إلى حل حتى الآن .
كان البئر الغربي يعمل أحياناً ولكن المشكلة كانت تتمثل في سعته المنخفضة و حتى يحصل أهل القرية على حل إسعافي قام أعضاء المجلس بإصلاح مضخة البئر ليعود إلى العمل لم أعرف أنه تم إصلاح البئر حتى سمعت بذلك عن طريق وسائل التواصل، فكأي عمل بات يتم من أول الثورة أصبح لا بد من توثيق ذلك العمل بالصوت والصورة..
صادفت أبا أسعد في الطريق و كان عائداً من الإجتماع الذي لم ينعقد لتغيب أعضائه فمضيت معه باتجاه بيت محاسب المجلس فسألني :" هل قمت بعملك؟".
لم أعرف بماذا يجب أن أجيبه فأنا لم أر أي عمل يجب أن أقوم به حتى الآن فحاولت الاستيضاح منه أكثر و سألته عن العمل الذي كان يفترض بي القيام به فأجابني بأنه كان يجب أن أكون حاظراً و أقوم

بتصوير إعادة البئر للعمل.. أحسست أني فشلت في عملي الأول و لكني لم أعرف أصلاً بمسألة تصليح البئر إلا عن طريق الإنترنت..
وصلنا أخيراً إلى بيت المحاسب فسأله أبو أسعد :"لم لم تخبروا الرجل حتى يقوم بعمله في التصوير؟".
فقال :" نحن بالعادة لا نقول لأحد تعال لتعمل العمل موجود من أراده فأهلاً و سهلاً و من لم يرد العمل نحن نقوم به بدلاً عنه"، لا عجب أن المجلس حتى الآن لم يصل إلى حل لمشكلة أبيار الماء فالجميع لا يزال يعزف على وتر العمل الفردي و ينأى بنفسه عن المساعدة و التعاون في أي عمل جماعي، أياً يكن فقد بدأ أحد الأبيار يعمل أخيراً وهذا هو المهم بالإضافة إلى المحاسب كان صديقه أبو ثائر حاظرا و الذي استمر بالكلام عن أعضاء المجلس بأنهم لا يقدرون قيمة الشيخ حسين مع أنه صاحب أفضال عميمة على القرية تمثلت في المساعدات التي كان يقوم أبو ثائر بمساعدة حسين في توزيعها و بأنهم عندما تضيق بهم الكرب لا يجدون أفضل من حسين منقذاً لهم رغم أن البئر الغربي بدأ يعمل إلا أن القرية لا تزال عطشى و بحثاً عن حل في أحد الإجتماعات اقترح الشيخ حسين أن يقوم المجلس بنقل المضخة من البئر الغربي ذي القدرة التخزينية المنخفضة إلى البئر الشرقي ذي القدرة التخزينية الأعلى و يتم استغلال ساعات وجود الكهرباء برفع الماء إلى البئر ثم يتم بيع الماء عن طريق الصهاريج وبهذه الطريقة ينخفض سعر صهريج الماء حسب كلامه من ما يقارب ال ٥٠٠٠ إلى ما يقارب ال ١٧٠٠ ل .
بدا الإقتراح جيداً و لكن المشكلة تتمثل بكيفية نقل المضخة من الغرب إلى الشرق و بالإضافة إلى هذا الإقتراح كان هناك اقتراح يطلق ثم يتوقف التفكير به مباشرة، وهو الاستعانة بمحطة توليد الكهرباء و الموجودة في مبنى شركة الاتصالات السيريا تل، ما إن يتكلم أحد حول هذه المسألة حتى ينهره الحاظرون عن إعادة التفكير بالمسألة دون أن أفهم لماذا!
عاد الحاظرون إلى الخيار الأول بعد أن أبدوا توافقاً حوله ، تطوع حسين أخيراً لهذه المهمة أي نقل المضخة و تأمل من الأعضاء أن يكونوا ردءاً له في عمله فأبدى الجميع الموافقة بعضهم بالتلميح و بعضهم بالتصريح.. مضت عدة أيام دون أن يتم نقل المضخة إلى مكانها الجديد..
صادفت الشيخ حسين و كان يركب دراجته النارية و كان قد أنهى بعض المعاملات الرسمية لأحدرجال القرية فكان يحمل معه الورقة التي تم توقيعها و يمضي بها بحثاً عن الرجل و أخيراً وجدنا الرجل الذي نبحث عنه في أحد المحلات التجارية
نزلنا معاً و أعطى الشيخ حسين الرجل الأمانة التي أعطاه أياها بعد أن أنهى مهمته وراح يشرح له عن الروتين و العوائق التي واجهته و بعد أن أنهوا الحديث شكره الرجل ثم قال بلهجة استفهامية بصوت منخفض و كأنه يأمل بأن يكون الخبر غير صحيح :" صحيح ما سمعته من أنكم تعتزمون نقل المضخة من البئر الغربي إلى البئر الشرقي ". فأجابه :"نعم".

فانقلبت تعابير وجهه مباشرة وقال :" مستحيل لا تفكر بهذه المسألة و لو في الأحلام". فسأله :"لماذا؟". قال :"لن نموت من العطش لأجل أعمالكم الفوضوية".
لكن الشيخ حسين أصر وقال :" سنقوم بهذا العمل مهما كانت النتيجة فليس من المنطق أن تشرب أنت و تسقي أشجارك و غيرك لايجد الماء الذي يشربه". رغم إصرار حسين وقطعه لأسباب الجدال إلا أن الرجل رد متحدياً له و قال :" إذن سأشكوكم إلى جبهة النصرة".
لم يبالِ حسين بكلام الرجل وقال :"افعل ما بدا لك ".
بالإضافة للرجل المسن الذي كان يناقش حسين - ولم يكن يناقشه بحثا عن المصلحة العامة و إنما لأن البئر الغربي أقرب ما يكون إلى بيته و سيعني نقل المضخة إلى البئر الشرقي أن يشتري الرجل الماء و هذا ما لم يكن ليتصوره خصوصاً و أن الماء يزور بيته يومياً و بالمجان-
كان صاحب المحل التجاري حاظرا على النقاش ثم دخل أحد الشباب المسلح و بدأ يستمع إلى النقاش ثم سأل الشيخ حسين مقترحا عليه :"لم لا تقومون باستغلال الآبار الخاصة مثل البئر الجنوبي الشرقي أو غيره".
فأجابه حسين :" صاحب البئر لا يرضى بذلك"، فقال الشاب وقد أخذته العزة بسلاحه :" و هل هو صاحب القرار في هذه المسألة؟"، فسأله حسين وعلامات التعجب تملأ وجهه :" إن لم يكن صاحب البئر صاحب القرار فيه فمن عساه يكون؟".
فاندفع الشاب مباشرة وتطوع ليكون سيفاً في يد الشيخ حتى يلقن أصحاب الأملاك الخاصة درساً في حب التعاون و مساعدة القرية وقال :" نحن نجبره على التعامل معكم رغماً عنه ".
فقال له حسين :" يا أخي أنت ستأخذ له بعض المسلحين وتطلب منه تشغيل بئره لصالح القرية و هو في اليوم التالي سيجلب لك أضعافهم بحثاً عن حقه في أملاكه الشخصية و التي لا يستطيع غيره التصرف فيها و سنغرق في دوامة الأخذ و الرد دون فائدة".
انتهى نقاش حسين مع الشاب و المسن كما ينتهي أي نقاش ضمن اجتماعات المجلس المحلي دون نتيجة..
خرجنا من المحل التجاري و الظلمة تخيم على شوارع قريتنا فبالإضافة لمشكلة الماء و التي بدت مستحيلة الحل رغم توفر إمكانات الحل لها تعيش قريتنا في ظلام دامس لانقطاع الكهرباء ومفاتيح الحل لهذه المشكلة هي مفاتيح فردية مما جعلها عقبة أسهل من عقبة الماء .
و مع انتشار الظلمة تتوزع البيوت التي تمكنت من تجاوز عقبة الكهرباء لتعيش حياتها بشكل طبيعي في أماكن متفرقة من القرية .
الأنوار المتفرقة توحي بأن العمل أو النشاط الجماعي في قريتنا هو عديم الثمرة و أن الحل الأمثل لتجاوز العقبات هو الحل الفردي أي أن يبحث كل شخص بمفرده عن حل لمشكلاته اليومية من ماء و كهرباء و غذاء دون مبالاة بغيره ولكن يبقى الأمل موجوداً في أن تنجز قريتنا شيئاً جماعياً تفتخر به رغم أن أهل القرية أبدوا الأياس من ذلك و تابع كل إنسان حياته بمفرده دون التفات لغيره .

كثير من أسباب مشاجراتنا هي نتيجة لاستعمال النبرة الخاطئة مقولةٌ سمعتها وعايشتها واقعاً في كثير من الأحيان .

في سجن صيدنايا كان علاء و أبو حسين زملاؤنا في نفس المهجع أصدقاءَ إلى درجة بعيدة ولكن هذا الصداقة لم يكتب لها الاستمرار لمجرد ملاسنةٍ جرت بينهما كان سببها أساساً رفع نبرةِ صوت أحدهما على الآخر . كادت تلك المشكلة تتطور إلى أبعد من الملاسنة عندما تدخل أخو أبو حسين في المسألة وهو شقيق أبو هزاع و بدأ يهدد علاء بما لا يتوقف خطره عند علاء فقط و إنما قد يتعداه إلى جميع الموجودين في المهجع فقال مهدداً :" سيدخل السجان بعد بعض الوقت و سأقول له كل ما يخطر في بالك ماذا تريد أن أقول سأقول له علاء يصلي، علاء يسب الرئيس ، علاء يفكر بعمل استعصاء ". شكل كلام أبو هزاع تهديداً للمهجع بأكمله لم يتوقف عندها الموجودون متفرجين و إنما حاربوا الرجل و أخاه و أعطوهما درساً بما يجب تجنبه من المهاترات و التهديدات

استوعب عندها الرجلين خطأهما و تجنبا مجادلة علاء مرة أخرى ولم يعودا إلى تلك التهديدات الفارغة.. كان هذا في السجن وكنا نتوق إلى الخروج حتى نتجنب مجرد اللقاء مع أبي هزاع و أمثاله لكن تبين لاحقاً أن المشكلة لم تكن تتمثل في أبي هزاع أو علاء و إنما هي النبرة الخاطئة في الكلام أو مستوى الصوت العالي الذي قد يفهمه الطرف الآخر صراخا و توبيخاً .

أعضاء المجلس المحلي هم من أبناء القرية و هم يعرفون بعضهم جيداً . كانت جميع المكاتب موجودة سابقاً و إنما تمّ إحداث عدة مكاتب جديدة و منها المكتب الأمني و تسلم زهير المكتب الأمني لأنه الوحيد الذي تطوع لهذه المهمة وبدأ يحظر الإجتماعات مع المجلس المنتخب حديثاً . حاول الحاظرون أن يستفهموا من زهير عن مهمة كتيبته الجديدة و إن كان عازماً على تعيين حرس للقرية فقال :" إن توفرت الرواتب للحرس فسنعين حرساً للقرية و إن لم يتوفر راتب فلن نقدر على أن نعين حرساً فليس من المعقول أن نسخر الناس للحرس دون مقابل ".

قبِل جميع الموجودين كلام الرجل ووجدوه منطقياً في مجمله ولكن المشكلة الجديدة مع وجود مكتب أمني هي وجود كتيبة جديدة مما يعني أنها ستزاحم الكتائب الموجودة سابقاً و هذه الكتائب قد لا تحبذ هذه المسألة و رغم أن ممثلاً عن كتيبة أبي علي قد حظر الإنتخابات و لم يبدي اعتراضاً على كتيبة زهير و أبدى دعمه للمجلس إلا أن أحد الحاظرين تنطح لزهير قبل أن يبدأ وقال :" لا بد أولاً أن نُعلم أبا علي و غيث". فأجابه زهير لقد قمت بإخبارهما فقال المناقش له :" لكن لا بد أن نعرف رأيهما فربما لم يفهما المسألة بشكل واضح ". فتعجب منه زهير وقال :" يا رجل لقد أخبرتهما كيف لم يفهما المسألة".

فقال :" لابد أن يحظر ممثل عنهما إلينا حتى يقر بوجود كتيبتك ". امتعض زهير جداً من كلام مناقشه وعلت نبرة صوته و قال :" أتراني كاذباً يا هذا؟". لكن الرجل تجاهله مما زاد غضب زهير وازدادت حدة الجلسة وخرجت عن الإطار الذي كان يفترض بها أن تبقى ضمنه .

حاول المجتمعون عندها تهدئة غضب زهير على محادثه فترة من الزمن إلى أن نجحوا في ذلك أخيراً ولكن بقي شيء في النفوس لا يزيله سوى مرور الزمن .
انتهت الجلسة بعد هذه المهاترة الطويلة بين زهير و خصمه وعاد الحاظرون إلى بيوتهم دون جديد في اجتماع اليوم .
الجلسة التي تلتها أوضحت بشكلٍ جلي أن النفوس لم تسامح و لم تنس فما إن وصل الأعضاء و جلسوا حتى عادت المهاترة ذاتها من جديد بين ذات الشخصين زهير و خصمه ولكن زهير هذه المرة لم يرد إبداء أي تهاون لأجل منصبه على حساب كرامته فما إن فتح الرجل موضوع اعتراف الكتائب الأخرى بكتيبة زهير وضع زهير يده على الأرض كمن يقوم بتسليم منصبه و قال :" أنا أتخلى عن مهمتي و ابحثوا عن شخص غيري يقوم بهذا العمل". عندها وقع المجلس بأكمله في مشكلة كبيرة فالمكتب الذي يشغله زهير لم يكن موجوداً أساساً و إنما تم إحداثه أخيراً و بغياب زهير المتطوع الوحيد لهذا المنصب سيبقى المنصب شاغراً إلى ما شاء الله . بدأ الحاظرون يثنون الرجل عن عزمه و يحاولون تخفيف غضبه من مناقشه و لكن دون فائدة و استمر كل من الرجلين على عناده وتعنته لرأيه .
انتهت الجلسة ولا مزيد من اجتماعات المجلس سوى المشاجرات و المهاترات بين الأعضاء .
المجلس المحلي الذي كان يفترض به البحث عن حلول لمشاكل القرية كان يفتقد في ذاته إلى التوافق بين أعضائه و لا جلسة تنتهي دون خصومة بين بعض الحاظرين كل هذا يحدث و مشكلة الماء لا تزال قائمة حتى الآن و رغم أنها في القرية المجاورة لقريتنا كانت شبه محلولة .
فحين ندفع ثمن صهريج الماء في قريتنا ما يقارب ال ٥٠٠٠ ليرة كان جيراننا في بلدة الكرك الشرقي يدفعون مبلغ ٢٠٠ ليرة فقط حيث تطوع أحد أصحاب الأبيار الخاصة لبيع الماء مقابل ١٠٠ ليرة فقط ووجد الناقل الذي يقوم بنقل الماء مقابل ال ١٠٠ الأخرى و رغم الكلام عن هذه المبادرة و كيف تم حل مشكلة الماء في القرية إلا أن قريتنا لم تتمكن حتى الآن من إيجاد الحل المناسب .
بالإضافة إلى مشكلة الماء التي تجاوزتها بعض القرى بمبادرات فردية أحياناً و جماعية أحياناً أخرى تمكنت بعض القرى من تجاوز عقبة الكهرباء بشكل جماعي و ذلك بأن تقوم عدة بيوت متجاورة من شراء مولدة كهربائية ضخمة و يتم تشغيلها ليلاً فقط و يتم تخصيص أحد الأيام لتشغيل المولدة نهاراً حتى يقوم المشتركون باستعمال الغسالات الكهربائية. و لكن الحديث عن مبادرات القرى المجاورة في حل مشكلاتها و الأمل في أن نحذو حذوها كان كمن يسرد أحلاما مستحيلة لا يمكن تحقيقها في قريتنا.
يبدو أننا في قريتنا رغم الثورة و الأحزان و المصاعب التي رافقتها لم نتمكن حتى الآن من إيجاد روح الجماعة التي قد تذلل المصاعب .
ويبدو أن الروح الجماعية انحسرت فقط في مشاركة الأفراح و الأحزان بعيداً عن أي عمل آخر .

جعل هذا التنازع و الخصام في المجلس حسين يرى نفسه غير قادر على تكملة ما هم به من نقل المضخة من البئر الشرقي إلى البئر الغربي مما جعل الأزمة المائية تستمر ولا حل لها سوى أن يقوم كل إنسان بشراء الماء بمفرده .

مثَّل المجلس المحلي الإدارة المدنية للقرية من جانب الثورة ولكن حتى الآن لا إنجاز و لا حل للمشاكل العالقة أصلاً . رغم هذه الفوضى إلا أن الجانب العسكري للثورة كان يبدو أكثر تنظيماً و انظباطاً ففي الوقت الذي عجز فيه المجلس المحلي عن إيجاد توافق بين أعضائه كانت القوة العسكرية الوحيدة في قريتنا و المتمثلة بلواء اليرموك تغرد بعيداً عن هذه الأزمة و تسعى إلى ما هو أكثر من ذلك بدأ اللواء يسعى إلى تقريب فكره أكثر إلى الناس ويتودد لهم بالطرق المتاحة بين يديه

فقد أعلن اللواء عن دورة مجانية لأبناء القرية بشكل عام لمن هم في الصف الأول إلى حد الصف الرابع، ولم يعانِ اللواء كثيراً في تأمين الكوادر التي تساعده في تسيير عمله فقد تطوعت أنا و مروان و معتصم لتدريس الطلاب في المدرسة فقد كانت المواد محدودة عبارة عن مادة اللغة الإنكليزية و اللغة العربية ومادة الرياضيات.

والمكان لم يشكل مشكلة أيضاً فقد قبل مدير المدرسة التي تقع غربي القرية بأن نتخذ مدرسته مكاناً لتدريس الطلاب دون أن يبدي انزعاجاً أو امتعاضاً .

بدأت الدورة فعلاً وبدأ الأطفال يحظرون وكان الحظور مشجعاً مايقارب الخمسين طفلاً تم إرسالهم إلى المدرسة حتى يحظروا دورة تقوية في مناهجهم الدراسية دون التفكير بمن هو المعلن أو من هو القائم على الدورة .

شيء يبعث على الأمل بأن يكون الجيل القادم أقدر على حمل المسؤولية من جيلنا الحالي . بالإضافة إلى هذا النشاط العلمي كان هناك نشاط علمي من نوع آخر يغطي الجانب الشرعي فعندما كنا في السجن كان إبراهيم يحدثني عن الإجازة بقراءة القرآن الكريم بالسند المتصل إلى رسول الله وجعلني حديثه أتشوق إلى هذه المسألة عند خروجي من السجن و عندما خرجت وجدت أحد أبناء قريتنا وهو الشيخ محمد سرور يحمل إجازة بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت عندها كمن وقع على كنز يبحث عنه منذ زمن.

طلبت منه أن يعلمني فأبدى الرجل موافقته و بدأت أرافقه في معظم الأحيان ولم يكن الرجل ساكناً أو راكداً وإنما كان يكثر الذهاب و المجيء خارج القرية و كان يعمل مع مجلس قرآء بلاد الشام. أعلن المجلس و الذي يمثله الشيخ محمد عن دورة علمية يتم فيها تدريس المواد الشرعية ولم يعانِ الشيخ صعوبة في إيجاد المكان فالدورة الشرعية سيكون مكانها الطبيعي هو المسجد و الذي يملك مفاتيحه الشيخ .

أكثر من عشرين صبياً كانوا يحظرون الدورة الشرعية أيضاً حظور لم يتوقعه الشيخ و لكنه زرع في قلبه الأمل و جعله يبدي تفاؤله من هذا الحظور غير المسبوق أو المتوقع .

لم يستمر التدريس في المدرسة الثانوية فترةً طويلة و إنما بضعة أيام فقط كانت كافيةً حتى يعود مدير المدرسة ويطلب من القائمين على الدورة أن لا يتسببوا في خراب بيته و قطع أسباب رزقه فالرجل لا يزال يعمل مديراً في المدرسة التي يمتلكها النظام و لا يزال حتى الآن يأخذ راتبه من الدولة .
وشرح للشباب القائمين على الدورة المشكلة فقد جاءه كتاب من وزارة التربية ينهاه عن هذا العمل وقد فهم من الكتاب أن الأخبار قد وصلت إلى مديرية التربية بشكل مفصل .
لم يعد لدى القائمين على الدورة خيار سوى البحث عن مكان جديد لتكملة ما بدأوا به .
لم تثمر اجتماعات المجلس المحلي المتواصلة و الكثيرة التي حظرتها شيئاً، فقد كانت الإجتماعات في معظمها تذكرني باجتماعات الجامعة العربية في اجتماعاتها حيث تكون هناك مشكلة كبيرة و مجازر ترتكب ثم تقوم الجامعة عن إعلان لاجتماع طارئ بعد شهر أو أقل من شهر على أمل أن تحل المشكلة قبل أن تتدخل الجامعة بالتعليق فقط الذي لا تملك أكثر منه .
وهكذا كان المجلس المحلي في قريتنا المشكلة الطارئة و الوحيدة أصلاً كان يؤجل النقاش فيها بانتظار انتهاء المخاصمة الموجودة بين الحاظرين وعند توافق الحاظرين وعدم خصومتهم مع بعضهم يتم تأجيل البحث عن حل لمشكلة الماء إلى الأسبوع التالي .
استمر النقاش حول هذه المشكلة و عن حلها المقترح أكثر من شهر دون نتيجة تذكر..واقع محزن لا نستطيع فيه إلا أن ننتظر الحلول التي تأتي من السماء ، لا عجب إذاً أن قوى الثورة حتى الآن لا تزال تنتظر الحل الخارجي و تأمل به .
فعلى مستوى مشكلة صغيرة لم نتمكن حتى الآن من حلها فكيف سنحل ما هو أكبر منها أو ربما تكون العلة في القائمين على المجلس بأنهم لا يرغبون في إيجاد حل أصلاً

نُزوح ولُجوء

كان سجننا في صيدنايا أشبه بمقبرةٍ نموت فيها موتةً صغرى بانتظار انتهاء آجالنا لنموت الموتة الكبرى فلم نكن نعرف شيئاً عما يحدث في الخارج و ما يلقاه أهلنا من قصف و قتل و تشريد .
ثم عندما وصلتنا الأخبار عن طريق السجناء الجدد بأن الثورة تحولت إلى حربٍ طاحنة في الخارج بتنا ننتظر باشتياق انتقال تلك المعارك إلى محيط صيدنايا أملاً في تحريرنا. و ما إن سمعنا صوت الرصاص في إحدى الليالي حتى ظننا أن الثوار باتوا قاب قوسين أو أدنى من تحرير السجن ولكن مع مضي الزمن أدركنا أن المعارك صعبة و تحتاج إلى وقت طويل حتى تنتهي .
اعتدنا الركون في السجن و لكن مع قيام معركة التحرير و انتهاءها أخيراً بالنجاح غدا هذا الصخب الذي كنا نتمنى سماعه في يوم من الأيام مخيفاً لدرجة أنه يدفع الجميع للتفكير بمغادرة البلد إلى أقرب مكان يحمل له الهدوء.
انتهت معركة السجن لصالح الثوار و خرج جميع السجناء سالمين وكان من بين الخارجين بهاء الذي صاحبنا منذ بداية سجننا حتى تحريرنا .
زارنا بهاء في أحد الأيام و قال :"أنه يبحث عن بيت للسكن في قريتنا". فقريتنا تبدو آمنةً أكثر من غيرها وهادئةً في معظم الأحيان . هذا الهدوء جعلها قبلة للنازحين الذين لا يرغبون بمغادرة البلد إلى بلد آخر و يسعون إلى الحفاظ على حياتهم باجتناب المناطق الساخنة .
رغم أن قرية كحيل لا تبعد عن قريتنا مسافةً كبيرة إلا أن بهاء بدأ يشرح لي عن معاناته فقال :" بعد أن قام الثوار بتحرير السجن قام أحدهم بتصوير مشهد غريب حيث وضع عدة رؤوس مقطوعة في إناء للطبخ و صورها و هو يقوم بغليها و منذ ذلك الحين و الطيران لا يغادر قريتنا فما إن تذهب مروحية تلقي البراميل المتفجرة في سماء قريتنا حتى تتبعها مروحية أخرى و إذا لم تأت المروحية فستنوب عنها الميغ، والاستهداف لا يميز بين مكان و آخر فالضرب بشكلٍ عشوائي في مجمله حتى أنه تم استهداف المستوصف في قريتنا مع أن قريتنا تحوي أكثر من ١١ مقراً لمجموعات مسلحة مختلفة ".
سرد لي بهاء قصته و تمنيت أن أكون سبباً في حل مشكلته وبدأنا نبحث عن أي بيت يمكن أن يستقبل عائلة عمته التي يسكن عندها و التي بدا عددها كبيراً نوعاً ما فهو يبحث عن بيت لسبعة أفراد مما جعل المسألة أصعب . فمع لجوء النازحين من مختلف القرى إلى قريتنا من بصرى و إنخل و غيرهما من القرى بات إيجاد بيت أمراً صعبا نوعاً ما فقد بدأ أصحاب البيوت يعملون بانتقائية و يبحثون عمن

يوافق هواهم، حتى أن أحدهم اشترط أن يكون عدد الساكنين لا يجاوز الثلاثة أب و أم و ابن لهما و كأنه يعيش في أوروبا .
بحث بهاء طويلاً دون نتيجة ثم قرر العودة إلى قريته و التفكير بمغادرة البلد بشكلٍ كامل .
رغم أن النظام عندما يلقي البراميل المتفجرة لا يميز بين بيت صديق أو عدو وقد حدث عندما كنا في السجن أنه ألقى الذخيرة مرةً للثوار و حدث أكثر من مرة أنه استهدف قواته التي تقاتل إلى جانبه رغم هذا كله إلا أن هناك أناساً استمروا في دعم النظام بشكلٍ عجيب و كانوا على استعداد على أن يفدوه بأرواحهم في كثير من الأحيان.
وحتى يتحرى النظام الدقة في إصابة أهدافه فقد ابتكر مسألة الشرائح الإلكترونية لإصابة الأهداف البعيدة.
لم نكن نعرف أن هذه المسألة حقيقة أو مجرد ادعاء حتى حدثني بهاء عن حادثة جرت معه فقال :" بينما كنت أسير صباحاً في أحد الأيام قريباً من أحد مقرات الثوار العسكرية لمحت أحدهم ممن يشتري الخردة وكان يلبس ملابساً لا تدل على صدقه في عمله حاولت أن أتابعه حتى أتحرى عنه أكثر واستمر الرجل يدور حول المقر بشكلٍ مريب عندها قررت أن أبلغ أقاربي من الثوار حتى يتصرفوا معه.. جاؤوا فعلاً بعد أن دعوتهم ووقفنا مع الرجل و بدأنا نحاول استدراجه في الكلام فزادنا كلامه ريبة؛ مما دعانا لاستخدام الحيلة معه فقمنا بأخذ جواله عنوةً ثم بعد أن اسكشفناه اتصلنا برقم أثارنا اسمه حيث أنه مسمىً باسم العقيد .
اتصلنا به و بعد أن رد علينا قال محادثه الثائر " احترامي سيدي" و عرّف عن نفسه على أساس أنه عنصر تابع لأحد حواجز النظام و هو يريد أن يستفهم من الرقم الآخر عن الرجل فقال الرجل على الجانب الآخر "إنه معنا دعه يمضي في حال سبيله"
عندها أدرك الثوار بغيتهم و عرّفوا عن نفسهم للعقيد الذي يحادثهم مما جعله يستشيط غضباً ويتهدد الثوار و يتوعدهم على عاقبة عملهم فيما لم يخلوا سبيل الرجل أنهى الثوار الكلام مع العقيد و ذهبوا بالأسير إلى أحد مقراتهم".
ولاء عجيب من قبل مؤيدي النظام للنظام فالرجل الذي تم القاء القبض عليه هو ابن مدينة درعا من إحدى القرى الغربية ولم يمنعه هذا الإنتماء من بيع حياة أهله و أقاربه بأخس الأثمان .
بدء بهاء يفكر بالسفر فعلاً إلى أقرب وجهة لأهل حوران ألا وهي الأردن ورغم قرب هذه الوجه إلا أن الوصول إليها لم يعد بالسهولة التي كانت في بداية الثورة ففي بداية الثورة كان هناك طريقان للوصول إلى الأردن أحدهما الطريق النظامي أي عن طريق النظام تعبر منه بواسطة جواز سفرك إلى البلد الآخر من معبر قرية نصيب الحدودي .
والطريق الآخر هو عن طريق معبر ذات القرية "نصيب" و لكنه المعبر القديم و هو تحت سيطرة الثوار.

المعبر القديم هو لمن يهربون من التعقيدات الروتينية وقد يكونون غير مالكين لجوازات السفر أو مطلوبين للنظام.. المعبران قريبان جداً من الأردن وقد لا تستغرق الرحلة أكثر من يوم أو يومين بسبب الازدحام على المعابر، ولكن هذا الطريق السهل انتهى ولم يعد من الممكن العبور منه فقد أغلقت السلطات الأردنية المعبر ولم تعد تستقبل أحداً يحاول الدخول عن طريقه.. مما جعل معبر النظام هو المعبر الوحيد المتوفر و هو ما لا يحبذ الدخول منه أحد سواءً كان مطلوباً للنظام أو غير مطلوب ولكن الحاجة أم الإختراع فبدأ المتواجدون على القرى الحدودية مع الأردن يتنافسون في ابتكار الطرق الجديدة و التي قد ينجح سالكوها في الوصول إلى هدفهم حيناً ويفشلون أحياناً أخرى من بين الخارجين معنا من السجن كان عمران من إنخل و كان أهله خارج البلد فكان لا يجد بداً من المغادرة، حاول الدخول إلى الأردن عن طريق أقرب القرى الحدودية إليها و هي تل شهاب و بينما كان يتسلل ليلاً محاولاً قطع الطريق و الوصول إلى عمان وقد مشى مسافة جعلته أقرب إلى الأردن بدأ الرصاص ينهمر من كل مكان لم يكن لعمران عندها سوى الإنبطاح على وجهه بانتظار انتهاء إطلاق النار

توقف الرش فعلاً بعد وقت قصير وبدأ صوت يصيح أظهر نفسك أخرج، لم يكن لدى عمران عندها خيار فرفع يديه معلناً استسلامه ثم جاء العسكر إليه فأمروه أولاً بوضع يديه خلف رأسه ثم وكطبيعتهم في كل عصر ومصر انهالوا على الرجل ضرباً باليد اليمنى و اليسرى و بكلا القدمين أيضاً مع ماتوفر في يديهم من أسلحة خفيفة كعصي و غيرها، وبعد أن أنهى العسكر غريزتهم البهيمية التي تتمثل في ضرب الآخر أياً كان و مهما كان عذره أمروا عمران بالعودة إلى بلده سورية لم يشعر عمران بالخيبة لأنه لم يصل إلى هدفه بل على العكس تماماً فقد شعر بالسعادة تغمر قلبه لأنه تمكن من الفرار من تحت الحذاء العسكري.. عاد عمران عندها من طريقه الذي سلكه و قد جعلته الضربات المتوالية شبه عاجز عن الركض بل حتى عن المشي رغم محاولة عمران التي انتهت بالفشل إلا أن كثيرين ممن يسعون إلى الوصول إلى الأردن لم ييأسوا بل على العكس من ذلك كلما عاد أحدهم مضروباً من قبل العسكر الأردني كان يعود و إصراره قد زاد لتحقيق النجاح في المحاولة الأخرى وبين راغب في السفر إلى الخارج و آيل إلى الإستقرار في سوريا تنوع مصير السجناء الذين خرجوا معنا فقد سلّم بعضهم ممن لا يرغب بترك البلد و الذهاب إلى الخارج بالأمر الواقع و قرر أن يعيش حياته بشكل طبيعي و يلتحق بالعمل الوحيد المتوفر حالياً و الالتحاق مع الثوار و الاندراج في صفوفهم.

عندما خرجنا من السجن كانت حرارة الأحداث تمنعنا من البحث عن أي وثائق قد نحتاجها في المستقبل فتركنا الهويات الشخصية في السجن و سارعنا إلى الهرب مع الثوار وبعد فترة بدأ بعض الشباب يتمنى لو أنه تمكن من حمل هويته معه حتى يثبت شخصيته فبعد أن انحصر إثبات هوية الأشخاص بالوثائق الرسمية غدا كل من لا يحمل هذه الوثائق كالمعدوم أو غير الموجود أساساً. بعد مضي فترة على خروجنا اتصل زميلنا السابق في السجن و كنيته الظهراوي بإبراهيم ليخبره بأنه بإمكانه أن يجلب

هويته له لكن إبراهيم لم يكن يبالي بمسألة الهوية أساساً ويعتبر وجودها كعدمه و قد أدرك أن توجه الظهراوي الحديث إليه لأنه يرغب في أن يستفيد منه مادياً فقد عاش معنا في السجن فترة جعلته يعتقد أن إبراهيم صاحب ملاءة مالية عالية .

لم تكن المشكلة في هوية إبراهيم أو في محاولة الظهراوي استغلال إبراهيم إنما كانت في أن الظهراوي قد التحق مع الثوار و قد شكّل هو وعدة أشخاص خرجوا معه من السجن كتيبة عسكرية يبدو أن تأسيس الكتائب أصبح عمل من لا عمل له .

ركن إبراهيم إلى البقاء في القرية و لكن خالد أبا وليد لم يقتنع أو يرغب بالبقاء فقد صرح لي عند خروجنا أنه سيغادر الآن و لكنه سيعود مهما كلفه ذلك ثم لقيته مرة أخرى فسألته عن عزمه هل لا يزال ينوي العودة أم أن كلامه كان مجرد اندفاع عاطفي لحظة خروجنا فقال :" سأمضي الآن إلى الأردن و لن أفكر في الرجوع أبداً ". تعجبت منه فقد كان كلامه قبل فترة على النقيض من ذلك فحاولت الاستفهام منه أكثر و لكنه بين أن بعض الشخصيات الآن والتي باتت تتصدر المجالس و الحديث لا يناسبه البقاء معها أو ضمن جو تسيطر عليه .

لم أتعجب من تغير رأي خالد فقد كان في السجن متضجراً من كل شيء و لاشك أن هذا التضجر و التأفف لن يفارقه بمجرود الخروج فهو من طبيعته .

وطبعه سيغلب تتطبعه في النهاية سألني مرة أخر بعد أن واجهني :" ما رأيك أن نذهب سويةً إلى الأردن؟".

أبديت بعض التكاسل عندها فتركني وقد بين لي أنه سيحاول الوصول إلى الأردن من أي طريق كان و كيفما كانت النتيجة.

بعد أن خرجنا من السجن أخيراً و تذوقنا طعم الحرية بعد غيابٍ طويل كان لا بد لنا من أن نسعى لإكمال فرحتنا برؤية أهلنا الذين تشتت بهم الأماكن و تفرقت بهم البلدان و غدا كل واحد منهم ضيفاً ثقيلاً كما تعتبره سلطات البلد على أهل ذلك المكان الذي حلَّ فيه .

وقد كان خالد أكثرنا استعجالاً إلى الوصول إلى هذه المرحلة الأخيرة من نيل أسباب السعادة بدأ خالد يبحث بجد ودون كلل أو ملل عن الطريقة التي يصل بها إلى مكانه المنشود حيث يستقر أهله ألا وهو الأردن.. لم يكن خالد الرجل الوحيد الذي خضع لفكرة أن مكان عيشه الوحيد يجب أن يكون الأردن، فكثيرون من شباب القرية بات همهم الوحيد بعد إغلاق السلطات الأردنية للطريق الواصل إليها هو الوصول إلى عمان و باتوا على استعداد لتقديم الغالي و النفيس فداء لذلك . وحتى يصل خالد إلى الأردن كان لابد له من أن يستعين بدليل خبير بالطريق يؤمن له الوصول بسهولة ولكن بشرط أن يدفع مبلغاً مالياً كبيراً قد لا يتفق وجوده لبعض الأغنياء من أهل قريتنا فضلاً عن أن يتفق لخالد .

لكن حلم خالد في الوصول إلى عمان ذلل أي عقبة في طريقه لتأمين المبلغ المطلوب، بالإضافة إلى سعي المهرب إلى نيل مبلغ مالي كبير عن طريق تهريب الناس كان لايدخر وسيلة في زيادة تحصيله

للمال فاشترط على خالد و الشباب الذين معه أن يقوموا بحمل صناديق الدخان ليقوموا بتهريبها إلى الأردن .

مضى خالد في محاولته الأولى و بعد أن أصبح هو ورفاقه على مسافةٍ قريبةٍ من الحدود الأردنية طلب منهم المهرب أن يكملوا طريقهم بهدوء فقد أصبحوا في أمان أخيراً وباتوا على مرمى حجر واحد من عمان ولكن الرجل لم يكن صادقاً فما إن مشى الرجال عدة أمتار حتى جاءتهم الأوامر بالوقوف مكانهم قبل إطلاق النار لم يكن لهم عندها إلا أن يسلموا بالأمر الواقع و أن يقروا بأن محاولتهم باءت بالفشل و أن المُهَرِب قد خدعهم .

أوقف العسكر المجموعة بكاملها و قاموا بمصادرة الدخان و طلبوا منهم العودة إلى سورية و أن لا يتعبوا نفسهم بالمحاولة مرةً أخرى فالطريق مغلق .

عاد خالد إلى القرية و لكنه أبى أن يقر بالفشل فسعى إلى محاولةٍ ثانية .

اتفاق كالسابق و لكن دون حمل الدخان هذه المرة و بعد أن قطع خالد ومجموعته الجديدة الحدود لم يتأنَ العسكر هذه المرة و إنما بدأوا بإطلاق النار مباشرةً في الهواء وكردة فعل مباشرة انبطح الجميع وشبّكوا أيديهم فوق رؤوسهم و بدأوا ينتظرون عاقبة عملهم التي بدا أنها وخيمة حيث بدأت بإطلاق الرصاص في الهواء و لا أحد يعرف كيف ستنتهي .

انتهى إطلاق الرصاص ووصل الجنود أخيراً و بدأ الجميع يشكر الله أن مخاوفه لم تكن حقيقة فقد أمرهم الجنود بالعودة و عدم المحاولة مرة أخرى ليعود الجميع عندها مسرعين .

بدأ خالد يمقت هذا الحال الذي يعيشه لقد أمِل أن يخرج من السجن ليرى أهله فتحققت نصف الأمنية وغدا النصف الأخر عذاباً يعيشه و جميع الأبواب التي يمكن أن تخلصه منه مسدودة .

استمر السوريون في ابتكار الحلول لما يواجههم من مشكلات فما إن يسد طريق في وجوههم حتى يبتكروا طريقاً غيره قد يكون أصعب من الطريق الأول إلا أنه في النهاية يصل بهم إلى الهدف المنشود .

بعد إغلاق طريق نصيب استطاع السوريون الوصول إلى الأردن عن طريق جديد هو طريق "رويشد"

وبدأت السلطات الأردنية تستقبل اللاجئين القادمين عن طريقه مما جعله الأمل الوحيد بالنسبة لخالد الذي أبدى استعداداً لدرجة الموت للوصول إلى هدفه مما جعل أي عقبات ستواجهه في الطريق هي عقبات بسيطة. بحث خالد عن المهرب الذي سيقوده مجدداً في الطريق الجديد ووجده في القرية المجاورة لقريتنا الكرك الشرقي.

لم يكن المهرب يعمل مع كل زبون على حدا و إنما ينتظر قدوم عدة أشخاص حتى يشكلوا مجموعة كبيرة و يقوم عندها بإرسالهم جميعاً دفعة واحدة .

وصل خالد إلى مكان التجمع ولكنه وصل مبكراً هذه المرة فكان عليه انتظار تمام عدد المجموعة انتظر الرجل يوماً أو يومين ثم مضى في رحلته .

عدة أيام لم يعرف عنه أحد شيئاً ثم جاء الخبر أخيراً بأن خالد وصل إلى وجهته وهو الآن في مخيم الأزرق في الأردن . أخيراً نجح أحد السجناء في مغادرة البلاد مما سيدفعنا جميعاً للتفكير باللحاق به فلم يكن وضع خالد يختلف عن وضعنا كثيراً .

فمحمود عائلته في الأردن أيضاً و عائلتي في الإمارات لا تستطيع القدوم إلى سورية خوفاً من عواقب مسألة فراري من السجن و لابد أني ملاحق من قبل النظام و قد تتعرض للخطر نتيجة لذلك خصوصاً و أني سمعت بأن أحد السجناء السابقين ممن كانوا معنا في سجن غرز و تم تحريرهم معنا وهو بسام جرادات و الذي كان يعمل طباخاً لعميد السجن قد قامت قوات الأمن بتصفيته بعد أن اقتحمت بيته الموجود في القرية التي كانت محتلة من قبل النظام في ذلك الوقت و هي خربة غزالة بالإضافة إلى عامل السخرة في السجن محاميد وقد تمت تصفيته أيضاً .

بدأنا أنا و محمود نفكر بالسير في درب خالد في الوصول إلى الأردن و حتى تطمئن قلوبنا من ناحية الطريق سألنا خالداً عنه هل هو آمن ؟. فلم نكن نتخيل للحظة أن نعود إلى أحظان النظام في معتقلاته و كنا نفضل الموت على ذلك دون أي تفكير في هذه المسألة .

جزم خالد بأن الطريق آمن لكنه متعب . ورغم تصديقنا لخالد لم نطمئن إلى مصداقيته في هذا الكلام وربما كان مبالغاً فيه .

كما أن خالد كان متلهفا للوصول إلى الأردن كان إسماعيل أحد شباب القرية متلهفاً إلى ذلك أيضاً فقد عاش هناك فترة جعلته يجد المكان مريحاً بالنسبة له ولكنه حتى ينال الحرية المطلقة في ذلك البلد استعان ببطاقتي تعريف مزورتين مما جعل السلطات تطرده مباشرة عندما أمسكت به حاول إسماعيل العودة إلى الأردن مجدداً سالكاً ذات الطريق الذي سلكه خالد ونجح في الوصول إلى مبتغاه إلا أن حظه لم يكن سعيداً فالسلطات الأردنية لم تبتسم في وجهه و إنما قامت بقذفه مباشرةً أي طرده إلى سورية.. عاد إسماعيل أخيراً فقام أخي أحمد بالاستفسار منه عن صعوبة الطريق و هل هو آمن أم لا فقال الطريق آمن لكنه متعب جداً بالإضافة إلى أن الجو بارد جداً رغم أننا لا نزال في فصل الصيف بالإضافة إلى أننا جلسنا أربعة أيام في العراء بانتظار قدوم السلطات حتى تأخذنا بالمختصر أنا لا أنصحكم بسلوك الطريق .

رغم أن الرحلة بدت متعبة من خلال كلام إسماعيل و لكن يبدو أن خيارنا بات محصوراً في سلوك طريق رويشدو بما أن خالد نجح في الوصول فسننجح كما نجح .

لم أكن متشجعا كثيراً للرحلة فلم أكن أتخيل نفسي في يوم من الأيام أن أذهب إلى الأردن زائراً أو عابر طريق حتى ، فضلاً عن أن أذهب إليه الآن ولست زائراً و لا عابراً و إنما لاجئ أمرٌ كان يصيبني بالغثيان ولكن صديقي محمود بدا مصرّاً و متشجعاً للمسألة بشكل عجيب خصوصاً و أن خالد قد سبقه مما جعله يحسم خياراته بشكل فوري و سيذهب إلى الأردن من ذات الطريق الذي سلكه خالد .

جاءني محمود ليلاً زائراً ليخبرني بأنه قد اتخذ قراره و بأنه سيمضي غداً في طريق رويشد و عرض علي مشاركته في الطريق ولكنها مشاركة لمجرد الاستئناس أي أنه سيذهب معي أو بدوني .
الفرصة التي يعرضها علينا محمود قد لا تتكرر فنحن نادراً ما نتحرك في غياب من يشحذ هممنا و قد بدا محمود عازماً على المضي في الطريق مهما كانت النتيجة قررنا عندها الإستسلام للأمر الواقع و مرافقة محمود في رحلته .
ولكن لم يكن لي الإنطلاق وحيداً فقد طال انتظار أبي و أخي لخروجي من السجن و لا بد لنا الآن أن نترافق جميعاً في الطريق مهما بدت صعوبته و وعورته .
حاولنا أن نستعد استعدادات خفيفة و أن لا نكثر من الأغراض المحمولة و التزاماً بنصيحة إسماعيل حقيبة سفر ، بالإضافة إلى حقيبتي ظهر و الكثير من الملابس التي نقوم بارتدائها .
كان علينا قبل الاستعداد للسفر أن نتواصل مع المهرب و المهرب موجود في القرية مما سيختصر الرحلة علينا.. أخبرنا الرجل بأننا نرغب بالسفر معه فأبدا الرجل استعداده لإيصالنا إلى مبتغانا .
وبعد أن حزمنا حقائب السفر و مضى من الليل شطره خلدنا إلى النوم بانتظار رحلة الغد و التي فهمنا أنها ستكون متعبةً جداً .

طريق طويل إلى بَلَدٍ قريب

السفر الآن سيكون له طعمٌ مختلف فالمسافة القريبة ستحتاج إلى أضعاف الوقت السابق و حتى نتجاوز حواجز النظام علينا أن ندخل في محافظة السويداء و التي تترامى بها القطع العسكرية عن أيماننا و عن شمائلنا، وعلينا إضافة لذلك أن نمر على الطريق الدولي الواصل بين السويداء و دمشق و بما أنه يصل أحد المحافظات بالعاصمة فلا شك أن تجاوزه سيكون خطيراً فالمركبات لن تتوقف من المرور به و لذا لا بد لنا بالإضافة من الصبر على وعورة الطريق و اختيار الوقت المناسب حتى نجتاز الطريق .

حسمنا خياراتنا أخيراً و قررنا المضي ثلاثتنا إلى الأردن مع مرافقة محمود زميلي سابقاً في السجن أخبرَنا المهرب أبو وليد و الذي يسكن في قريتنا أنه سيأتي لأخذنا في الثامنة صباحاً فعلينا أن نكون مستعدين للذهاب .

صباح يوم الثلاثاء ٢٠١٤/٦/٣ كان كأي يوم من أيام الصيف التي تمر على قريتنا جو جميل في الصباح تزداد فيه حدة الشمس و لا يكسر حدتها إلا الاختباء في الظل لتجعلك النسمات تشعر بأنك في الربيع، لكن النهار لم يكن هادئاً فأصوات القذائف الآن تدك مختلف القرى و نسمعها بشكلٍ جلي واضح حتى أن بعض الشباب ممن امتلك الخبرة العسكرية لمعرفة أنواع الأسلحة من خلال صوتها سلم بأن هذه الأصوات إنما هي أصوات راجمات الصواريخ . بدأنا نعد أنفسنا في هذا الصباح للمضي في طريقنا .

و قد كنت التزمت سابقاً بإعطاء بعض الأولاد دروس التقوية في المدرسة من خلال الدورة التي كان قد أعلن عنها سابقاً لواء اليرموك لكنني لم أستمر كثيراً فاليوم الثالث كان هو اليوم المصادف لموعد الرحلة.

خرجنا جميعاً بعد أن وصل الرجل الذي سيقلنا ووصل معه مصادفةً مروان و معتصم اللذان كانا ملتزمين بالتدريس أيضاً .

فاجئتهم بقراري و فاجؤوني أيضاً بمجيئهم فشرحوا لي أن مدير المدرسة قد اعتذر منهم بأنه لم يعد قادراً على إعطائهم مفاتيح المدرسة مجدداً فقد وصل التقرير مفصلاً إلى مديرية التربية في المحافظة لم يكن للرجل عندها إلا الإستسلام و طلب العذر من المدرسين و أن يطلب منهم البحث عن مكان آخر لمتابعة التدريس و لكن مروان كان يقترح أن لا يتم التدريس هذا اليوم أصلاً لأن أصوات القذائف لا تزال تتوالى منذ الصباح الباكر .

بعد أن أنهينا الحوار وودعنا بعضنا بدأنا المضي في الطريق.

السيارة صغيرة و لا تتسع لنا جميعاً للجلوس في المقدمة لذلك علينا الجلوس في الخلف دون أن نجد سقفاً يحجب عنا شمس هذا اليوم و التي تبدو ملتهبة منذ بزوغها .

سيارة السوزوكي ليس لها القدرة الكبيرة في الدفع مما يعني أن مشوارنا سيطول أكثر و أكثر .
في ظل هذه الحرب الضروس علينا أن لا نبحث عن السرعة في الوصول و إنما السلامة وبما أن الطريق الأقرب إلى بصر الحرير يتربع عليه مطار الثعلة المحاذي لقريتنا و هناك قطع عسكرية أخرى بحذائه فيلزمنا الالتفاف حول هذه الكتل الأمنية من مدىً بعيدٍ جداً و لذلك علينا عدم التفكير بالوصول إلى قرية الكرك الشرقي مباشرةً فكل هذه التترسات تتوزع في الطريق الموصل إليها وفيما يصل بينها و بين غيرنا من القرى من جهة أخرى .
طريق المسيفرة هو الطريق الأءمن و الأنسب وهو الطريق الوحيد المتاح بالنسبة لقريتنا حالياً للوصول إلى محافظة درعا.. دخلنا المسيفرة ثم إلى قرى الغارية الغربية و الشرقية و لم أكن أعرف أيهما تسبق الأخرى أم أننا دخلنا بإحداهما فقط و لم ندخل بالثانية.
بعد الغاريتين قرية الحراك و قد بدت الأكثر تأثراً و دماراً فلا يكاد يوجد بناء خلا من الرصاص و بعض الأبنية كانت محترقة بشكل تام إلى درجة التفحم .و لكن أهل القرية لم يستسلموا و يديروا خدهم الآخر للنظام ليقوم بصفعهم بعد أن تلقوا الضربة الأولى فقد كانت حواجز الثوار تنتشر أيضاً في عدة أماكن لحماية القرية من أي هجوم مباغت من قبل اللواء المحاذي لها و هو اللواء ٥٢ .
رغم أن رحى الحرب كانت تدور بين الحراك و اللواء المجاور لها إلا أن ملامح الحياة لم تغادرها بشكل كامل فقد كان المدنيون يتبعثرون في الطرق المختلفة كل يسعى إلى وجهته أكملنا طريقنا باتجاه قرية بصر الحرير و التي لم تختلف في الدمار كثيراً عن مدينة الحراك إلا أن تواجد الناس هنا كان شبه نادر .
وصلنا إلى بيت المهرب الثاني و هو أبو أنور و هو سيأمن لنا المرشدين الذين يدلوننا على مسالك الطريق.
وصلنا نحن الأربعة أولاً و البيت شبه خالٍ مما جعلنا نشعر بالارتباك مخافة أن نقضي هذه الليلة هنا فلم يعد الرجوع يسيراً خصوصاً وأن أبا وليد الذي أقلنا من القرية إلى هنا قد عاد أدراجه بعد أن تسلم أجرته مع أجرة المهرب و التي بلغت ثمانية عشر ألف ليرة عن كل شخص و الجو في هذا البيت أقرب ما يكون إلى السجن مما سيجعل هذه الليلة مجرد تحطيم لنفسياتنا و التي كانت مستعدةً للمشي فقط. ولكن اللحظات التالية بددت مخاوفنا تماماً فقد بدأ الناس يتدفقون على الرجل من كل مكان و ليست وجهتهم واحدة هي الأردن إنما بعضهم يتجه إلى حمص و بعضهم يتجه إلى تركيا .
تفاجأنا عندما طرق أسماعنا خبر أن الناس يتوجهون إلى تركيا عن طريق الشخص ذاته الذي نتوجه معه إلى الأردن و خطر لنا في لحظة أن نغير وجهتنا و أن نمضي إلى تركيا إلا أننا قد مضينا على نيتنا الأولى و اكتفينا بسؤال المهرب عن أجرة الوصول إلى تركيا فقال خمسة و ثلاثون ألفاً .
لم يكن مبلغاً كبيراً للوصول إلى اسطنبول و لكن فات الأوان على التفكير بهذه المسألة .

فبعد مضي عدة ساعات و صلت أخيراً السيارة التي ستقلنا ولم نكن نعرف شيئاً عن الطريق سوى أننا سنمشي في وعر اللجاة مدة ثلاث ساعات حسب كلام أبي أنور ثم بعدها نقطع طريق السويداء الدولي ليلاً ثم تأتي السيارات تقلنا إلى وجهتنا .
هذه هي الرحلة مختصرة كما شرحها لنا أبو أنور . بدت رحلة سهلة ميسرة فمشي ثلاث ساعات متواصلة ليس بالأمر الصعب حتى على من هو كبير في السن كأبي .
بدأ الموجودون يتضجرون غير عارفين السبب الذي يمنعنا من الانطلاق ثم و بعد أن قاربت الساعة الرابعة و مع اشتداد شمس الظهيرة و اقتراب موعد العصر طلب منا أبو أنور الصعود في السيارة سيارة سوزوكي أيضاً و لكن هذه المرة غدا المكان مزدحما جداً فلم أعد قادراً على أيجاد مكان لي قام الجميع بالتضييق على أنفسهم حتى يتسع المكان للقادمين . سيارة سوزوكي تقل ما يقارب عشرين شخصاً أمرٌ يجعل الناظر إلى الناس في السيارة يحتار في السبب الذي يدعوهم لتعذيب أنفسهم بهذا الشكل ولكن كل إنسان كانت له حجته التي سيدلي بها في حال سؤاله عن اختياره لهذا الطريق البعض كان مريضاً خرج على أمل أن يجد العلاج المناسب و البعض خرج بحثاً عن الأمان الذي غدا معدوماً في بلده و البعض الآخر خرج بحثاً عن الأمل في حياة أفضل .
سارت السيارة ما يقارب الساعة و بدأ التضييق الموجود و الطريق الذي يتلوى يميناً و يساراً يجعل الناس تشعر بالدوار و الغثيان حتى أن أحدهم فقد القدرة على الجلوس فاستلقى على ظهره و بدأ الحاظرون و منهم أبي يمسح وجه الرجل بالماء حتى يستعيد شيئاً من نشاطه ولكن الرجل بدأ يتأمل في السماء التي اختفت منها الغيوم تماماً ثم صاح بصوت منهك :" طيارة!". و أشار إلى السماء فبدأ الناس يبحثون في السماء عن طائرة و فعلاً وجدوها ولكن بصعوبة فقد كان تحليقها على مسافة مرتفعة جداً تجعل من الصعب رؤيتها و لكن الحاظرين طمأنوه بأن الطائرة لن تقوم باستهدافنا من هذا الارتفاع وإذا قامت و ألقت البراميل مثلاً فإنها ستقع بعد أن نكون وصلنا إلى قرية أخرى .
لم يخب ظن الحاظرين فقد اختفت الطائرة بعد مدة يسيرة متوجهة إلى هدفها دون أن نعرف هل هي عائدة من مهمتها أم متوجهة إليها .
دخلنا قرية اللجاة أخيراً وزادت تضاريس الطريق التي ترتفع و تهبط دون سابق إنذار من الدوار الحاصل لنا.
وأخيراً بعد ما يقارب الساعتين طلب منا السائق النزول .نزلنا فعلاً وبدأنا نمضي و بدا الطريق سهلاً و ليس كما وصفه لنا إسماعيل و لكن بعد أن مشينا مدةً يسيرة وجدنا سيارة أخرى صعدنا مجدداً و مضت السيارة مسرعة و لكن رحلتها لم تكن طويلة نصف ساعة فقط و انتهت مهمتها .
والآن بعد أن انتهت مهمة السيارات جاء دورنا حتى نقطع المرحلة الثانية و هي مرحلة وعر اللجاة في المكان الأخير الذي تركتنا السيارة عنده كان يوجد بعض البيوت المترامية في أماكن بعيدة عن بعضها و يحيط بكل بيت سوار من الحجارة .

كانت هذه آخر الأماكن المعمورة التي نراها فما إن مشينا على الطريق المعبد بضع دقائق حتى انحدر فينا الدليل باتجاه الجبل .سألنا الدليلَ و الذي كان مسلحاً يحمل بندقية صيد (جفت) عن وجهتنا فأشار لنا إلى تل بعيد يبدو من بعده أحياناً أنه سراب و قال "هناك".

فسألناه :" كم من الوقت سنمشي على أقدامنا". فقال :" خمس ساعات فقط ".

بدأنا ننحدر في الأودية و التي ترامت فيها الحجارة بشكل استحقت معه اسم الوعورة فما إن تتجاوز قدمك حجراً حتى تتعثر الأخرى بحجر آخر قريب منه .

لا وجود للسهول هنا كلها أودية وعرة تتفرق الحجارة في كل ناحية من أنحائها .

لم يكن يخطر في بالنا أن المشي صعب لهذه الدرجة ولم يدر في خلدنا أن وعورة اللجاة اسم على مسمى إلى هذا الحد و لكن لم يكن لنا إلا المضي قدماً في طريقنا دون تأفف .

الرحلة الآن أشبه بالمسير المدرسي فما إن نمشي مسافة حتى نلتقي مع مجموعة جديدة قد سبقتنا حتى أننا لم نعد نعرف المجموعة الأساسية التي رافقناها في السيارة وبدأ الخط الذي نسير فيه يبدو غير منتهى .

نحن نسير منذ وقت طويل و هؤلاء البدو الذين يرافقوننا لم يتعبوا .إنهم أشبه بالشياطين فتارةً نراهم أمامنا ثم و بعد لحظات يختفون ثم يأتون من وراءنا ولكن طبيعتهم البدوية لم تمنعهم من تعلم التجارة واستغلال هذه المواقف فقام أحدهم بتأجير حماره مقابل مبلغ خمسة عشر ألفاً.

أكثر من نصف الأجرة التي دفعناها للوصول إلى الأردن يتلقاها الحمار أجرةً لحمل الأشخاص عبر هذه التضاريس و التي كانت معقدةً جداً بالنسبة لنا و صعودها ثم هبوطها يشكل مشكلة أكبر .

لكن البدوي الذي يقود الحمار كان خبيراً بعمله مما جعله أسرع منا في الوصول إلى هدفه .

لم يقتصر عمل الحمار على حمل الأشخاص العاجزين عن المشي و إنما قام بعضهم بتحميله أمتعة كثيرة تعجبنا منه كيف تمكن من الوصول إلى هذه المرحلة بها .

بدأ الطريق يزداد صعوبة فالمكان الذي يبعد عنا خطوتين فقط قد يكون علينا أن نلتف حوله أولاً ثم نصعد جبلاً و ننزل وادياً لنصل إليه .

بدأ الليل يرمي بأستاره على الجبال التي نتجاوزها و لكن وجود القمر كان يشعرنا بأن طريقنا رغم صعوبته سيكون ميسراً و سنصل في النهاية إلى هدفنا .

رغم أن بعض البدو استغل حاجة المسافرين معنا ممن جعله الهرم عاجزاً عن المشي إلا أن بعضهم الآخر لم يألُ جهداً في مساعدة المسافرين بحمل أغراضهم الشخصية حيناً أو حمل أطفالهم الصغار حيناً آخر ، وبما أن العملية تتم سراً فلا بد من بعض التحفظات الأمنية و التي بدت بلا معنى في أحيانٍ كثيرة فقد منعوا من معنا من الشباب من المدخنين من شهوتهم مخافة أن تبصر ضوءَ السجارة إحدى القطع العسكرية و عندها لا أحد يعرف كيف سينتهي مصير هؤلاء المسافرين الذين بات عددهم يربو

على المائة و لكنهم كانوا يسمحون لأنفسهم بالتدخين و جوالاتهم تستقبل الاتصالات و بنغمات مرتفعة ولكن لم يكن لأحدٍ أن يتساءل عن سر هذا التمييز ما داموا هم من يتولى أمرنا الآن .
حاولت أن أقضي على الملل خلال الرحلة بتصوير ما أراه من مشاهد قد لا تتكرر في حياتي مرةً ثانية و لكن الليل بدأ يخيم و لم يعد التقاط الصورة ممكناً إلا باستخدام الإضاءة الذاتية للجوال الفلاش استخدمتها فعلاً فانتشر الضوء على مساحة واسعة و بدأ الجميع بالصراخ عليّ مخافة أن أكون قد أوديت بهم إلى التهلكة فأغلقت الجوال و عدت إلى السير في الطريق دون تصوير.
نصعد مرتفعاً لنهبط من آخر و الجبل الذي كان يبدو سراباً لم نعد نرى أثراً له و بدأت سرعتنا تتباطئ أكثر فأكثر بسبب التحاقنا بغيرنا من المسافرين و التحاق غيرنا بنا .
كان من الممكن أحياناً رؤية جزء من الخط الذي يشكله المسافرون بسيرهم متتابعين وراء بعضهم و لكن عليك عندها أن تعتلي قمة صخرة تشرف على انحدارهم باتجاه الوادي .
مع وعورة هذه التلال و الصعود و الهبوط المتوالي أصبح الجميع يلهث بأنفاسه و يتساءلُ في كل لحظةٍ عن موعد الوصول إلى السيارة ولكن دون فائدة .
فالبدو الذين كانوا يرشدوننا ينهون الحوار بسرعة وبكلمة مختصرة : "بعد قليل نصل " .
والجميع يتعلل بهذه الكلمات .كان كلام أبي أنور يسهّل الرحلة جداً " مجرد ثلاث ساعات من المشي ثم تصل" .
لا شك أنه كان كاذباً ، و لا شك أنه و الحالة هذه ناله ما ناله من دعوات العجائز الذين لم يكونوا قادرين على المشي هذه المدة في طريق عادي معبد ، فكيف بهم الآن و وعورة اللجاة تعجز الشاب و العجوز على حد سواء .
ثلاث ساعات من المشي المتواصل تخللتها بعض الاستراحات انتهت و لم نصل إلى هدفنا بعد .
لم يعد أحد يفكر في الوصول إلى الأردن و إنما بات همُ الجميع هو مجرد الوصول إلى طريق دمشق السويداء.. لم يكن للبدو أن يضبطوا هذه الجموع الكثيرة إلا بالصراخ و لكن الأطفال الصغار لا يفهمون هذا الصراخ فإذا داهمتهم حاجة فسيبكون و يصرخون دون الالتفات إلى خطورة الموقف و لكن رغم كثرة الأولاد الصغار فقد كانوا هادئين و ما أن يبكي أحدهم حتى يصرخ به أبوه فيسكت الطفل مذهولاً من التعابير التي يراها ترتسم على وجه والده لأول مرة .
اقترب الليل من الانتصاف و لانعرف كم قطعنا من الطريق و لكن الوعورة التي عانينا منها كثيراً بدأت تنتهي و بدأت أقدامنا تدوس التراب أخيراً فبدأت خطواتنا تتسارع أخيراً .
طلب منا المرشدون الانتظار قليلاً لم نعرف ما السبب بدايةً ولكن العدد الكبير الذي كان يمشي كان يتأخر أناس منهم نتيجة حملهم الأمتعة الكثيرة فكان لا بد من انتظارهم وبعد أن اكتمل العدد ووصل جميع المسافرين بدأ الشاب البدوي الذي يرافقنا يلقي علينا التعليمات حتى نقطع طريق السويداء فقد أوشكنا على الوصول إليه فقال : " عندما تصلون إلى الطريق تقطعونه بسرعة عندما أمركم ، انتبهوا جيداً أي سيارة أو أي خطأ قد يودي بنا جميعاً إلى التهلكة فنحن في قلب السويداء الآن " .

الرعب الذي كان يسيطر علينا نتيجة دخولنا هذه الأراضي المحرمة جعلنا على استعداد لتنفيذ أوامر الدليل بحذافيرها .
بعد أن ارتحنا قليلاً بدأنا نمشي مجدداً لنقطع المرحلة الأخطر .
وصلنا أخيراً إلى الطريق ، و عندما أمرنا الدليل بالإنطلاق نسي العجائز مرضهم و نسي الشباب تعبهم و قطعوا الطريق بسرعة البرق .
الطريق الأول ثم الطريق الثاني ثم و تفاجأت بطريق ثالثٍ معبدٍ قطعناه بسرعة .
في ظل هذه الصعوبات لم تسعف القدرة بعض الناس على إكمال الطريق فقد كانت إحدى النساء حاملاً و قد أتعبها المسير المتواصل و عندما قطعنا الطريق لم تتمالك نفسها من التعب و سقطت فاقدةً الوعي .لم نعرف بخبر هذه المرأة حتى مشينا بعد قطعنا مسافة من الطريق الأخير ، فقد بدأ البدو يتفقدون الناس فلم يجدوها و عاد أحدهم للبحث عنه باستخدام الدراجة النارية .
يبدو أننا وصلنا لبر الأمان فالذين نراهم الآن هم غير الأشخاص الذين كانوا يرشدوننا في بداية الطريق و معظمهم يركب الدراجات النارية غير مستخدمٍ الإضاءة .
بدأنا نلملم بعضنا حتى نعرف إن كنا فقدنا أحداً أم أننا جميعاً وصلنا ، وبدا أن المرأة الحامل التي راح البدو يبحثون عنها هي الوحيدةُ الغائبة .
الطريق مظلم بشكل كامل ، قطعنا الطرق الثلاثة و سرنا مسافةً طويلة و لم تمر سيارة في هذا الطريق. يبدو أن الحرب قد ألقت بظلالها على السويداء أيضاً و لكن بأقل مما عاشته غيرها من المحافظات. لم أفهم الموقع الجغرافي بالنسبة لنا حتى الآن ، فقد قطعنا طريق السويداء و إلى اليمين الأنوار موجودة مما يعني أن الكهرباء تعمل و هذا أمر اعتيادي بالنسبة للسويداء و لكن المحافظة التي يفترض أن تتواجد إلى يسارنا هي محافظة ريف دمشق و الأنوار فيها موجودةٌ و بكثرة أيضاً و هذا أمر أشبه بالخيال فريف دمشق يقبع تحت حصار مطبق منذ فترة طويلة و لا أظن أن الكهرباء تعمل كما أن امتداد الأضواء لا يوحي بأنها تتبع لقرية و إنما لمحافظة كبيرة . أياً يكن فهذه الأنوار بعيدة و لن تشكل خطراً علينا و إنما المشكلة في هذا الضوء القوي المسلط خلفنا حتى أنه يجعلنا قادرين على رؤية بعضنا بوضوح بالإضافة إلى ضوء يقبع في قمة الجبل غير أنه ليس بالقوي كالذي خلفنا ويبدو أنه أشبه بأضواء المحارس .
كان من المفترض بالسيارات أن تنتظرنا على بعد ٢ كيلو متر نقطعهما مشياً ثم نرتاح و نصعد بالسيارة
ولكننا سرنا مدة ساعةٍ أو أكثر و لم تصل أي سيارةٍ حتى الآن . حسناً علينا أن نسلم أن بضاعة المهرب هي الكذب و ليس لنا الآن إلا الإستسلام للأمر الواقع و المضي قدماً و أخيراً وصلت إحدى السيارات فبدأ الناس يتزاحمون عليها .
لا شك أنه لا وقت للذوق الرفيع هنا و لكن المروءة لا بد منها فكان على الجميع إعطاء النساء أماكنهم حتى و إن وصل قبلها .

قبل الجميع الأمر و نزل الرجال و صعدت النساء باستثناء من كان مرافقاً لعائلته لم يسلم بتركها و بعض الناس الذين سمعوا الكلام دون أن يلقوا له بالاً .
ما دامت السيارة وصلت إلى هنا فلا شك أن غيرها من السيارات ستصل أيضاً إلينا و ليس لنا إلا الإنتظار ثم إن المشي لن يقدم لنا شيئاً حتى لو مشينا ساعتين فماذا عسانا نختصر من الطريق خصوصاً و أن أجسادنا قد أنهكها التعب و السيارة لا يؤثر بها هذا التعب .
صعد أبي مع أحد سائقي الدراجات النارية و الذي عطف عليه بعد أن رآه منهكاً من شدة التعب فطلب منه الصعود خلفه .
مضي أبي و بقينا نحن الثلاثة أنا و أخي أحمد و محمود بالإضافة للشباب الذين نرافقهم في هذا الطريق.
انتظرنا و طال انتظارنا فبدأنا نمشي مجدداً حاولت ثني الشباب عن المشي لكن دون نتيجة فقد ظنوا أن الحل الوحيد في المشي و لم يكن لي عندها إلا اتباعهم على مضض .
هذه زيارتنا الأولى إلى الأردن و لكن بعض الشباب ممن يرافقنا كان مقذوفاً منذ فترة قريبة منذ يومين تماماً و ها هو يحاول مجدداً .
استمر هذا الشاب يشرح لنا الطريق فقال : " سنتوجه الآن إلى نقطة أم قصر إلى بيت أبي عمر، شخصٌ لئيم على استعداد أن يأخذ ثيابك أجرةً لعمله حتى أنه كان يقوم بأخذ الذهب من النساء أجرةً له " .
مكاننا لا يبعث على الاطمئنان و السيارات لم تعد حتى الآن و بعد مشي عشر ساعات أخيراً وصلت السيارة الموعودة فترامى الجميع عليها صعدنا نحن الثلاثة و مضت بنا السيارة أخيراً .
اعتقدنا عند وصولنا للسيارات أن الرحلة انتهت و نحن بانتظار السائق أن يقول لنا هذه هي حدود الأردن، ولكن بعد مشي ساعة تقريباً في السيارة توقفت السيارة و طلب منا السائق النزول نزلنا فعلاً ووجدنا بيتاً منفرداً يقبع في الصحراء بعيداً عن أي ملمحٍ من ملامح الحياة .
لم يخطر لي عندما رأيت هذا المنظر إلا أننا قد وصلنا الحدود ، و لكن بدأت الناس تتجمهر حول هذه الغرفة المنفردة و بدأت أسمع بدوياً يصيح بالأسماء توجهت إليه حتى أفهم ما أريد فتبين أنه الشخص الذي كان يحدثنا عنه الشاب سابقاً (أبو عمر) .
بدا كلام الشاب في حق هذا الرجل مدحاً فقد كان أسوأ مما ذكر و لا عجب فأمه فاقته سوءاً فقد استقبلت الجميع بالشتائم و التوبيخ دون النظر إلى أن بعض النساء قد تفوقها سناً غير أن هذه هي طبيعة البدو الجلافة المطلقة و إذا اقترنت بالكفر كان البلاء مضاعفاً فـ(الأعراب أشد كفراً و نفاقاً).
بعد أن دفعنا لأبي وليد مبلغ عشرين ألفاً و هو الأجرة الكاملة حسب كلامه راجعه محمود في أن هناك أجرة سيارة (حصنية) يبلغ ٣٠٠٠ عندها قام الرجل بإرجاع ألفين فقط لنا حتى نعطيها أجرةً للسيارة و لكن أبا عمر فرض الأجرة على الصغير و الكبير على حد سواء و هي ثلاثة آلاف ليرة .

أعطيتُ الرجل المبلغ و بدأنا ننتظر السيارة التي ستقلنا .لم ننتظر كثيراً أقل من ساعة ثم طلب منا أبو عمر الصعود في إحدى هذه السيارات الموجودة بدأ الجميع يأخذ مكانه بسرعة مخافة أن تنطلق السيارة دونه .

السيارة أكبر من سيارة السوزوكي التي أقلتنا سابقاً و أصغر من سيارة الشحن و السوار المحيط بها عبارة عن خشبات صغيرة سميكة تلف محيطها كاملاً و هي أشبه بسيارات الجيش . أخذنا أماكننا جميعاً و اقتربنا من بعضنا نحن الأربعة فقد التقينا بأبي الذي كان قد سبقنا بالدراجة . صلينا الفجر سريعاً متيممين حيث أننا لم نجد الماء و حاولنا استغلال الوقت القليل قبل أن يأمر أبو عمر السيارات بالانطلاق فلم أشك أنه لا يصلي و أن الصلاة لا تشكل مشكلة بالنسبة إليه . هذا هو المكان الأخير الذي سنجلس فيه حتى نصل إلى الأردن .الآن يمكن لنا أن ننام مرتاحين . بدأت السيارات تمشي فعلاً وبدأ التعب يلقي بأثقاله علينا و بدأنا نقطع الطرق بالنوم حيناً و بالنظر إلى المشاهد حولنا حيناً آخر و لكن المشاهد التي نراها أوحت لنا بأننا في صحراء قاحلة لا يعرف الداخل إليها إن كان سيخرج منها حياً .

ولكن لم يكن لنا إلا الإستسلام و النوم بانتظار الاستيقاظ على خبرٍ مفرح يبشرنا بالوصول . قريتنا قريبةٌ جداً من الحدود الأردنية و لكن الحدود الرسمية مغلقة و الخيار الوحيد الذي كان متاحاً هو طريق رويشد . لم أستوعب خط السير بشكل تام فقد خرجنا من قريتنا ثم توجهنا باتجاه وعر اللجاة ودخلناه لنقطع طريق دمشق السويداء المدينة التي تتربع في الجنوب الشرقي من سورية ولكن السويداء ليس لها أية حدود مع الأردن و حدود درعا مغلقة ، فلا بد أننا نتوجه الآن باتجاه محافظة حمص التي تحد بالإضافة إلى لبنان و العراق الأردن أيضاً ولكن دخول حمص الآن يشكل خطراً كبيراً خصوصاً و أن المحافظة التي كانت عاصمة الثورة السورية في يوم من الأيام قد باتت معظم مباني مدنها أثراً بعد عين بسبب استماتة النظام في فرض سيطرته عليها و هذا ما نجح به منذ فترة قريبة ، ثم جعل معظم مدنها ركاماً بسبب ما تلقته من براميل و أنواع الأسلحة المختلفة . ولكن بما أننا نتجه نحو الأردن فلا شك أننا سنسير في الصحراء و هذا ما سيجعلنا في منأىً عن أي خطر محتمل يتمثل بقطعة عسكرية للنظام.

أخذ الجميع أماكنهم في السيارة بعد أن طلب منا البدوي اللئيم الصعود إليها ، فتزاحمنا على الأمكنة حتى باتت المساحة الواسعة تضيق علينا .مع وشوك الشمس على الإشراق بدأت السيارة تنطلق بنا . لم أتخيل أنه يمكن للسيارة أن تمر عبر هذه التضاريس التي يصعب على الإنسان أحياناً تجاوزها و الأعجب منها هو كيف يتخطاها السائق فهو يتحكم بالسيارة كأنه إنسان يستعمل قدميه .

بدأت السيارة تهبط و تصعد و تمشي ببطيءٍ شديد فالتضاريس كانت صعبةً جداً ، ثم و عندما بدأت الشمس ترسل أشعتها على هذه الصحراء الواسعة التي تحيط بنا بدأت السيارة تمضي بسلاسة أكثر في الطريق .

بعد أن مشينا مسافة قليلة شاهدت لوحةً مكتوباً عليها (شارع عليا) فتفاءلت مباشرة بأننا قد وصلنا إلى الأردن و لكن تبين بعد قليل أنني مخطأ .
الأرض صفراء و كل ما تثيره السيارة الآن هو الغبار الأصفر و الذي بدأ يمتزج بأجسادنا و ملابسنا لكثرته حتى بتنا نظنه جزءاً من أجسامنا . ألقى التعب بظلاله علينا و بدأنا نتهاوى من التعب غير أننا لا نجد مكاناً للنوم فيه فلم يكن لنا إلا النوم جالسين بانتظار خبر الوصول . بدأت حرارة الشمس تشتد و لا تزال السيارة تسير منذ فترة طويلة .
بدأ الشاب الذي تم قذفه منذ يومين يحدثنا عما يمكن أن نصادفه من احتمالات في طريقنا فقال : " سيقوم السائق بإنزالنا بعد الساتر السوري و قبل الساتر الأردني و سيقول لنا أن المسافة قريبة و هو كاذب لا تصدقوه لأننا سنمشي ما يقارب ال٣ كيلو متر " .
وقال : " نحن في المرة السابقة لم ننزل و لم نستجب للسائق حتى قام بإيصالنا إلى الساتر الأردني ".
أبدى الجميع تصديقه لكلام الشاب و أظهروا العزيمة بعدم النزول حتى نصل الساتر . سارت السيارت ما يقارب الثمان ساعات مثيرةً الغبار من كل مكان .
أخيراً بدأ الشاب يقول :" أوشكنا على الوصول". و ها هو الساتر السوري يبعد عنا مسافةً قريباً فعلاً.
مشت السيارة قليلاً ثم صعدت تلاً ترابياً و هبطت منه و تابعت السير مسرعةً فقال الشاب: " ها نحن الآن قد قطعنا الساتر". نظرت إلى الساتر الذي بات خلفنا ولم يكن أكثر من تل رملي يرتفع ارتفاعاً بسيطاً عن الأرض و يمتد امتداداً طولياً .
وأخيراً الأحلام العروبية في قهر اتفاقيات التقسيم قد تحققت و لكن ليس كما كنا نتخيلها عندما نتلقى الجرعات القومية في المدرسة و إنما بتقلب الأيام و الأزمان و بسواعد اللاجئين الهاربين متعاونين مع المهربين . لا بقرارات قيادية من السلطات التي لم يكن لها عند رؤية الهاربين إلا أن تسمح لهم بدخول أراضيها على مضض مبتغيةً بذلك رضا النظام الدولي .
لا يهمنا الآن سخط النظام الدولي أو رضاه كل ما يهمنا الآن هو تحقيق هدفنا في الوصول إلى داخل الأردن .
وليست السياسة الآن هو الشيء الذي نفكر فيه و إنما الوصول إلى هدفنا .
تماماً وكما قال الشاب مشت السيارة مسافةً قصيرةً ثم توقفت ونزل السائق ليطلب من الجميع النزول وأشار إلى الساتر الأردني و قال : " هذه هي الأردن انزلوا الآن و سيأتون هم لأخذكم " ، لكن أحداً لم يعره انتباهاً و قالوا " لن ننزل حتى توصلنا إلى الساتر " و لكن السائق أصر على كلامه متعذراً بأن السلطات لا تسمح لأحدٍ بالاقتراب من الساتر و قال " إذا اقتربت منهم سيقومون بحجز سيارتي و هذا ما لا ترضونه أنتم لي خصوصاً وأنكم وصلتم " .
قبل الجميع بكلام السائق و بدأ الناس ينزلون من السيارة و يمشون في الإتجاه الذي أرشدنا إليه السائق.
لم تكن سيارتنا السيارة الوحيدة التي انطلقت و إنما كانت ثلاثة سيارات تسير معاً و الآن وصلنا نحن وهناك سيارة قريبة منا و سيارة لم نعرف عنها شيئاً .

أياً يكن فقد وصلنا إلى نهاية الطريق و لا شك أن السيارة الثالثة ستلحقنا بعد و قت قليل. بدأنا نمشي و الصفرة قد صبغتنا جميعاً حتى غدت مناظرنا مضحكة .
لم نكثر من الأمتعة و إنما جلبنا حقيبة سفر وحقيبتي ظهر فقط و رغم قلتهما إلا أننا فكرنا مرةً في التخلص منها جميعاً لشدة الإرهاق و التعب إلا أننا آلينا الصبر على ذلك .
رغم أننا نحمل ثلاثة حقائب إلا أن وزنها مجتمعة لا يعادل وزن حقيبة محمود التي قد أودعها كل شيء خطر على باله فيما يبدو . حتى أنه قد أعياه التعب كثيراً فحاولنا مساعدته خصوصاً و أننا لا نحمل شيئاً يمكن أن يقارن بما جلبه غيرنا من الأمتعة .
بدأنا نمشي في اتجاه الساتر و الجميع تعبٌ إلا أن الأكثر تعباً كانوا هم المسنون الذين ذهب الهرم بشطر قوتهم و لم يبقى لهم من القوى إلا مقدار ما يقضون به بعض حوائجهم .
استوقفتنا امرأةٌ عجوز لم تكن مسنة جداً إلا أن أثر التعب واضح عليها بشكلٍ جلي فهي لا تقدر أن ترفع ظهرها الذي حناه الدهر و طلبت منا أن نحملها فقالت : " يا خالتي أرجوكم احملوني لم أعد قادرةً على المشي البتة " .
بدأنا نتصفح وجوه بعضنا ونتأمل في طلبها كيف سنحملها و نحن بحاجة إلى من يحملنا . حاولنا الاعتذار منها بطريقة مؤدبة مشيرين إليها بأننا أوشكنا على الوصول و بدأ أحد أقربائها يهون لها المسافة قائلاً "بضعة أمتار و نصل".
تركنا العجوز و مضينا و ابتعدنا عن التجمع الكبير حتى لا نتورط مرة أخرى بأن يطلب أحدهم المساعدة منا عندها لن نعرف ماذا سنفعل ، مشينا مسافة اثنين كيلو متر تقريباً لنصل إلى الساتر ، مجرد تلٍ ترابي إلا أنه يحوي قبله خندقا صغيراً .
لم نعرف ما يجب علينا عمله و لكن بدأت الناس تتوجه إلى بعض الحجارة المرصوفة بشكل متجاور على ارتفاع بسيط من الأرض أقل من متر تقريباً و تم تغطية هذه الكومة بالبطانية العسكرية .
بدأنا نأخذ الأغطية من الخيم التي كانت منصوبة سابقاً ومضينا باتجاه كومة حجارة قد رسمت بشكل منتظم أكثر لتشكل جدران جحر صغير وضعنا البطانية عليه و وضعنا بطانية على الأرض الصحراوية، ثم بدأنا ننتظر غير عارفين ماذا يجب أن نفعل و هل علينا أن نبلغ أحداً أم أننا قضينا ما علينا و بقي الذي عليهم (هم) أي على السلطات .
عدة خيم كانت منصوبة في أماكن متفرقة يبدو أنها من وضع من سبقنا فقد أخبرنا إسماعيل أنه جلس أربعة أيامٍ في العراء.. نرجوا أن يكون حظنا أفضل من حظه و ألا نضطر إلى المبيت في هذا المكان.
ليس جميع الموجودين هنا هم من القادمين الجدد و إنما هناك خيمة تحتوي بعض شباب قالوا بأنهم من الثوار من الجيش الحر ينتظرون أن يعودوا إلى سورية فقد جاؤوا حتى يتعالجوا من الإصابة و لكنهم لم ينجحوا في الوصول إلى بغيتهم و قرروا العودة و هم الآن ينتظرون صديقهم الذي دخل إلى الداخل حتى يعود و يعودوا جميعاً .

مضى بعض الوقت ثم وأخيراً جاءت سيارة حرس الحدود السيارة و هي عبارة عن وانيت قد نصب في مؤخرته (بي كي سي) ولونها أقرب إلى لون الصحراء كما هو لون لباس الجنود الذين يركبونها.
جاء أحدهم وبدأ يقول " أعطوني الأسماء " .
فتحلق الجميع حوله حتى أوشك الرجل على الاختناق كلٌ يحاول أن يسجل اسمه أولاً .
بدأت حرارة شمس الظهيرة تشتد و بدأنا نلاقي نتيجة المشقة التي عانيناها في القدوم فقد أصبحت أرجلنا غير قادرة على الحركة إلا بصعوبة و لم نتذوق الطعام منذ فترة طويلة أكثر من يوم و ليلة و نحن دون طعام إلا ما تيسر لنا سريعاً من بعض حبات الطماطم و رغيف خبز تناولناها خلال مسيرنا في اللجاة .
ومع حلول المساء بدأت حرارة الشمس تنكسر وبدأ الهواء الصيفي الحارق الذي أحرقنا ظُهراً يتحول إلى نسيم عليل .
جاءت السيارة العسكرية مجدداً و لكنها هذه المرة حملت ما كنا نتمناه ليس الدخول فهذا أمر كان بعيدًا عن أذهاننا الآن و إنما حملت الطعام و هذا ما سينسينا التفكير أين سنقضي هذه الليلة .
بدأ العسكري يقوم بتوزيع الطعام وجبةٌ لكل شخص . فتحت الوجبة حتى أقضي على الجوع أخيراً و تفاجأت بهذه الوجبة الدسمة (الكثير من الأرز بالإضافة إلى قطعة من لحم الدجاج مع كأس من اللبن) وجبة جعلتنا نشعر بالتخمة أنهينا جميعاً طعامنا وبدأنا ننتظر ما سيحمله لنا المساء من أخبار هل سننام في العراء أم سندخل إلى الأردن لا أحد فينا يعلم .
رغم أننا وصلنا إلى حدود الأردن و رغم ابتعادنا عن قريتنا مسافة شاسعة إلا أننا وجدنا واحداً من أبنائها هناك . رأيته من مسافة قريبة فناديته إنه حسام جارنا فسألته ماذا تفعل هنا فلم يبدو عليه أثر السفر مثلنا فقال : " لقد كنت في الداخل و كان سيتم فرزي اليوم إلا أن الضابط المسؤول طلب منهم إخراجي إلى هنا عقوبةً لي " .
يبدو أن طبيعة المرء لا تتغير و مهما حاول أن يبدو مؤدباً فلا شك أن طبعه سيغلب تطبعه .
قام الضابط بطرده لشغبه و لكنه سيدخل اليوم مجدداً حسب كلامه .
بدأ الليل يفني ما بقي من النهار و يمد ظلمته في كل مكان . يبدو أن ظلام الليلة سيكون شديداً ولكن ظنوننا خابت فما هي إلا لحظات حتى وصلت سيارة نزل منها ضابط و بدأ يلقي الأوامر و التعليمات .
لا تختلف طبيعة الضباط أينما كانوا فكلهم يظنون أن الناس مجندون لخدمتهم و لهم الحق في معاقبتهم بل و حتى استعبادهم . بدأ يهذر كثيراً ولم أذكر من كلامه شيئاً إلا ما حفظته من خطابات غيره من العسكر
: " أهم شيء هو النظافة و الانضباط ، إذا كنت محترماً سأحترمك و إن لم تكن كذلك فسنعلمك الإحترام بعد أن تلقى نتيجة ذلك ، و لابد من التنظيم فالفوضى لن تسرع العمل ، ثم قال

ستصل الآن السيارات و تصعد النساء في إحداها و يصعد الرجال في السيارة الأخرى، والآن اصطفوا على شكل رتل " .
بدأنا بالاصطفاف فعلاً على شكل رتل طولي وو قفت النساء إلى جانبنا، ثم بدأ أحد العسكر يسأل كل إنسان عن تاريخ مواليده فيقدم الكبار و يؤخر الصغار حتى جعل الرتل متسلسلاً تسلسلاً عمرياً .
وأخيراً وصلت السيارات ثم أمرنا الضابط بالخروج إليها الواحد تلو الآخر نفذنا أمره متأملين أن نصل الليلة إلى مكان يبتعد بنا عن وحوشة الصحراء وأن نجد مكاناً آمناً ننام فيه مطمئنين.

بعد أن اصطففنا أمام الظابط و أنهى محاظرته سريعاً ، قدمت السيارات من مكان بعيد تشق عباب الصحراء ناثرة الغبار خلفها كيفما اتجهت .
عند وصولها طلب منا الضابط الصعود بشكلٍ منظّم و متتالي ، بدأنا نقطع الساتر عندها و نرمي أنفسنا داخل السيارة التي كانت محشوة تماماً لحظة دخولنا ، ليس هناك مكان تضع فيه قدميك و لكن لا بد من الصعود .
بدأت السيارة بالسير لتثير الغبار علينا مجدداً والمكان يكاد يضيق بنا حتى عن التنفس لكن المسافة لم تكن طويلة ، بضعة دقائق ثم بدأ الناس يتسارعون في النزول من السيارة و لكننا لم نضطر للعب الالعاب البهلوانية هذه المرة للنزول من السيارة ، فقد اصطفت السيارة بجانب سلم حديدي يشبه سلم النزول من الطائرة إلا أن هذا مخصص لسيارات الشحن .
نزلنا جميعاً و بدأنا نتفرق في المكان حتى نتعرف على المكان الذي جهدنا في السعي للوصول إليه هل كان يستحق كل هذا العناء .
أرض صحراوية وخيم ضخمة متفرقة في عدة أماكن بالإضافة إلى بعض الرطوبة و الرائحة الكريهة المنتشرة بسبب الحمامات التي كانت تطل على ما يشبه البحيرة الصغيرة و التي تشكلت أمامها لسوء خدمة الصرف الصحي .
بعد أن وصلنا أخيراً كان على السلطات أن تبدأ بتسجيل أسمائنا و بما أننا عائلة فسيكون أمر دخولنا ميسراً أكثر حسب ما فهمنا فقد شاع كلامُ أن السلطات لا تقوم باستقبال العزاب حالياً و إنما العائلاتِ فقط و قد يواجه الأعزب مصير القذف لدى وصوله مباشرة .
اصطففنا أمام الكرفانة التي يتم تسجيل أسمائنا بها بانتظار دورنا .
قبل أن ندخل صاح العسكري بنا قائلاً :" لا يأتيني أحدكم و يقول لي هويتي هي رخصة قيادة فنحن لا نعترف عليها الهوية و لا شيء غيرها هذا ما نعترف عليه ".
لم أكن أحمل الهوية فقد بقيَت مرميةً في سجن غرز ولم أكن لأفكر بمحاولة جلبها خصوصاً و أن خروجنا كان صاخبا جداً .
وصل الدور إلينا أخيراً فدخلنا نحن الثلاثة فهمَّ العسكري الذي يعمل على الكمبيوتر أن يسجلنا ضمن قائمة العزاب و لكن أحمد حاول مقاطعته قائلاً نحن عائلة فتدخل عسكري بجانبه و طلب منه أن

يضعنا في قائمة العائلات شارحاً لزميله بأنه فعل هذا اليوم مع حالة أخرى كانت مشابهة لحالتنا و لم يعترض رئيسه على ذلك التصنيف .
بدأ الرجل يدون الأسماء ثم أخذ الأوراق الرسمة و بدأ يعد الهويات "واحدة اثنتان أين الهوية الثالثة " قالها العسكري و هو يتأمل بنا فأجبته " أني لا أملك هوية"
فبدأ بالضحك و قال "لا تملك هوية و تأمل في الدخول" و صفق يديه كأنه يراني أطلب المستحيل
انتهى التسجيل و أعاد العسكر أوراقنا إلينا ثم خرجنا نبحث عن مكان نقضي فيه ما تبقى من هذه الليلة.
الخيمة كبيرة جداً ربما يصل طولها إلى ثمانية أمتار أو أكثر و أوتادها عبارة عن أعمدة متوزعة في أطرافها ووسطها ، رغم حجم الخيمة الكبير و رغم وجود أربعة أو خمسة خيم إلا أنها كانت ممتلئة تماماً حتى أن المكان في الخارج بدأ يضيق عن الناس .
الخيمة تحوي الرجال فقط في حين أن النساء توجهن إلى الكرفانات و هي أشبه ما تكون بصندوق سيارة الشحن الكبيرة.
ليس لنا الآن إلا أن نستظل السماء و نفترش الغبراء على أمل أن ننتقل غداً إلى مكان أفضل
بدأ الصابط يقوم بتوزيع الطعام على الوافدين و كالعادة وجبة لكل شخص وجبةٌ مشبعةٌ أكلناها ثم حمدنا الله عليها و بدأنا ننتظر الغد عسى أن ننتقل إلى مكان نستطيع أن نحصل على مكان ننام فيه على أقل تقدير .
أشرقت شمس الصباح و بدأت خيوط أشعتها تمنعنا من النوم لم يكن لنا حينها إلا الاستيقاظ لنتابع كيف يسير روتين اليوم هنا .
لم يمضي وقت طويل حتى بدأ الضابط يقوم بتوزيع وجبة الإفطار و التي كانت مماثلة لوجبة عشاء الأمس.. بعد أن انتهينا منها بدأ العسكري ينادي الناس للخروج من الخيمة ، سارع الجميع لامتثال الأمر على أمل أن يتم نقلهم من هذا المكان هذا اليوم .
بدأ الضابط يعد الأسماء وبدأت الناس تتحلق حوله متأملين أن يزيد قربهم من إمكانية ترحيلهم عد الضابط أسماءً كثيرة ، إلا أننا لم نكن من بين هذه الأسماء .
ليس لنا الآن إلا الإنتظار و الذي سيكون أسهل على اعتبار وجود مساحة شاغرة أوجدها ترحيل الناس اليوم .
عدنا إلى الخيمة حتى ننام لإن الليلتين الأخيرتين كانتا شاقتين و الآن وجدنا فراشاً نلوذ به عن حر الشمس.
لم يمض على دخولنا وقت طويل حتى عاد العسكري يصرخ مجدداً داعياً للإجتماع و مقتصراً في طلبه هذه المرة على العزاب لم نعرف ما يريد العسكري و لكن بعد خروجنا اتضح أنه يريد منا أن نزيل الفوضى التي حدثت في أرجاء المكان بسبب تناولنا للطعام .

نظفنا المكان سريعاً ثم عدنا و لا يزال النهار في أوله، لا نعرف ما هي الوسيلة التي ستقصّر من طول هذا اليوم و تخفف وطأة الملل الذي نعيشه .
خرج محمود ليتوضأ ثم عاد إلينا و بصحبته مفاجأة إنه أبو فادي زميلنا في سجن غرز سابقاً .. كان رجلاً طاعناً في السن جعلت سنون الخدمة المتوالية ـ و التي قضاها في الشرطة العسكرية خادما مخلصاً للنظام ـ شعره أبيض تماماً.. احتمل معنا أبو فادي بجسمه النحيل الأيام الصعبة في سجن صيدنايا ثم و بعد ان انتقلنا إلى سجن غرز تعرفنا إليه أخيراً هناك .
رغم أن الرجل كان يعمل في الشرطة العسكرية إلا أن شبهةً واحدةً حامت حوله جعلته يودَع في السجن إلى أمد غير معلوم .
و بعد أن تعرفنا على مدة أحكامنا و التي كانت تتراوح بين الإعدام المخفف للمؤبد إلى السجن سبع سنين ، نال أبو فادي الحكم بالسجن عشر سنين ، إلا أنه كان صاحب حظٍ سعيد بانتقاله إلى سجن غرز حيث تم تحريره معنا أخيراً .
و كطبيعة أي عائلة في سورية بعد بداية الثورة لم يخل بيت أبو فادي من مصاعب و أزمات كانت آخرها استشهاد ابنه في حلب حيث كان يقاتل مع الثوار .
سلمنا على الرجل بحرارة و سألناه عن الوضع في قريته و ما هي الحال التي آلت إليها بعد خروجه من السجن، فقال :" الوضع سيء جداً و لربما كلمة سيء جداً لا تفي بالغرض و لكني لا أعرف كلمة أسوأ منها القذائف تمطرنا ليل نهار دون توقف، الميغ لا تتوقف عن التحليق و قصف القرية، و الطيران المروحي يزور القرية كل يوم مزوداً ببراميله المجنونة الغبية بالإضافة إلى الهاون و الراجمات و صواريخ الأرض أرض ، باختصار رحى الحرب تطحن جاسم الآن و لا حل إلا بالهرب".
حمدنا الله على الهدوء الذي تعيشه قريتنا فرغم أنها تعد ضمن نطاق المناطق المحررة و التي تقع تحت سيطرة الثوار إلا أنه من القليل النادر أن تتلقى البراميل أو صواريخ الأرض أرض.. سألناه كيف كانت رحلتك و كم هي المسافة التي مشيتها فقال :"لم أمش أبداً ".
تعجبنا من ذلك فنحن لا نعرف أي طريق يمكن أن يوصلنا إلا هنا دون المشي فاستفسرنا منه أكثر فقال :"بعد أن ساء الوضع جداً كما وصفت لكم قررت الخروج و مضيت إلى أحد المهربين و اشترطت عليه أنني لن أمشي أي متر فأبدى استعداده لإيصالي مقابل مبلغ ٤٠ ألف ليرة و الوسيلة ستكون هي الدراجات النارية ،
توجهت إلى بيت الرجل قبل يوم من الرحلة و الذي كان في قرية (جبيب) المجاورة لقريتكم .
في اليوم التالي خرجنا و كنا نركب دراجتين فقط مضينا ، و سار الأمر بسهولة بحمد الله لم يخلُ الأمر من مخاطرة فقد انعطفنا من عند أحد حواجز اللجان و الذي كان قريباً جداً منها إلا أن الرحمة الإلهية اكتنفتنا و وصلنا بخير .

قمت قبل أن أصعد إلى الدراجة بتخبأة ورقة حكمي بين حذائي و رجلي حتى أتمكن في حال تم إمساكي من التخلص منها بسهولة و لكن الأمور جرت بيسر .

ثم و بعد أن وصلت إلى هنا لم يكن لدي أي إثبات للشخصية باستثناء ورقة الحكم و رخصة القيادة أبرزتها للعسكري فهمّ أولاً ليسجلني ضمن أسماء المنشقين و لكنه عدل عن الفكرة بعد أن استعطفه وضعي و قال سأسجلك ضمن أسماء العزاب ".

جعلتنا طريقة حديث أبي فادي نظن أن الرجل قد أوشك أن يفارق أيام التعب و العناء ليجد ملاذاً آمناً أخيراً هو و عائلته الذين كانوا قد سبقوه في القدوم إلى هنا .

بقدر ما كان أبو فادي على استعداد للعمل مع النظام في أيام عمله معه إلا أنه الآن على استعداد أكبر ليخدم من يعادي النظام .

ربما جميع من عاش داخل ظلمة سجون النظام بات مستعداً أن يتحالف مع الشيطان لكي يسقط هذا النظام، فمع القصف المتوالي على بلدة جاسم لجأ بعض أهل القرية و القرى المجاورة لها إلى مكان لا تستطيع قذائف النظام أن تطاله رغم أنها على أرضه توجه عدة أهالي من القرى الغربية لمحافظة درعا و التي تذوق ويلات القصف بشكل يومي إلى الحدود السورية الإسرائيلية في القنيطرة و نصبوا خيمة أمام الشريط الشائك الإسرائيلي لم يقترب اليهود منهم و صدقت ظنون الأهالي فلم يستطع النظام أن يتعرض لهم .

أعجب أبو فادي بالفكرة كثيراً و طلب من زوجته التي سبقته إلى الأردن التريث قليلاً حتى يعرف إذا تم فتح باب اللجوء إلى إسرائيل فعندها سيطلب منها القدوم و الذهاب إلى الدولة التي كانت تعتبر العدو الوحيد للعرب والمسلمين سابقاً و لكن يبدو أنها في هذه الأيام خيرٌ من كثير منهم ..

انتظر أبو فادي طويلاً و لكن الوضع بقي كما هو و كان متأملاً أن يستطيع الدخول إلى الأردن بطريقة أسهل من خلال المجلس العسكري و الذي يفترض أنه يمثل الناحية العسكرية للثورة و لكن انتظاره طال و دون نتيجة تذكر .

لم يكن أمام أبو فادي بالنهاية سوى الطريق المتاح لجميع الناس حالياً و هو طريق التهريب .

حياة روتينية طويلة لأبو فادي انتهت بهذه الملحمة مؤخراً

إن شكل أبو فادي ووضعه يبعث في الجالس معه و المستمع لكلامه الإيمان بقدر الخالق على بعث الميت من الحي و الحي من الميت ،كان حياً مع النظام ثم تعطلت حياته داخل السجن ثم عاد للحياة أخيراً بتحرره من السجن .

باتت الثورة التي تعيشها البلاد تجعل كلمة مستحيل شبه ملغية من قاموس السوريين بشكل عام .

وإن صاحبت الثورةَ آفاتٌ كثيرة إلا أنها كانت في معظم الأحيان إن لم تكن في كلها من كسب أيدينا و كان هذا العذاب إبتلاءً يصبه الله على من يحب ليبتلي به أوليائه و ليميز الخبيث من الطيب .

لقد ابتعدنا الآن عن دائرة النزاع و نحن نتوجه إلى أرض جديدة حاملين معها آمالنا و ما تبقى من أحلامنا التي أتى السجن على معظمها .

أنهى أبو فادي حديثه بعد أن مضى شوطٌ كبير من النهار ثم تمّ توزيع الغداء لنزداد شبعاً على شبع و نزداد ترقباً لما ستحمله لنا الأيام القليلة القادمة.

بعد أن انصرف أبو فادي إلى خيمته عاد العسكري لينادي بالناس للإجتماع مجدداً ، هرعنا للإجتماع سريعاً عندها متأملين أن يكون هناك قائمة جديدة تكون أسماءنا مدرجةً فيها .
لأول مرة و على غير العادة يتم نقل الناس على دفعتين في ذات اليوم لا شك أنها بادرة جيدة و توحي بأن أعداد القادمين لا تزال في تزايد مستمر .
كنا نعتقد أنفسنا أصحاب حظ أوفر في الترحيل أولاً كوَن أسمائنا مدرجة ضمن قائمة العزاب قبل أن نخرج سألت محمود " ما رأيك هل يمكن أن يتم نقلنا اليوم "
فقال مازحاً :" ألا ترى هذا كثيراً يوم واحد على الطريق ثم لم نبت على الساتر و نخرج من هنا اليوم هذا كثير جداً لو حصل ".
خرجنا فعلاً متأملين بما رآه محمود كثيراً و بعد أن بدأ الضابط يعد الأسماء
اتضح أنه يريد العزاب فقط و ليس العائلات و لم يمض كبير وقت حتى صاح باسم محمود ثم باسم أبي فادي .
جاءت عدة سيارات و نحن نشيع الراحين من هذا المكان بنظراتنا و كأنهم يتوجهون إلى الجنة .
عدة سيارات تقوم بالترحيل و لكن رغم ذلك صندوق السيارة يضيق بالناس .
مضت السيارات و فارقنا محمود أخيراً بعد رحلة قصيرة نسبياً عدنا إلى الخيام بانتظار الغد و غير متوقعين حدوث شيء خصوصاً و أن غداً هو يوم الجمعة و لا شك أن السلطات تتوقف عن العمل و لا نظن أنهم سيعملون غداً من أجلنا ، مهما يكن فليس لنا الآن إلا الإنتظار.
بدأ الجو يصبح سديمياً أكثر و بدأت الشمس تختبئ خلف الغيوم جاعلةً من الجو مقبولاً و الحرارة عادية .
لم يعد هناك أحد نعرفه هنا و لعل أفضل وسيلة نقضي بها وقتنا الآن هي النوم.. توجهنا إلى الخيمة بانتظار انتهاء اليوم و قدوم يوم الغد عسى أن يكون حاملاً لأخبار مفرحة .
إنتهى اليوم بذات روتين الأمس : عشاء ، ثم أمر من الضابط بأن ننظف المكان نتيجة لما اقترفته يدانا من الفوضى ، ثم عودة إلى الخيمة و نوم .
لا جديد في صباح اليوم التالي لا يزال الروتين ذاته يبطئ من سرعة عجلات الوقت و يجعلها أحياناً شبه معدومة .
بدأ الناس في الخيمة يتحدثون مع بعضهم و يأخذ كل رجل بالتعرف على من في جواره . كان أحدهم واقفاً يشرح معاناته فسألناه ما بالك فقال " أنه يخشى أن لا يتم إدخاله ، فقد وصل منذ بضعة أيام ، و تم قذف زوجته لأنه لم يكن يحمل عقد زواج و زوجته لا تحمل هوية ، و بعد أن تم قذفه قام بجلب جواز سفر كإثبات شخصيةٍ لزوجته بالإضافة إلى أنه دفع مبلغاً مالياً مقابل

عقد الزواج الذي جلبه معه ، و لكنه لا يزال خائفاً فيما إذا لم يقبلوا بجواز السفر كإثبات شخصية ".
وقال مستهزئاً :"استمرت رحلتنا أكثر من أربعة أيام حتى وصلنا إلى مربع السرحان و بعد أن قررت السلطات قذفنا لم يأخذ الأمر معهم أكثر من نصف ساعة".
يبدو أن أناساً كثيرين يعتبرون الأردن ملاذاً آمناً و موئلاً لحياة رغيدةٍ منشودة و لكن لابد من الصبر على بعض المعوقات التي تعترض الطريق و لا شك أن هذه إحداها.
مضى هذا اليوم كما توقعنا فلم يخرج أحد و بقي باب المعسكر مغلقاً علينا .
بدأنا نعد الأيام و كأننا عدنا إلى السجن مجدداً .
اليوم هو السبت و هو اليوم الثالث الذي نقضيه هنا دون أن يحصل أي جديد .
نادى العسكري للإجتماع في الخارج فخرجنا مسرعين و لكن سرعان ما تبددت أمالنا و اقتصر على نداء بعض العائلات فقط .
بدأنا نشعر بالإحباط ، المدة التي كنا نخاف أن نقضيها في الطريق ها نحن نقضيها هنا في هذا المعسكر و هو ليس المعسكر الوحيد كما فهمت فهناك معسكر رويشد أيضاً ثم مربع السرحان يبدو أن الدخول إلى المملكة يحتاج إلى عناء شديد .. مضى اليوم برتابة الأيام السابقة .
لا نعرف إن كان هناك جديد يمكن أن يحمله لنا صياح العسكري في يوم الأحد ،خرجنا إلى مكان الإجتماع حيث نادى العسكري و بدأ الظابط يقرأ الأسماء ،
وأخيراً قرأ إسم أحدنا لكنه أغفل الإسمين الآخرين لا نعرف إن كان غفل عن الأسماء أم أنه سيتم تفرقتنا و لا بد لنا من سؤاله .
كان الضابط عند انتهاءه من قراءة الأسماء يغلق باب الأسئلة حتى ينتهي من إزعاج المحتشدين الذين يبدأون بالسؤال عن سر تأخر إعلان أسمائهم مع أنهم وصلوا قبل عدة أسماء.
صاح الضابط بأصحاب الأسماء التي ناداها ليتم ترحيلهم .
حاولنا أن نصل جاهدين و بعد طول عناء تمكن أحمد من الكلام معه فسأله عن اسمه فقرّعه قائلاً :"ألم تسمع الأسماء ".
ثم استسلم لإرادة أحمد و أجال النظر في ورقة الأسماء مجدداً ليجد أن أسماءنا الثلاثة موجودة فعلاً و لكن لم نعرف ممن كان الخلل هل نسي أن يذكر أسماءنا أم نحن فاتنا السمع .
فحاول أن يأنبنا تأنيبا فعلياً فقال سأمحو أسماءكم عقوبةً لكم و صاح بأحد العساكر طالباً قلمه فسألناه أن يعفو لنا عن هفوتنا فقال اذهبوا و استعدوا .
مضينا عندها إلى الخيمة مسرعين و لم نكن بحاجة إلى استعداد فالحقائب لا تزال مغلقة و نحن نرتدي ملابسنا التي سننتقل بها و التي خرجنا بها من سورية أصلاً و التي تراكم التراب عليها حتى غدونا كمن يلبس الرمال الصحراوية و لم نسعى لتغييرها لإننا لا نزال نتنقل من جو صخراوي إلى آخر .
بدأ الناس يتجمعون أمام الخيم بانتظار أن تأتي السيارات التي ستقلنا إلى النقطة الثانية و هي نقطة رويشد .

رغم أن الرحلة كانت صعبةً و شاقة جداً حتى وصلنا إلى هذه المرحلة ، إلا أن أحد الشباب ممن كان معنا في الخيمة و الذي جاء مع زوجته كان يفكر تفكيراً عجيباً فقد ضاق ذرعاً من الإنتظار في هذا المكان و بات يفكر بالعودة إلى سورية .
لم تكن المشكلة في العودة إلى سورية فقد يتم قذفه في نهاية المرحلة و لكن المشكلة تكمن أنه مستعجل لدرجة أنه يرغب بالعودة بذات الطريقة التي قدم بها أي من عند الساتر إلى نقطة أم قصر إلى اللجاة مما يبدو أشبه بجنون و مجرد هذيان للتعبير عن الغضب .
تداركت الرجلَ و زوجته ألطاف الرحمة الإلهية و صاح الضابط على إسمه ليتم نقله إلى النقطة الثانية.
بدأت تفرغ الخيام و بدأ الناس يتجمهرون أمامها و بدا من تجمعهم أن المعسكر قد بات شبه فارغ فالناس يتجمعون بكثرة مع أغراضهم أمام الخيم .
بدأت السيارات تصل الواحدة تلو الأخرى : سيارة ،سيارتان ، إلى أن وصلت خمس سيارات في النهاية . رغم وفرة الرجال إلا أن النساء في هذا المعسكر هن الكثرة الكاثرة خصص الضابط سيارةً لنقل الأغراض و الحقائب و ثلاث سيارات للنساء و بقيت سيارة وحيدة للرجال .
أمرنا بالصعود إليها أخيراً فابتدرناها جميعاً بالقفز و البحث عن موطئ قدم حتى نصل إلى وجهتنا .
بدأ المكان يضيق حتى عن الأنفاس و لا نعرف ما هي الوسيلة الأفضل للبقاء أحياء خلال هذه المدة نحن الآن أشبه ما نكون في صندوق مغلق لا يدخله الهواء إلا من ثقب واحد و على الجميع التنافس في الوصول إلى هذا الثقب للحفاظ على حياتهم .
كل هذا الضغط و السيارة لا تزال واقفة لم تبرح مكانها بدأ بعضهم يهون من الخطب قائلاً : "سنجد الهواء عندما تمشي السيارة ".
بدأ الجميع يتصبب عرقاً و لا يجد حيلةً إلا الصبر .
و أخيراً و بعد طول انتظار بدأت السيارة تمشى و بدأ فعلاً الهواء يتدفق في أرجاء السيارة و لكنه كان ممزوجاً بغبار الصحراء الذي تثيره عجلات السيارة.
رغم هذا الضغط الكبير الذي نمر به الآن إلا أن بعض الناس كان يمثل الأنانية في أسوأ صورها حتى أنه يتمثل المثل القائل أنا و من بعدي الطوفان ، فقد أطلق أحدهم العنان لمزاجه و أشعل سيجارة و بدأ بدخن غير مبال بمن حوله و كأنه خارج في رحلة ترفيهية بالرغم من أنه كان معنا و يعاني ذات معاناتنا .
لم أعرف كيف أواجه أو أتعامل مع هذا الصنف في حياته و الذي يؤله هواه و رغباته و يبرر جميع أفعاله في حين أنه يعتبر الآخرين مخطأين في كل ما يخالفونه فيه .
أفضل وسيلة لعلاج هذا الصنف من الناس هو اعتزاله .
مضى وقت جيد على مسيرنا و أخيراً توقفت السيارة بعد أن سارت بنا ما يقارب الساعة من الزمن لا نعرف ما هو الجديد في المكان الذي وصلنا إليه و ما إن توقفت السيارة حتى بدأ الناس يتساقطون

عن يمين و شمال السيارة بسرعة باحثين عن هواء نقي يتنفسونه بعد أن كدنا نموت اختناقاً داخل السيارة .
لا جديد في المكان الذي و صلنا إليه الخيم ذاتها التي كانت في المعسكر السابق منصوبة هنا إلا أن معظمها فارغ بل يبدو أننا وصلنا بعد أن غادر الجميع مما سيخفف الضغط علينا و يجعلنا في سعة من أمرنا أكثر مما سبق .
لم نتناول الغداء قبل ترحيلنا و ها قد وصلنا مع موعد الغداء جلسنا في إحدى الخيم و التي كانت فارغة من أي أحد ثم دخل شخصان تبدو عليهما مظاهر البداوة و بعد أن تعرفنا عليهم تبين أنهم من بدو حماة و الغريب أنهم قد وصلوا إلى هنا تهريباً دون أن يضطروا للمشي مثلنا .
أما نحن فكان علينا أن نمشي مسافة عشر ساعات.
يبدو أنه لم يعد هناك مكان للمنطق في هذه الحرب.
بدأ توزيع طعام الغداء و كالعادة وجبة الغداء صحن أرز مع قطعة من لحم الدجاج بالإضافة إلى صحن صغير من اللبن وجبة تسبب لك التخمة .
كانت العادة في المعسكر السابق أن يتم توزيع وجبة لكل شخص و يكون الظابط قائماً على رأس الموزعين
و لكن بما أن العدد الآن قليل فقد كُسرت جميع هذه القواعد و غاب الرقيب لتعيث أيادي بعضهم خراباً.
تناول الشخصان اللذان دخلا آخراً أربعة صحون بشراهة لا نظير لها و لم أعرف ما سرها سوى أنها من العبث و التظرف فيما لا علاقة له بالتظرف .
كان العائدون من القذف و الذين يحاولون الدخول مرة أخرى يقولون إن البقاء في نقطة رويشد لا يستمر سوى مدة ساعتين فقط و ربما أقل و لكن يبدو أنه قد تم إلغاء هذه القاعدة مع وصولنا و بدأنا ننتظر الوقت الذي يتم فيه ترحيلنا ،على أمل أن نصل إلى الحلم الذي سعينا إليه طويلاً و هو الدخول إلى أراضي المملكة الأردنية الهاشمية .

ما تزال طبيعة الصحراء مخيمة على المكان الذي وصلنا إليه رغم أنه يبعد مسافة جيدة عن المكان السابق و لكن هذا المكان أقل ازدحاماً بكثير من سابقه .
كان من جرب الرحلة سابقا يخبرنا أن انتظارنا في هذا المكان لن يستمر أكثر من ساعتين و لكن يبدو أن هناك خللاً ما أو أن القوانين قد تغيرت .
لم نواجه صعوبة في إيجاد مكان ننتظر فيه الترحيل و لكن ما إن جلسنا مدة ساعتين تقريباً حتى بدأ العسكري يصيح بنا طالباً منا التجمع في مكان قريب من حجرة القيادة هرعنا جميعاً مسرعين إلى ذلك المكان متأملين أن يتم ترحيلنا سريعاً و بعد أن وصل الجميع و شكلوا حلقة كبيرة حول حجرة

القيادة
بدء الضابط كعادة غيره من الضباط و العسكر يلقي خطبة تبين مآثره في عالم القيادة و كيف أنه رجل صاحب كلمة لا ترد و هو على استعداد أن يقذف أي إنسان كان مهما كانت معاناته إذا خالف أوامره يقذفه أي يعيده إلى سورية .
وبعد أن أنهى الخطبة طلب من النساء عدم ترك الأولاد يلعبون كيفما اتفق فإن ذلك المكان و أشار إلى مكان يحوي أعشابا و و أشواكاً كثيرة قائلاً إنه يحتوي ألغاما .
لم نعرف مدى صدقه و لكن علينا الانصياع لأمره و عدم التفكير بالاقتراب من ذلك المكان ثم قال :" سنقوم الآن بتفتيش الجميع أي شخص يحمل وسائل تخزين إلكترونية أو قلماً أو أي شيء كان فليظهره الآن و إذا لم يظهره و تم اكتشافه لاحقاً فسيكون هو الذي جنى على نفسه و سيتم قذفه إلى سورية ".
ثم بدأ الأشخاص يدخلون إليه الواحد تلو الآخر و العائلة تلو العائلة حسبما كان يصيح بأسمائهم كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما خرجنا إلى هذا الإجتماع و الآن بدأ الظلام يخيم و لا زالت العائلات تدخل دون أن نملك من أمرنا شيئاً إلا الإنتظار .
انتظرنا ما يقارب الثلاث ساعات إلى أن دخلنا إلى الحجرة، ولا شيء جديد فيها مجرد تسجيل روتيني لأسمائنا حتى أنهم لم يقوموا بتفتيش الحقائب كل ما في المسألة أنه سألنا هل معك شيء مما ذكرناه ؟
فأجبناه بالنفي ثم عدنا إلى الخيمة لنستلقي بانتظار يوم غد عسى أن نغادر هذا المكان فقد أشبعت جسادنا بالرمل و التراب .
ألقى التعب ظلاله علينا و غططنا في نوم عميق ، و لكن كالعادة لم يطل بنا النوم فما إن تتسلل أول خيوط الشمس إلينا حتى نستيقظ مباشرة فالجو لا يبعث على السكينة بشكل عام .
بدأ توزيع الطعام و بعد أن أنهيناه عدنا لعملنا الطبيعي في تنظيف ما أحدثناه من فوضى نتيجة لتناول الطعام . خرجت و بدأت أتجول ثم شاهدت الشباب قد تجمعوا حول حجرة أحد الضباط و بدأ يتكلم معهم بشكلٍ ودي .
أصغيت السمع إليه فبدأ يتكلم عن الحرب الحاصلة حالياً و كيف أنها عادت بالويلات على الأردن " فقد كنا عندما نحتاج شيئاً نستقل طيارة باتجاه حلب و نشتري ما نحتاجه من ملابس و غيرها ثم نعود دون أن يكلفنا الأمر مائة دولار و الآن ندفع مثل هذا المبلغ و أكثر منه حتى نشتري بضعا مما كنا نشتريه سابقاً ".
كل يرى الثورة من وجهة نظره الأردن يراها شكلت عبئاً اقتصادياً عليه و كذلك لبنان و كل يتعامل بالوسيلة التي تحلو له و لا نملك من أمرنا شيئاً إلا الإستسلام لقرارت مضيفينا سواء كانوا في الأردن أو لبنان مع أن تركيا تقوم باستقبال السوريين دون هذه الإجراءات المعقدة و التي تشعرك بأنك تتوجه إلى مكان أقرب إلى الخيال .

استمر الضابط في حديثه و بين لنا مدى خبرته في معاملة اللاجئين و كيف أنه صاحب سبق في هذه المسألة فقال : " كنت مسؤولاً عن اللاجئين العراقيين عندما اندلعت الحرب في عام ٢٠٠٣ و نصبت المخيمات لاستقبالهم و كنا نعمل بشكل متواصل ".
ثم بين سبب استمرار الحرب من وجهة نظره طوال هذه الفترة فقال :"منذ بدأت الأزمة و أنا أقوم باستقبال اللاجئين و إدخالهم إلى الأردن و لعل السبب هو في مشكلة اللجوء كل واحد منكم ينظر إلى المسألة بشكلٍ شخصي و لكني في كل يوم استقبل شباباً لاجئين فلو استقبلت كل يوم مائة شاب فعلى مدار عام كامل سيكون هذا العدد من الشباب كافياً لتشكيل جيش عرمرم يفوق جيش النظام و لكن ما الحيلة كل إنسان يرغب في السير في حياته بالطريقة التي يراها مناسبة ".
انتهينا من الكلام مع الضابط ثم انفضضنا من حوله و عدنا إلى الخيمة بانتظار أي شيء جديد .
والخيمة بات عدد روادها يزداد دون أن نعرف السر كان معظم الجالسين فيها من درعا البلد (مهد الثورة) و التي لا تزال تنال ويلات هذا الإسم أي (مهد الثورة) حتى الآن .
وعلى قدر جنون النظام في التعامل معها بقدر ما كانت تخرج ثوارا أيضاً
ويبدو أن العمل الأساسي الذي بات متاحاً في درعا البلد هو ان تكون ثائراً لا غير و لعل شادي كان مثالاً واضحاً على أن الثورة اعتنقها الجميع آمنوا بها أم كفروا بها .
بدأ أحدهم و اسمه محمد يحدث عن طبيعة الحياة هناك و كيف أنهم اعتادوا صوت القذائف و أزيز الرصاص و هدير المدافع فقال :" كنت مع زوجتي في إحدى الليالي عندما بدأ القصف فأتت قذيفة قريبة من بيتنا خفنا منها و قررنا على إثرها أن نغير مكان مبيتنا خرجنا إلى الغرفة الثانية ثم و بعد دقائق قذيفة أخرى تستقر في الغرفة التي كنا فيها حمدنا الله على النجاة و أغمضنا أعيننا بانتظار النوم أو الموت و لكن يبدو أنه لا يزال في حياتنا بقية ".
وبما أن الرجل من درعا البلد فهو ثائرٌ مقاتل طبعاً فبدأ يحدثنا عن مغامراته و كيف أنه كان يغطي على أصحابه في اقتحام المباني أو الإنسحاب منها .
رفع حديث محمد جزءاً من الملل الذي كنا نعايشه و لكن لا يزال النهار طويلاً و يبدو أنه لن يتم ترحيلنا اليوم .
بدأت الدقائق تمر ببطئ إلى أن دخل الضابط الذي زرناه صباحاً إلى خيمتنا متفقداً .
يبدو أن الرجل يحب الحديث ، بادرة جيدة تقلل من سوء ظننا بأصحاب الرتب العسكرية و لكنه ترك في هذه المرة الحديث عن العرب و آثر الحديث عن الغرب ، و عن رحلاته باتجاه أمريكا.
فقال : " ذهبت في زيارة إلى مدينة ديترويت في أمريكا و استمرت زيارتي إسبوعاً كاملاً كنت أجلس على الطاولة و أتناول القهوة و أتساءل إن كنت في مدينة حقاً أم إنه خيل إلي فلم أسمع منذ قدومي صوت مزمار أي سيارة في حين عندنا لا تكاد تمر دقيقة دون أن يكون المزمار مضغوطا و كأنه يخفف من حدة الإزدحام لا أعرف كيف أصف حالنا في البلدان العربية إلا أننا في حالة يرثى لها ثم مضى الرجل بعد أن بين لنا أنه لا ترحيل اليوم ".

لم يكن لنا إلا الإنتظار لجديد الأيام التي يبدو أن جديدها يبطئ في القدوم .
خرجت و تجولت قليلاً لأرى أن المكان رغم إنه قطعة عسكرية إلا أن هناك مسجداً قريباً جداً منها بل هو تابع لها فعندما دخلت لأصلي وجدت أن الإمام هو أحد العسكريين و لم يكن الوحيد فما إن بدأت الصلاة حتى التحق أكثر من عسكري بالجماعة لاشك أنه أمر جميل أن ترى مسجداً في قطعة عسكرية و ترى فيه عساكر يصلون .
فقد كان هذا في سورية أمراً مستحيلاً و الصلاة ممنوعة و الأعجب من ذلك أن الصلاة ممنوعة و الصيام مسموح مستحب في شريعة النظام البائد .
و لعل الثورة بينت أن أكبر عدو للنظام هو المساجد حيث تبين المشاهد كيف ينتهك حرمتها جهاراً نهاراً و أول شيء يقصفه هو المآذن و المساجد .
غابت شمس يوم جديد و لا زلنا في ذات المكان نتشوق للانتقال إلى مكان آخر .
طال طريق السفر و طالت معه أشعارنا و بدت أشكالنا مخيفة و اقترب أحدهم مني قائلاً " يجب عليك أن تحلق ".
فتعجبت منه فقلت " أين سأحلق الآن و أنت ترى المكان الذي نحن فيه"
فأجاب" يجب أن تحلق فهذا الشكل لا يعجبهم و قد يقذفونك مباشرة ".
تعجبت منه فقلت "و لماذا يقذفونني" فقال: " لقد كانت لحيتي أطول من لحيتك و عندما عزمت على الرحيل لم أجد بدها من حلقها خوفاً من أن يعيدوني فقد جئت لأوصل أمي و لا أريد أن أتركها في منتصف الطريق " .
شكل هذا الكلام مدخلاً للتحث سويةً ثم بدأ الرجل يتحدث عن بلده و هو من سحم الجولان و كيف هي الأوضاع عندهم و كيف أنه اضطر أن يخرج ليوصل والدته و لولا ذلك لم يخرج .
لم أكن أعرف في قريتنا سوى مقاتلي الجيش الحر و بعض الشباب ممن التحقوا بكتائب إسلامية أخرى و لعل أبرزها أو ربما الوحيد الذي كنت أعرف بعض شبابه هو بيت المقدس .
و لكن الشاب بدأ يتكلم عن النصرة و يثني عليهم خيراً و كان كلاماً أجنبياً على أذني أسمعه لأول مرة فمن اللحظة التي خرجت فيها من السجن كان محمد ابن عمي ينتقدهم دائماً بناء على انتقادات أبي علي و لم أكن أعرف أحداً في المحيط الذي أعيش فيه يمدحهم .
فقلت له :" أنت أول شخص أراه يمدح النصرة فأنا لا أبرح أسمع إنتقادات لهم من أناس كثر من شباب قريتنا ".
فسألني هل خالطتهم من تعرف منهم فأجبته بأني لا أعرفهم و ليس في قريتنا أحد منهم فقال لن تعرفهم حتى تحتك بهم و أظن أنهم لا مثيل لهم .
لم أعرف بما أجيبه إلا أني استغربت و أعجبت بحماسته لهم .
أيا كان حماسنا فنحن الآن نبتعد أكثر و أكثر عن سورية و لم يعد لهذا الكلام نتيجة .

شمس يوم آخر تغيب علينا دون جديد و لعل النوم هو أسرع ما يقطع به الوقت على أمل أن نرحل غداً .

في اليوم التالي ذات الروتين المتبع في كافة الأيام السابقة الإفطار ثم تنظيف المكان، توجه الشباب مجدداً باتجاه غرفة الضابط باحثين عن وسيلة لمغادرة هذا المكان فقال :" إن اللواء سيأتي اليوم فاطلبوا أشياء لا يمكن جلبها و لا تطلبوا أشياء يمكن إحظارها بسهولة ".

فقال أحدهم "نريد دخانا "

فلطم الضابط على وجهه مغضبا و قال " اطلب شيئاً يمكن المحاججة فيه " لإنك إن طلبت الدخان فسجلبه لك لتكون سعيداً بالفطرة الطويلة التي ستقضيها هنا .

ثم قال اطلبوا حليب أطفال هذا أنفع شيء فيما أظن .

ثم انفض الجمع و مضى كل شخص في سبيله.

ومع ارتفاع شمس الظهيرة بدأ الأولاد يتحدثون أن هناك شخصاً غريباً يتمشى في هذا المكان ثم لم يمض كبير وقت حتى دخل علينا شخص تظهر ملامحه أنه رجل أجنبي .

دخل إلينا و بدأ يتحدث بلغته العربية الضعيفة سائلاً عن أوضاعنا و متسائلاً كيف حال الحرب التي خلفناها وراءنا وبدأ كل شخص يحكي له معاناته في هذا المكان متجاهلين سؤاله عما سبق فالمهم الآن مغادرة هذا المكان إلى مكان أفضل و لكن الرجل لم يكن يملك من الأمر شيئاً فهو و إن كان موظفاً في الأمم المتحدة إلا أن وظيفته هي السؤال فقط لا أكثر .

وبعد أن سمع أخباراً أحبطته عن إقامتنا هنا غادر المكان هائماً على وجهه عائداً إلى المكان الذي جاء منه .

و بعده بفترة قصيرة جاء اللواء كما أخبرنا الضابط و الذي كان برفقته فسألنا اللواء ماذا ينقصكم هل تعانون من مشاكل صحية أو غيرها .

و كما هي العادة لم يستمع أحد لنصيحة الضابط و إنما بدأ كل إنسان يتكلم بما يحلو له و وجه الضابط يتمعر غضباً .

إلا أنه لم يحدث شيء فقد مضى اللواء بعد سؤالنا إلى خيمة أخرى و عدنا إلى حالة الإنتظار كما كنا سابقاً لا ندري متى نغادر هذا المكان .

تسرّع أم عَجرَفَة؟

عاد اللواء إلى مكانه الأول بعد أن أمر بجلب ما نحتاجه و بإرسال إحدى النساء و التي كانت حاملاً إلى المستشفى للاطمئنان على صحتها .
حتى المرأة الحامل لا ترغب بالذهاب إلى المستشفى كل ما كان يشغل بالها و يشغلنا جميعاً هو موعد مغادرتنا لهذا المكان ، كلما تأخر وقت ترحيلنا من هذا المكان كلما ضاقت النفوس و بدأت التصرفات الهوجاء ، فبعد أن غابت الشمس و استسلمنا للأمر الواقع نادى العسكري للإجتماع في وقت لم يكن من المعتاد الإجتماع فيه .
توجهنا جميعاً إلى حيث صاح بنا العسكري و بدأت شهوة الخطابة الغريبة من قبل العسكر تأخذ مفعولها و بدأ الضابط الموجود هناك يخطب بنا .
لم أقدر على أن أميزه هل هو ضابط أم مجرد مجند عادي و لكن غلب على ظني أنه ضابط لأن العسكر أكبر مهماتهم كانت في طلبنا لتنظيف ما أحدثناه من فوضى بعد تناولنا لوجبات الطعام ، و إنما شككت بأنه مجند لنحولة جسمه و قصر قامته .
بعد أن أنهى كلامه كان يقف وراءه رجلان أحدهما كان رافقنا منذ بداية الرحلة من بصر الحرير إلى هنا ، و الآخر لا أعرفه .
الرجل الذي رافقنا كان يتحدث أنه كان من الثوار من الجيش الحر و أنه خرج مكرهاً لأنه أراد إيصال زوجته إلى حيث تستطيع خدمة أمه التي سبقته إلى الأردن منذ زمن .
بعد أن أنهى الضابط كلامه أشار إلى الرجلين وقال :" هذان الشخصان سيتم قذفهما مباشرةً و ترحيلهما إلى سورية ".
لا تحتاج المسألة إلى شرح فالرجل القادم معنا لم يكن يخلو من العنجهية و ما إن احتك مع الرجل الآخر حتى ابتدءا عراكاً وصل خبره مباشرةً إلى الضابط الواقف أمامنا مما استدعاه لإلقاء محاظرة علينا ،
و بيّن في النهاية أن كل من سيخالف التعليمات و يتسبب بالمشاكل سيتم قذفه مباشرة.
تحركت عندها إحدى النساء المتقدمات في السن و ناشدته مناشدة العجائز فقال :" لها إجلسي يا خالة".
ثم نظر إليهما و قال :" إكراماً للحجة فقد عفوت عنكما هذه المرة و لكن في حال تكرر هذا الخطأ فلن يشفع لكما أحد عودا إلى مكانيكما".
ثم طلب الضابط منا مغادرة الساحة باتجاه الخيام فقد مضى من الليل شوط ليس بالهين. استلقينا بسرعة باحثين عن النوم علنا نجد فيها مرتحلاً عن هذا المكان فإذا كنا غير قادرين على مغادرته في الحقيقة فلنغادره في المنام .

مضى الليل سريعاً و استيقضنا في صباح يوم الثلاثاء بعد أسبوع كامل على بداية الرحلة دون أن نتمكن من دخول الأردن حتى الآن .

الجميع كان يحمل الهواتف النقالة لكن القليل منا كان يحمل خط هاتف أردني و مع وصولنا إلى هذا المكان توافرت التغطية و التي بدأ أصحاب الهواتف يستغلونها بمكالمة أهلهم لطمئنتهم على وصولهم ، وهذا أمر طبيعي و لكن الغريب أن معظم الموجودين كان يستعمل الهاتف للبحث عن واسطة تقوم بتيسير الطريق له إلى مخيم الزعتري بدلاً من مخيم الأزرق .

لم نكن أصحاب خبرةٍ في هذه المسألة و لا نعرف أيهما أفضل الأزرق أم الزعتري و لكننا قررنا ترك الأمور تجري كما هي دون أن نسعى إلى تغيير المكان الذي سيكون مكان استقبالنا .

بدأ صباح يوم الثلاثاء بذات الروتين الذي اعتدنا عليه منذ اجتيازنا للساتر الأردني، الطعام أولاً ثم تنظيف الساحة ثم العودة إلى الخيمة بانتظار ما هو جديد .

مضى الوقت سريعاً وبعد عودتنا إلى الخيمة بدأ العسكري يصيح بنا للإجتماع خرجنا على أمل مغادرة المكان و اجتمع الموجودن كلهم حتى ضاق بهم المكان.. بدأ الضابط يلومنا على تصرف البارحة و كيف أننا لم نعمل بنصيحته و قال :"كان القرار بتسيير أناس غيركم من مكان آخر و لكني لم آلُ جهداً في البحث عن أي حجة يتم من خلالها تسييركم أنتم أولاً، سأبدأ الآن بقراءة الأسماء و الذي أنادي باسمه يقول حاضر و يجهز أغراضه و يصعد إلى البولمان ".

الحمد لله سيتم نقلنا هذه المرة عن طريق البولمان و ليس عن طريق السيارات العسكرية التي كانت تجعلنا كالعجين يلتصق بعضه ببعض و لا يعرف مقدمته من مؤخرته.

استمر الضابط يعد الأسماء طويلاً فالمعسكر يحوي تقريباً ثلاث مائة شخص و يبدو أنه سيتم ترحيل نصف العدد اليوم و النصف الآخر سيتم ترحيله غداً حسب كلام الضابط .

بدأت تزداد حرارة الشمس و لا نجد شيئاً نقي به حرها و بدأ الملل و الخوف من قضاء يوم آخر هنا يسيطر علينا ثم و بعد طول انتظار نادى الضابط بأسمائنا ، أجبنا عندها مسرعين و نفذنا الأوامر تماماً كما أمر الضابط .

وضعنا الحقائب على سقف البولمان حيث كان يقف أحد الشباب القادم معنا و يتلقى الحقائب ليساعد المسافرين ثم مضينا باتجاه البولمان .

الباص الذي خرج أولاً كان صغيراً و لكن هذا بحمد الله بولمان كبير .

لأول مرة منذ ثمانية أيام نجلس على كرسي مريح و قبل أن ننطلق قال السائق المسافة طويلة و قد تستغرق ثلاث ساعات و من أراد فعل شيء أو قضاء حاجة فليقضها الآن فالتوقف في الطريق ممنوع.

حاول الجميع الاستعداد لهذه الرحلة الطويلة بقدر ما يستطيعون، وبعد أن اكتمل العدد أغلق السائق باب الحافلة و بدأ يتوجه نحو مربع السرحان المكان الذي سندخل من خلاله إلى الأردن.

قبل أن ننطلق بسرعة توقف السائق مدة لم نعرف ما سببها غير أننا كنا نشاهد من النوافذ ما يحصل و يبدو أنه أحد اللاجئين قد تشاجر مع أحد العسكر مما سبب تجمهر عدد كبير من العسكر حول هذا المكان و لم يتسن لنا كيف تم حل المشكلة فقد انطلق السائق بنا بسرعة نحو وجهتنا .
رغم أننا كنا مستعدين لقضاء ثمان ساعات في سيارة الحصنية سابقاً و كيفما كانت طريقة جلوسنا إلا أننا الآن بتنا عاجزين عن قضاء هذه الساعات الثلاث و أصبحنا نشعر و كأنه زمن طويل أكبر من زمن الرحلة الأولى التي انطلقنا عبرها من أم قصر في السويداء باتجاه الساتر الأردني.
الهدف من مربع السرحان هو تسجيل اللاجئين للتعرف فيما إذا كان أحدهم يستحق الإبعاد فيتم إبعاده مباشرة و قد لا يكون يستحق ذلك إنما هي مجرد خاطرة تمر بذهن أبي مشعل و هو الرجل المسؤول عن إدخال السوريين فلا يجد مانعاً من قذف الرجل .
عندما كنا في الخيمة قبل أن ننطلق في هذه الرحلة تكلم أحدهم عن أبي مشعل و قال :" إنه رجل من درعا من طفس ".
طبعاً مجرد أوهام لا أعرف ما الدافع لها سوى اللت و العجن بهدف استهلاك الوقت .
مضت ثلاث ساعات بصعوبة لنصل أخيراً إلى مربع السرحان لنعرف ما سيؤول إليه حالنا و هل سيستقبلنا القائمون على الحدود أم أنهم سيعيدوننا من حيث أتينا .
نزلنا من البولمان و تأملنا المكان بناء ضخم نرى المدخل إليه و لا نرى منه مخرجاً ، و أمامه يوجد ما يشبه الخيمة إلا أنها مغطاة من جانبين فقط بقصد تغطية السيارات و التي كانت تتواجد في هذا المكان .
قمنا بأداء الصلاة جمعاً و قصراً بحكم أننا لا زلنا مسافرين و بدأنا ننتظر ما سيقرره الموجودن هنا .
دخلنا البناء و الذي كان أشبه بأبنية المطارات حيث تتوزع فيه الوسائل الإلكترونية لفحص حقائب المسافرين .
وضع الجميع حقائبهم في جانب و بدأوا ينتظرون خروجها من الجانب الآخر بعد أن دخلنا بلحظات جاءنا أحدهم من الداخل سائلاً " أين فلان"
و بعد أن وجد الشخص الذي كان يبحث عنه سلم عليه و مشى معه باتجاه بعيد عنا ثم تبعه آخر يسأل عن شخص آخر ثم كثر السائلون كل واحد يبحث عن أحد الواصلين بدا واضحاً أن الوساطات التي كان يأمل المسافرين بأن تفيدهم تعمل بشكلٍ جيد حتى الآن .
لا يزال اليوم في بدايته و يبدو أن الموظفين لا يرغبون بالبدأ بالعمل سريعاً فقد مضت دقائق و دقائق ثم جاوز الوقت ساعةً من الإنتظار دون جديد .
الموظفون يتكلمون مع بعضهم و نحن نكلم بعضنا و ننتظر .
و بعد طول انتظار طلب منا أحد الموظفين الإنتظام في رتل أحادي حتى ينهوا العمل بسرعة و بشكل منظم كان العدد كبيراً مما أدى بنا إلى الوقوف في ثلاثة صفوف.. بدأ الموظفون يسبّرون أوراق

القادمين الجدد و إذا كان أحدهم قد تم قذفه سابقاً لمخالفة إحدى التعليمات داخل الأردن فسيتم طرده الآن قبل أن يدخل من باب المربع .
الشخص الذي يتم قبوله يكمل طريقه باتجاه اليمين و الشخص الذي يتم رفضه سيودع في حجرة إلى اليسار بانتظار قذفه بدا أن الجميع سيمر و لكن لحظات و بدأت أصوات الصراخ تتعالى و بدأ شخص ممتلئ الجسم يصيح بالواقف أمامه " أين هويتك " و الشخص الآخر لا يجد جواباً و لا يعرف ما هي الحيلة في إسكات هذا الرجل المزعج و لا يستطيع فعل شيء سوى انتظار انتهاء الرجل من صراخه.
وبعد أن أنهى جنونه أمر الشاب بالتوجه إلى الحجرة اليساربة حتى يتم قذفه كان هذا أول شخص ثم شخص آخر و ثالث و رابع يبدو أن الكثير سيقفل راجعاً قبل أن يتمكن من الدخول إلى الأردن .
كانت العودة سهلاً بالنسبة للشباب العزاب أو القادمين لوحدهم بشكل عام و لكن المشكلة تكمن بالقادم مع أهله .
فقد قرر أبو مشعل حسب ما تحدث الوافدون باسمه بالطلب من أحد الرجال و الذي جاء مع عائلته بأن يتوجه إلى حجرة القذف ثم خيّر النساء فيما إذا كن يردن الدخول لوحدهن أو العودة مع رجلهن .
طبعاً لم يكن للنساء إلا الإستسلام للأمر الواقع و التوجه إلى الحجرة اليسارية بانتظار أن يتم قذفهن مع رجلهن .
دخل عدد كبير باتجاه اليمين أي أنهم سيكملون طريقهم باتجاه الأردن و بقي عدة أشخاص مع بعض النساء في الحجرة اليسارية ليتم قذفهم لاحقاً .
كل هذا حدث و نحن نقف في دورنا و لا نعرف إن كان أبو مشعل سيتغاضى عن عدم و وجود هويتي أم أنه سيودعني الحجرة اليسارية مع الأشخاص الذين سيتم إعادتهم إلى سورية قبل دخول الأردن .

ما زلنا ننتظر دورنا و نحن نراقب أبا مشعل الذي يستطيل طولاً و عرضاً ليقذف من شاء و يسمح بالدخول لمن شاء.. وصل إليه شخص يبدو أنه لا يحمل هوية و بدأ هذا المجنون يسأل عن إثبات له أنه ليس منشقاً عن الجيش .
لا أعرف ما الهدف من ذلك لكن يبدو أن أبا مشعل يرغب بمعاقبة المنشقين عن الجيش .
انتهى نقاشه سريعاً ثم أمره بالتوجه إلى الحجرة اليسارية .
و أخيراً جاء دورنا سألني أين هويتك فأعطيته جواز السفر فسألني عن دفتر الخدمة الإلزامية فأعطيته إياه فتأمله بسرعه ثم أشار لي رافعاً يده باتجاه اليمين للدخول إلى الأردن أخيراً .
وصلت أنا و أبي و أخي إلى الموظف الذي بدأ يسجل بياناتنا الشخصية لم نكن آخر الناس فقد كان بضعة أشخاص ينتظرون و بعد لحظات بدأ الصراخ مجدداً .
كالعادة كان الذي يصرخ أبو مشعل و لكن هذه المرة و على غير العادة بدأ أحد الوافدين يصرخ إرفع يدك عنها إرفع يدك عنها لم أفهم ما سر هذه الصرخات المتألمة التفتُّ و بدأت أبحث عن السبب.

يبدو أنه فاتني جزء من الحدث فأحد اللاجئين قرر أبو مشعل أن يطرده فطلب منه أن يتوجه إلى الحجرة اليسارية و كان بصحبة الرجل بعض النساء اللاتي رحن يتوسلن للرجل أن يغض الطرف عنه و يدعه يدخل ، و تدخل أحد الموجودين الذين يشاهدون المشهد بإبعاد النساء عن أبي مشعل فلمس إحدى النساء من أقارب اللاجئ الذي سيتم طرده فلم يتمالك الرجل نفسه فبدأ بصراخ يوازي صراخ أبو مشعل في الصوت بل يزيد عليه .

ولم يتوقف عند هذا الحد فأبعد يد الرجل عن نسائه و الذي فهم الأمر بسبب عمله الإستخباراتي أنه تحدٍ له و لم يكن ليذعن لأحد و إن كان أردنياً فكيف و خصمه لاجئٌ سوري لا حول له و لا قوة إذن لا بد من تلقينه درساً لن ينساه .

كثر اللغط و الصراخ و تجمهر الجميع حول هذا المشهد ليتفرجوا في البداية ثم لم يملكوا مقاومة شهوتهم البهيمية في ضرب الآخر فانهال جميع زملاء أبي مشعل بالضرب على الرجل السوري ، و بدأت نساء الرجل اللاتي يشاهدن المشهد بالصراخ مما زاد وتيرة الأنفة لدى عناصر المخابرات و الذين وجدوا في الإذعان للأمر نوعاً من كسر الشوكة تدخل الجميع أخيراً نحّى بعضهم العناصر و نحّى آخرون الرجل ، ثم جاء الرجل الذي كانت بداية المشكلة معه و سحب الرجل السوري و نظر إلى الجميع و كأنه يعلن انتصاره .

لقد طاش عقل هذا الرجل حتى أنه عندما بدأ العناصر بمحاولة التخفيف من المشكلة ظنهم ينتصرون له و ظن نفسه في حلبة مصارعة و صعد على أحد الكراسي و قفز في الهواء موجهاً رجله باتجاه الرجل السوري كأنه ينفذ إحدى حركات المصارعة الحرة .

انتهت المشكلة و لكن استمر ندب النساء و صراخهن دون توقف و دون أن يستطيع أحد إسكاتهن .

انتهى المشهد أخيراً و كان علينا أن نتابع طريقنا إلى الداخل و نترك الرجل يواجه مصيره تخيلت للحظة ماذا سيحل بالرجل إن كانت مخابرات الأردن مشابهة للمخابرات السورية لا شك أنه لن ينام هذه الليلة و لن يدع أحداً ينام بسبب صراخه .

الرجل المسكين هرب من مخابرات ليقع في أيد مخابرات أخرى و لكنه يتحمل جزءاً من المسؤولية فرغم سفالة المخابرات و التي يبدو أنها سمة أساسية في عنصر المخابرات إلا أن المشهد لم يكن يستدعي كل هذه السخونة في التعامل .

أياً يكن لا شك أنه سيقذف إلى سورية بعد أن ينال نصيبه .

مضينا في سبيلنا باتجاه اليمين ممر أشبه بالنفق مررنا به ثم وصلنا إلى إحدى الصالات و قد تجمع الناس كلهم فيها و بعد أن وصلنا إلى هذه الحجرة كان أحدهم يقوم بتوزيع الطرود على جميع القادمين الجدد و الطرد يحوي بعض المواد الغذائية من تمر و ماء و غيرها .

والآن سنبدأ بالإنتظار مجدداً حتى يصلنا الدور.

وصلنا أخيراً مكاناً يحتوي الكهرباء فبدأ الجميع يبحث عن مكان لشحن هاتفه النقال تمكنّا من ذلك أيضاً لكن استغلالنا للكهرباء لم يدم طويلاً فقد جاء دورنا للدخول إلى هذا المكان مجدداً دخلنا جميعاً و بدأنا ننتظر أمام حجرة لا نعرف ما فيها ثم دخلنا بعد أن خرج الموجودن قبلنا .
عدة أطباء سألونا هل أنتم مصابون بأحد الأمراض أو تعانون من بعض هذه الأعراض فأجبناهم بالنفي فأعطونا ورقة تشرح أعراض بعض الأمراض المترافقة مع الحروب مع طلبهم منا مراجعتنا لهم في حال بدت هذه الأعراض علينا ، ثم خرجنا باتجاه قاعة كبيرة لننتظر مرة أخرى ، يبدو أننا سنقضي يومنا بالإنتظار . أخبرنا أحدهم أن تغطية الشبكة السورية تصل إلى مربع السرحان و لكننا لم نكن قادرين على معرفة ذلك لعدم توفر الشحن و الآن بات الشحن متوفراً فلا ضير من التجربة بدلاً من قضاء الوقت بالإنتظار .
تمكنا فعلاً من الإتصال و لكن التغطية كانت كما في سورية سيئة ما إن تأتي حتى تذهب بسرعة .
خيّم الظلام تماماً على المكان و لم نقطع حتى الآن سوى مرحلتان و لا نعرف ما هي عدد المراحل التي تنتظرنا .
بعد بعض الوقت طلب منا الحارس الدخول إلى المكان التالي لم أعد أعرف إذا كنا لازلنا في ذات المكان أم أننا وصلنا إلى مكان آخر عدد كبير جداً من الكرفانات كالتي كانت في النقطة الأولى و الثانية تتوزع في كل مكان نراه و بدأنا نسأل الحارس لنعرف أين يجب أن نتجه حتى ننهي هذه الإجراءات و التي تكاثرت بشكل غريب أشار الحارس باتجاه إحدى الكرفانات و طلب منا التوجه نحوها .
مضينا إليها ثم دخلنا بعد أن خرج القادمون قبلنا .
حجرة صغيرة تحتوي على عدة أجهزة إلكترونية الحاسوب يتربع على المكتب و جهاز يشبه المنظار التقليدي و لكن يبدو أنه الجهاز الخاص بأخذ بصمة العين وهو إجراء متطور لم نكن نتخيل أن يصل إلى الأردن لولا ارتفاع وتيرة الثورة و تحولها في النهاية لحرب طاحنة .
دخل الموظف و الذي كان قد غادر الحجرة لبعض الوقت ثم بدأ يدخل البيانات الشخصية الخاصة بنا إلى جهازه و بعد أن أنهى الإدخال كانت آخر مرحلة هي وضع عيوننا أمام المنظار لأخذ البصمة .
وضعت عيني و أسندت ذقني إلى المكان المخصص و بدأت أنظر إلى العدسات أمامي واللاتي اكتسين باللون الاخضر و بدأ يتحرك فيهن ماسح ضوئي جيئة و ذهاباً ثم أطلق الجهاز صوت صفارته معلناً أن المهمة تمت بنجاح لم يستغرق العمل سوى دقائق معدودة بالنسبة لنا جميعاً ثم طلب منا الموظف التوجة إلى حجرة أخرى .
مضينا إليها ثم تم توجيهنا إلى حجرة أخرى.
يبدو أن أمر دخولنا خطير جداً حتى تحترز له السلطات بكل هذه الإجراءات دخلنا إلى الكرفانة و هي أكبر من كل الكرفاتات السابقة و تتوزع فيها عدة حواسب يمنة و يسرة توجه كل شخص منا باتجاه أحد الحواسيب الشاغرة ، لم يحتج الأمر أكثر من الوقت السابق هناك ، لحظات و تم إدخال البيانات

بنجاح ثم قام الموظف بتصويرنا لتخرج البطاقة الشخصية الجديدة من الناحية الأخرى للحاسوب حاملة صورتي الشخصة التي تم التقاطها الآن .
وأخيراً إنتهت إجراءات التسجيل و لا شيء نفعله الآن سوى الرجوع إلى وضع الإنتظار .
مضى من الليل جزء كبير في التسجيل و كل من ينهي التسجيل يتوجه إلى قاعة الإنتظار حتى يتم إرساله إلى المخيم الذي سيستقبله .
حملت بطاقتنا الشخصية عبارة (خاص بمخيم الأزرق) مما يجعلنا بانتظار الترحيل إلى هناك .
مضى النهار بأكمله و انتصف الليل و لا زلنا نحاول الدخول و بدأ التعب يلقي بظلاله علينا و بدأ الصغار و النساء يستسلمون لهذا التعب و يلقون بأنفسهم على الكراسي و التي تتوزع في هذه القاعة بشكلٍ يجعلها تبدو قاعة محاضرات .
الطريق للقادمين من سورية واضح الآن فبعد هذا العناء كله إما أن يتم توجيهك باتجاه مخيم الأزرق أو باتجاه مخيم الزعتري .
كان الزعتري هو المخيم الأول المعد لاستقبال اللاجئين و بعد أن تم إحداث مخيم الأزرق قررت السلطات إيقاف العمل مع مخيم الزعتري و الإقتصار على إرسال اللاجئين باتجاه مخيم للأزرق .
لكن رغم هذا القرار تمكن عدة أشخاص من القادمين معنا من تجاوز هذه العقبة عبر الإتصال بمعارفهم ليؤمنوا لهم الدخول باتجاه مخيم الزعتري .
شيء مؤسف حقاً أن يتحول قصارى أماني اللاجئين السوريين هو الوصول إلى مخيم الزعتري و البحث عن واسطات لذلك .
جاوزت الساعة الواحدة ليلاً و لم نتحرك من هذا المكان بدأنا نخشى أن القائمين على العمل قد خلدوا إلى النوم و نسوا أمرنا تماماً بالإضافة إلى التعب بدأ البرد ينخر عظامنا و لم نعرف ما الحل .
أمام المقاعد كانت تقف مدفأة غاز و لا أحد يجرؤ على لمسها حتى الآن كوننا ضيوف و لا زال شبح القذف يحوم أمام أعيننا .
وأخيراً تجرأ أحد الرجال الموجودين و قام بتشغيل المدفأة و التي بدأت تبث الدفأ بسرعة و بدأ جميع الموجودين و الذين لا يزالون مستيقظين ـ فقد نام الكثير من الناس ـ يتجمعون حولها بحثاً عن الدفأ كما يتجمع الفراش حول النار .
مضت الساعة الواحدة و الثانية و لا زلنا على حالنا كل ما في المسألة أننا نزداد تعباً على تعب .
وبعد أن جاوزت الساعة الثالثة جاء أحد الموظفين أخيراً و بدأ يصيح بأسماء الناس الذين سيصعدون في البولمان و يبدو أنه يجب أن ننتظر لأن الرجل ينادي بأسماء الذاهبين إلى مخيم الزعتري فقط فعلينا الإنتظار حتى يقلهم البولمان ثم ليعود و يقلنا بعدهم .
بدأت إحدى النساء تصيح على الموظف لأنها تريد الذهاب باتجاه مخيم الزعتري لأن أقاربها هناك و لكن لا واسطة لها و الموظف يقول لها أنه سيرسلها إلى الأزرق ، و بعد نقاش طويل ناداها الموظف المرة أخرى دون أن نعرف أين ستتجه .

دخلت الساعة الرابعة و أذن الفجر و اقتربت شمس اليوم الجديد من الإشراق و لا زلنا ننتظر إرسالنا إلى مخيم الأزرق ، و أخيراً وصلت الحافلة التي ستقلنا .

قام الرجل بعد الأسماء و صعد الجميع باتجاه الحافلة مسرعين فقد هدّ التعب الجميع .

استلقينا جميعاً في الأمكنة التي توفرت لنا فقد كان المكان يضيق عن اتساع الجميع و أخذت الحافلة بالسير مترافقة مع أشعة الشمس و التي بدأت تعلن قدوم يوم جديد قبل أن نصل إلى المخيم المنشود.

منزل جَديد" كرفانة"وأصدقاء قُدامى

ليلة طويلة قضيناها منذ انطلاقنا في هذه الرحلة و لعلها توازي اليوم الأول من الرحلة أو تزيد عليه.
صعدنا جميعاً إلى الحافلة العائدة من مخيم الزعتري لنستقلها باتجاه مقرنا الأخير (مخيم الأزرق)
أذن الفجر منذ بعض الوقت و الشمس أوشكت على الشروق و مع بدأ مسير الحافلة بدأ الجميع يستسلم للنعاس و يلقي رأسه كيفما اتفق حتى يخفف من حدة التعب المتراكم عليه.
بدأت عيناي تُغلقان تلقائياً أحياناً و تنفتحان أحياناً أخرى بسبب منعرجات الطريق و بدأت أشعة الشمس تتسلل إلى الحافلة أيضاً لتعلن عن قدوم يوم جديد .
لم تستغرق الرحلة وقتاً طويلاً ساعة واحدة كانت كافية حتى نصل إلى وجهتنا وصلنا إلى لافتة مكتوب عليها مخيم الأزرق للاجئين السوريين ظننا أنفسنا أننا قد وصلنا و لكن السائق استمر في القيادة مسافة طويلة حتى بدأت أظن أن المخيم أشبه بالمدينة لاتساعه انعطف يمينا و شمالاً و شرّق و غرّب ليصل بنا أخيراً إلى مركز الإستقبال .
أعلن السائق وصولنا بإيقاف الحافلة ليبدأ النائمون بالإستيقاظ بعد أن قطع السائق استغراقهم في النوم بفرامله.
بدأنا ننزل الواحد تلو الآخر و كل همنا الآن أن نجد مكاناً ننام فيه لا أكثر و عندما خرج إلينا الموظفون بدأنا نشعر بأننا قادمون من حرب فعلاً فقد أَلِفنا العيش في سورية و لم نعد نشعر بالحرب رغم قربها منا و لكن مع وصولنا إلى هنا بدأ الجميع يهنأنا بالسلامة و يطمئننا بأننا قد وصلنا إلى بر الأمان الذي لا خوف عنده و لا خطر معه .
وصلنا مبكرين و لم يحن موعد العمل بالنسبة للموظفين بعد لذلك طلبوا منا التوجه إلى أحد مراكز الإستقبال الثلاثة لنستلقي فيها بانتظار بدأ الموظفين عملهم .
كان الخبر مزعجاً بالنسبة لنا فقد كنا منهكين و يأمل كل واحد منا بالوصول إلى فراشه الجديد بأقصى سرعة و لكن ما باليد حيلة .
دخلنا أحد مراكز الإستقبال و بدأنا نحمد الله على أن العمل لم يبدأ بعد و نقول " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".
فقد كان محتوى صالة الإستقبال يشعرك بأنك في فندق و لبس في مخيم للاجئين.
الأسرة تتوزع على طرفي الصالة و الفرشات مكسوة بالجلد بالإضافة إلى عدة مراوح كهربائية تتوزع بين الأسرة لتغطي الصالة بأكملها و أرض الصالة قد فرشت بحصى الإسفلت غير المرصوف.
سارعنا جميعاً عند الدخول بالبحث عن مقبس كهربائي حتى نشحن هواتفنا النقالة و بعضنا لم يأبه بهذه المسألة و توجه إلى أحد الأسرة مباشرة .

و بعد قليل دخل الرجل الذي استقبلنا ليطلب من الجميع التوجه لجلب غطاء يدثّر به جسمه .
و بعد أن عدنا مع الأغطية استلقينا جميعاً أملاً في الحصول على قليل من الراحة نستعين بها على مواجهة اليوم القادم الذي لا نعرف هل سيكون متعباً و طويلاً مثل سابقه أم أن ليلة أمس كانت هي الليلة الأخيرة في هذه الرحلة الطويلة .
لم نتمكن من الإستغراق في النوم حتى دخلت الساعة العاشرة ليبدأ معها يوم العمل بالنسبة للموظفين دخل عندها موظف الأمم المتحدة ليخبرنا عن ميزات المكان الذي وصلنا إليه و يَبسُط في حسنات هذا المكان و أننا سنجد فيه ما لم نجده في أي مكان حتى في سورية قبل الثورة.
بدا كأنه يتكلم عن منتجع في الولايات المتحدة أكثر من كونه يتحدث عن مخيمٍ للاجئين و رغم جميع ميزات هذا المكان التي ذكرها إلا أنه لم يتم تمديد الكهرباء إلى داخله حتى الآن .
ثم لمَّح إلى ما يمكن أن يحدث في حال قرر أحدهم المخاطرة و الهرب دون إذن رسمي و بأن من يفعل ذلك فهو يتحمل مسؤولية نفسه .
إنتهى الموظف جهاد من كلامه و خرج باتجاه الصالة التالية .
كان الشخص الذي قدم معنا من بصر الحرير و الذي امتاز برعونته طول الطريق قد حافظ على مزاجه معتدلاً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً و لكن يبدو أنه لا يتقن التحكم بانفعالاته فبعد أن خرج جهاد تكلم الرجل مع إحدى الفتيات اللواتي يساعدن جهاد فحصل سوء تفاهم انطلق عندها الرجل بالصياح على الفتاة متذرعاً بزوجته الحامل ، تلقت الفتاة الصدمة و سارعت إلى رئيسها جهاد لتخبره بما حصل فجاء مسرعاً ليحتد النقاش مرة أخرى ثم بين الرجل عذره لجهاد بأن زوجته حامل و طفلته الصغيرة تتألم من ساقها فأنهى جهاد المسألة و طلب من مرافقيه أن يخبروا المستوصف بشأن الطفلة و انتهى سوء التفاهم الحاصل .
مع بدأ الموظفين بالتوافد إلى أعمالهم بدأوا ينقلوننا من مرحلة إلى أخرى داخل المخيم . خرجنا من صالة الإستقبال و توجهنا إلى المرحلة التي تليها و هناك كان علينا أن نسجل في إحدى الغرف و بما أننا عائلةٌ واحدة فعلى أبي أن يقوم بذلك لوحده توجه أبي إلى الغرفة و بقينا نحن ننتظره في الخارج و كانت هناك أحد الفتيات تسأل عن الطريقة التي جئنا بها و كيف وصلنا إلى هنا ؟ و ما هي التكلفة التي تحملناها أجرةً للطريق ؟.
فبدأ أحدهم يقصُّ لها معاناته مع المهربين و كيف استغلوه و كيف أنهم أخبروه بأن الأجرة ستكون ٢٠٠٠ ثم تفاجأ بأن الأجرة ٣٠٠٠ ليرة سورية .
و بدأ يعود إلى بداية الرحلة و كيف أن أحدهم اضطر لكثرة الأشياء التي يحملها لاستئجار حمار بمبلغ ١٥٠٠٠ ليرة سورية .
ثم سألتنا أليس مبلغ ٢١٠٠٠ ليرة سورية أجرةً للرحلة كبيراً بالنسبة للوصول إلى هنا ؟.

لم أعتقد بأن المبلغ كبير فقد سارت السيارات فينا ما يقارب التسع ساعات بالإضافة إلى البدو الذين أرشدونا في بداية الطريق و استمروا يمشون معنا مسافة ثمان ساعات متواصلة كل هذا جعلنا نعتقد المبلغ إن لم يكن زهيداً فهو عادي بالنسبة لهذا المجهود .
انتهى أبي من التسجيل و حان الوقت كي ننتقل إلى المرحلة التالية .
لم نكن أول الداخلين فقد سبقنا أناس كثر و بمجرد أن ينتقلوا إلى المرحلة التالية نعرف نحن ما سيواجهنا من خلال مراقبتهم .
بدأت السيارات تأتي و تقلّ كل عائلة على حدة .
تجاوزنا نحن جميع المراحل لنبدأ بإنتظار سيارة تقلنا حيث ذهبت إحدى الفتيات العاملات هنا لمساعدتنا بتأمين سيارة .
لم يطل بها الوقت حتى وصلت السيارة و التي كانت من نوع وانيت و يبدو على سائقها الكبر .
وضعنا كل ما استلمناه من مقومات الحياة الأساسية من فراش و اسطوانة غاز و غاز بالإضافة إلى عصرونية البلاستيك في مؤخرة السيارة حيث صعدنا ليقلنا السائق باتجاه عنواننا الجديد و الذي أعطيناه إياه حال صعودنا .
سارت السيارة مسافة ابتعدت بنا عن كل شيء من معالم المدنية لنبدأ نعاين كرفانات متوزعة بشكل مسلسل و متساو في مناطق مختلفة.
بدأت حرارة الطقس تشتد و بدأ المكان يكتسي بالثوب الصحراوي لنبدأ بالتعرق و لا نجد إلى دفع حرارة الجو سبيلاً .
و أخيراً توقف السائق و أخبرنا بأننا قد وصلنا إلى عنواننا الجديد بدأنا ننزل أمتعتنا فجاء أحد الأشخاص يكلم السائق و يحتد في نقاشه ، لم نفهم السبب بدايةّ ثم نظر السائق إلى العنوان للتأكد منه مرة ثانية فقال انزلوا إلى هذا العنوان و لا تأبهوا لكلام الرجل فهذا هو عنوانكم .
ثم فهمنا أن الرجل يرغب بإبقاء هذا المكان محجوزاً بانتظار قدوم أخيه من سورية ليجاوره في المنزل.
دخلنا الكرفانة أخيراً و على النقيض من صالة الإستقبال تماماً فكل ما في الأمر أن هذه الكرفانة عبارة عن خيمة حديدية قد ألقيت في مكان محدد من الصحراء فقد كانت أرضيتها عبارة عن مرتفعات و منخفضات و منعرجات ترابية و إذا أمطرت في يوم ما فستشكل بحيرة من الماء في صدر الغرفة .
لم يخرجنا من سورية البحث عن الأمن و الأمان الذي كان يتشدق جهاد بتوزيعه علينا لقد جئت إلى هنا حتى ألاقي عائلتي و قد قطعت مرحلة الأزرق و لا بد من التحرك باتجاه الخطوة التالية و هي الدخول إلى الأردن و لكن أبي بدا مصدوماً عندما بدأنا نتكلم عن عزيمتنا على الخروج مستغرباً كيف سنترك كل هذه المآثر و الحسنات التي ينعمون بها علينا و التي لم ندرك قيمتها و نتوجه للدخول إلى داخل الأردن لنبدأ بشق عباب الحياة من جديد دون مساعدة أحد و كما استغرب أبي موقفنا استغربنا منه إعجابه بهذا المكان و لكن بدا أن الأمور تسير على هوى والدي فقد وصلنا منذ دقائق و من المبكر

الكلام عن هذه المسألة الآن . بدأنا نحاول التعايش مع الوضع الراهن و مهما كانت الظروف و الأحوال فلا بد من البحث عن وسائل الإتصال أولاً تركنا والدي وحده و توجهت أنا و أخي أحمد باتجاه سامح مول و هو الدكان الوحيد المخصص للبيع هنا، كانت مسافة غرفتنا تبعد كثيراً عن الدكان و الجو لا يزال حاراً و لكن لا بد من تأمين بطاقة الإتصال، وبعد مشي ما يزيد على عشر دقائق وصلنا أخيراً إلى سامح مول .

ما يهمنا الآن هو بطاقة الإتصال بالإضافة إلى الخبز و بعض المواد الغذائية .

الدكان لا يستحق إسم المول فهو عبارةٌ عن طابق واحد فقط و تتوزع داخله عدة حجرات فبعد الدخول إلى اليمين يقف بائع الدخان الوحيد في المخيم و إلى الأمام قليلاً باب يفصل محل الخضار عن المول و مع الخضراوات داخلاً توجد أدوت الزينة و في خارج هذا المكان توجد برادات العصير و رفوف المعلبات و على يسار الباب يقف محاسبان يقومان بمحاسبة الناس و يبدوان عاجزان عن العمل فعدد الداخلين كبير جداً و هما يعملان وحدهما .

بدا سامح مول إستثماراً رابحاً فهو يقوم بصرف الكوبونات و لكنه يبيع السلعة بأضعاف مضاعفة عن الخارج فقد اشترينا مشطاً بلغ ثمنه ما يقارب الخمسة دنانير و الكوبونات مختصة فقط بالمواد الغذائية و لا يمكن استعمالها لغيرها و هي عبارة عن عشرين ديناراً أردنيا في الشهر للشخص الواحد و لكن القادمون الجدد يأخذون مبلغ عشرة دنانير فقط بانتظار المرة القادمة .

إنتهينا من شراء البطاقات ثم عدنا باتجاه بيتنا الجديد و قد جعلتنا حرارة الشمس عاجزين عن الكلام و ما إن وصلنا حتى استلقى كل منا على فراشه بحثاً عن قليل من الراحة و لكن الجو المحيط بنا لم يساعدنا على النوم فقد كانت الحرارة شديدة و بدا أن هذه الحجرة تتلقى الحرارة جزءاً و تعكسها إلى داخلها أضعافاً مضاعفة .

بدا أن تسليتنا الوحيدة في الأيام القادمة ستكون محصورة في الهواتف النقالة و التي لا نملك الكهرباء لشحنها .

تأخر تفعيل البطاقة الجديدة مما اضطرنا للعودة إلى الدكان مرةً أخرى حتى يفعلّها لنا أحدهم و بالفعل فعلّناها و عدنا مسرعين إلى البيت دون أن نعرف ما يجب فعله حتى نقضي بقية اليوم .

بدا أن الأيام القادمة ستكون مطبوعة بالحرارة الشديدة في الجو و بالبرودة في الأعمال لدرجة الملل.

إنتهت رحلتنا الطويلة أخيراً للوصول إلى الأردن و لا نعرف متى ستبدأ رحلتنا القادمة إلى داخل الأردن و كم ستستغرق من الوقت .

جالت بنا السيارة داخل المخيم لنشاهد جزءاً من تنظيمه و الذي بدا جيداً إلى حد ما فقد أخبرنا جهاد أن المخيم يحوي خمسة عشر قرية و داخل القرى تتوزع قطاعات يسمونها بلوكات يحوي كل واحد منها ٤٨ كرفانة متوزعة بشكل مستطيل ثمانية في الطول و ستة في العرض و أمام كل ١٢ كرفانة يوجد ٤ حمامات موزعة بالتساوي للرجل و النساء .

تم نقلنا بواسطة السيارة إلى القرية الثالثة حيث مقرنا الأخير ما إن غربت شمس اليوم الأول حتى استلقينا بسرعة بحثاً عن قليل من الراحة و لعدم وجود شيء نشغل به وقتنا فالكهرباء غير متوفرة هنا و بالتالي يوشك شحن الجوال أن ينفذ و قام موظفوا الإستقبال بإعطائنا فانوساً لونه أزرق يعمل على الطاقة الشمسية مدعين أنه قادر على شحن جميع الأجهزة و لكن ما إن وصلنا و قمنا بتجربته حتى تبين أن ادعاءهم مجرد هراء .

لا نعرف أحداً هنا حتى الأشخاص الذين رافقونا لا نعرف إلى أي مكان انتهوا و إلى قرية ذهبوا لا شيء نقضي به وقتنا سوى النوم بانتظار انتهاء اليوم و قدوم يوم آخر.

خرج معنا محمود زميلي في السجن سابقاً و لم نعد نعرف أين استقر به الأمر و بعد أن توفر الإتصال أخيراً حاولت الإتصال به فأخبرني أنه قد خرج يوم أمس عن طريق كفالة فلا تستطيع أن تخرج بشكل عشوائي و عليك أن تبحث عن شخص أردني الجنسية له صلة قرابة بك حتى يكفلك و هو أمر لا نملكه جميعاً و لكن محمود تمكن من الخروج عن طريق رشوة لأحد الأشخاص و الذي زوّر له كفالة حتى يخرج بشكل نظامي .

لم نعرف ما هي الوسيلة المناسبة لمغادرة هذا المكان و لكن بما أن الإتصال موجود يمكننا أن نكلم جميع من نعرفه بدأت أتصل بأقربائي فور وصولي فقد نزح معظم أقربائنا و أهل قريتنا إلى الأردن فاتصلت بأولاد عمي أبي عاصم أبي جراح عبد المنعم و الذين تكلموا كلاماً طيباً و وعدوني بالمساعدة.

الشخص الذي بدا مستعدا للقدوم و لتأمين الكفيل بسرعة هو أبو عاصم و وعدنا بأن يأتي في أيام الزيارة و التي تنحصر في ثلاثة أيام في الأسبوع .

بدأ نظام مخيم الأزرق يشعرني بأننا في مكان أقرب إلى السجن أكثر من كونه مخيم و على حين تتوفر الكهرباء في السجن بشكل دائم يعيش هذا المخيم بظلام دامس بانتظار أن يقرر المسؤولون توصيل الكهرباء إلى داخله .

و هناك يوم مخصص للكفالات و أيام الزيارة محصورةٌ أيضاً بالإضافة إلى احتكار البيع من قبل سامح مول .

وصلنا يوم الأربعاء و بما أن رحلتنا انتهت فلا بد من أن نتوقف عن الجمع و القصر و قد دخل يوم الجمعة فيجب علينا أن نحظر الخطبة.

توجهنا إلى المسجد جميعاً بعد أن دخل وقت الصلاة و قد بدأ لفيح الهاجرة يكوي أجسامنا بحرارته و الصحراء التي نعيش فيها تجعل الحرارة أضعافاً مضاعفة.. دخلنا إلى المسجد و هو عبارة عن خيمة كبيرة كالخيم التي نمنا فيها عندما كنا في النقطة الأولة و الثانية و الأرض اختلط ترابها بحصاها و توزعت عليها الحصير بشكل لم يغطِ كل المكان .

بدأ الخطيب يخطب و بدت خطبته جيدة و بدا واضحاً من لهجته أنه شامي إنتهت الخطبة لنعود مسرعين باتجاه الكرفانة لنبحث عن شيء نكسر فيه هذا الملل و لكن دون نتيجة فالجوال قد انتهى شحنه و إذا أردت أن تقوم بشحنه مرة أخرى فعليك أن تتوجه يوم الأحد إلى منظمة كير و هي منظمة

مختصة بالخدمة الإجتماعية و لكنها تقوم بتقديم بعض الخدمات المجانية كهذه الخدمة و لكنها لا تعمل اليوم لأنه يوم عطلة و كذلك غداً فلا بد من الإنتظار إلى يوم الأحد .
بدأ ضيق الكهرباء يحاصرنا و يجعل وجودنا هنا عبارة عن مضيعة للوقت و بطريقة مملة لا نصبر عليها و انحصر تفكيرنا في كيفية شحن الهاتف النقال مرة أخرى حاولنا باستعمال الفانوس و لكن ذلك لم يجد نفعاً فكرنا قليلاً لتخرج معنا فكرة جديدة و لا ندري مدى صحتها و لكن بطارية الهاتف قد كتب عليها خمسة فولت فقلت في نفسي ربما استطاعة الفانوس غير كافية لشحن الهاتف و سنحاول زيادتها عن طريق شراء البطاريات الصغيرة و نضع الجميع في طريق واحد باتجاه بطارية الجوال لتشحنها توجهنا إلى الدكان مباشرة لشراء البطاريات و لنحاول تطبيق هذه الفكرة .
وضعنا أولاً بطارية و لكنها لم تنجح ثم زدنا عدد البطاريات حتى ظهرت علامة البطارية التي تخضّر تدريجياً على الهاتف معلنة نجاح فكرتنا .
رغم نجاح الفكرة إلا أن الشحن لم يكن يوازي شحن الكهرباء التقليدية و سرعتها فالهاتف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتوفر به بعض الشحن .
ولكن هذا أفضل من لا شيء دخل يوم الأحد أخيراً حيث سيأتي أبو عاصم كما وعدنا مع أحد أصدقائه من الأردن حتى يستجدي لنا كفالة من السلطات .
توجهنا إلى رؤية أبي عاصم فحتى و إن أخفقت المحاولة فنحقق مكسباً معنوياً برؤية أبي عاصم و الذي غادر سورية قبل الثورة بعامين و توجه إلى اليونان أملاً في بناء حياة جديدة و لكنه عاد خلال الثورة حيث كنت مودعاً في السجن مما يعني أني لم أره منذ أكثر من خمسة أعوام .
كان المخيم كبيراً جداً و لا نعرف أين سنجد الرجل فبدأ يحاول إرشادنا عن طريق الهاتف حتى تمكنا من العثور عليه أخيراً .
باب مسوّر يليه باب آخر و أبو عاصم يقف وراء الباب الثاني بعيداً عنا تكلم مع الحارس ليأذن له بالدخول فأذن له على مضض فالدخول اليوم ممنوع لكونه ليس من أيام الزيارة .
و أخيراً أرى أبا عاصم بعد أكثر من خمس سنوات من الغياب .
غريبة هي الأيام كيف تتقلب فينا تشتت الشمل حيناً و تجمعه بعد دهر طويل بدا عليه إرهاصات الثورة فقد كانت ذقنه طويلة على غير عادته قبل الثورة .
سلمنا عليه من خلف السور و ما إن مضت دقيقتان حتى طلب منه الحارس العودة و التوجه إلى الخارج ذكرتني زيارته بزيارات أهلنا في صيدنايا عندما كانت مدة الزيارة لا تتجاوز الخمس دقائق و أحياناً تنتهي بعد بضع كلمات و أقل من دقيقة إنتهت الزيارة سريعاً و عاد أبو عاصم و صديقه الذي قدم معه من حيث أتوا و عدنا نحن إلى مكاننا نتأمل في نجاح هذه الخطوة لندخل الأردن و لكن الخطوة تحتاج إلى بعض الوقت أيضاً حتى تقرر السلطات فيما إذا كانت الكفالة مقبولة أو مرفوضة .
عاد الملل يجلدنا بسياطه غير مدركين ما يجب علينا فعله حتى نتأقلم مع هذا المكان و الذي يبدو إن إقامتنا فيه ستطول أكثر مما كنا نتوقع.. حاول أحد جيراننا أن يكسر قيد العزلة التي التزمناها فجاء

إلى زيارتنا كان رجلاً مسناً و هو يقيم في الكرفانة المقابلة لنا اسمه أبو ياسر و هو من قرية نمر في ريف درعا جاء هو و عائلته و أولاده باستثناء ولد أو ولدين بقيا مع الثوار في سورية و بدأ أبو ياسر يتكلم ليلاقي تناغماً بالأفكار بينه و بين والدي يبدو أن جيل والدي متفاهم مع بعضه أكثر من جيلنا . و بدأ يشرح لنا عن عزّه قبل الثورة فقد كان موظفاً في البريد لأكثر من ثلاثين عاماً و عاش حياةً سعيدةً إلى أن بدأت الثورة فولى هارباً عندها باتجاه الأردن .

رغم أن أبا ياسر لا تعجبه الأوضاع في سورية حالياً إلا أنه غير سعيد بالإقامة هنا أيضاً حتى تخيلت من كلامه أنه يعيش في سجن بكل معنى الكلمة فهمت من تأففه أنه من طبيعة الرجال المتضجربن الذين لا يعجبهم شيء سواءٌ كان جيداً أو سيئاً و في كل مرحلة يذرفون الدموع حزناً على المرحلة السابقة و التي كانت أفضل بنظرهم .

لكن أولاد الرجل استسلموا للأمر الواقع و بدأوا يعيشون هنا و يبحثون عن أسباب الحياة و وسائلها بكل طريقة فأحد أولاده و هو أعزب يعمل مع منظمة كير و الآخر رجل متزوج يعمل مدرساً في إحدى روضات الأطفال أخرجنا كلام أبو ياسر من الجو الممل الذي كنا نعيشه و لكنه قرر إنهاء زيارته و العودة إلى منزله .

لم يكن هناك صنبور للماء في الكرفانة و إنما يتوزع أمام كل قرية عدة صنابير للماء على الجميع حينها التوجه إلى جلب المياه منها و في أوقات محددة فحتى المياه لها دوام رسمي هنا و هي تأتي من الثامنة صباحاً و حتى الثانية عشر ظهراً ثم تنقطع لتأتي مرة أخرى في الساعة الثالثة و تستمر إلى الساعة السابعة .

لم يكن صنبور الماء بعيداً عنا كثيراً و لكن المشكلة تكمن في أنهم لم يعطونا سوى بادونان فقط و علينا استعمالهما لجميع احتياجاتنا مما يعني أنه علينا أن نعبأهما في اليوم أكثر من المرة كان الأمر عادياً بالنسبة إلينا و لكن المشكلة في الأولاد الصغار الذين يأتون لحمل هذه البوادين و التي يفوق حجمها حجم حامليها و بما أن الحاجة أم الإختراع إبتكر الأولاد الصغار طريقة يتمكنون بها من جلب المياه إلى أهلهم.

كان بعضهم يستغني عن أحد البوادين و يقوم بشق جزء منه ليشكل مستطيلاً يستطيع الولد الصغير سحبه عن طريق حبل يربطه بيد البادون و يبدأ يجره مع البادون الآخر الذي عبأه و يعود به مسرعاً إلى أهله.

ادعى القائمون على المخيم عند وصولنا بأن المكان مجهز بأحدث التقنيات و الوسائل و لكن مع ذلك لا توجد كهرباء و هذا أمر تجاوزناه و لكن المشكلة الآن في المياه و ذلك أننا عندما نقوم بتعبئة أحد البوادين يترسب فيه التراب و يتغير لونه ليجعلك تشك هل هذا ماء حقاً أم أنه شاي و لكن ما باليد حيلة ليس أمامنا إلا الإستسلام و انتظار الأمل في خروجنا قريباً عن طريق الكفالة .

دخل يوم الأربعاء و هو اليوم الذي يفترض أن تقرر السلطات فيما إذا كانت الكفالة مقبولة أو مرفوضة توجهنا إلى المركز الأمني و الذي يقبع على تلة مرتفعة بحيث يشرف على كامل المخيم و أمامه

مباشرة الطريق الرئيسي دون حاجز أو ساتر حاولنا الوصول إلى الباب و لكن بدا الأمر أشبه بمحاولة تحصيل بعض الخبر من أحد الأفران في أيام المجاعة .
وصلنا إلى أحد الحرس الواقفين أمام الباب فسألناه عما حصل معنا فأجاب ليس من الضروري أن تتلقوا جواباً اليوم قد يستغرق الأمر أسبوعاً أو شهراً أو سنة أزعجنا كلامه أكثر من صدمة عدم خروجنا اليوم سلمنا بالأمر و عدنا أدراجنا .
وبدأنا نحاول الخروج بطريقة أخرى بعد أن فشلت محاولة أبي عاصم تبرع أخوه أبو جراح و قال" أنه يعرف أحد الأشخاص و الأمر بالنسبة إليه أقل من عادي و هو قادر على إنهاء هذه المسألة حالاً ولكنه في إجازة الآن و سيعود إلى العمل بعد عدة أيام و عندها سيحل مشكلتنا ".
لا شك أن المحاولة خير من أن نجلس متفرجين مضت عدة أيام و وصل اليوم الذي سيخبرنا به ابن عمنا بالنتيجة حاول ابن عمي جاهداً مكالمة صديقه و لكن الرجل لم يعد يرد على الهاتف أحس أبو جراح بالإحراج فأخبرناه أنها محاولة لم تنجح نشكرك عليها و لا تلم نفسك أو الرجل فلعل له ظروفاً لا تعرفها .
إضافة إلى أبي جراح اتصلت بنا جدتي لتخبرنا بأنها ستحاول إخراجنا بمساعدة خليل و الذي كان نائباً سابقاً في مجلس الشعب و لكن يبدو أن للرجل مشاغله التي تلهيه عنا فبدأت جدتي تستميت في محاولة إخراجنا أكثر من محاولتنا أنفسنا فقالت اتصلت بأحد الأشخاص و هو من القرية و لكنها هنا الآن و يبدو أنه يعرف شخصيات مهمة و هو قادر على المساعدة .
رغم كل ذلك باءت جميع محاولات خروجنا بشكل نظامي بالفشل مما جعلنا نستشعر أن السلطات تدفعنا إلى الخروج بالطريقة الأخرى دون أن نأبه للنتيجة فقد بدا أنهم أغلقوا جميع الأبواب في وجوهنا و لم يبق سوى هذا الباب و لكن لا نعرف متى سنتجرأ و نجربه .

فشلت محاولتنا الأولى للخروج عن طريق السلطات و بدا أن إقامتنا في هذا المكان ستطول و لا بد لنا الآن من الإستسلام للأمر الواقع و قضاء حياتنا بشكل طبيعي ريثما يشاء الله لنا الخروج من هذا المكان .
الشخص الأول الذي زارنا عند قدومنا هو أبو ياسر النمري موظف البريد سابقاً و كانت إقامته في الكرفانة المقابلة لنا مباشرة و يقطن أولاده إلى جانبه في الكرفانة المجاورة له .
خرجت مرةً باتجاه المسجد لأصلي العصر و لأحاول استغلال الوقت بما هو نافع .
كان المسجد شبه خالٍ من الرواد لا يوجد سوى شخص أو اثنين ينتظرون الصلاة .
بعد أن أنهينا الصلاة أحببت أن أتعرف إلى هؤلاء الشباب فسلمت على أحدهم و سألته من أين أنت فأجابني بأنه من الرقة .

كان قدوم الناس من درعا و دمشق أمراً عادياً أما أن يأتي أحدهم من الرقة فلا شك أن الرحلة كانت معقدة أكثر بكثير بالنسبة له .
ودفعني الفضول مباشرةً للسؤال عن حال داعش ، فسألته كيف هي داعش فأجابني " الدولة الإسلامية جيدة "
فقلت " أعرف أنها جيدة أقصد كيف كنتم تعيشون فيها ؟ و هل هذه الإشاعات التي نسمعها بشكلٍ متكرر و التي باتت أشبه بالسخرية صحيحة أم مجرد هزل إعلامي ؟
فأجابني " لا الدولة تحكم بالإسلام و تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر ، لا تخالف لا أحد يتعرض لك".
ذكرتني كلمته بتهديدات العسكر المتوالية لنا في صيدنايا لا تخالف حتى لا تتعرض للعقوبة و إذا أراد معاقبتك فلن يعدم المخالفة لدرجة أن أحد الضباط دخل مهجعنا مرةً عندما كنا أربعة أشخاص و كان يأمرنا بأن نطوي البطانية على شكل سيكارة و عندما استيأس و لم يجد شيئاً توجه إلى خالد و قال للعنصر الذي معه اضرب هذا فبطانياته ليست كما ينبغي رغم أن خالد كان الأكثر اجتهاداً في محاولة الإنظباط و الإنصياع للأوامر بحرفيتها .
ثم شرح لي الشاب قصة حصلت مع أحد أقربائه و الذي كان يملك محلاً تجارياً لبيع الألبسة و من المفترض به أن يغلقه وقت الصلاة و لكن الرجل تأخر فأرسلت الدولة له بلاغاً للحظور إليها فسارع ملبياً الدعوة قبل أن تتفاقم المشكلة و يغدو عاجزاً عن حلها و بعد أن دخل إليهم قاموا بجلب كأس من الشاي لضيافة الرجل ثم طلبوا من الرجل عدم تكرار خطأه و أعطوه ورقة تبين صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ثم صرفوه.
لم أعرف إن كان الرجل صادقاً أو كاذباً لكن لا يبدو عليه أنه يتعمد الكذب قال :" هم جيدون يجاهدون في سبيل الله و لكنهم سيئون عندما يتعلق الأمر بالجيش الحر و جبهة النصرة و لا أعرف ما سر هذه الحرب الشعواء الحاصلة بينهم الآن ".
معظم الشباب الذين حظروا للصلاة في المسجد كانوا من الرقة و يبدو أنهم أقرباء أو أصدقاء .
انصرفت من المسجد و توجهت باتجاه الكرفانة و في الطريق وجدت أبا فراس و هو رجل جعلته سنون الغربة الطويلة هزيلاً إلى درجة يبدو فيها أكبر من سنه نظرت إليه و خُيّل إلي لوهلةٍ أنه يحمل هموم الدنيا بأسرها. فجلست إلى جانبه متسائلاً ما الذي يدور بخلده و يجعله كتلة من الهم .
لم يكن أبو فراس بحاجةٍ إلى أن أسأله حتى يبدأ الكلام فقد بدأ يحكي لي عن معاناته و كيف قضى سنيناً طويلاً في الغربة جاوزت العشرين عاماً و لم يخرج من سورية طواعيةً و لكن خوفاً من الموت فقد كانت قريته بصر الحرير مكاناً لمعارك عدة مما جعل معظم أبنيتها عبارة عن آثارٍ تاريخية منحوتةً بواسطة البراميل المتساقطة من السماء و الصواريخ و الراجمات . قضى ثلاثة عشر عاماً من حياته هنا في الأردن قبل الثورة ثم توجه إلى لبنان و عاد إلى سورية فترةً قصيرة ولّى بعدها وجهه شطر المكان الذي عرفه أكثر من بلده و عاد إلى هنا.

ولكن جميع الموجودين هنا مشكلتهم متشابهة فالسلطات تجعل أمر المغادرة بشكل رسمي أشبه بالمستحيل و الرجل غير قادر على الهروب تحت جنح الظلام كما يفعل غيره .
لم يكن كل كلامه عن غربته مؤثراً بقدر ما أثر فيّ أنه لم ينجب حتى الآن و قد جاء هو وزوجته بحثاً عن حل لمشكلة العقم .
حاولت التخفيف عنه و طلبت منه أن يصبر و قلت له " أن الإبتلاء على قدر الحب من الله "
و حاولت جاهداً التحفيف من همه و بدت رغبتنا الملحة في الخروج أمراً تافهاً أمام ما يعانيه هذا الرجل في حياته .
عدت إلى الكرفانة التي لا جديد فيها سوى النوم و بدأنا نحاول كسر سلطان الوقت بالنوم .
كنا نظن أننا الأشخاص الوحيدون القادمون من القرية و لكن بعد أن أوشكت الشمس على الغروب قرع أحدهم الباب كان أمراً مفاجئاً بالنسبة لنا فالمخيم الآن أشبه بمدينة أشباح لا تجد فيها أحداً إلا في حالات نادرة و في مناطق معينة و لعل الدكان و المركز الأمني هما المكانان الذان يحتويان أكبر تجمع من المقيمين هنا فتحنا الباب و دخلت فتاة لا يبدو عليها الكبر فسألتنا أنتم من قرية أم ولد ؟
تفاجئنا بعد أن أجبناها بالإثبات بقولها و أنا أيضاً من أم ولد و لكني لا أعرفكم فسألها أبي ابنة من أنت ؟
و بعد أن أجابته اكتشفنا بأنها جارة لنا ثم عادت إلى بيتها بعد أن عرفتنا بنفسها .
في اليوم التالي حاولنا أن نكسر حاجز العزلة فجلسنا في الخارج فجاءت الفتاة التي جاءت في الأمس و لكن كان بصحبتها عدة أولاد لنكتشف أنها متزوجة منذ سنين طويلة إستغربنا قدومها لوحدها فسألناها عن زوجها و لماذا هو ليس برفقتها؟
فبدأت تسرد لنا قصتها و قالت بعد أن عافت نفسي الكلام عن الجيش الحر و الذي أسميه (الجيش الكر)
حسمت قراري و حزمت أمتعتي و أخبرته بأنني سأسافر إلى الأردن شئتَ أم أبيت فافعل ما بدا لك!
وأخبرت أحد أقربائه " إذا تمكنت من العثور على أناس يأمنون لي الطريق فأخبرني بذلك مباشرة "
وفعلاً بعد عدة أيام بدأ الركبان يتجهون نحو الأردن فتوجهت إلى قريب زوجي و أخبرته بأنني عازمة على السفر فأجابني " هل أخبرت زوجك" فقلت له :" أخبره أنت إذهب إليه و أعلمه أنا قلت له أني مسافرة و أنا بانتظار أن يفتح الطريق و بما أن الطريق مفتوح فلن أنتظر أحداً "
وسلكت الطريق الذي سلكتموه أنتم بعدي .
كانت مشكلة شحن الهاتف الجوال لا تزال موجودة فالطريقة التي ابتكرناها لم تحل المشكلة بشكل جذري و إنما كانت عبارة عن حل إسعافي فسألناها كيف تقوم بشحن هاتفها فأجابت بأنه " يوجد مركز هنا يختص بشؤون المرأة و تعليمها من أمور منزلية و غيرها و أنا أذهب إلى هناك لأني أعرف الخياطة و أقوم بشحن الجوال و بأمكاني شحن هواتفكم إذا أحببتم".
طبعاً هذا سيهون علينا البقاء هنا و سيغنينا عن منّة منظمة كير و التي كانت تجربتنا معها مريرة .

فقد توجهنا مرة إلى هذه المنظمة لنشحن جوالاتنا فسألنا أحد الموظفين عن ذلك فقال عليكم أن تنتظروا حتى الساعة الثانية عشر ظهراً و بعد أن انتظرنا إلى حلول الوقت الموعود كان علينا أن نسجل أسماءنا على دفتر مع الموظف الذي يدير الدور و علينا أن نعطيه البطاقة الأكثر تداولاً في هذا المكان و هي بطاقة المفوضية .

ولا يسمح بالشحن لأكثر من مرة واحدة و بعد أن انتظرنا ما يقارب ساعة أو يزيد عليها أعطينا الرجل الهاتف ليعيده لنا بعد أقل من عشرين دقيقة .

يبدو أنه لا شيء هنا يمكن تحصيله بسهولة بالإضافة إلى شحن الجوالات تقوم هذه المنظمة حسب كلامها بتأمين فرص عمل للشباب المتواجدين هنا فطلبت من الرجل أن أسجل إسمي لأرى ما يمكن أن أحصله من عمل هنا فقال عليك أن تنتظر حتى الساعة الواحدة ظهراً لتقوم بالتسجيل.

يبدو أنه لا يمكنك أن تفعل شيء هنا دون انتظار و يبدو أن هذا المكان يحتاج إلى صبر يوازي صبرك على السجن .

انتظرت حتى الساعة الواحدة و دخلت لأسجل اسمي و انتهى التسجيل سريعاً .

فالمقابلة عبارة عن أسئلة روتينية لا أكثر عن الإسم و المؤهلات و ما إلى ذلك .

لم يعد هناك شيء أمامنا إلا و جربناه هنا و بدأت الأيام تتوالى مشابهةً بعضها لبعض .

وصلنا مع بداية الشهر السادس و هذا هو الموعد المرتقب لانطلاق تصفيات كأس العالم لكرة القدم و التي تقام هذا العام في البرازيل و لكن ما من وسيلة لمتابعتها فالكهرباء غير متوفرة أصلاً ولكن أم محمود التي زارتنا سابقاً أخبرتنا بأن ابنها يتوجه إلى منظمة كير لمشاهدة التلفاز حيث يقومون ببث البرامج على شاشة ضخمة لم يخطر في ذهننا أكثر من أنها مجرد برامج أطفال و لكني عندما كنت في الدكان سمعت أحدهم يتحدث عن موعد المباراة القادمة فقال في تمام الساعة السابعة فتعجبت منه ماله و لموعد المباراة ثم تبين أن منظمة كير تقوم ببث المباريات مباشرة و ليس برامج الأطفال .

وجدنا أخيراً شيئاً جديداً نقضي به وقتنا توجهنا قبل بدأ المباراة و التي يفترض أن تبدأ في الساعة السابعة في طريقنا كان أناس كثر يسيرون في ذات الإتجاه و لكن ما إن أصبحنا على مقربة من المنظمة حتى بدأ الناس يعودون بالإتجاه الآخر .

لم نفهم ما المشكلة فقالوا " أنه لا يوجد بث اليوم بسبب مشكلة فنية "

لم نعرف ما هي المشكلة الفنية و لكن لم يكن لنا إلا التسليم بالأمر و أن نعود أدراجنا باتجاه بيوتنا.

وأنا أسير في الطريق بدأت أشاهد ملامح شخص أعرفه جيداً أنه أبو عمر صديقي في السجن و الذي انتقل معنا من صيدنايا باتجاه غرز لنلاقيه هناك و خرج معنا في التحرير سلمت عليه بحرارة و سألته عن حاله و أحواله، فبدأ يبين علة خروجه فهو من تسيل و هي من القرى الغربية و المدفعية تدكها بشكل يومي و قد جاء هو و زوجته و أولاده إلى هنا .

بدأت أسأله عن زملائنا الذين كانوا معنا في السجن أين انتهت بهم الدروب و إلى أي مكان اتجه كل منهم فبدأ يعد لي من بقي في سورية و من خرج منها و بدأ يحدثني حديثاً عجباً عن زميلنا أيضاً في سجن غرز و هو المصري و الذي كان محكوماً بالإعدام كان أبو علاء في غرز يشرح لي عن معاناة المصري مع السلطات و كيف أنهم هموا بإعدامه مرة فقاموا بقطع الكهرباء و دخلوا ليأخذوه و قبل أن يعدم يتم وضعه في الحبس الإنفرادي مدة معينة وحيداً دون أنيس من إنس أو جان و لكن سلطة السجن توقفت عن تنفيذ الحكم و تم إيداع الرجل ليكتب له عمر جديد بالتحرير الذي عشناه سوية.
خرج المصري مثلنا تماماً محرراً أي دون هوية أو أي شيء يثبت شخصيته فقد كانت معظم أوراقه في السجن كونه شبه الميت لحكمه بالإعدام و لطول فترة سجنه و لكن لم يمنعه كل ذلك من البحث عن حياة جديدة ما إن لاحت فسحة الأمل أمامه فتوجه مباشرة إلى الأردن و حتى يتمكن من الدخول اصطحب زوجة أخيه حاملاً هوية أخيه أيضاً ليدخل الأردن باسم أخيه و بهويته .
يبدو أن حظ الرجل عجيب ففي لحظة من اللحظات كان ينتظر الموت و ما من فسحة أمل أو نور يدخل منفردته سوى الضوء الذي يدخل من تحت الباب و الذي يزيد السجين هماً ثم فتح باب المنفردة له ليعود إلى سجنه أولاً ثم إلى الحياة ثانيا بعد دهر طويل .
أصبح الزمان الذي نعيش فيه زمن تتحقق المستحيلات و يبدو أن الأفلام الهندية التي لا يصدقها أحد أصبحت واقعاً مُعاشاً في سورية .
بدأ الضيق المفروض علينا في المكان يتسع بمن نتعرف عليه من أشخاص جدد أو من نلاقيه من أصحابنا القدامى .
سألت أبا عمر هل يوجد أحد هنا غيرنا ممن كان في السجن سابقاً فأجابني "أبو سامر أيضاً "
هنا فاتفقت معه على زيارته في أقرب وقت و عدنا جميعاً إلى كرفاناتنا و التي بتنا نسميها بيتنا لنكتشف أننا كنا قريبين من بعضنا في المكان دون أن نشعر .
عدنا إلى منازلنا و بدأ ثقل همّ الخروج يزيحه إيجادنا لأصدقائنا القدامى و لا نعرف إن كان أبو عمر هو الشخص الأخير الذي سنلاقيه هنا أم أننا سنلاقي غيره .

مُحَاوَلةُ هُروب

كان أبو عمر قبل اعتقاله و إيداعه في السجن يعمل نجاراً و بعد أن خرج و وصل إلى مخيم الأزرق و الذي لا يزال في مرحلة البناء عُرِض عليه أن يعمل في حفر أساسات الكرفانات التي تتشكل منها القرى داخل مخيم الأزرق بعد نهاية العمل فقبل أبو عمر بذلك كونه رجلاً معيلاً لزوجته و أطفاله .
بدا إشغال الوقت بالعمل خير من الركون إلى هذا الجو الممل و لكن لم يكن العمل بالعمل المريح فكان عليهم أن يستمروا في حفر الأساسات تحت أشعة الشمس الملتهبة إلى أن ينتهوا من العمل وقت العصر أو قبله بقليل .
كان عمل البناء الذي انخرط فيه أبو عمر جزءاً من أعمال متنوعة تتوفر هنا في هذا المخيم للقادمين الجدد فبالإضافة إلى البناء يقوم بعضهم بتدريس الأطفال في الروضة و لم يكن العام الدراسي الجديد قد بدأ بعد ، فقد وصلنا مع حلول عطلة الصيف أي أن التدريس كان محصوراً في الروضة و لكن مع فتح باب التسجيل لمن يرغب بالتدريس في العام القادم بالإضافة إلى العمل كعمال في الفرن الذي يوزع الخبز بشكل يومي و يستمر عمله ساعتين يعطي خلالها الشخص القادم ٤ أرغفة من الخبز لكل شخص بناءً على مفوضيته التي تبين عدد الأشخاص .
بالإضافة إلى ذلك كان جارنا و زميلنا طوال الطريق أبو فراس خطاطاً بارعاً و كان يذهب إلى الروضة لتدريس الأولاد الخط و قد شاهدت بعض لوحاته فدهشت لجمالها و ذوقها الفني.
كان مجال العمل مفتوحاً و لكن في نطاق محدد و هو العمالة ، أما التجارة فكانت شبه محرمة كونها محصورة في يد سامح مول فقد اقترحت علي أبو عمر أن يفكر في التجارة كون عمله يسير بشكل جيد فأجاب " لا تستطيع أن تناطح سامح مول هنا فهو أشبه بالملك عبدالله و قد حاول أحدهم بيع بعض المواد فتم قذفه "
و لكن رغم كلام الرجل إلا أنه كان يتاجر أيضاً و لكن في مجال محدد و هو بيع بطاقات الهاتف النقال سألته عن أبي سامر و ماذا حل به فقال لي " هو ليس هنا الآن فقد أخذ إجازةً و توجه إلى مخيم الزعتري لزيارة أهله"
لا بد أن تخرج من هنا بورقة زيارة أو كفالة أو أي شيء المهم أن تتذلل أمام المركز الأمني و إما أن يعطيك ما تطلب أو يتابع في إذلالك و يرفض طلبك .
معظم من يخرج من هنا بإجازة لا يعود و لكن أبا سامر رجل مسن و قد يكون هذا المكان هو الأنسب بالنسبة له .

بعد يومين جاءني أبو عمر و أخبرني أنه سيتوجه لزيارة أبي سامر فمضينا جميعاً باتجاه كرفانته و التي كانت بعيدةً عنا و أخيراً وصلنا إليه .
رجل قد لبث في السجن بضع سنين مما جعل شعره يكتسي بالبياض التام و خرج بعد التحرير و الذي سبقه الحصار هزيل الجسد جداً سلمنا عليه و بدأ يعود بذاكرته إلى السجن و ما عانى فيه فقد كان مقيماً في جناحنا في الغرفة الثالثة بينما كنا نحن في الغرفة الأولى و قد كان جميع المقيمين في غرفته شبه معدمين حتى أن السجناء بدأوا يسخرون من غرفتهم عندما يمرون بها بتسميتها الصومال ، و كان وضع غرفتنا المادي جيداً بحمد الله فكنا عندما نحس بالشبع نرسل طعام الدولة الذي فاض عن حاجتنا إليهم .
و لكن المشكلة في السجن و خصوصاً عندما تنتقل من غرفة إلى أخرى تتغير النفسيات و الأشخاص الذين كنت تتعامل معهم و يكون عسيراً عليك في البداية فهم ما يريدون فبعد أن انتهى الهجوم الأول بالفشل و تخلله إستعصاء فاشل توزع سجناء الكتلة الثالثة و التي تحوي الأجنحة الثلاثة (السابع و الثامن و التاسع) إلى أجنحة الكتلة الثانية (الرابع و الخامس و السادس)
و كان ممن توجه إلى الغرفة الثالثة أبو علاء زميلنا سابقاً في نفس الغرفة و كان رجلاً يسهر طوال الليل و ينام طوال النهار و بدأ في أحد الأيام قريباً من وقت الفجر يستمع إلى الراديو لأن بشار قد ألقى خطاباً و مع كل خطاب كما يحصل في الخارج يحصل في الداخل تبدأ المهاترات و المشاجرات.
استيقظ أبو سامر و بدأ يصرخ و قابله أبو علاء بالمثل فجاء إحسان رئيس الجناح مسرعاً لفهم المشكلة فأخرجهما سوية إلى الخارج فبدأ أبو سامر يصيح و يركض أمام الكميرات فاستدعاهما العقيد خليل مباشرة لفهم مشكلته فسألهما ما القضية و لم يطل الوقت حتى ضاق بهما ذرعا و بدأ يضرب أبا سامر
ثم انتهت المشكلة بعد فترة من الوقت بانتقال أبي علاء إلى غرفتنا .
و كغيره من أبناء القرى الغربية بشكل عام و جاسم بشكل خاص ما إن خرج حتى سارع بالقدوم إلى الأردن بذات الطريق الذي سلكناه و لم يضيع أبو سامر فرصة خروجه من هنا هباءً دون فائدة و إنما جلب معه خيوطاً و إبراً و ملاقط غسيل ليقوم ابنه الصغير ببيعها.
جلسنا قليلاً معه فبدأ يحدثنا عن إمكاناته و بأن له صولة هنا داخل المركز الأمني فسألناه إن كان قادراً على مساعدتنا في الخروج فإجاب بأن الأمر بسيط قدموا طلب زيارة و أنا سأضمن لكم الخروج.
اعتقدت اعتقاداً شبه يقيني بأن الرجل يجاملنا و لكن لا ضير من المحاولة و كغيرها من المحاولات باءت بالفشل بدأت ألاقي السجناء في طريقي الواحد تلو الآخر يبدو أن مصير السوريين و بوصلة حياتهم تتجه إلى ذات المكان في هذه الفترة و بعضهم قد وجد عملاً لم يكن يحلم به .
فقد كلمني محمود هاتفياً ليخبرني أن أحد أصدقائنا في السجن و الذي كان يقطن معه في ذات الغرفة في السجن بتهمة القتل يعمل الآن أستاذاً في روضة الأطفال بالرغم من أنه أميّ تماماً حسب كلام محمود.

لم يطل الوقت حتى جاء أبو عمر و برفقته أحد الأشخاص نظرت إليه و إذا هو بهاء زميلنا منذ بداية الرحلة من مظاهرة صيدا و حتى التحرير و ها نحن نلتقي هنا مرة أخرى.
بعد أن سلمت عليه سألته " هل واجهت صعوبة أو مشاكل في الرحلة " فقال " بالنسبة للطريق كان عادياً و لكن الرحلة استمرت خمسة عشر يوماً و عندما كنا في البولمان نتجه إلى مربع السرحان بدأ شخصان يتكلمان و يتهاتران مع السائق و بعد أن وصلنا توقف البولمان و صعد أحد الضباط فسأل السائق هل أزعجك أحد فأشار إلى الشخصين فقال الضابط إنزلا فأخذوهما و ضربوهما " تعجبت من سوء المرحلة التي وصلنا لها فقد كدت أكذب القصة و لكن ليس من عادة بهاء أن يكذب علي .
ثم تابع شرح الطريق الذي سلكه و قال " كنت على وشك العودة فقد نظر الموظف إلى جواز سفري الذي أحمله ليكتشف أن أمي دخلت بطريق نظامي فقال أعيدوه فقلت له تمهل فقد جاء أبي بطريقة غير نظامية و بعد أن تأكدوا من صدق كلامي سمحوا لي بالدخول"، فسألته عن والده الذي جاء من هذا الطريق أين هو فقال " لم يقم هنا سوى يوم واحد فقط ثم خرج بطريقة غير نظامية إلى داخل الأردن "
بدأت حدة الملل تخف وطأتها و بدا أننا سنلاقي معظم السجناء المحررين هنا في الأزرق و لمحاولة استهلاك الوقت سريعاً على أمل أن نخرج من هنا بدأنا نتوجه لمشاهدة المونديال في منظمة كير و كان وقت العرض في الساعة السابعة مساءً و المشكلة تكمن أن المباراة تستمر ساعتين تقريباً فعلينا تأدية الصلاة فيما بين الشوطين .
و بعد أن ذهبنا جميعاً باتجاه العرض إنتهى الشوط الأول من المباراة فذهبنا لنصلي و عدنا حتى نتابع الشوط الثاني و لكن مع وصولنا إلى المكان شاهدنا الناس متجمهرين في الخارج و الصياح يعلو دون أن نفهم شيئاً ثم قدم أخي أحمد ليخبرني بالقصة فقال أحد " الأولاد اختلف مع أحد الموظفين هنا و بدأوا يتراشقون الكلام أولاً ثم تطور النقاش سريعاً للضرب بالكراسي ثم خرجوا إلى الخارج ليتركوا الكراسي و يبدأوا بالتراشق بالحجارة و ضرب أحدهم ذلك الموظف السمين المسكين فبدأ الرجل يقول متسائلاً أنا الذي أضربك بالبراميل حتى تضربني و لم يستمر النقاش طويلاً حتى وصلت سيارة الأمن لتأخذ الصبي الذي تسبب بالمشكلة و الذي بدا مصيره بالنسبة لنا معروفاً و هو العودة في أسرع وقت إلى سورية ".
أوشك رمضان على القدوم و يبدو أننا سنصوم في هذا الجو الصحراوي المقيت .
باءت جميع محاولات خروجنا بالفشل و عندما يأست جدتي مثلنا من خروجنا من هذا المكان بطريقة نظامية غيرت رأيها لتقترح علينا هي الهروب ليلاً فأبدينا الموافقة بشكل مباشر فأعطتني الرجل الذي سيقلنا لأكلمه حتى أعرف ما هو المبلغ الذي سندفعه حتى نخرج من هنا و ما هي الطريقة لذلك فقال " سأخذ ٣٥٠ ديناراً أردنياً، وكل ما عليك فعله هو أن تخرج لتقف على الطريق بانتظار سيارتي حتى آتي لأقلك "

شعرنا عندها أنه يستغبينا فإذا كان سينحصر دوره في إقلالنا من الطريق العام باتجاه وجهتنا فما هو العمل الذي يستحق هذا المبلغ و لماذا لا نخرج وحدنا و ننتظر أي سيارة لتقلنا.
بدأت فكرة الهروب و الخلاص من هذا المكان تزداد يوماً بعد يوم خصوصاً مع اقتراب رمضان و بدا أن جميع المحاولات للخروج بطريقة نظامية باءت بالفشل فكان لا بد لنا من المحاولة بالطريقة الأخرى و لكن المشكلة الآن تكمن في إقناع أبي بالخروج بهذه الطريقة فهو ليس راغباً في الخروج من هنا بطريقة نظامية فضلاً عن أن يسعى للهروب تحت جنح الظلام معرضاً نفسه لمواقف هو بغنى عنها لا شك أن إقناعه بذلك سيكون صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

حاولنا عدة محاولات للخروج من المخيم بطريقة ترضي الحكومة ولكن عبثاً كنا نحاول ، فقد ذهبت كل محاولاتنا أدراج الرياح و بدا الطريق الوحيد للخروج من هذا المكان يغدو أكثر وضوحاً بالنسبة لنا .
اقترب شهر رمضان و هلاله أن يهل علينا و لا زلنا نحن هنا.
و في الليلة الأولى من شهر رمضان و في آخر يوم من شهر شعبان زاد إصرار جدتي على خروجنا فطلبت منا التوجه للهروب و أعطتنا أحد الأشخاص للتواصل معنا ليقوم بأخذنا من الطريق إلى وجهتنا.
بدأت أتكلم مع الرجل فبدأ يشرح لي كيف يجب أن اجتاز جميع الحواجز و العقبات منفرداً لألقاه في النهاية و يقوم هو بإيصالنا إلى المدينة التي نرغب بالتوجه .
إليها فسألته عن الأجرة التي يريدها لقاء هذا العمل الذي يبدو روتينياً من ناحيته و تقع كل أعباء الطريق علي و على والدي الذي لا يزال حتى الآن يعاني من مشاكل صحية نتيجة القدوم من طريق اللجاة و سيعاني الآن مشكلة أكبر إذا عزم على تحمل هذه الأعباء فأجابني بمبلغ جعلني أصرف النظر عن فكرة السفر معه.
انتهت الليلة الأخيرة من شهر شعبان و أوشك اليوم الأول من رمضان على الدخول .
و بعد انتهائنا من الكلام مع الرجل ازدادت حدة التوتر و النقاش بيني و بين أخي أحمد من جهة و بين والدي من جهة ثانية مما جعلنا في النهاية نقنع والدي بحتمية الخروج اليوم مهما كانت النتيجة حتى و إن عزموا على قذفنا فلم نعد نصبر على البقاء في هذا المكان .
لم يكن القرار بناء على دراسة و تخطيط و إنما ردة فعل على كلام السائق الأردني الذي شعرنا بأنه يستغبينا بكلامه .
و كالعادة كانت بطارية الهاتف شبه خالية من الشحن لا تحمل أكثر من خمسة بالمائة من الطاقة.
خرجنا جميعاً و توجهنا إلى جارنا المجاور لبيتنا أبي فراس و أعطيناه المفتاح ثم بدأنا نمشي في ظلمات المخيم حيث لا يوجد أي ضوء بتاتاً و القمر يحتاج إلى مترصد حتى يراه .

كان المركز الأمني يتربع على تلة قريبة منا تشرف على كامل المخيم تقريباً بالإضافة إلى أنه تنتصب عليه كشافات تلقي بضوئها على بعد ٢ كيلو متر تقريباً فكان علينا أن نبتعد عن المركز في اتجاه معاكس له حتى لا يرانا أحد .

بالرغم من أن المركز يوجد أمامه طريق مباشر لا يحتاج إلى كل هذا العناء و لكننا آثرنا عدم المخاطرة و التوجه بطريق معاكس للمركز الأمني.

مشينا كثيراً حتى نبتعد عن المساحة التي تُضيئها أنوار المركز و المخيم في هذا الوقت أشبه بمدينة أشباح قد القى كل أصحاب بيت رؤوسهم على وسائدهم بانتظار يوم جديد باستثناء بعض البيوت في أماكن متفرقة يصدر منها صوت بين حين و آخر .

ابتعدنا ما يقارب ثلاث كيلو مترات بشكل زاوية عن المركز الأمني و كان علينا قبل أن ننعطف باتجاه الطريق العام أن نتواصل مع أحد الأصدقاء حتى يأتي و يقلنا من هذا المكان و يلقانا على الطريق.

اتصلت بابن عمي أبي عاصم مباشرةً و لكني تواصلت معه بصعوبة و ذلك بسبب أن الليلة هي الأولى من شهر رمضان و المساجد الآن عامرة بالناس الذين يؤدون صلاة التراويح و كان أبو عاصم يؤديها معهم و المشكلة الأخرى أن المدينة التي يسكنها و هي إربد تبعد عن المخيم ما يقارب الساعتين بالسيارة فأشار علي بأن أكلم أبا عمر أحد أنسبائي و عم زوجتي ليقوم هو بهذه المهمة نيابة عنه نظراً لأن أبا عمر يسكن في الرمثا و هي أقرب إلينا من مدينة إربد و أضاف مطمئنا لي بأنه " إذا تأخر فسآتي لآخذكم و أجلب معي هويات أولادي عاصم و عمر".

لم نكن نملك وقتاً طويلاً للإنتظار فالهاتف يوشك أن يتوقف عن العمل و لا نريد أن نخسر هذه الفرصة خصوصاً و أننا ابتعدنا كل هذه المسافة عن المخيم حتى و إن كان قرار خروجنا قراراً جنونياً دون استعداد أو تخطيط .

و بعد التواصل مع أبي عمر أخبرني بأنه سيأتي لأخذنا و لكنه يحتاج إلى بعض الوقت حتى يتمكن من العثور على سائق يقوم بمساعدته في هذه المهمة فليس كل سائق يمكنه خوض هذه المغامرة فلا بد من العثور على شخص يكون ثقة مأموناً و أردنياً بالإضافة إلى ذلك حتى يأمن من خطر القذف .

أمهلته بعض الوقت ثم حاولت الإتصال مجدداً فقال أعطني المزيد من الوقت .

افترشنا التراب و بدأنا ننتظر وصول أبي عمر إلى مكانٍ قريب منا حتى نخرج عندها إلى الطريق . فالمسألة تحتوي على مخاطرة في حال ألقت السلطات القبض علينا و قد يقدمون على قذفنا غير آسفين علينا.

بدأ الوقت يمضي ببطئ و اقترب الليل من الإنتصاف و لم يتصل أبو عمر معي حتى الآن .

بدأ اليأس يكتنفنا و بدأ الإحباط يجعل الوقت يمضي أبطئ مما كان و بعد أن تواصلت معه أخبرني أنه بات على مسافة قريبة منا فكان لا بد لنا من الخروج و انتظاره على الطريق العام و لم يكن هناك علامة ترشده إلى مكاننا باستثناء أننا شاهدنا ضوءاً أحمر باتجاه المركز الأمني فأخبرته بذلك و أننا ابتعدنا عن مخيم الأزرق لنقترب من مدينة الأزرق .

كان في الأرض مرتفعات و منخفضات كنا في تلة مرتفعة قبل قليل ثم انحدرنا باتجاه الأسفل كما لو أننا نزلنا وادياً ثم تركنا هذا الوادي لنصعد إلى الطريق و لنلتف حول أكوام الحجارة و الحصى المترامية يمنة و يسرة و حاولنا تحري الحذر ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً فقد كانت الأنوار تكشف الطريق بشكل كامل .

بدأت أتكلم مع أبي عمر لأرى أين وصل فلم نتمكن من معرفة مكانه و عجز هو أيضاً عن معرفة مكاننا و مما زاد الطين بلة أن شحن الهاتف الجوال قد إنتهى و لم نعد نعرف كيف نسترشد إلى طريقه حاول أبو عمر قبل أن ينقطع الإتصال معه أن يصف لنا السيارة التي قدم بها و لكن الوصف الوحيد الذي استطعنا سماعه أن ضوء سيارته الآن ضوء رباعي عالي فبدأنا ننتظر أي سيارة على هذه الشاكلة على أمل أن تأتي به الصدفة أو الحظ السعيد حاول أحمد أن يدب الروح في الهاتف عن طريق الإستعانة بعدة بطاريات و توصيلها معاً باتجاه بطارية الهاتف و لكن محاولته باءت بالفشل فلم يسمُ جهد البطاريات إلى شحن بطارية الهاتف و لم تكن هناك آلة لإمساك البطاريات سويةً و إنما كان علينا أن نثبتها جميعاً بأيدينا حتى تعمل و لكن لم يكن هناك أمل منها فعدلنا عن هذه الفكرة و بدأنا ننتظر السيارة التي وصفها لنا أبو عمر .

رغم تأخر الوقت إلا أن السيارات و خصوصاً سيارات الشحن لا تزال تعمل على هذا الطريق فهذا المكان أقرب إلى المملكة العربية السعودية منه إلى الأردن و هو طريق دولي أيضاً مرة عدة سيارات بنفس الصفة التي تكلم عنها أبو عمر و لكنها لم تلقي لنا بالاً استمرت في السير و كأن شيئاً لم يكن .

اقتربت سيارة أخرى بنفس المواصفات القليلة التي استطعنا سماعها فأشرنا لها و لكنها استمرت في السير فبدأنا ننادي ونصفر لها على أمل أن تكون سيارة أبي عمر و بعد أن مشت السيارة مسافة قصيرة اتضح لنا أن الجزيرة الموجودة في منتصف الطريق تنتهي بعد مسافة قصيرة فقد انعطفت السيارة مع نهايتها و عادت باتجاهنا .

و بدأت ألسنتنا تلهج بالدعاء على أمل أن تكون سيارة أبي عمر.

مشت السيارة ببطئ و كأنها تبحث عن أحدٍ لتقف في النهاية أمامنا و لنصعق عندها بنزول شرطيٍ مع عسكري آخر من السيارة .

يا إلهي ذهبت جهودنا كلها هباء منثوراً و سنعود الآن إلى المخيم لنبقى فيه إلى ما شاء الله .

بعد أن نزل العسكري انطلق بطبيعة العسكري العنجهية صارخاً ماذا تفعلون هنا و سألنا الشرطي الذي معه " سوريون أنتم "

فأجبناه " بنعم "

فبدأ العسكري يحتد صارخاً : "من معكم ؟ من سيأتي لأخذكم ؟ "

فقلنا له " لا أحد خرجنا وجدنا متأملين أن نجد سيارة تقلنا و لو كان معنا أحد لما أشرنا لك و كنا انتظرناه حتى يأتي لأخذنا " فقال :"اصعدوا إلى السيارة ".

صعدت أنا و أحمد في مؤخرة السيارة و صعد أبي في المقدمة معهم و بدأت السيارة تعود أدراجها من حيث انطلقت في البداية أي من المركز الأمني و بعد أن مشت مسافة ليست بالطويلة تبين لنا أننا لسنا الوحيدين أصحاب المحاولة في الهرب هذه الليلة فقد توقفت السيارة لينزل منها العسكري و الضابط ليجدوا أحد الرجال المسنين يهاتف شخصاً آخر فحاول الشرطي استغلال الفرصة للإيقاع بالشخص الذي سيأتي لإقلال الرجل المسن فبدأ يملي على المسن التعليمات بحيث يقوم باستدراج الشخص الذي يهاتفه الرجل المسن و لكن الرجل المسن حاول أن يبدو ساذجاً حتى لا يورط صديقه الذي سيأتي لأخذه.

و بعد إنتهاء الحوار طلب الشرطي من الرجل المسن أن يصعد في السيارة ليصعد هو و زوجته و ابنه و بعد أن أسرعت السيارة قليلاً انعطفت لتدخل إلى الباب الذي يؤدي إلى المخيم و هناك كان الضوء مسلطاً باتجاه بعض الشباب القابعين في الحفرة التي تفصل بين داخل المخيم عن خارجه حيث كانوا ينتظرون قدوم أحد يأتي ليعيدهم إلى المركز الأمني بعد أن بات هروبهم مفضوحاً لنتوقف عندهم و نقوم بإقلالهم معنا باتجاه المركز الأمني. أصبحنا داخل المخيم الآن و لكن استمرت السيارة في السير لتمر من عند بعض العساكر الساهرين و الذين بدأوا يضحكون و يشمتون بنا مطلقين التهديدات بأنهم سيفرحون هذه الليلة بقدومنا حيث أنهم وجدوا ما يتسلون به .

بدأ العدد يبدو خيالياً أكثر من كونه واقعياً.

كنا أول من أُلقي القبض عليه ثم تبعنا ثلاثة أشخاص آخرين ثم أربعة شباب و لنصل إلى المركز الأمني لنجد أن هناك عائلات بأكملها سبقتنا في محاولة الهرب و فشلت مثلنا أيضاً.

يبدو أنه لا أحد يستطيع العيش هنا و الجميع يرغب في المغادرة بل و البعض يشعر بأن مساحة الحرية في هذا المكان تكاد تتقاصر من الوصول لمساحة الحرية الموجودة في سجن عدرا مثلاً .

كما أخبرني إمام المسجد الشامي و الذي نال نصيبه من الإعتقال قبل مغادرته لسورية.

كان علينا أن نصطف في رتل طويل بسبب أعداد الهاربين المتكاثرة و لكنهم كانوا في تعاملهم كالملائكة مقابل ما عاملنا به السوريون خلال الإعتقال أو حتى خلال التعرض لعقوبة بسبب أحد المخالفات التافهة فكل عقوبة تنالها في سورية بسبب خطأ من الأخطاء تنال أضعافها من الإهانة و الذل .

بدأوا التحقيق مع والدي و هو تحقيق مبسط مجرد عدة أسئلة عمن كان يحاول مساعدتنا في الهرب و في النهاية يأخذون الهوية الأمنية بالإضافة إلى المفوضية لتسجيلها على الكمبيوتر لغاية قذفنا فيما إذا حاولنا محاولة أخرى فاشلة .

إنتهى التحقيق مع أبي سريعاً ثم دخل أحمد ثم دخلت أنا بعد انتهائهم من أحمد و لكن الموجودين لا يزالون كثراً و علينا الإنتظار حتى ينتهي التحقيق مع الجميع لنرى ما سيؤول إليه أمرنا في النهاية .

بالإضافة إلى المحققين الذين كانوا يحققون معنا كان هناك نساء شرطيات أيضاً يقمن بالتحقيق مع النساء .

بدأنا نستسلم للنعاس دون أن نجد مكاناً ننام فيه و قد اقترب بزوغ الفجر و اليوم هو أول أيام رمضان و يبدو أننا سنصوم دون أن نتمكن من السحور هذه الليلة .
بدأ الجميع ينتظر الأذان حتى الشرطة فهم ينوون الصيام أيضاً و الجميع يسأل عن الفجر فيما إذا حل وقته أم أن هناك متسعاً من الوقت لتناول بعض الطعام استعداداً ليوم غد .
جاء أحدهم ليعطينا الماء حتى ننوي الصيام ليوم غد في لفتة جعلتنا نشعر بأن حال أهل الأردن أفضل من حالنا فيما يتعلق بناحية الشرطة و الأغرب من ذلك أن بعضهم توجهوا لأداء صلاة الفجر في جماعة الأمر الذي يبدو محرماً عندنا في سورية سابقاً .
إنتهت التحقيقات مع الجميع قبل شروق الشمس فبدأ أحد الشرطة ينادي بنا للتوجه إلى مكان كان مجهولاً بالنسبة إلينا للحظات ثم عرفناه عندما بدأ الشرطة يتحدثون مع بعضهم باحثين عن أحد الأشخاص ليقودة السيارة باتجاه مركز الإستقبال الذي زرناه عندما وصلنا هنا للمرة الأولى .
صعدنا جميعاً في السيارة التي قطعت المسافة بسرعة ليكون هناك في استقبالنا بعض الموظفين الذين طلبوا منا اليوم كما طلبوا منا أول مرة أن نستريح في صالة الإستقبال حتى يحين موعد عمل الموظفين ليبدأوا باتخاذ الإجراءات مرة ثانية .
كان جل همنا أن نصل إلى الفراش حتى نطفئ لهيب نعاسنا فاستلقى كل منا على أحد الإسرة المتواجدة في صالة الإستقبال بانتظار يوم الغد.

لم يبزغ الفجر حتى الآن و لكن الإنهاك الذي يعترينا جعل جلَّ همنا الوصول إلى الفراش .
و بعد أن وصلنا إلى مركز الإستقبال بدأ كل منا يبحث عن سرير يقضي عليه الوقت و كان علينا أن نتفحص و نتلمس بأيدينا فالمكان الذي كان أشبه بصالات إستقبال الفنادق عندما زرناه أول مرة قد تغير به العهد و باتت أحواله يرثى لها فالكهرباء مقطوعة و لم تعد السلطات تستقبل أحداً إلا في القليل النادر.
بدأت حرارة الجو تمنعنا من النوم و مع إشراقة الشمس و التي بدأت خيوطها في التسلل إلى داخل الصالة .
بدأ الذباب أيضاً يتسلل إلينا بشكل كبير و بكثافة مزعجة تجعل معاودة النوم أمراً مستحيلاً فالمكان بات أشبه بالقطع العسكرية التي لا تجد فيها شيئاً باستثناء الذباب و القذارة .
و لم يقم القائمون على المكان بتشغيل الكهرباء في محاولة منهم لتلقيننا درساً في عدم محاولة الهرب مرة أخرى.
إرتفعت الشمس في كبد السماء قليلاً لترتفع معها الحرارة داخل المكان الذي نجلس فيه و أخيراً قدم بعض الوافدون الجدد إلى المخيم و رغم كون وجودهم سيأخرنا لأنهم أصحاب الأولوية في الدخول إلى قلب المخيم ـ لمحاولة السلطات كسب استحسان القادمين الجدد و لو على حساب غيرهم ـ إلا أن قدومهم سيبعث الموظفين على العمل.

انتظرنا إلى ما يقارب الحادية عشرة و لا نزال على حالنا دون أن يأتي أحد الموظفين.
و بعد بعض الوقت جاء جهاد الموظف السابق الذي استقبلنا عند قدومنا أول مرة و بدأ يكرر ما شرحه لنا للقادمين الجدد و بعد أن أنهى شرحه توجه إلينا و الغضب باد على وجهه بشكل كبير و بدأ ينتقدنا بأسلوب سخيف سائلاً أولاً : "من هو الذي خدعكم "
لم نفهم ما يقصد بالخداع و لكن تبين أنه يسأل عن الشخص الذي كان سيأخذنا من هنا قلنا له " لا أحد خدعنا أردنا أن نخرج و لم نتمكن من ذلك و عادت بنا الشرطة إلى هنا ".
فسأل مجدداً :" كم دفعتم لهم؟"
- " يا رجل لم ندفع شيئاً حاولنا محاولة و فشلنا بها"
ثم بدأ يسأل " لمَ لم تخرجوا بطريقة نظامية ؟" فأجابه أحد الشباب " طلبنا إجازة فلم يعطونا ! تقدمنا بكفالة تم رفضها !لم يبق سوى هذا الحل لماذا يرفضون إعطاء إجازة؟"
فأجابه " ببساطة لأنهم لا يريدون إعطاءك "
ثم بدأ يعدد ميزات المعيشة هنا و صعوبة العيش داخل الإردن إلى درجة الإستحالة. فسأله أحد الشباب العائدين معنا محاولاً الإستهزاء بكلامه
و قال :" أعطني إجازة و أنا سأعيش في الداخل و لا تعبأ أنت بي".
فأعرض عنه و عاود ملامتنا بكلمات كثيرة ثم لم يجد منة أكثر من هذا الأمن الذي يوجد هنا فقال :" لنكن صريحين ألم تشعروا بالأمان ".
- بالطبع نشعر بالأمان و لكن لم يكن منتهى همنا عندما خرجنا من سورية أن نصل إلى الأمان فقط و لا شيء غيره و إنما جميع الموجودين هنا إنما أتوا بحثاً عن ظروف حياة أفضل .
و بعد أن أنهى جهاد محاظرته تركنا نتوجه إلى داخل المخيم عائدين إلى المكان الذي انطلقنا منه البارحة سيراً على الأقدام لكن بعض النساء و الرجال المسنين لم يصغوا له و انتظروا أن يجلب لهم سيارة تقلهم إلى الداخل فبدأوا هم ينتظرون قدوم السيارة و فتح الباب لنا للعودة إلى كرفانتنا و لكن ليس بالسيارة و إنما سيراً على الأقدام .
يبدو أن العقوبات هنا تتخذ شكلاً آخر من قطع الكهرباء ليلاً ثم تركنا نمشي هذه المسافة الطويلة و حرارة اليوم قد بلغت الذروة أشياء تجعلك تمتعض من هذا المكان و تدفعك للتفكير بجدية أكبر للبحث عن أي وسيلة تخرجك منه.
كل هذا يحدث بالإضافة إلى أننا نصوم هذا اليوم و هو الأول من شهر رمضان بدأنا نمشي و نشاهد عدد البلوكات التي لم تجهز حتى الآن و نتعرف من خلالها على قدرة هذا المكان الاستيعابية و التي بدأ يخيل لنا أنها قادرة على احتواء مدن بأكملها .
الحرارة تزداد و العطش يجعل الشفاه عبارة عن خشبتين لا وسيلة لترطيبهما.
قبل أن نمضي في طريق العودة قام الموظفون بإعطائنا طردا مماثلاً للطرد السابق الذي أعطونا أياه عند وصلنا بالإضافة إلى قنينة ماء .

لم يعد أبي يحتمل عبء طول المسافة و وعورة الطريق و حرارة الشمس المتصاعدة فقرر أن يكسر صيامه ليفطر هذا اليوم و يقوم بقضاءه لاحقاً إلا أنني و أحمد لم نكن لنخطو هذه الخطوة محاولين المكابرة قدر الإمكان .

كان العرق يتصبب منا و نحن نسير في الطريق و لا تزيدنا الرياح التي تهب سوى تعرقاً و إرهاقاً و ما إن وصلنا إلى مكاننا توجهنا إلى جارنا لنأخذ المفتاح منه ثم استلقى كل منا على فراشه قد هده التعب لا يعرف كيف سيقضي بقية اليوم بانتظار غروب الشمس .

لم يكن أمر خروجنا ليخفى على أحد فما إن أعطينا المفتاح لجارنا حتى فهم مباشرة أننا نهمُّ بمحاولة الهرب و لكنه اكتفى بالدعاء لنا أن يتيسر طريقنا . إنقطع إتصالنا مع أبي عمر ليلاً و لم نعد نعرف ماذا حل به و هل عاد إلى بيته سالماً بعد إياسه من قدومنا أم أن مشكلة واجهته .

تمكنا خلال وجودنا في صالة الإستقبال قبل عودتنا إلى بيتنا من مكالمة أبي عاصم لنطلب منه أن يخبر أبا عمر بأن محاولتنا فشلت فقد حاولت الإتصال به أولاً و لكن عبثاً كنت أحاول فأخبرني أبو عاصم أنه سيقوم بذلك و أن الرجل قد استمر في البحث عنا حتى الصباح و قد تعرضت له إحدى الدوريات و لكنه نجا منها بحمد الله فعرفنا أن الرجل متعب مثلنا و لا شك أنه نائم فأجلنا مكالمته إلى وقت لاحق.

و بعد أن عدنا إلى البيت عدنا إلى الشحن بالطريقة السابقة التي تجمع بين الفانوس و البطاريات بحثاً عن أي جزء من الطاقة يمكن تخزينه .

حاولت الإتصال بأبي عمر مجدداً حتى أعرف كيف انتهت ليلته

فقال :"بعد أن انقطع الإتصال استمرينا في التقدم ببطء حتى وصلنا إلى مدينة الأزرق و عندما أصابنا اليأس من إيجادكم بدأنا نقطع الطريق جيئةً و ذهاباً على أمل أن نجدكم و لكن دون فائدة تذكر تابعنا عمل ذلك حتى بدأت الشمس بالشروق لتوقفنا أحد الدوريات متسائلين ما الذي نفعله في هذا الوقت و في هذا المكان و بعد أن طلبوا الهويات للتعرف علينا بدأ الضابط يتكلم بشكل وقح لكن السائق الذي كان بصحبتي لم يكن ليسكت و يدع الضابط يتكلم براحته و إنما بدأ يصرخ و يحتد واضعاً الضابط في خانة المخطأ و المدافع عن النفس مما اضطُر به أخيراً أن يطلب منا مغادرة المكان حتى يكفي نفسه شر هذا السائق الذي لا تبدو المعاملة معه سلسة و فهم الضابط محاولتنا فأشار لي بعينه شامتاً بأن محاولتكم لم تنجح في أخذ من تريدون عدت بعدها إلى البيت لأرتاح لبعض الوقت ".

اطمأنينا عندها على حال أبي عمر و أنه عاد سالماً بعد مخاطرة كانت ستودي بقذفه إلى سورية لولا أن الله تداركه برحمته .

انصرف همنا اليوم إلى انتهاء وقت الصيام و حلول وقت الإفطار .

و كان لا بد من زيارة المتجر حتى نجلب بعض الطعام لنتناوله على الإفطار كان علينا أن نذهب مبكرين فهذا المتجر إضافة إلى كونه الوحيد هنا فهو يتحكم بالوقت الذي يفتح و يغلق فيه و لا يسمح لأحد بالدخول بعد أن تجاوز الساعة الخامسة و النصف .

وصلنا إلى المكان و إذا به يغص بالناس و يكاد يكون عسيراً عليك أن تجد مكانا تضع فيه قدمك لتقف فيه بالإضافة إلى أن الطابور المخصص لمن سيقوم بالدفع يصل من أول المكان إلى الآخره و كل محاسب يقف عنده عدد مماثل لذلك .

لم نعرف أين كان كل هؤلاء الناس مختبئين قبل الآن فعددهم يوحي بأننا في مدينة ضخمة لا في مخيم مهجور للاجئين.

رغم وصولنا مبكرين إلا أن لليوم مقاييس مختلفة كوننا دخلنا في شهر رمضان حيث يتغير كل شيء خصوصاً فيما يتعلق بالطعام و محال بيعه و رغم أن الإعلان يقول أن المكان سيغلق قبل غروب الشمس بساعة إلا أن عدد الزبائن لا يوحي بأن المتجر سيتوقف عن العمل اليوم .

جاوزت الساعة السابعة و لا يزال الدور يتقدم بسرعة تتباطئ أمام سرعة السلحفاة.

بدأ وقت الإفطار يقترب و الجميع هنا صائم و يريد أن يكون الآن على المائدة ينتظر تناولها و لكن غدت البضائع التي اشتراها الموجودون مانعة لهم من المغادرة .

بدأ أحد الأشخاص يصرخ و قد وقف في مكان عالي بحيث يراه الجميع و قال اتركوا جميعاً الأغراض و عودوا بعد الساعة التاسعة و لن يمس أحد أغراضكم و لكن لم يصغ له أحد فاستمر بالصراخ و استمر الناس في المقابل بعدم المبالاة بدأ المحاسبون الموجودون يملون من العمل فقد انتهى وقت عملهم و هم يعملون الآن عملاً إضافياً لا شك أنه غير مأجور فبدأوا يتركون العمل و يختفون .

لم يكن عندها للمدير خيار من محاولة محاسبة الجميع فأغلق الدروج الأخرى و حصر العمل بدرج واحد و بدأ يحاول جاهداً أن ينهي العمل بأسرع وقت ممكن .

قام بمحاسبتنا و عدنا سريعاً إلى البيت لنتناول الإفطار و رغم بعدنا عن الديار في هذه الأصقاع النائية إلا أن عادات رمضان لا تزال تلقي بظلالها على الجميع فما إن وصلنا البيت حتى وجدنا سفرة الطعام تزدان بالأطايب من مختلف الطبخات و من مختلف الجيران فقط كان حظنا سعيداً أننا كنا قريبين من عدة عائلات كاملة أي من أزواج و نسائهم قاموا بحكم جوارنا لهم بإرسال الطعام لنا بشكل يهون علينا قضاء رمضان بعيداً عن سورية و دون وجود طاه ماهر ينهي عمله دون الإستعانة بأحد.

كانت الأجواء الرمضانية قبل وصولنا إلى هنا تزيد الليل أنساً بصلاة التراويح التي يرتادها الجميع حتى من بعض الذين لا يصلون .

كان يفترض أن نتوجه إلى المسجد لأداء صلاة التراويح حتى نشعر بأننا نعيش في شهر رمضان حقاً إلا أن التعب جعلنا نتكاسل عن القيام بذلك و أخلدنا رؤوسنا للنوم بانتظار الغد دون أن نملك خطة و معرفة لما يجب عمله في الأيام القادمة.

بدأت الأيام التالية تتشابه من الصباح حتى المساء فلا شيء جديد سوى بعض الجلسات مع الجيران بعد الإفطار في مختلف الأيام و التي كانت تضيف شيئاً من الأنس على وجودنا هنا و تكسر طابع الملل الذي تكتسي أيامنا هنا .

لم يكن هناك وسيلة للتواصل مع القرية و لمعرفة أخبار الثورة بشكل عام سوى الفيس بوك و الذي كان استعماله قليلاً لعدم تواجد الشحن أساساً .

كنت أقضي بعض الوقت في المسجد و الذي كان عبارة عن خيمة كبيرة فجاء أحدهم ورفع مقدمة الخيمة لينظر منها شاب و يسلم علي فرددت عليه السلام ثم دخل هو وصاحبه بدأت أتعرف عليهم ليتبين أنهما من إدلب و حماة .

لم أفهم لماذا يقوم أصحاب تلك المناطق بقطع كل هذه المسافة و القدوم إلى هنا أليس الذهاب إلى تركيا أيسر و أءمن لهم

هل كل هذه المسافة لحاجز اللغة بيننا و بين تركيا؟.

و لكن الأعجب من ذلك أنهما جاءا ليسألا إلى أين يتم القذف فقد كانا يخشيان أن تعيدهما السلطات إلى لنظام و هذا أمر لا يمكن أن يستسيغاه أبداً .

فأخبرتهم أنني في حدود معرفتي أن السلطات تقوم بإرسالكما إلى مناطق الثوار و لا تعيدكم إلى مناطق النظام حاولت أن أستفهم منهما أكثر فسألتهما أين كنتما؟.

فقالا:" كنا هاربين منذ شهر تقريباً ".

فسألته كيف هربتما أجابا " ببساطة من الطريق مشينا مسافة ثم أقلتنا إحدى السيارات و ها قد عدنا لنسلم أنفسنا لأننا نريد العودة إلى سورية الآن ".

جلسا قليلاً معي ثم مضيا باتجاه المكان الذي كانا يقطناه سابقاً عدت لأتصفح الخبر بالهاتف لأجد كارثة قد حلت بقريتنا لم أفهم ما سببها فقد قامت إحدى الطائرات المروحية بإلقاء برميلين متفجرين في منتصف القرية و لكن بحمد الله لم يقتل أحد و إنما اقتصرت الأضرار الهائلة على الماديات لم أعرف ما سبب تلك الضرية فعادت ما يكون هناك مقدمة سيئة لهذه النهاية المأساوية حاولت أن أسأل من أعرف من أهل القرية عما جرى إلا أنه كان علي أرسال السؤال في اليوم الأول و انتظار الجواب لليوم التالي بسبب انعدام الكهرباء بدأت أيام رمضان تزداد سرعة و بدأنا نقترب من العيد و لم نكن نتخيل أن نقضي العيد الأول بعد الخروج من السجن في مخيم للاجئين في الأردن .

مع تحول الثورة من سلمية إلى مسلحة و البدء بالتوجه نحو جهادية الثورة بدأت الفصائل الإسلامية تكثر في سورية و كانت متابعتنا لأخبار الثورة و المعارك في السجن محصورة بما تعرضه شاشة التلفزيون السوري لم نكن على اطلاع كامل على الفصائل و طبيعة منهجها و لكن النظام بات يعزف في الفترة التي انتقلنا فيها إلى سجن غرز على لحن تدمير آليات و معدات و القضاء على عدة إرهابيين تابعين لجبهة النصرة لم نكن نعرف غير النصرة فصيلاً إسلامياً يقاتل في سورية و لكن مع متابعتنا للأحداث تفاجئنا أن هناك تنظيماً آخر اسمه دولة العراق و الشام موجود أيضاً .

كان تعرفنا على هذا التنظيم من خلال أخبار التلفزيون التي بثت كلمةً لزعيمه في أحد الأيام يعلن فيها حل جبهة النصرة في سورية و العمل باسم واحد و هو دولة الإسلام في العراق و الشام ثم بدأت دوامة

من الأحداث فما إن أعلنت الدولة حتى بايع الجولاني أمير الجبهة أيمن الظواهري زعيم تنظيم القاعدة توقعنا بشكل طبيعي أن للجبهة و الدولة أفكاراً متقاربة و إذا ما حصلت حرب في يوم من الأيام فلا شك أن الدولة و الجبهة سيكونان في صف واحد و لكن لم تطل الأيام حتى أعلن الظواهري أولاً حل تنظيم دولة الإسلام في العراق و الشام و طلب من التنظيم الإقتصار على العمل في العراق و لكن زعيم التنظيم أبو بكر البغدادي رفض الأمر و أصر على بقاء الدولة بشكلها الذي اختاره هو و لم يمض كبير وقت حتى بدأت الخلافات بين الفصائل لتخيب ظنوننا و تقف الجبهة ضد تنظيم الدولة و لتقاتل في صف الثوار من الجيش الحر.

لم نفهم سر هذا الإختلاف و الذي بدأ يشتد و يتجذر حتى بدا غير قابلٍ للحل أبداً و استمرت المعارك تحصد معها المقاتلين من جميع الأطراف، و بدأت شماتة الإعلام السوري بما يحصل تتجلى في كل نشرة أخبار يقدمها و نحن لا نملك أكثر من متابعة النشرات و الحسرة تعترينا و خيبة الأمل بادية على وجوهنا و الاستغراب من ضراوة المعارك .

فالمعارك التي استمرت أسبوعاً كاملاً حصدت خلالها أرواح خمس مائة مقاتل.. كان جميعهم من الثوار و قد باتوا اليوم جميعاً تحت التراب .

انحصر هذا الصراع في محافظات الشمال السورية في حين كانت محافظة درعا في منأى عن هذا الصراع لعدم وجود قوة عسكرية للدولة الإسلامية هناك و بعد أن وصلنا أخيراً إلى الأردن باتت متابعتنا للأخبار مقننة و لم نعد نعرف ما يجري في سورية إلا بعد عناءٍ طويل .

دخل شهر رمضان و فتحت إحدى صفحات الأخبار لأرى أن الدولة الإسلامية قد تابعت في مشروعها المنفرد بعيداً عن الثورة و أعلنت قيام الخلافة و بأن على الجميع مبايعة أمير التنظيم و الذي غدا بإعلانهم هذا أميراً للمؤمنين يجب على كل مسلم مبايعته.

أزكى هذا الإعلان نار الحرب بين الدولة و بين بقية الفصائل و استمرت المعارك في أوقات و مناطق مختلفة و كانت قريتنا بحمد الله بعيدة عن هذا الصراع لوجود فصيل واحد هو اليرموك.

و رغم أن القرية كانت سالمة من هذه الناحية إلا أنها لم تسلم من ضربات النظام فبعد عدة أيام من دخول شهر رمضان تساقط برميلان على قريتنا وقعا في منتصف القرية و في المكان الذي اعتاد أهل القرية على حظور حفلات الأعراس فيه.

و مع خلو القرية من السكان لم يتأذَ أحد إلا أن البيت الذي التقط البرميلان من السماء قد بات خراباً و بطبيعة الحال عندما يتم قصف القرية يلقي أهل القرية اللوم بشكل مباشر على الثوار.

أردت معرفة العلة و سبب هذا الإستهداف غير المسبوق وبعد عدة محاولات أجابني أحد شباب القرية ليلقي اللوم بشكل مباشر على الثوار فحاولت أن أستفهم عن العمل الذي قاموا به و كانت هذه نتيجته فقال : " قام الثوار بجلب أحد الضباط المنشقين و هو من قرية الطيبة و بعد أن عرف ثوار قرية الطيبة بمصير ابنهم هرعوا جميعاً لأخذه و جاؤوا بسلاحهم و مدرعاتهم ليحصل اشتباك بينهم و بين

الثوار إنتهى إلى إصابة الضابط ثم إلى النتيجة التي شاهدها الجميع من استهداف القرية بالبراميل المتفجرة ".
فسألته عن رأيه في سبب المشكلة فقال :" القرية ليست محكمة ، إذا أراد أحد محاكمة أحد فليأخذه إلى المحكمة ".
انتهت المشكلة أخيراً بالبرميلين المتفجرين و بإصابة الضابط المنشق و تدمير بيت أحد سكان القرية.
رغم أننا كنا في مخيم الأزرق بعيدين عن الصراع بين الفصائل المقاتلة بل و حتى عن الثورة بشكل عام إلا أن الصراع في الداخل السوري بدأ يلقي الضوء و الشبهة على كل من له علاقة بسورية و بدأ الناس يستشعرون خوف السلطات من كل ما هو إسلامي مخافة تمدد الصراع إلى الأردن و هو ما حاولت السلطات تجنبه طيلة الأعوام السابقة. استشعر أبو فراس هذا الخوف فقال عندما كنا نسهر معه و هو يحاول البحث عن وسيلة لإغضاب السلطات لأنهم وضعوا عدة عقبات في وجهه مانعين إياه من الإنتقال من مخيم الأزرق إلى مخيم الزعتر قال :" سنكتب دولة الإسلام أصبحنا هنا مما سيجعل السلطات تقذف الشباب بالجملة ".
بعد عدة محاولات فاشلة في الخروج أبدينا الإياس من ذلك و بدأنا ننتظر مرور الأيام لنرى ما الجديد الذي ستحمله لنا .
وبعد مضي ٥ أيام من شهر رمضان راسلني أقاربي ليخبروني بأن علي التوجه إلى المركز الأمني غداً لأبحث عن أحد الضباط و الذي سيقوم بمساعدتنا في الخروج من هنا... مضيت في اليوم التالي فعلاً لأبدأ أنتظر الدخول إلى الضابط قمت بسؤال الحارس عن الضابط و الذي كان اسمه يزن فأخبرني أنه لن يأتي حتى الساعة الحادية عشرة فعدنا إلى البيت ثم عاودنا القدوم مرة أخرى فطلبنا من الحارس أن يدخلنا إلى الضابط و لكن الأمر كان مستحيلاً فعمل الحارس أن يمنع الناس من الدخول لا أن يدخل أحداً.
حاولنا الإنتظار و لكن دون فائدة و لم يكن هناك حل سوى أن يقوم الضابط بمناداتنا من الداخل .
و بعد أن أوصلت الفكرة إلى أقربائي في الخارج عن طريق المراسلة خرج الضابط فعلاً بعد انتظار طويل ليناديني باسمي و بعد أن دخلنا إليه سألنا ماذا نريد منه و كيف يمكنه مساعدتنا فأخبرناه بأننا نسعى للخروج من هنا بأي وسيلة كانت و لا نرغب بالعودة إلى هذا المكان مهما كانت الظروف و الأحوال.
فقال : " الوسيلة الوحيدة لذلك هي أن تخرجوا بكفالة و هذا أمر مستحيل بالنسبة لكم فلا يوجد لديكم قريب أردني حتى يقوم بكفالتكم و باب الواسطة مغلق فسألناه ما هو الحل فقال لا طريقة سوى أن تأخذوا إجازة لمدة أسبوع و بعد إنتهائها تعودون لأخذ أوراقكم التي أودعتموها هنا و هي بصمة العين و المفوضية و ليس بالضرورة أن تعودوا جميعاً إنما يكفي عودة شخص واحد يأخذ الأوراق ثم تمضون في دربكم ".

فطلبنا منه أن يعجل في تسطير إجازة لنا فطلب منا الإنتظار لحين إنهاء بعض الأعمال في يديه ثم طلب منا التوجه إلى أحد الضباط ليقوم بكتابة الإجازة لنا.
إنتظرنا لحين أنهى الضابط الآخر العمل مع من سبقنا في الدخول إليه ثم طلبنا منه أن يكتب لنا إجازة فسارع في ذلك إمتثالاً لطلب الضابط يزن و الذي طلب منه أن يلبي حاجتنا .
و بمجرد أن أنهى الرجل كتابة الورقة طرنا بها مسرعين إلى والدنا لنخبره بأن مدة إقامتنا في هذا المنفى إنتهت إلى غير رجعة و سنغادر الآن إلى أقرب مدينة إلينا و هي مدينة إربد ثم لنتابع حياتنا فيما بعد كما تابعها غيرنا.
و بعد أن حزمنا أمتعتنا و خرجنا من البيت التفَّ حولنا الجيران مهنئين و مودعين و متسائلين عن نيتنا إن كان يخطر في بالنا العودة إلى هنا أم لا فأجبنا بشكل طبيعي لن نعود بإذن الله ما تمكنا من ذلك ثم أودعنا الغاز و أسطوانة الغاز عند جارنا أبي ياسر و الذي كان كثيراً يردد القول بأنه سيسجل ليتم قذفه إلى سورية و لكنه لم يفعل ذلك حتى الآن فهو من الشخصيات المترددة .
و رغم تردده عندما ينهي العمل يبدأ بالتذمر و التضجر و الندم على ما أقدم عليه أعطيناه مفتاح الغرفة أيضاً .
و قال أحد جيراننا أنه يرغب بإعطائها لبعض أقربائه القادمين في الطريق فقلنا له لا مشكلة فنحن سنمضي في طريقنا و بإمكانكم إستغلال المكان كما ترغبون .
ودعنا الجيران و مضينا في طريق الخروج من المخيم و ليس تحت جنح الظلام هذه المرة و إنما و أشعة الشمس تلتهب و تحول الجو إلى نار تلظى و جحيم لا يطاق قبل أن يكتب الضابط الإجازة لنا طلب منا الخروج من الباب الرئيسي و عدم الخروج من جوانبه فعن يمين الباب و شماله يمكن العبور بسهولة لمن يرغب في الهرب و لكن قد تكلفنا محاولة الخروج من هذا الطريق التأخير و هو الأمر الذي لا نستطيع أن نتخيله. وصلنا إلى الباب لنعطي الحارس الأوراق و بعد أن تأملها فتح لنا الباب أخيراً لنشعر بأننا قد خرجنا من السجن بعد طول اعتقال.
كانت الخيارات واضحة أمامنا بمجرد خروجنا فالأقارب معروفون و نعرف أين يتواجدون فاتصلنا بابن عمي أبي عاصم لنخبره بأننا تمكنا من الخروج عن طريق إجازة و أننا سنتوجه الآن إليه.
أبدى أبو عاصم ترحيبه و فرحه بقدومنا و قال بأنه ينتظرنا بفارغ الصبر كانت المسافة بين المخيم و بين مدينة إربد ما يزيد على ساعتين في السيارة و بعد أن نزلنا في المحطة أرشدنا أبو عاصم إلى طريقة الوصول إلى بيته و أخيراً و بعد أن وصلنا إلى مكانه إلتقينا بأبي عاصم بعد انقطاع جاوز الخمس سنوات لنلقاه هذه المرة دون قضبان أو أبواب مغلقة كما حصل في الأزرق منذ أكثر من عشرين يوماً .
لم يتغير شكل أبي عاصم كثيراً علي إلا أن لحيته أطول مما كانت عليه في السابق .

بقدر ما كنت متشوقاً لرؤية أبي عاصم كنت متعطشاً إلى سماع أخبار المرحلة التي فاتتني من الثورة من وجهة نظره و رأيه في أحداث القرية فقد كان قريباً منها في أغلبها بل و أحياناً كان في قلب الأحداث فبدأ يسرد لي التاريخ الطويل الذي غبت عنه .
و تساءلت عن سر عودته من اليونان الدولة التي كان يقيم فيها قبل الثورة و كان يسعى من خلالها للوصول إلى أوروبا أو حتى الحصول على إقامة في اليونان
فقال :" بعد سنتان من الإنتظار في اليونان لم يحدث شيء ، السنون تمضي و الأولاد يكبرون و أنا بعيد عنهم و بعد أن بدأت الثورة بفترة بسيطة حسمت أمري و قررت العودة فقد كنت متعطشاً للجهاد حتى أنني جلبت معي جزمة من هناك مخصصة للمسائل العسكرية و بعد أن وصلت حاولت أن أعمل مع الشيخ عبد الله في تأسيس كتيبة يكون لها وقعها في القتال و فعلاً بدأنا نشعر بقليل من النجاح و لكن لم يطل الوقت حتى حصلت الجريمة التي تعرفها و التي قتل فيها الشيخ عبدالله و ابن أخته عابد و قبل حدوث هذه الجريمة بوقت قصير اشتد الخلاف بيني و بين زوجتي و باتت عائلتي في الأردن غير قادرة على تأمين أدنى الحاجيات الأساسية و قد وصل الخلاف إلى طريق مسدود كاد ينتهي بالطلاق و كنت خلال ذلك بين نارين أريد أن أجاهد و عائلتي يأكلون الخبز و الشاي لشدة ما نزل بهم ثم قررت الخروج بعد حدوث الجريمة و رغم أن كثيراً من الشباب يلومونني على خروجي و لكني أحمل لهم العتاب و اللوم الشديدين فقد كنت أجاهد في سورية و كان من المفترض أن يكون هناك من يساعد أسرتي في أقل الإحتياجات لا أقول يكفيهم كل شيء و إنما يؤمن لهم من الدخل ما يعيشون به كغيرهم من الأناس العاديين".
سألته كيف وصلت إلى هنا و ما هي الطريق التي سلكتها لتدخل الأردن فبدأ يحدثنا و لكن وقت الإفطار كان قد حان فأجل الحديث إلى وقت لاحق لنستمتع لأول مرة بطبخ إحدى النساء بعد غياب طويل .

حَياة جَديدة وَشُهَدَاء جُدد

خرجنا من مخيم الأزرق بإجازة مدتها سبعة أيام و لكن فكرة العودة لم تكن تراودنا فلم يكن لمدة الإجازة أهمية في نظرنا.

وصلنا إلى بيت أبي عاصم أخيراً و الذي قام باستقبالنا خير قيام بالإضافة إلى أنه شكلّ بنكاً للمعلومات حول الأحداث التي جرت في القرية خلال فترة سجني.

و بعد أن تناولنا طعام الإفطار سألته عن الطريقة التي وصل بها إلى داخل الإردن و كيف تيسر أن ترك اليونان التي كانت تشكل بوابته إلى أوروبا و التي طالما حلم و سعى للوصول إليها دون نتيجة و كيف ترك كل ذلك ليعود إلى سورية في ظل هذه الأحداث و التي كانت تتجه نحو الجنون خطوة إثر خطوة .

فقال لي :" أنه لم يعد يركن إلى السفر و إلى البقاء في ديار الغربة بعيداً عن زوجته و أولاده الذين غدوا شباباً خلال زمن غيابه الطويل عنهم و بعد أن حدث ما حدث من انخراط في الثورة ثم آلت الأمور إلى النتيجة التي سمعت بها من قتل الشيخ عبدالله و تأزم العلاقة مع زوجتي كان الإتجاه صوب الأردن هو قراري النهائي و الحاسم مع إلغاء أي فكرة بالعودة إلى القرية و لم يكن هناك طريق سوى طريق التهريب .

و رغم أن الناس يعتقدون أن الدولة كانت تشكل قبضة حديدية في ذلك الوقت و أنه لا يمكن لإنسان مشبوه أن يقطع حاجزاً أو حاجزين دون أن يعتقل إلا أن الأمر كان بالنسبة لي كذبة و عبارة عن تضخيم إعلامي للنظام لا أكثر.

فبدأت أستغرب كلامه فقال :" صدقني لقد عالجت هذا الأمر بنفسي ، في إحدى الإشتباكات و التي دارت بيننا و بين النظام مرة و لم يكن الأمر صار إلى ما صار إليه الآن من معارك جيوش و تصادم مباشر و إنما كانت الإشتباكات نتيجة عن تسللنا إلى بعض مناطق النظام . فقد كان أسلوب تعاملنا مع الجيش أسلوب حرب عصابات .

أُصبت خلال هذا الإشتباك بطلقة إقتربت من رأسي و كادت تودي بحياتي و لكن الله سلم و بعد أن رآها طبيب القرية الدكتور فؤاد نصحني بالتوجه إلى محافظة درعا إلى أحد الأطباء و الذي سماه لي كانت المسألة مخاطرة كبيرة فبمجرد معرفة إسمي ينتهي أمري و لا بد من عرض الهوية على جميع الحواجز في الطريق من قريتنا باتجاه مركز المدينة .

فقمت باستغلال الشبه بيني و بين أخي سمير و استعرت هويته و مضيت باتجاه المدينة و إلى الطبيب الذي وصفوه لي و قام الرجل بمعالجتي و عدت دون أن يفطن لي أحد. رغم هذه المغامرة التي قمت

بها لم أفكر في تكريرها أو لم يكن هناك مجال أصلاً لإعادتها عن طريق الحدود. و للحظ السعيد كان معبر نصيب مغلقاً أيضاً فكان علي المحاولة من طريق آخر و بعد البحث عرفت أن المحاولة ممكنة عن طريق تل شهاب و لكنها صعبة و لا تخلو المسألة من خطر و ربما قد يطلقون عليك النار و لم يكن من المحاولة بد ، فيممت وجهي شطر قرية تل شهاب و بدأت أنتظر محاولات المضي إلى الأردن لأجرب حظي أيضاً و رغم قرب القرية من الحدود الأردنية إلا أن الأجهزة المتطورة جداً التي يملكها حرس الحدود من كاميرات حرارية و غيرها فكان علينا إما البحث عن وسيلة تجنبنا الظهور على هذه الأجهزة - و التي تقدر على كشف حتى النملة - و ذلك عن طريق رشوة القائم على الجهاز فيقوم بحرفه في لحظة من اللحظات لتعبر أنت في تلك اللحظة و لكننا لم نحاول هذه المحاولة و إنما حاولنا الدخول من الطرق الصعبة التي يصعب على السلطات إمساكنا من خلالها قمنا في إحدى المرات بصعود التلال و هبوط الوديان و أُرهقنا إرهاقاً شديداً و لكن محاولتنا باءت بالفشل فعدنا نجر أذيال الخيبة لنبدأ بالإنتظار للقيام بمحاولة أخرى إستمرت المحاولات فترة طويلة جاوزت الشهرين أقمت خلالها في مسجد كنت أتولي القيام بالمهام داخله من أذان و إمامة إلى أن تمكنت من الدخول أخيراً بعد محاولات مرهقة و إنتظار طويل .

أقمت مع عائلتي فترة داخل مخيم الزعتري ثم خرجت منه لأبدأ بالبحث عن الحياة الطبيعية و لم يطل الوقت حتى يسر الله جميع أمورنا على خير ما نحب و نتمنى أن تتنتهوا إلى ما انتهينا إليه سريعاً ".

خرجنا من أجواء مخيمات اللجوء أخيراً لنبدأ بمعايشة الأجواء الرمضانية و التي افتقدناها منذ زمن و حتى مسلسل باب الحارة و الذي كان أشبه بما يكون بطقس من الطقوس الرمضانية و الذي لا يتخلف أحد عن متابعته قد اكتسى بثوب الحرب في سورية و غرد كما يحلو للنظام في سورية أن يسمع منه مما جعل بريقه هذا العام خافتاً أو شبه معدوم ،إنتهى اليوم و خلدنا إلى النوم .

و في اليوم التالي خرج أبو عاصم ليجلب بعض حاجيات البيت و ليقوم بصرف المساعدات التي يتلقاها على شكل كوبونات مخصصة لصرف المواد الغذائية لا غير و حصة كل فرد ٢٤ ديناراً أردنيا في حين كانت حصتنا داخل المخيم ٢٠ دينارا للشخص الواحد.

مضيت معه لأشاهد بعض شباب القرية قد انتظموا في طابور طويل ينتظرون دورهم ليأخذوا نصيبهم من المساعدات عدد كبير من شباب القرية قد جاء إلى هنا بحثاً عن الأمن و الأمان و نأيا بنفسه عن الصراع داخل سورية .

قام أبو عاصم بقبض مستحقاته ثم مضينا و عندما وصلنا إلى الباب صادفه أحد شباب القرية فقال في نبرة محتدة يبدو من خلالها الغضب لماذا خرجتم لمن تركتموها لفلان و فلان حتى يدمروها؟

كان يتحدث عن الثورة و كيف تمكن أبو عاصم من مطاوعة نفسه في مغادرة البلاد و قد كان على ثغر عظيم من ثغور الجهاد .

و لكن أبا عاصم لم يتجاهله و إنما بدأ بمهاجمة الرجل و تبيين ما أصابه من خذلان ممن ادعى حبه للجهاد و ترك أهل أبا عاصم دون أن يسأل عن حالهم و إنما كان عمله هو السؤال عن فعل المجاهدين و لومهم دون أن يقدم لهم شيئاً .

ثم بين له انزعاجه من تجمع الشباب في القرية بشكل أقرب إلى العنصرية.

ثم مضينا سريعاً لنشتري حاجياته حتى نتمكن من العودة إلى البيت قبل أن يحل وقت الإفطار وقد التقينا خلالها بأبي جراح أيضاً ليقوم هو أيضاً بدعوتنا إلى الإفطار .

قضينا يومين عند أبي عاصم و لكن إجازتنا كانت ستطول أكثر فليس من المناسب البقاء عنده و لا بد من البحث عن بيت لاستئجاره لنقيم فيه المدة التي قدرها الله علينا.

و بعد عدة اتصالات أخبره أحد أقربائنا أن هناك بيتاً قريباً منه و إجاره ليس مرتفعاً كثيراً فاتفقنا معه على موعد للذهاب بصحبته لرؤية البيت و بعد أن حل الموعد مضينا إلى رؤية قريبنا و جارنا سابقاً في القرية و هو أحمد .

شاهدنا البيت ولم يكن عندنا اعتراض عليه و أبدينا موافقتنا على البيت و أبدى المؤجر موافقته أيضاً ثم بدأنا نعد العدة للإنتقال إلى البيت الجديد بمساعدة من أقربائي و أنسبائي الذين قاموا بتقديم مساعدة كبيرة لنا لتيسير هذا الإنتقال.

و لم يمض وقت طويل حتى انتقلنا إلى البيت الجديد الذي جهزناه باحتياجاته الأساسية في وقت قياسي بضعة أيام كانت كافية لاضفاء روح الإستقرار على المنزل الذين كان خالياً من كل شيء قبل بضعة أيام .

رغم مساحة الأردن الصغيرة مقارنة بسورية إلا أنها على صغرها شتتت شمل أهل قريتنا أو محافظتنا بشكل عام و لم تجمعه و إنما فرقتهم شذر مذر ما بين متجه إلى عمان و آخر إلى إربد و آخر إلى الزرقاء و من لم يستطع تحمل التكاليف خارج المخيم أنِسَ إلى البقاء داخل مخيم الزعتري و الذي كان يحوي أكبر عدد من سكان قريتنا و حتى مع إنتقالنا إلى البيت الجديد و الذي كان موجوداً في منطقة البارحة في إربد إلا أن الجو المحيط بنا لم يكن يخلو من بعض سكان القرية عموماً و الأقارب خصوصاً فقد كان قريباً إلى بيت خالي و بيت أبي أيهم جارنا سابقاً و ابن خالة خالي و أبي رضوان ابن عم خالي و أخو إبراهيم زميلي في السجن سابقاً.

و رغم أن الإجارات مرتفعة في الأردن عموماً إلا أنها كانت في هذه المنطقة متدنية و ذلك لمشكلة جرت هنا بين عائلتين كبيرتين و كان ضمن العائلتين المتخاصمتين فرد يعمل عضواً في مجلس النواب أو الأمة الأردني مما جعل للمشكلة صدى كبيراً و لم تخل المخاصمة من الإشتباكات بالأسلحة النارية مما جعل السلطات تلقي بثقلها و ترسل الدبابات إلى الشارع حتى تقضي على المشكلة من أساسها و بعد إنتهاء المشكلة خرج كلا العائلتين من المنطقة مما وفر البيوت لأي قادم جديد يبحث عن الإجار و بأسعار مقبولة في أغلب الأحيان.

و قد كنا نحن من أصحاب الحظ السعيد باغتنامنا فرصة المشاققة الحاصة لنجد مكاناً جيداً في منطقة تأنس بعدة عائلات من القرية بعد أن أنهينا زيارتنا لأبي عاصم و التي استمرت يومان قمنا أيضاً بزيارة ابن عمي الأكبر و أخا أبي عاصم أبو جراح لمدة يوم واحد .
ثم حططنا رحالنا في بيتنا الجديد الذي استأجرناه من ماجد الأردني و الذي كان يعمل في المخابرات. و يبدو أن العمل الأمني في الأردن أمر طبيعي و لا يكسو صاحبه بالغطرسة و الكبر كما كان يحدث عندنا في سورية ربما لأن أغلبهم مسلمون سنة .
و أخيراً بدأنا نعود إلى الحياة الطبيعية الهادئة التي حرمنا منها لوقت طويل بسبب الظروف الراهنة و لم يبق هناك عائق سوى مجيء زوجتي و ابني إليَّ في الأردن حتى ينتهي هذا الفراق الطويل الذي بدأ منذ أكثر من ثلاثة أعوام و استمر حتى الآن.
و بدأنا نستمتع بمعايشة الأجواء الرمضانية كغيرنا من أداء صلاة تراويح و سحور و إفطار و لم يبق يفصلنا عن العيد سوى نهاية هذا الشهر الكريم .
بحمد الله لن أقضي العيد هذا العام في السجن أو في مخيم الأزرق فهو العيد الأول بعد خروجي من السجن و لا شك أن له نكهة خاصة رغم أني كنت أفضل قضاء العيد في القرية رغم جميع الأحداث التي تجري فيها و حولها .
ثم بدأت حياتنا تعود إلى سابق عهدها أي قبل السجن بطابع أكبر مع قدوم جدتي إلينا و التي قضت وقتاً طويلاً عند أقربائها .
و رغم صعوبة تحملها للمشي و التعب إلا أنها جاءت إلى هنا عن طريق التهريب أيضاً شيء يجعلنا نشعر أنه ما من شيء يقرب منية الإنسان أو يؤخرها فمنذ بضعة سنوات كانت في سورية تحت وقع التخدير تأن من الألم بعد انتهائها من عملية الدسك و اليوم ها هي في الأردن رغم أن الطريق لم يكن سلوكه ميسراً لأي أحد .
و مع اقتراب العيد أيضاً عاد خالي أبو أيوب من عمله في السعودية ليقضي إجازته زائراً لأهله في الأردن و الذين كانوا يسكنون في بيت مجاور لنا.. كانت عودة خالي ليلة العيد مما سيجعل العيد أكثر أنساً و الأيام القادمة أسهل و أيسر.

بدأت خطوات أقدامنا تبث الحياة في المنزل الجديد و الذي كان خاوياً منذ أيام معدودة و أوشك شهر رمضان على النهاية ليقبل العيد السابع منذ انطلاق الثورة في سورية و العيد الأول منذ خروجنا من السجن .
بدأ أهل قريتنا ممن يسكن قريباً منا يتوافدون علينا لتهنئتنا بالسلامة عقب رحلات طويلة و مخاطر كبيرة عايشناها لننتهي إلى هذا المكان أخيراً و كانت الفرصة مهيأة لمتابعة الأخبار عن طريق التلفاز أكثر من أي وقت مضى لتوفر الكهرباء بشكل دائم على العكس من سورية و التي كانت معدومة فيها بشكل دائم.

و رغم وجود التلفاز إلا أن متابعة أخبار القرية كانت من تخصص وسائل التواصل الاجتماعي و التي تمتاز بمرونة أكبر و سرعة أكبر و مما يسهل انتقال الأخبار الكاذبة أيضاً عن طريقها بسرعة .
مع تواجد عدة عائلات من قريتنا بالقرب منا أصبح من الممكن العمل مع بعض أصحاب الصنعات منهم بغية قضاء الوقت بشيء نافع و فعلاً بدأ أخي أحمد يعمل مع بلخي نسيب خالي في الدهان و كنت أخرج معه في بعض الأحيان حسب حاجة العمل و التي لم تكن تحتاج دائماً إلى أشخاص كثر .
أوشكت العشر الأواخر من رمضان على الإنتهاء و كطبيعة أي بلد مسلم إستمر أحياء ليالي رمضان بصلاة التراويح في الثلثين الأولين ثم إضافة قيام الليل في العشر الأخير. قبل العيد بليلة خرجت أنا و أحمد للعمل و لطبيعة رمضان كان العمل يتم ليلاً لأنه لا يمكن لأحد أن يحتمل هذا الجو الحار نهاراً و هو جالس في بيته فضلاً عن أن يقضيه في العمل.
كان العمل يبتدأ بعد الإفطار بساعة تقريباً و ينتهي قبل السحور و بعد أن أنهينا العمل بدأت نغمات الرسائل الصادرة من الهاتف تتواصل دون أن أفهم ما الذي يجري و بعد أن بدأنا بقراءة الأخبار و التي كانت غير سارة على الإطلاق تبين أن قريتنا تعرضت لحادث أليم آخر سقط خلاله برميلان في منتصف القرية تقريباً .
في المرة الماضية لم يصب أحد رغم أن المكان كان أكثر سكاناً و معرضاً للخسائر البشرية بشكل أكبر و في هذه المرة سقطا ليلاً ليتوقف خطرهما عند إصابة عدة أشخاص بجراح و لم تقتل أحداً .
لم أعرف ما السبب و لكن كالعادة النظام يقصف بالطيران و الثوار يتهمون بالتسبب بالقتل.
شاهدنا الصور التي وصلت للبرميل الساقط و الذي سقط في الوادي الذي يمر في القرية مما جعله يحتوي البرميل و جعل خطر شظاياه يتضاءل.
أما البرميل الآخر فقد أتي على بيت قريب من موضع سقوط البرميل الآخر ليجعله أشبه بما يكون بالآثار الخالدة .
كان هذا القصف أشبه بمعايدة للقرية التي اعتاد أهلها على تلقي الهدايا الغريبة من نوعها فقد كان يفصلنا عن العيد يوم أو يومان و تداركت الرحمة الإلهية القرية فأبقت العيد عيداً و لم تجعله مأتماً بسبب موت أحد الأشخاص و إن كانت الجراح مؤلمة لأصحابها أيضاً إلا أن آلامها تبقى محصورة في أصحابها الذين يأنون منها .
زارنا عدة أشخاص من أقربائنا و من سكان قريتنا في بيتنا الجديد و كان الطرح دائماً يرجع بي إلى بداية اعتقالي و إلى السبب الذي جعلني أظهر على التلفاز و قول كلاماً أشبه بالهرطقة و الجنون .
لم أكن أستغرب سؤالهم عن المقابلة و الدافع إليها فهذا شيء كان يجول في خاطري عندما كان المحاور يحدثني أثناء المقابلة و إنما الذي استغربته سؤالهم عن حقيقة كلامي هل كنت صادقاً فيما ادعيته أم أجبرت على الكذب .
لم أكن أعرف كيف سأعبر عن استغرابي من السؤال و كيف كان يجب أن تكون ردة فعلي و كأن السائل كان يعيش في عالم آخر و نحن نعيش في عالم غيره و كل عالم له قوانينه و أحكامه الخاصة

التي لا تنطبق على العالم الآخر و كأنهم جاؤوا إلى هنا بمحض إرادتهم و لم يضطرهم للوصول إلى هنا ما شاهدوه من جنون و إجرام يفوق التصور .

وصل خالي أخيراً في ليلة العيد و بحكم قرب منزلنا من منزله بدأنا نتردد عليه بشكل شبه يومي و نجد في بيته متنفساً من ضغط هذا المكان و شيئاً من نفحات أيام وجودنا في القرية سابقاً عندما كان يكتنفها الأمن و الأمان .

كل شخص يزورنا كان يحمل قصته و انطباعاته عما حصل في سورية و نظرة متفردة للأحداث لا يشاركه فيها أحد.

قبل أن تأتي جدتي إلينا قام مضيفها أبو أحمد بدعوتنا لتناول الإفطار عنده

قبل أن تعود جدتي معنا بعد غياب ثلاث سنوات عن القرية تخللها أحداث صعبة اقتربت من الموت في بعض الأحيان جعلتني أتأمل كثيراً في وجه بعض من يحدثني ممن كنت أجهله في القرية و كان يعرفني هو وقتاً طويلاً حتى أستبين شخصية المتكلم و هناك وجدت أبا يحيى و الذي سلم علي ثم راح يشرح لي ما عاناه خلال فترة وجودي داخل السجن و بدأ يظهر لومه لبعض الشباب ممن كان يتهمه جزافاً بأنه يعمل مخبراً لصالح النظام و قد تبين لهم زيف هذه التهمة لأن النظام قام بإلقاء القبض عليه و إيداعه في السجن فترة شهرين و كرد فعل اعتيادي كل إنسان يخرج من السجن كان يسافر مباشرة لأنه أمر يستقر في داخله منذ الأيام الأولى لمعاناته داخل السجن.

زارنا أيضاً ابن عمنا أخو أبو عاصم عبد المنعم و الذي كان يسكن في مدينة أخرى في عجلون و التي كانت بعيدة عنا مما جعل زيارته لنا تتأخر فترة من الزمن و لم أنسى قبل أن ألقاه أني ذكرت اسمه في المقابلة التلفزيونية متهماً إياه بحمل السلاح معي للقيام بالمؤامرة التي ألفتها من بنات أفكاري على الورق و أُعجب بها المحقق ليظهرها مصورة على التلفاز كأنها حقيقة لا ريب فيها .

و كما أني لم أنسى كذلك عبد المنعم أيضا لم ينسى ذلك و رغم أنه كان خارج السجن إلا أنه بدأ يتكلم عما سببته له من معاناة في بداية الثورة

فقال:" بعد ظهور المقابلة على التلفاز بدأنا نسمع الأخبار التي تتوارد إلينا من كل حدب و صوب بأن الجيش السوري و كذلك الأمن يقومان باقتحام القرى و لم أكن لأسلم لهم أمري و قد شاهدت فيك عبرةً لي و كان الإقتحام يتم في الصباح الباكر فكنا نسهر الليل الطويل أنا و عدة شباب مطلوبين أو يشكون أنهم مطلوبون أيضاً إلى قبل إشراق الشمس بقليل ثم نبتعد خارج القرية و نبقى منتظرين إلى ما بعد الظهر أو أكثر و بعد أن نتأكد من عدم حصول شيء نعود إلى القرية لنقضي اليوم التالي على ذات المنوال".

تعجبت منه لهذا الإحتياط الذي أصابني بالذهول مع أني ذكرت أسماء عدة أشخاص و لم يزلزلوا هذا الزلزال الشديد الذي أصيب به هو

فقلت له : " يا رجل الأسماء كانت مجرد ديكور لا أهمية لها كل ما في المسألة المحقق أصر على وجود الأسماء و لم يخطر في ذهني وضع أسماء موتى أو أسماء وهمية و لو قمت بوضعها لما انتبه

أحد إلى ذلك و لكن المحقق يرغب بإضفاء شيء من الواقعية على القصة الخيالية و كانت الأسماء كما سمعت كنا داخل السجن مرتبكين جداً و لم يسعفنا الإلهام بوضع أسماء شخصيات وهمية أو أناس ماتوا من زمن قريب أو بعيد

و لكن أحد الشباب ممن كان معنا بعد أن سرد للمحقق ذات الرواية التي جرت معنا استنفذ الأسماء في ذهنه ثم جعلته حرارة الضربات المتوالية يأتي بأسماء غريبة

حتى أنه ذكر اسم علي عبد الله صالح كان معه ضمن العملية و لم ينتبه المحقق لذلك و إنما دون الإسم فرحاً به ".

عانا عبد المنعم كثيراً و لم أحب أن أكون سبباً في تشكيل معاناة أكبر له و لكن ما فات قد مات و ها نحن خرجنا من الحرب أحياء لنصل إلى هذا المكان .

رغم وصول عبد المنعم و أولاد عمي عموماً إلى هذا المكان إلا أنهم وصلوا إلى هنا بحكم المضطرين و تحت شعار مكره أخاك لا بطل .

ثم زارنا أيضاً ابن عمنا أبو بدر و الذي كان يعمل مع أنسبائه أيضاً في صنعته في المجال الإلكتروني و هو أيضاً اختار مكاناً بعيداً للسكن ليقضي وقته في عمان و رغم أن المملكة الأردنية الهاشمية هي الأكثر استقطاباً للسورين بشكل عام و لأهل محافظتنا بشكل خاص بحكم قرب المسافة بيننا و بينها إلا أن أبا بدر حاول أن يجرب حظه خارج الأردن و مكنه من ذلك دخوله الأردن بشكل نظامي أي عن طريق جواز سفره و وصل إلى مصر ليقيم هناك فترة من الزمن إلا أنه لم يأنس للعيش فيها.

فرغم أن تكاليف المعيشة زهيدة جداً مقارنة بالأردن و بغيرها من الأماكن إلا أن المردود المادي يكاد يعجز عن تغطية تلك التكاليف الزهيدة لينتهي به الأمر إلى الإستقرار في عمان و لممارسة صنعته السابقة و التي لم تخلُ من المخاطرة

و كادت تتسبب أحياناً بعودته إلى سورية لولا أنه تدارك المسألة ببعض التفكير و المحايلة.

جميع من دخل إلى الأردن سواء بشكل نظامي أي عن طريق جواز السفر أو بطريق التهريب يتلقى مساعدات مفوضية الأمم المتحدة على شكل كوبونات

و لكنها محصورة الصرف في المواد الغذائية مما يجعل من يرغب بالخروج من المخيم مضطرا للبحث عن عمل لتغطية أجرة البيت و بات العمل في الأردن أيضاً يحتاج ترخيصاً يصعب الحصول عليه و إن تمكن أحد من الحصول عليه فسيتكلف مبلغاً عالياً قد يصل إلى ٤٠٠ دينار أردني و هذا مبلغ يعتبر صعب التوفر بأيدي أحد المواطنين الأردنيين فضلاً عن اللاجئين السوريين هنا إن لم يكن خيالياً مما جعل معظم السوريين الموجودين هنا يعملون تحت جنح الظلام مبتعدين ما أمكن عن أعين السلطات التي لا تتواني في قذف أحدهم إذا أمسكته و هو يؤدي أحد الأعمال البسيطة.. بدأ هذا الواقع المفروض يجعل البقاء داخل المخيم أكثر يسراً و سهولة و إن شاب المكان بعض لوثات البؤس و الفقر إلا أن السكن يبقى متوفراً و كذلك الطعام و حتى من وصل إلى الأردن قادماً بسيارته من سورية

كأبي رضوان فلم يخل وجود سيارته من بعض المشاكل حتى وصل الأمر في النهاية أنه لا يستطيع الإبتعاد بها خارج المدينة إلا في أوقات نادرة
و ذلك أن السوري ممنوع هنا من قيادة السيارة و في حال تم اكتشاف سيارته و التي دخلت ضمن نطاق المخالفة الآن فسيضطر إلى دفع مبلغ شهري أجرة للمكان الذي تقف فيه دون أن يملك تحريكها أو بيعها.
و رغم هذه المخاطرة الكبيرة إلا أن الرجل كان يقود سيارته ضمن حدود معينة يقضي من خلالها احتياجاته لا أكثر.. قام أبو رضوان أيضاً خلال رمضان بدعوتنا للإفطار عنده فقمنا بزيارته ليكون هذا الموسم من رمضان هو الأقل بالنسبة لقضاء الوقت في البيت فمن بيت إلى بيت و من مائدة إلى أخرى و من خال إلى ابن عم مضى رمضان سريعاً رغم أنه كان بطيئاً في البداية بسبب الملل الذي كان مسيطراً على مخيم الأزرق .
انتهى رمضان و غداً هو أول يوم من أيام عيد الفطر السعيد أقضيه لأول مرة في هذا المكان و خارج السجن بعد قضاء ٦ أعياد داخل السجن .
لا شك أن الأزمة لن تنتهي خلال الساعات القادمة إلا أنها ستحمل فرح العيد على أقل تقدير .

في الفترة الأولى من الثورة السورية و التي انطلقت شرارتها من درعا كان عدد الشهداء يزداد يومياً بشكل تدريجي ، وعلى الرغم من أن قريتنا كانت من ضمن قرى درعا إلا أنها لم تصب بأحد أبنائها في البداية رغم حدوث بعض الجرائم التي ارتكبها الأمن قريباً منها .
فمنذ الأيام الأولى قام الأمن باقتحام قرية الكرك الشرقي المجاورة لقريتنا و تسبب وقتها بانتكاسة كبيرة لجيراننا من خلال أخذه ثلاثةً من أبنائهم ثم تم تغييبهم بشكل تام كغيرهم من المعتقلين .
مر الزمن و قريتنا خالية من الشهداء بشكل تام إلى أن خرجنا في المظاهرة و التي تم اعتقالنا فيها لم تكن الرزيئة وقتها هي قضية اعتقالنا فقط فهذا أمر تهونه الأيام التالية
فالاعتقال عبارة عن فراق مؤقت قد يكتب اللقاء بعده و لكن المصيبة الحقيقة التي حصلت بالإضافة إلى اعتقالنا هي استشهاد ستةٍ من شباب قريتنا على أيدي قوات الجيش .
كارثة حقيقية جعلت القرية تتجرع المرارة بعدها أياماً عديدة و تزداد الكبد حرقةً كلما وصلت جثة من جثث الشهداء الذين قضوا نتيجة إطلاق النار الجنوني الذي تعرضنا له في كمين المساكن
جعلت تلك الأزمة قريتنا تتساوى مع غيرها من القرى بالشعور بالتألم لفقدان الأحبة . مضت الأيام سريعاً و عندما وصلنا إلى سجن غرز بدأ الشباب في الداخل يعتقدون بتقصير الشباب العاملين في الخارج أي خارج السجن و يستشهدون على تقصيرهم بعدم تقديمهم شهداء جدد باستثناء الشهداء القدامى و هم الشهداء الستة الذين قضوا نحبهم في المظاهرة التي اعتقلنا فيها
و لم تمضِ عدة أيام حتى طرق أسماعنا خبر جديد و هو استشهاد عدنان و كمال نتيجة وقوعهما في أحد كمائن النظام

لا شك أن الشهيد يبحث عن الفوز بالجنة قبل كل شيء و لكنه في ظل هذا السباق و عندما يصل إلى مبتغاه يترك من خلفه و خصوصاً إذا كان صاحب خير و صلاح يتركهم مفجوعين متحزنين على فقدان الرجل .

ثم لم تمضِ أيام أخر حتى صمَّ آذاننا خبرٌ مفجع آخر وهو استشهاد عدان و دريد من خلال كمين للنظام أيضاً

خبرٌ جعلنا ننكره أولاً و نتأمل جاهدين أن يكون كذباً و لكن الزمن كان يمضي و يختطف معه حياة من ينتهي أجله دون الإنتباه لقيمته

دريد شاب لا يزال في مقتبل العمر توجه إلى الدراسة في الجامعة ثم منعه ما منع غيره من المتابعة من قيام الثورة و لم يكتفِ الشاب الصغير بمجرد أن يكون حاملاً متحمساً للسلاح فقط و إنما حاول جاهداً أن يصدع أركان النظام بكل ما أوتي من قوة فقد حدثني غيث أنه كان يقوم هو و دريد سوية بتأمين انشقاق بعض الضباط و العناصر و قد كان الأمر من الخطورة بمكان

ثم أخبرني أنه كان متوجهاً في يوم من الأيام برفقته عائداً من الشام ليمر بأحد حواجز النظام و كان غيث يحمل مسدساً و قنبلة و عندما استوقفهم الضابط بدأ دريد يقرأ ما يستذكره من القرآن الكريم في هذا الموقف العصيب الذي جعل غيث يفكر بإخراج القنبلة و رميها مهما كانت النتيجة و لكن الضابط لمح حركة غيث فأمر الجنود بتركهم يمرون خوفاً من تهور غيث، أما عدنان فقد كان متلهفاً للشهادة باحثاً عنها بكل السبل حتى أنه كان عازماً بشكل منقطع النظير للذهاب إلى العراق لمقاومة الإحتلال الأمريكي و ذلك بداية الغزو الأمريكي للعراق و لكن الظغوط العائلية من جهة أسرته كبلته و منعته من هذا التوجه، و ما إن انطلقت الثورة حتى كان من ضمن فرسانها الأوائل حتى أنه أصيب بساقه في بداية الثورة و لكن إصابته لم تمنعه من المتابعة و المضي إلى الأمام و ما إن انقلبت الثورة من سلمية إلى مسلحة حتى امتشق سلاحه و مضى مع الثوار يرد عادية النظام و عندما لا تسعفه رجله بتشغيل دراجته النار يقوم بتشغيلها مباشرة مستعينا بيده في مشهد يستعجب أمامه كل إنسان من هذه الإرادة الفولاذية و هذا الثبات الذي دونه ثبات الجبال الراسيات ، و للأسف كان استشهادهما أيضاً نتيجةً لوقوعهم في أحد كمائن النظام .

وبعد فترة بسيطة من وجودنا داخل سجن غرز اكتشفنا أن أحد أبناء القرية موجود أيضاً معنا فنزلنا لرؤيته في القهوة التي كانت مخصصة لتزاور السجناء ممن يقطنون في أجنحة مختلفة..

كانت لهفتنا شديدة لسماع أخبار القرية التي بعُد عهدنا بها فبدأ يحدثنا أيضاً عن شهيد آخر من شهداء القرية و هو أبو غازي و الذي كان شجاعاً مقداما ثابتاً .. بدأ يحدثنا عنه حتى شعرنا بألفاظ التمجيد و العظمة تتضاءل أمام بطولات الرجل و لكن حصدت الحرب روحه كما حصدت روح غيره، وبدأ عدد الشهداء يكثرون لدرجة أن القاتل بات أحيانا يغدو مجهولاً كما حصل في جريمة مقتل الشيخ عبد الله و عابد، ثم بدأت عجلة الأيام تتسارع لنستنشق هواء الحرية أخيراً بعد ما يقارب ثلاثة سنوات من السجن، و قد استقر بنا المقام في الأردن أخيراً بعيداً عما يجري داخل سورية و لكن بطبيعة الحال

بما أننا من أبناء البلد فكل حدث يجري داخله يؤثر فينا سواء كان سلباً و إيجاباً ، و بعد أن بدأت التساؤلات تكثر لماذا لا تُقدم قريتنا المزيد من الشهداء كغيرها من القرى هل هذا بسبب التكاسل و التقاعس لتأتي الإجابة سريعاً باستشهاد أحد الثوار مقبلاً غير مدبر في معارك القنيطرة.. الشهيد هو أبو وليد و هو أخو صديقي محمد الذي كان دائماً لي عضداً و نصيراً أينما اتجهت و بحكم علاقتي بأخيه عرفته مذ كان صغيراً يلاعب الصبيان في الشارع و شاهدته يتشاجر مشاجراتٍ أخوية مع إخوته، وبعد أن خرجت من السجن كان هو الوحيد الموجود من عائلته في القرية آثر البقاء هنا للجهاد و ترك التمتع و التقلب في ظلال دولة الكويت ليأتي إلى هنا يتقلب تحت حر الشمس و يهب للهيعات كلما سمع صوت المنادي.. صادفته عند أحد الأصدقاء مرة و بعد أن سلمت عليه سلاماً حاراً بدأت أسأله عن حاله و مآله و عن أموره الشخصية، وبعد أن تسامرنا قليلاً سألنا كيف يمكن له أن يحظى بدفتر عائلة له و لزوجته ثم تفكر قليلاً و سألنا و لكن ما فائدته

فأجبته " بأنه لا يفيدك أنت و لكن قد يفيد زوجتك إذا ما أصابك مكروه لا قدر الله " فتعجب من كلامي ثم قال :" مكروه ! لا قدر الله !

لا تقل هذا الكلام هذا ليس مكروهاً هذا ما نبحث عنه .

كان هذا اللقاء الأول و الأخير الذي جرى بيننا لتحمل لنا هذه الأيام نبأ استشهاده و بعد أن تشت شمل أبناء القرية أصبح من يموت يقام له عزاء في كل بلد يقيم بها بعض أهل القرية

فقد أُعلن عن تقبل التعازي بأبي الوليد في الأردن في مدينة الحصن لوجود أعمامه فيها و أُعلن عن العزاء الأساسي و الذي أقيم في الكويت و ذلك لوجود أهله بطبيعة الحال هناك

كانت مدينة الحصن تبعد عنا مسافة ليست بالقريبة و لكن لم يكن من الذهاب إلى هناك بد مضيت أنا و أبي و أخي أحمد إلى حيث العزاء أيضاً لنجد هناك عدة أشخاص جاؤوا ليؤودا واجبهم تجاه الشهيد و عائلته .

لم تستمر الزيارة وقتاً طويلاً فقد كانت زيارة عزاء فقط لنعود إلى البيت و بعد مضي بضعة أيام على استشهاد أبي الوليد خبر محزن آخر و هو وفاة أيسر أحد شباب قريتنا خرج مع ثوار آخرين ليعود آخر النهار شهيداً

لم أعرفه لأيسر و لكن أخي أحمد كان صديقا مقرباً منه و قد قضى فترة من الزمن في بيتنا بصحبته و كان يثني عليه و على أخلاقه خيراً

حصدت الثورة أرواح خيرة شباب القرية و كان كلما استشهد أحدهم شعرنا بأن المسألة مسألةُ اصطفاءٍ لا خبطُ عشواء .

فلا يموت أحدهم حتى تبكيه العيون و تتغير لأجله النفوس لِما أصابها من فاجعة به

ثم لم تمضي عدة أيام أخرى ليطرق سمعنا نبأ استشهاد شاب جديد من قريتنا و هو أبو عمر و الذي كان قد قرر ترك القرية و اتجه خارجاً ليصبح قائداً عسكرياً في لواء تبارك الرحمن في قرية الكرك

الشرقي المجاورة لقريتنا ثم ليصبح أسطورة بعد ذلك يتغنى بأمجاده كل من شارك معه في الغزوات و المعارك
و جعل وجوده لهذا اللواء جاذبيةً خاصة انظم على إثرها كثير من شباب قريتنا إليه ليشكلوا كتيبة كاملة خارج القرية
و قد حدثني بعض أصدقائه ممن شهد أحد معاركه و كان يتحدث عنه بفخر شديد و حزن بالغ فقال :" كانت الأوامر تأتي من المجلس العسكري باستخدام كمية محدودة من السلاح الثقيل لا يتجاوزها و لكن أبا عمر قرر هذه المرة أن لا يلقي للأوامر بالاً و قد أرانا كيسين كبيرين جهزهما قريباً من أحد الأسلحة الثقيلة في الجهة التي تخرج منها الطلقة الفارغة و كانت الأوامر بأن لا يتجاوز عدد الطلقات ألفي طلقة و لكن أبا عمر قال لي سأثخن فيهم هذا اليوم بإذن الله
و بعد أن انتهى الإشتباك وجدته قد أطلق ما يقارب خمسة آلاف طلقة ".
ثم طأطأ الرجل رأسه و قال بنبرة حزينة يشوبها شيء من الألم على صديقه توفي رحمه الله في مجدوليا .
ثلاثة شهداء في أقل من عشرة أيام عددٌ كان كافياً لإثبات أن أبناء قريتنا لهم كلمتهم في الثورة و أنهم يتخذون الأمر بجد لا بشيء من الهزل كما كان يتصوره كثير ممن كان خارج القرية .
نالت قريتنا نصيبها من آلام الثورة التي عاشتها غيرها من القرى
شهداء .. معتقلون .. بالإضافة إلى مفقودين لم يسمع أحدٌ خبراً عنهم
كما حصل مع بدر و الذي كان مع الثوار أيضاً و لكنه لم يحضَ بالشهادة إلا أنه غاب تاركاً الجميع في حيرةٍ من أمرهم فوق أي أرض و تحت أي سماء هو الآن و لكن ما من مجيب .
كان يحمل ذاكرة إلكترونية تحوي بعض المواد الممنوعة و التي كانت حسب كلام بعض الأصدقاء مواد قابلة للإنفجار ليتلقفه أحد حواجز النظام ليغيبه إلى أجلٍ غيرِ مسمى
تاركاً أهله في حيرة من أمرهم غير دارين بمصير ابنهم أهو حيٌ فيسعون لإنقاذه
أم هو ميت فيبكونه .
ثم مضى الوقت ليتبين في فترة لاحقة أنه قد قضى تحت التعذيب في سجون الإعتقال الشيء الوحيد الذي بات الجميع يتشاركه في سورية هو المصير المجهول من تخطف الأرواح على حين غرة و الجميع في ذلك سواء لا يختلف قائد فصيل عن قائد عسكري عن مجاهد أو حتى عن فرد عادي يعتزل الحرب و يعتبر ما يجري داخل سورية ليس من شأنه
فلم تمضي عدة أيام حتى تصدر نشرات الأخبار خبر فاجع و لكن ليس على مستوى القرية هذه المرة و إنما على مستوى سورية بشكل كامل و الخبر هو إستشهاد ٤٥ قيادياً من أحرار الشام قضوا في اجتماع لهم
لم يشك أحد أن المسألة عبارة عن خيانةٍ تعرض لها الفصيل أدت بالنهاية إلى مقتل هذا العدد من هؤلاء القادة و الذين كانوا يعتبرون من القادة المبرزين في الصراع السوري الموت الآن لا يستثني

أحداً و بعد هذه الكارثة يبدو أن الثورة السورية تتجه بشكل عام لتدخل في نفق مظلم لا نعرف إذا دخلت فيه متى تخرج منه

و لا تعرف بدايته من نهايته و لكن الأيام حبلى بالمفاجئات و من طرفة عين لانتبهاتها يغير الله من حالٍ إلى حالِ

فرغم هذه النكبة الكبيرة التي أصيب بها أحرار الشام إلا أنه بدأ في الأيام التالية يستعيد عافيته ليثبت أن الأمة لا تزال قادرة على إنجاب القادة الذين ينوبون عمن سبقهم ليكملوا طريقهم و ليحقق الآخرين ما استعصى على الأولين.. بدأنا نشاهد الأخبار و لا نملك شيئا باستثناء الأمل و الدعاء أن يتغير مسار الثورة إلى الطريق الذي نتمناه و الذي يجعله تنتهي منتصرة بأسرع وقت ممكن و بأقل عدد من الخسائر و الفجائع فلم يعد القلب يتحمل فراق مزيدٍ من الأحبة.

تنظيم أم تهجير!

كانت الوجهةُ الوحيدة بالنسبة للسوريين الفارين من الحرب هي لبنان و الأردن و لكن مزيجَ اللبنان المعقد و الذي يتحكم في معظمه حزب الله الذراع الإيراني الذي يقاتل في سورية في صفوف جيش النظام جعلت فكرة الذهاب إلى لبنان ممزوجةً بالمغامرة و الهذيان و لم يكن سكان محافظتنا بحاجة إلى دراسة هذه الفكرة فقد كانت الأردن أقرب من لبنان و نسيجها الإجتماعي أقرب إلى نسيج محافظتنا مما يجعل العيش فيها أكثر سلاسة و يسر

و لم نزل منذ وعينا على الدنيا و السفر يعد من طموحات أي شاب في قريتنا و لم يختلف هذا الأمر قبل الثورة أو بعدها و لكن قبل الثورة كان استقبال بعض دول الخليج للقادمين من سورية و الباحثين عن عمل ممكناً ثم أصبح في ظل الظروف الراهنة من حرب و دمار أشبه بالمستحيل

و حتى البلدان المجاورة بدأ الطريق إليها يكتسي ببعض الصعوبات تدريجياً

و بإغلاق المنافذ السهلة يوماً تلو آخر لتصبح الرحلة إلى بلد مجاور لنا مثل الأردن مثلاً تحتاج إلى قضاء سبعة أيام مسافراً تنام في العراء لتصل في النهاية إلى المخيم الذي أعد مسبقاً لاستقبالك

و لم يعد الأمر مقتصراً على من يخرج من سورية باتجاه الأردن و إنما تعداه أيضاً إلى كل شخص يحمل الجنسية السورية من أي مكان أتى فقد تصل إلى مطار الملكة علياء الدولي و تقضي به بعض ساعات ثم ترفض السلطات استقبالك و ترسلك في الرحلة التالية المتوجهة إلى البلد الذي قدمت منه قبل قليل.. توجهت إلى المسجد القريب من منزلنا الذي استأجرناه من فترة قريبة حتى أؤدي صلاة العيد و التي حرمنا منها فترة طويلة من الزمن بسبب إيداعنا في السجن و لم يلبث يوم العيد أن مضى سريعاً و ما ميز هذا العيد أنه عيد لوسائل التواصل الاجتماعي

فقد اقتصرت المعايدات في معظمها على الهاتف باستثناء بعض الأقارب الموجودين قريباً منا قمنا نحن بزيارتهم و قام من أسعفته الهمة بالحظور إلينا و معايدتنا

و يبدو أن وجود وسائل التواصل قد أضفى على الجميع طابع الكسل حتى غدا بعض الناس غير قادرٍ على معايدة جاره سوى بالهاتف و رغم أنني أتيت إلى هنا على أمل ملاقاة عائلتي بعد فراق طويل إلا أن ذلك لم يتحقق منه شيء حتى الآن

و بدأت أشعر أننا لا نفعل شيئاً هنا أكثر من تضييع الوقت

و حتى تصل عائلتي إلى الأردن و يسمح لها بالدخول كان لا بد من وجود واسطة تغض الطرف عن وضعها لكونها سورية بالدرجة الأولى

و لا تحمل إقامة في البلد الذي تقطن فيه و إنما تحمل زيارة لمدة معينة يتم تجديدها كل فترة

و بعد مراسلات و اتصالات أخبرني أقارب زوجتي أن إسماعيل عم زوجتي قد جاء إلى الأردن في وقت مضى فرفضت السلطات استقباله

فتوجه جد زوجتي أبو ممدوح إلى أحد معارفه سائلاً إياه أن يؤمن طريقاً لابنه حتى يدخل الأردن فأخبره الرجل أن عليه أن ينتظر و عندما يخبره بأن الطريق آمن الآن و بإمكانه الدخول دون وجود عقبات تعترض طريقه يأتي إسماعيل مرة أخرى.

وثق أبو ممدوح بكلام صديقه و بدأ ينتظر و بعد مضي فترة زمنية اتصل به صديقه ليعلمه بأن إبنه قادر على القدوم دون أن يعترضه أحد و فعلاً قدم إسماعيل و دخل الأردن دون عقبات اعترضته .

و بعد أن استقر لنا المقام في الأردن لم يعد شيء ينقصنا سوى قدوم ابني و زوجتي و حتى يكون الدخول مضمونا كان علينا الإستعانة بالواسطة ذاتها التي مكنت إسماعيل من الدخول بدأنا ننتظر بالرجل و لكن كان الوقت يمضي سريعاً دون حدوث شيء حتى بدأتُ أمَلُّ و أفكر بالعودة إلى سورية طالما أن وجودي هنا لا يقدم شيئاً و لا يؤخره، بالإضافة إلى جد زوجتي كان خالي أبو أيوب يملك نسبة جيدة من المعارف التي تتكفل له بالعقبات التي تعترضه في هذا البلد و مع وصوله أخيراً ازداد الأمل بأن يكون الطريق أكثر أمناً فبدأ يبحث و يبحث ثم تمكن من التواصل مع أحد المسؤولين في الدولة و هو صاحب رتبة كبيرة في الدولة و صديقٌ لخالي

فقال له الرجل توكل على الله الأمور محلولةٌ بإذن الله ثم حادثهُ مرةً أخرى حتى يستوثق من كلامه فقال كلمت خمس مدراء و كلهم وعدوني خيراً.

و بعد كل هذا الإستيثاق أصبحت المحاولة أمراً محتوماً حتى نستبين معها مستقبلنا في هذا المكان هل سنقضي هنا وقتاً أطول أم أن مياهنا المقدرة لنشربها هنا أوشكت على النفاد .

عندها كلم خالي والد زوجتي و طلب منه أن يحجز لزوجتي مقعداً في الطيارة القادمة إلى هذا البلد و في موعد حدده له بعد أيام قليلة قام عندها والد زوجتي بالحجز بعد عدة أيام على أمل نجاح محاولة خالي .

كان يُحظَر على السوريين الخروج من المخيم دون كفالة و إذا خرج أحدهم بكفالة فلا بد أن يكون حاملاً لهوية أمنية تصدر من الدائرة الأمنية التي تتبع للمحافظة التي يقيم بها الشخص، ولكن بما أننا خرجنا بشكل نظامي عن طريق زيارة رسمية و تجاوزنا الوقت المحدد للزيارة بإسبوع لنقضي حتى الآن أكثر من شهر بعيداً عن مخيم الأزرق، لذلك كان وجودنا خارج المخيم الآن مخالفا للقوانين و قد يترتب عليه قذفنا إذا عثُرت بنا إحدى الدوريات الكثيرة المنتشرة في كل مكان و التي تبحث عن السوريين بشكل خاص.

وإذا قدمت عائلتي في الموعد المحدد فلن أتمكن من الذهاب لاستقبالها لأني لا أحمل هوية أمنية و المسافة طويلة، فهي ستصل إلى مطار الملكة علياء الموجود في عمان في حين أني موجود في إربد التي تبعد أكثر من ساعتين عن عمان فلم يكن من المتاح لي الذهاب و كان علي أن أكتفي بانتظار الأخبار بسماح السلطات لهم بالدخول و مجيئهم إلي أو رفضهم ذلك و إعادتهم من حيث أتوا.

مضى الوقت سريعاً لنصل إلى اليوم الموعود و كان يوم سبت و لم أكن قادراً على الذهاب فتكفل خالي بذلك، و كان موعد وصول الطائرة في الثامنة و النصف صباحاً لذلك كان عليه التوجه و الذهاب باكراً إلى هناك كان الجو صيفاً و الليل قصيراً لذلك كانت تطول سهراتنا في معظم الأحيان حتى تدركنا صلاة الفجر و نحن لا نزال نتسامر .

مضى الليل سريعاً و توجهت إلى المسجد لأداء الصلاة و بعد أن خرجنا وجدت خالي فسألته متى تنوي الذهاب فقال سأرتدي ثيابي و أمضي الآن

و كنت قبل هذا أكلم زوجتي لأعرف إلى أي مرحلة وصلت

و لم يكن التخوف مقتصراً على عدم السماح بزوجتي للدخول و إنما كانت المشكلة مضاعفة لأنها تقيم في الإمارات من خلال تصريح زيارة و قد تجاوزت الوقت المسموح به و كانت السلطات بعد كل فترة تسوي وضعها بإجراءات روتينية.

بدا أن حكومة تلك الدولة باتت معتادة على تواجد هذه الحالات

و المشكلة الأكبر هي في حال خروجها من هذا البلد هل سيسمح لها بالعودة إليها أم أن هذه الزيارة ستكون آخر عهدها في هذا البلد و بعد مساءلات و محاولات تبين أنه بإمكانها العودة

و لكن عليها أن تقوم بتجديد زيارتها حتى تتمكن من المغادرة و العودة خلال الوقت الذي تحدده الزيارة قام والد زوجتي بفعل ذلك حتى يظمن عودة ابنته إليه في حال رفضت السلطات الأردنية إستقبالها و من خلال محادثتي معها أخبرتني أنها سألت الشرطي الموجود في المطار قبل أن تصعد الطائرة حتى تطمأن نفسها هل سيسمح لها بالعودة في حال رغبت أو اضطرت لذلك و قامت بإظهار زيارتها له فقال لا مشكلة تأتين مرحباً بك مرة أخرى .

بدأت تشرق الشمس و كان هناك فارق زمني بسيط بين الأردن و الإمارات صعدت زوجتي و ابني إلى الطائرة و بدأت أستسلم للنعاس لأني لم أنم حتى طلوع الفجر فبدأت أستسلم للنوم

و لا تزال الأفكار تسرح بي حول دخول زوجتي أو عدم السماح لها بالدخول.. تنحت الأفكار جانبا و أطبقت جفناي باحثاً عن قليل من الراحة و آملاً بأن أستيقظ لأجد كل شيء منتهياً كما أحب .

لم يكن خالي هو الوحيد الذي توجه لمساعدة زوجتي في الدخول و استقبالها لدى وصولها

و إنما قام أيضاً جميع أقاربها ممن يسكنون في عمان بالذهاب إلى المطار لاستقبالها في حال دخلت و لرؤيتها على أقل تقدير في حال لم تتمكن من الدخول.

لم أستمر بالنوم طويلاً كما هي عادتي و إنما بدأت رسائل الواتس تتوارد من أرقام أعرفها و أرقام لا أعرفها كل يسأل عن نتيجة المحاولة

بدأت أكلم زوجتي و التي وصلت منذ بعض الوقت و لكن إلى الآن لم يتسنَ لنا و لها معرفة نتيجة المحاولة.

لم يكن بإمكاني شيء أكثر من المراقبة و الإنتظار بدأ أقارب زوجتي في المطار يبحثون عن حل سريع يتداركون فيه الوضع الحالي

و بما إن الغريق يتعلق بقشة فقد بدا لهم أن يحاولوا محاولة عن خلال أحد الأشخاص لم أعرف مهمته أو عمله سوى أن أحدهم نصحهم به
فقاموا بإعطائه مبلغاً مالياً يبلغ ٥٠٠ دينار آملين أن يحل لهم المشكلة و لكن الرجل أصبح سبباً في مشكلة أخرى فقد مضى الوقت دون نتيجة و لم يفعل شيئاً سوى أنه أخذ النقود ثم ولى هارباً حتى بدأوا يشكون أنه قام بسرقتهم برضىً منهم
مضى الظهر و العصر دون نتيجة تذكر سوى مجرد الإنتظار قام خالي بالإتصال بصديقه و أصدقائه الذين طمأنوه سابقاً ليسألهم عن نتيجة جهودهم و لكن ما من أحد أجابة .
وفي ظل هذه الظروف بات من الممكن تجربة أي شخص كان مهما كان سيئاً المهم أن تخلص من الظرف الراهن الذي بات يشل حركتنا و تفكيرنا.. حاول الموجودون هناك الإتصال بكل شخص يمكن أن يشكل أملاً لنا في إنهاء هذه الأزمة و لكن دون فائدة .
في البيت الذي استأجرناه كان المؤجر يعمل في المخابرات الأردنية فقمت بالتواصل معه لأسأله إن كان قادراً على أن يفيدنا بشيء أم لا
و لكن جوابه كان ساذجاً إلى حد بعيد فقد طلب مني أن تعود زوجتي إلى الإمارات و تطبع إقامةً لبضعةِ أيام و عندها سيمكنها الدخول بسهولة .
لم أكن أرغب بالمجادلة معه أكثر فشكرت مجهوده و بدأت أنتظر حلاً آخر.
و بعد أن قام خالي بالتواصل مع صديقه أخبره الرجل أنه تواصل مع مدير المخابرات العامة و الذي قال له إن هذه المسألة من اختصاصنا و من الممنوع أن نسمح لها بالدخول ليسد كلامه جميع الأبواب في وجوهنا.. اقتربت الشمس من الغروب و بدأ الأقارب الذين جاؤوا متحمسين لرؤية زوجتي صباحاً يعودون من حيث أتوا و الخيبة تعتري وجوههم .
و مما جعل الخيبة تزداد و الشعور باليأس و الإحباط يتضاعف أنهم رفضوا حتى السماح لها بمجرد رؤية أقربائها عاد الجميع مع غياب الشمس باستثناء خالي و أبي عمر عم زوجتي الذين أعيتهم المحاولات .
و بعد أن دب الإياس إلى قلوبهم أيضاً قرر كل منهم العودة إلى بيته بعد يوم حافل قضاه في المطار دون أن يسفر سعيهم عن شيء و لا تزال زوجتي موجودة في المطار لا تعرف ماذا سيحل بها .
سألتها إن كان معها حالات مشابهة لها قد أذنوا لها بالدخول فأخبرتني أنهم أعادوا امرأة سورية منذ بضع الوقت إلى البلد الذي جاءت منه ، و لم يسمحوا لأحد بالدخول باستثناء إمرأة سورية متزوجة من أردني طلبوا منه إثباتات كثيرة فقام بجلبها لهم فأذنوا لها على مضض.
مضى الوقت و وصل خالي إلى بيته ليجدنا باستقباله لنسأله عن اليوم الحافل الذي عاشه و بعد أن وصل خالي أخبرتني زوجتي بأنهم طلبوا منها التوجه إلى الطائرة لتعود من حيث أتت بعد أن دفعوا لها فرق ثمن التذكرة.

يبدو أن الدنيا كلها ضاقت عن استقبالنا لم نعد نعرف أين سنتجه و أي أرض ستقلنا كنا نتجرع الإخوة العربية ليلا نهاراً في المدارس و الإمتحانات متشدقين بأن العرب إخوة تجمعهم لغة واحدة و تاريخ مشترك، و لكن يبدو أنه لا شيء من هذا يبدو صحيحاً و أنها مجرد ترهات أحمق جمعها في كتابه.. بدأ الإياس من الدول العربية يدب إلى قلوبنا بل بات يسيطر عليها بشكل كامل و لم نعد نرجو من الأعراب شيئاً و بدأت أنظارنا تتجه في كل لحظة إلى مغادرة هذه البلاد التي سيطر عليها الحمقى و التوجه إلى أبعد مكان ممكن .

لم تكن فكرة مغادرة أرض الوطن سورية بحثاً عن ظروف و مستقبل أفضل مجرد أمر طارئ ظهر مع بداية الثورة و جنون النظام ـ الذي كان يحرق الأرض بمن فيها غير آبهٍ بشيء فكل همه كان محصوراً في الحفاظ على قبضته الأمنية ـ

و إنما كانت فكرة الهجرة مترسخةً في جميع عقول أفراد قريتنا من أقراني و ممن هم دون سني أو أكبر مني و لم يكن سعيُ أحدنا لتحصيل مرتبةٍ علمية كبيرة أو شهادة جامعية في أغلب الأحيان أو حتى في كل الأحيان للبحث عن تحسين ظروف البلد الذي نعيش فيه و النهوض به ، و إنما إذا وصل أحدنا إلى الجامعة فجل اهتمامه سيكون محصوراً في الشروط التي تضعها الدولة التي سيتوجه إليها عند إنهاء دراسته الجامعية.

و لم تكن فكرة السفر محصورة بمن يرغب أو يفكر بمتابعة الدراسة و إنما حتى من يفشل أو يتكاسل عن متابعة الدراسة فسبب تكاسله و إهماله غالباً هو أن فكرة السفر قد بدأت تسيطر على ذهنه و لم يعد يجد للدراسة سبباً ما دام سيصل إلى المكان الذي يسعى أقرانه من خلال الدراسة الوصول إليه في حين سيصل هو دون كد أو تعب ليبدأ عيش المستقبل من الآن .

دول الخليج كانت قبلة الأحلام لمعظم أبناء قريتنا الذي يدرس يسعى للوصول إلى هناك و الذي عجز عن متابعة التعليم لظرف من الظروف يحلم بذلك أيضاً وصلت نسبة الإغتراب في محافظة درعا بشكل عام و في قريتنا بشكل خاص إلى حد كبير لدرجة أنه يكاد يخلو بيت من البيوت من مغترب أو اثنان كان السبب الوحيد هو البحث عن مستقبل أفضل.. بدأت الثورة السورية في ٢٠١١ و جن جنون النظام في محاولات القضاء عليها و لم يعد يوفر وسيلة يمكن استعمالها إلا و جربها عندها أصبح لدى أهل قريتنا و جميع السوريين بشكل عام سبب جديد للهجرة القديمة و هو الحفاظ على أرواحهم و أرواح أبنائهم

ليس الدافع الأساسي هو البحث عن مستقبل أفضل و إنما البحث عما يحافظ به المرء على حياته و أقرب مكان للجوء إليه هو دول الجوار لبنان تركيا الأردن إلا أن الأردن كانت الأشد جذبا لأبناء محافظة درعا لموقعها القريب منها و سهولة الوصول إليها لم تكن لبنان تشكل خياراً جيداً للتوجه إليها فقد كانت تعتبر عملياً تحت سيطرة النظام السوري لكون حزب الله اللبناني الذي يقاتل في سورية صاحب الكلمة العليا هناك و كان حاجز اللغة التركية يجعل تركيا خياراً أقل جذباً من الأردن

لذلك توجه الغالبية إلى الأردن قبل أن تبدأ الحواجز و العقبات تظهر في طريقهم و كلما وضعت السلطات الأردنية عقبة أمام اللاجئين السوريين الذين يحاولون الوصول إلى الأردن ابتكر السوريون طريقاً جديداً للوصول إلى هناك .

رغم التعب و الإرهاق الذي يعانيه السوريون في الوصول إلى وجهتهم "الأردن" إلا أنه لا شيء جديد هناك و لا ميزة جديدة في المكان الذي وصلوا إليه الميزة الوحيدة التي تجعل الكثيرين يأتون إلى هنا هو أن إحتمال الموت بالقذائف و البراميل معدوم هنا ما دامت طائرات النظام و قذائفه لا تستطيع إختراق الأراضي الأردنية إلا أن خيار الهجرة بهدف حفظ للنفس غالباً ما يكون مؤقتاً ثم يتحول بعد فترة وجيزة إلى البحث عن مستقبل أفضل و هذا ما جبل عليه الإنسان إذا ما وجد الأمان فلا شك أنه سيبحث عن مستقبل أفضل و لن يعتبرالرجل وجوده في مكان آمنٍ إنجازاً ما لم يتابع البحث عن ظروف معيشية أفضل .

رغم أن معظم أبناء قريتنا كانوا مغتربين قبل الثورة إلا أن حظوظ السوري في أيجاد عمل كانت أقل من حظوظ غيره و مع بدأ الثورة زادت التشديدات و أصبحت فرصة السوري شبه معدومة بالحصول على تذكرة زيارة إلى دولة من دول الخليج فضلاً عن أن يجد عملاً و لم ينحصر التضييق على دول الخليج فقط و إنما سار الجميع على ذات المنوال تقريباً الحكومة الأردنية تمنع اللاجئين من العمل الحكومات الخليجية ترفض استقبال اللاجئين السوريين فضلاً عن أن تمنح أحدهم تذكرة زيارة أو عمل

واقع أسود أحاط بالسوريين من جميع الجهات حتى بدأ بعضهم يفكرة بالهجرة بعيداً بعيداً إلى أوروبا لم تكن فكرة السفر إلى أوروبا واردة قبل الثورة بالنسبة لكثير من الناس و لعلي لم أسمع أحداً كان يفكر بالسفر إلى هناك باستثناء صديق لي صرح بأنه يفكر بالسفر إلى هناك بحثاً عن متابعة دراسته لكن فكرته لم تنجح .

و كما وجد طريق غير نظامي للوصول إلى الأردن وجد كذلك طريق غير رسمي للوصول إلى أوروبا و لكنه محفوفٌ بالمخاطر في كل مرحلة من مراحله.

لم يكن يخطر في بالي أن أفكر بالسفر إلى هناك و كنت أجد الفكرة جدّ مستحيلة فالإمكانات بالنسبة لي شبه معدومة فالرحلة تحتاج إلى مبلغٍ مادي كبير بالإضافة إلى بعض الإجراءات الروتينية التي غالباً ما تشكل لي عقبات شبه مستحيلة .

عاد خالي من المطار دون أن تفلح جميع الجهود المبذولة لإدخال زوجتي و بدأ البحث عن حل جديد " ربما كان إرسالك إلى الإمارات أسهل من إدخال زوجتك إلى هنا " قال خالي هذا الكلام بعد أن أيس من فكرة دخول زوجتي إلى هنا اللاجئون غير محصورون بفئة عمرية معينة فهناك الأطفال و الشباب و الكهول و إذا كان باب المجازفة بالنفس مفتوحاً أو وارداً بالنسبة للشباب فهو غير وارد بالنسبة لبعض الرجال ممن يقوم على أسرةٍ تتكون من خمسة أشخاص و أكثر

كأبي رضوان و لكنه كغيره يسعى للبحث عن مستقبل أفضل له بالدرجة الثانية و لأولاده بالدرجة الأولى .
الطريق الأكثر أماناً هو الإنطلاق مع الطائرة التي تقلع من مطار عمان وتحط في أحد المطارات الأوروبية و الطريق الوحيد لهذه العملية هو طريق السفارة بدأ أبو رضوان يبحث عن حل يبعده عن مشاكل العالم العربي التي بدأ يظهر الإياس من إمكانية حلها و كان له قريب في إحدى الدول الأوروبية فقام بالتواصل معه فطلب منه أن يزوده بالإثباتات الشخصية من جواز سفر و غيره بالنسبة له و لأولاده الطريق يبدو سهلاً و مغرياً و لكن المشكلة كانت في المدة التي يجب عليه انتظارها فقد سألته عن المدة، فقال : " ربما تستغرق عاماً بأكمله ".. وإن كانت الطريقة سهلة إلا أن الإنتظار كل هذه الفترة من أجل أمر قد لا يتحقق في النهاية يبدو مضيعة للوقت .
لم يعد لنا الآن سوى الإنتظار و التفكير بحل ينأى بنا عن الدول العربية و تعقيدات الدخول إليها و يوصلنا إلى مكان يسهل الدخول إليه كتركيا التي تستقبلنا بجواز سفر منتهي الصلاحية أو ربما يصلح لبعض الوقت.
و في إحدى السهرات التي كنا نقضيها في بيت خالي المجاور لبيتنا بدأ أحد الأشخاص يراسلني عن طريق الفيسبوك لم أعرفه أولاً فقد كان الإسم إبراهيم إبراهيم و مكتوباً باللغة الإنجليزية
بدأت أحاول تذكر معارفي ممن اسمه إبراهيم و لكنه ما لبث أن عرفني بنفسه بعد أن تكلم معي بأسلوب يوحي بأنه يعرفني جيداً .
إنه إبراهيم حمد صديقي أيام المدرسة الثانوية بدأ يهنئني على خروجي من السجن و بدأت أسأله عن حاله و مآله
فأجابني أنه قد وصل إلى ألمانيا منذ فترة قريبة بدأت أشعر بالغيرة منه لقد وصل إبراهيم إلى المكان الذي أفكر بالوصول إليه الآن و أكاد أجد ذلك مستحيلاً .
لم تكن فرصة مراسلة إبراهيم محصورة بالسؤال عن أحوال بعضنا البعض و إنما أردت استغلال الفرصة و استقصاء كل المعلومات التي حضي بها خلال طريقه في الوصول إلى أوروبا و لكن المحادثة لم تطل كثيراً و إنما سألنا بعضنا أن نبقى على تواصل مستمر .
عدت إلى البيت حائراً في كيفية الخروج من الأردن و الوصول إلى تركيا على أقل تقدير فالأمر يبدو معقداً نوعاً ما.
فقد خرجنا من مخيم الأزرق بإجازة نظامية و لكن مدة الإجازة كانت محددة بأسبوع واحد و ها هو الوقت يفيض على شهرين و لا شك أن عودتنا الآن إلى الأزرق ستتسبب لنا بالكثير من الإحراج و قد يعيدوننا إلى سورية .
كان لا بد من حسم الأمر بالنسبة لي فزوجتي لم تتمكن من الدخول و وجودي هنا عبارة عن تضييع وقت لا غير .

بدأ أخي محمد يسألني عما أنوي عمله فأخبرته أني عازم على الذهاب إلى تركيا و لكن المشكلة في الوصول إلى هناك تكمن في طريقة الدخول فليس معي إلا جواز سفر و هو منته الصلاحية منذ أكثر من عامين و ربما يكون من المستحيل إعادة تجديده لكون اسمي لا شك ضمن الأسماء المطلوبة أمنياً هذا إذا افترضت أن إدارة مخيم الأزرق ستعطيني إذناً للسفر

تمهل محمد قليلاً ثم قال لكني أفكر بأبعد من ذلك فأجبته مستفسراً أين تفكر فأجابني أفكر في أوروبا .

يبدو أن فكرة السفر إلى أوروبا بدأت تطرق أذهان الجميع منذ وقت قريب راسلني إبراهيم من أوروبا و الآن أخي محمد في قطر يخبرني بأن الذهاب إلى تركيا لا يرضي طموحه و إنما يفكر في الذهاب إلى أوروبا

أجبته متسائلاً لكن الوصول إلى هناك يحتاج إلى مبلغٍ نقدي كبير هذا إذا افترضت أنني سأسافر وحدي و لكن لا شك أن أحمد سيرافقني و هذا ما سيجعل المبلغ مضاعفاً، فأجابني "المبلغ المالي ليس مشكلة إذا كنت مستعداً للمخاطرة ".

جال في خاطري مشاهد القوارب التي تجتاز السواحل الليبية محاولة الوصول إلى أوروبا و يكاد الناس الموجودون على ظهرها يموتون اختناقاً لشدة الزحام قبل أن يلتهمهم البحر و يموتوا غرقاً إذا كان حظهم سيئاً أو يصلوا إلى أوروبا منهكين في أحسن الأحوال .

شعرت بأن الوصول إلى تلك المرحلة شبه مستحيل لذلك تناسيت الفكرة و بدأت أسأل عن كيفية تجديد جواز السفر إن كان هناك إمكانية لذلك .

و لا بد أن الأمر لن يكون مستحيلاً ما دام التجديد سيتم عبر الرشوة

ففي أحسن الأحوال في سورية كان يمكن للرشوة أن تفتح لك ما شئت من أبواب التجاوزات و المخالفات المحرمة على غيرك المسموحة لك .

سألت بعض أصدقائي عن الطريقة فبدأت المبالغ المطلوبة لقاء إنهاء العملية تزداد و تظهر الشروط التعجيزية .

بعد بحث قليل وصلت إلى قريبنا أبي يحيى و الذي أخبرني بأن ذلك ممكن لكن مقابل مبلغ ٦٠٠ دينار أردني أو أكثر بقليل و علي أن أدفع المبلغ قبل أن أحصل على شيء و لم تكن المشكلة هنا و إنما المشكلة أن الرجل الذي يقوم بهذا العمل قد توجه الآن إلى سورية و علي انتظاره حتى يعود ثم و عندما يسافر مرة أخرى حاملاً معه جوازات السفر التي تحتاج إلى تجديد و من بينها جواز سفري يقوم بتجديده هناك.. بدا أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً لذلك كان لا بد من البحث عن بديل

اتصل أخي محمد بي مرة أخرى ليسألني " ماذا فعلت"

يبدو أنه كان مستعجلاً أكثر مني فأخبرته بالمشكلة

فقال لي أن لديه أحد الأصدقاء قد قام بتجديد جواز سفره لمدة أربع سنوات و قد دفع مقابل هذه الخدمة ٥٠٠ دولار فقط

بدا أن المبلغ أيسر من المبلغ السابق و لكن المشكلة أن التجديد سيتم في تركيا لذا لا بد من إرسال جواز السفر إلى هناك حتى تتم العملية بنجاح
فألح علي محمد بالبحث عن طريقة لإرسالها لذلك الشخص و سيتكفل هو بإتمام العمل هناك في تركيا
أغلق محمد الهاتف سريعاً بعد أن طلب مني الإسراع في إرسال جواز سفري إلى عنوان الرجل في تركيا جاعلاً أيامي أكثر حيرة و اظطراباً لا أعرف إلى أي مكان سأتجه و لا إلى أي أرض سأصير إليها غير هذه الأرض، و لكن الحيرة التي كنت أعيش فيها لم تكن تزيدني إلا بغضاً لهذا المكان و محاولة للتخلص منه بأكبر سرعة و لا شك أن العودة إلى سورية أفضل بكثير من البقاء هنا بالنسبة إلي لذلك كان علي أن أمضي في فكرة تجديد جواز السفر و محاولة السفر إلى تركيا و لتكن النتيجة ما كانت.

بعد أن طلب مني أخي محمد أن أحاول تجديد جواز السفر بأقصى سرعة بدأت البحث و لكن بحثي لم يؤدِ إلى نتيجة تذكر فأخبرت محمد بما حصل معي فأخبرني عن صديق له في تركيا قادرٌ على أداء هذه المهمة كل ما علي هو أن أرسل جواز السفر إليه
فبدأت أحاول البحث عن طريقةٍ إرسل بها الجواز
الطريقة كانت سهلة عن طريق الدي اتش ال أو ما شابهه من المكاتب التي تعنى بهذا النوع من البريد المكتب الآخر كان يقبل بمبلغ ٣٠ دينار مقابل إرسال الطرد
أما الدي اتش ال فقد طلب ضعف المبلغ مقابل ذات الخدمة و الفرق بينهما ليس سوى يوم واحد فمع الدي اتش ال سيستغرق الطرد ثلاثة أيام حتى يصل في حين سيستغرق مع المكتب الآخر مدة أربعة أيام و لكن التوجس و التخوف كان مسيطراً علينا بالإضافة إلى أنني لم أجد فرعاً للمكتب الآخر قريباً منا لذلك حاولت البحث عن مكتب الدي اتش ال
و عثرت عليه أخيراً
ثم مضيت إليه في اليوم التالي معطياً جواز السفر لهم و مستعملاً ذات الجواز في تعبئة البيانات كإثبات شخصي فلم أكن أملك غيره .
لم يعد لدي الآن سوى الإنتظار حتى يعود جواز السفر إلي ثم أتابع السعي في الوصول إلى تركيا.
مع ازدياد دخول السوريين إلى هذا البلد ازدادت تعقيدات الحكومة و إجراءاتها في محاولة منها لمنع السوريين من الخروج من المخيم
و لكن كل جهودهم كانت تضعف أمام عزيمة السوريين في مغادرة المخيم
قيد جديد لتقييد الحركة يضاف الآن فإذا أردت أن تذهب إلى مدينة بعيدة فعليك أن تكون حاملاً لهوية أمنية و قد لا يتوقف الأمر عند الذهاب إلى مدينة و لكن ربما يكون حظك تعيساً و يصادفك الحاجز في مكان قريب من بيتك و إذا لم تكن حاملاً لهوية ربما تعود إلى سورية أو إلى المخيم بأفضل الأحوال.

قبل أن نخرج من المخيم حاولنا جاهدين أن نخرج بطريقة نظامية تريحنا من عناء التفكير بالتنقل من مكان إلى آخر لاحقاً و تجعلنا في مأمن من مزاجية الحكومة التي لا نعرف لها حلاً ، لكن كل محاولاتنا فشلت و خرجنا أخيراً بطريقة ممزوجة بين النظام و المخالفة خرجنا بإجازة نظامية مدتها أسبوع واحد و ها هو الوقت يزيد على الشهرين دون أن نعود.

كان من نعمة الله علينا أن كثيراً من معارفنا و أصدقائنا سبقونا إلى هذا المكان و قد تبحروا في المعرفة بمدخلات الأمور و مخرجاتها و كنت بحكم الجاهل فيهم لذلك كان علي أن أسأل من سبقني عن حل لمشكلة الهويات و لم يطل بحثي كثيراً فسرعان ما أجابني أبو عمر إلى طلبي مطمئناً إياي بأنه قادر على جلب هذه الهويات و لكنه بحاجة لبعض الوقت بالإضافة إلى ما يحل به المشاكل المستعصية بشكل دائم ألا و هو النقود.. بدأ أبو عمر يبحث بجد و يهاتفني في كل مرة ليخبرني ما انتهى إليه بحثه ، و أخيراً بعد فترة لم تطل كثيراً أرسل لي أبو عمر رقماً هاتفياً طالبا مني الإتصال به و ملاقاته لأنه يحمل الهويات الأمنية .. اتصلت به فعلاً فأخبرني بأنه سيأتي يوم غد إلى مدينة إربد و علي أن ألاقيه في محطة الإنطلاق حاملاً معي المبلغ المالي

لم أعرف عن الشخص شيئاً سوى رقم هاتفه و لكنه كان كافياً للوصول إليه وصلت إلى المحطة و بدأت الإنتظار و علامات الخوف مما أفعله بادية على وجهي.

تأخر قليلاً ثم اتصل بي ليخبرني بمكان سيارته بحثت عنها جيداً حتى كدت أعجز

إلى أن وجدتها أخيراً خلف سيارات أحد المطاعم التي كانت تقوم بتفريغ حمولتها من الكولا للمطعم صعدت معه في السيارات فرجع بالسيارة قليلاً إلى الوراء ثم انطلق مسرعاً و بدأ يكلمني

سألني أولاً عن المبلغ المالي فأريته أياه فأعطاني الهويات و أعطيته المبلغ و بدأ يلقي علي بالتعليمات التي تظمن سلامته قائلاً " أنت لا تعرفني و أنا لا أعرفك و قم بتمزيق الإجازة التي حصلت عليها عند الخروج من مخيم الأزرق".

أجبته بهز رأسي مبدياً موافقتي على كل شيء يقوله ثم و بعد مسافة قليلة لا تجاوز المائتي متر طلب مني النزول و المضي في طريقي فنزلت بسرعة.

وأخيراً بدأت أشعر بشيء من الأمان فقد كانت مشكلة الهويات تلاحقنا عند الخروج إلى أي مكان حتى و لو كان قريباً .

انتهت مرحلة الخوف من الحواجز و بدأت مرحلة البحث عن طريق للسفر إلى تركيا

لم يطل الوقت كثيراً حتى عاود إبراهيم الإتصال بي و وجدتها فرصة مناسبة لاستخلاص المعلومات منه عن طريق السفر فبدأ يحدثني عن معاناته في هذه الرحلة

فقال :" بعد أن ساءت الأوضاع كثيراً في ليبيا إلى درجة لم تعد تحتمل بدأت فكرة السفر إلى أوروبا تطرق ذهني بشدة و قد كان وضعي في ليبيا يدفعني إلى التمهل كثيراً فقد بدأت أوضاعي تتحسن كثيراً و لكني عزمت في النهاية على المضي في الطريق الذي مضى به كثيرون قبلي . بدأت أعمل على تخليص نفسي من الإرتباطات الكثيرة من عمل و غيره و انتهيت بعد فترة قريبة من

كل ما كان يقيدني ثم جمعت عائلتي الصغيرة زوجتي و ابني و اصطحبنا معنا أخي و مضينا إلى المدينة التي سننطلق منها باتجاه اوروبا و بعد الأخذ و الرد مع المهرب اتفقنا على المضي معه .
و عندما حان وقت السفر بدأنا نصعد بالسفينة و لكن القارب لم يكن يصح تسميته سفينة بحال من الأحوال بدأنا نفترش أرض القارب كل منا يحاول أن يحصل على مكان يريحه في حال ازدياد عد الركاب و لكن الأعداد كانت تتزايد و تتزايد حتى بدأنا نجد من الصعوبة على مكان لشخص واحد و لكن ليس لنا الآن إلا الإستسلام
فها هو القارب بدأ يشق عباب البحر منطلقاً إلى وجهة مجهولة لا ندري إن كنا سندركها أو لا مضى القارب في سيره ساعاتٍ و ساعات دون أن نعرف أين وصلنا لم تكن المشكلة بالعدد بقدر ما كانت المشكلة في الأطفال الموجودين معنا
فلم تمضِ سوى ١٢ ساعة حتى بدأنا نفقد جميع مقومات الحياة من ماء و غذاء و لم يكن بالإمكان التخزين لهذه الرحلة القصيرة حسبما نعتقد و لأن المكان لا يكاد يتسع لنا نحن حتى يتسع لأطعمتنا .
مضينا يوم السبت ليلاً في الساعة الثانية قبل أن تبدأ أشعة الشمس تلهب أجسادنا و بدأ الأطفال يتباكون و بعد ما يقارب ال ٣٦ ساعة انعدمت تقريباً كل مقومات الحياة و بدأنا ننتظر الموت أو رحمةً إلهيةً من مكان لا ندركه
و فعلاً بعد لحظات من اليأس أجلنا النظر في كل مكان غير عارفين أين الشرق و الغرب لتقدم بارجة حربية كبيرة باتجاهنا تطوي الأمواج عن يمينها و يسارها كان مشهد البارجة يعيد بث الحياة في عروقنا شيئاً فشيئاً و نحن نرمقها بنظراتنا في كل لحظة
و أنفسنا تحدثنا لعله يكون سرابا لعل هذا حلما ليس حقيقة
ثم مضت الدقائق بسرعة لتصطف البارجة في مكان إلى جوارنا محاولة عدم إغراقنا بما تكسحه من أمواج
ثم اصطففنا بالقرب من البارجة لنحاول الصعود إليها و بدأ القارب يظطرب من حركة الموجودين الذين يسعى جميعهم الوصول إلى بر الأمان المتمثل بالبارجة الواقفة أمامنا. لكني كنت خائفاً على ابنتي أكثر من خوفي على الموجودين في القارب
لذلك اندفعت مسرعاً باتجاه السفينة الحقيقية القادمة إلينا هارباً من السفينة الموهومة التي كنا نستقلها وداعياً في طريقي على من افترش القارب من الشباب
حتى وصلت إلى المكان و صعدت السفينة أخيراً
لم تطل رحلتنا كثيراً ٣٦ ساعة و لكنها لو تأخرت قليلاً كانت كافية لازهاق أرواح جميع من في المركب
لم تنته الرحلة بوصولنا إلى البارجة الحربية فقد استمرت في السير يوماً آخر قبل أن نستقل بارجةً أخرى كانت تتوجه إلى إيطاليا
لأن الباخرة التي صعدنا بها أولاً لم تكن متوجهة إلى أيطاليا .

لم تكن ألمانيا هي البلد الذي أسعى للوصول إليه و إنما كنت أحاول الوصول إلى الدنمارك و لكن سعيي لم يفلح في النهاية فقد أمسكتنا الشرطة في أحد القطارات عندما كنا نحاول عبور ألمانيا إلى الدنمارك
عزمت على المحاولة مرة أخرى و لكني وجدت أن النتيجة في الغالب ستكون ذاتها فقررت الإستسلام للأمر الواقع و الرضا بالبقاء في ألمانيا".
حديث إبراهيم عن خطر الرحلة كان أمراً اعتياديا فلا شك أن الصعود في البحر بمركب يكاد يضيق بركابه لا شك أنها مغامرةٌ مجنونة هذا إذا توقفت عند حدود المغامرة و لم تحصد أرواح من في المركب غرقاً.. أيا يكن فأنا لا أفكر في الذهاب الى اوروبا الآن فالوصول إلى هناك في هذه المرحلة أشبه بالمستحيل و ليس لي التفكير الآن سوى بالوصول إلى تركيا .
رغم أننا حصلنا على الهويات الأمنية و لكن التعقيدات الأمنية لا تنتهي فعلينا أن نكون حذرين إذا اردنا المغادرة عن طريق المطار فقد تعرقل السلطات سفرنا و يذهب ثمن التذكرة أدراج الرياح لذلك حاولت أن أتصل بكل رقم حكومي تكمنت من الوصول إليه لأعرف إن كانوا سيسمحون لي بالمغادرة جواً أم سيتابعون في وضع حواجزهم الروتينية السخيفة .
لكن كل الإتصالات لم تغنِ شيئاً فكل يرشدني إلى آخر و لا أحد يحمل الخبر اليقين
بدأت أسأل أصدقائنا عن طريقة المغادرة من المطار
فقالوا لي "هذا أمر ممكن لكن عليك أن تحظر شخصاً أردنيا يكفلك عن طريق وضع هويته في مخيم الأزرق ثم يقوم بإيصالك إلى المطار و يأخذ من المطار ورقة تثبت أنك غادرت البلد يسترجع بها إثباتاته الشخصية التي وضعها كرهن إلى حين مغادرتك البلد".
بدا الأمر ممكناً و الشخص الأردني الوحيد الذي نعرفه هو ماجد الذي قام بتأجيرنا منزله و أعتقد أنه لن يمانع فقد أقرضته بعض المال عندما طلب مني ذلك
تحدثت معه عن طريق الهاتف إلا أن الهاتف لم يكن كافياً فكان علي أن أتكلم معه وجها لوجه حتى أوضح له الصورة بشكل كامل
جاء ماجد بعد وقت قليل ليزورنا فأخبرته بالقصة و بما أريده منه فحاول التملص أولاً طالباً مني طلبه الساذج " دع زوجتك تضع إقامة لمدة عشرة أيام فقط و ستدخل عندها بسرعة ".
لم يكن من المناسب الإستهزاء برأيه و يبدو أنه من الصعب توضيح الصورة له فقلت له انس أمر الإقامة الآن أنا أريد السفر إلى تركيا هل تذهب معي لتكفلنا حتى نخرج من هنا ثم تعود إلى المخيم لاستعادة أوراقك .. تلكأ في الإجابة قليلاً لكنه أبدى موافقته في النهاية و أخيراً عثرنا على رجل يكفلنا حتى نخرج من الأردن كل ما علينا الآن هو انتظار جواز السفر حتى يأتي ثم نمضي في إجراءات السفر، وبعد أن عرف ماجد أننا حصلنا على الهويات الأمنية حاول تنبيهنا قائلاً " ربما تكون مزورة انتبه".. أجبته أنها ليست مزورة فقد أخبرني أبو عمر أنه تم فحصها و هي مضمونة مائة بالمائة ولكن ماجد حاول التذاكي الزائد فقال أعطني أياها سأقوم بفحصها لك فناولته الهوية فبدأ يتكلم مع أحد

زملائه و الذي يعمل في المخابرات أيضاً ليسأله عن مدى صحة الورقة الرسمية الجديدة التي بتنا نحملها فبدأ بإعطائه رقم الهوية حتى إذا انتهى من تلقينه أخبره الرجل بالإسم الذي ظهر أمامه على شاشة الحاسب و هو ذات الإسم الموجود على الهوية أي اسمي
تفاجأ أمجد و قال :" اممم جيد يبدو أنها نظامية و لم يتم خداعك".
فشكرته على حرصه و أخبرته أن صديقنا أخبرنا بأن الورقة نظامية و قد قام بفحصها قبل هذه المرة
مضت عدة أيام على إرسال جواز السفر باتجاه تركيا و لم أعرف ماذا حل به فسألت أخي محمد هل وصل الطرد إلى الرجل في تركيا فأخبرني بأنه قد وصل و لكن التجديد يحتاج إلى مدة خمسة عشر يوماً، أيا تكن مدة الإنتظار فبجميع الحالات أنا لا أفعل شيئاً و الانتظار الذي سينتج عنه شيء جديد أفضل من الإنتظار دون نتيجة لا نعرف حتى الآن إن كانت فكرتنا في الدخول إلى الأراضي التركية عن طريق الخطوط الجوية الأردنية أمراً ممكناً أم لا و لكن لا يسعنا إلا المحاولة .

بينَ السّفَر والتّهريب

مضى على إرسال الطرد الحامل لجواز السفر عدة أيام و ها نحن بدأنا بانتظار عودته فقد أخبرني أخي محمد أن التجديد قد تم و سيرسل الرجل الجواز بعد بضعة أيام.

كانت المشكلة محصورة فيّ فقط فقد كان أبي حاملاً لجواز سفر مدة صلاحيته طويلة نوعاً ما و أخي أحمد يحمل أيضا جواز سفر ساري الصلاحية .

بعد بضعة أيام وصل جواز السفر و اتفقنا مع جارنا ماجد أن يذهب معنا ككفيل لنا فوافق على مضض .

كل ما نحتاجه الآن هو أن نقوم بحجز تذاكر السفر و لكن علينا سؤال مكتب السفريات أولاً لنقطع الشك باليقين و لنصبح على ثقة تامة بأنه يمكننا مغادرة هذه البلاد بشكل رسمي .

مضيت إلى مكتب السفريات لأسأله عن ذلك فأخبرته بمشكلتي و أنني خارجٌ من مخيم الأزرق و أريد أن أسافر و لا أعرف إن كانوا سيسمحون لي بالمغادرة و لا أريد أن أتورط بشراء التذاكر التي قد تذهب في النهاية هباءً إذا ما رفضت إدارة المخيم منحي الإذن بالسفر .

فأجابني بأنه يمكنك أن تقتطع تذكرة وهمية و إذا ما سمحوا لك بالسفر لا يتوجب عليك سوى ثمن التذكرة لتأكد الحجز

طمأنني كلامه و سألته أن يقتطع لي ٣ تذاكر ما دامت التذاكر وهمية و بعد أن أصبحنا على مقربة من السفر طلبت من جارنا ماجد الذي سيكفلنا بأن يستعد للذهاب معنا في أقرب وقت كان الشيء الأهم الذي يجب علينا إنهاؤه هو إيصال جدتي إلى أحد بيوت أقاربها فلن تكون قادرة على التحرك وحدها و قد يتسببون لنا في المخيم ببعض الإعاقات فلا نستطيع التصرف حينها لذلك كان علينا إيصالها قبل أن ننطلق

قمت أنا و أخي أحمد بإعادتها من حيث جاءت إلينا منذ فترة قريبة من بيت أبي أحمد كان اليأس واضحاً في كلمات جدتي التي طلبت مني مراتٍ و مراتٍ أن أتمهل

و لكني لم أكن لألقي السمعو أنا جالس في الأردن لا أستطيع فعل شيء .

ودعتنا جدتي بعد أن قامت كعادتها بمساعدتنا بما استطاعت من مبالغ نقدية كانت تحملها صعدت في السيارة أنا و أخي أحمد و بدأنا نفكر في الوصول إلى تركيا و شعرنا بالندم لأننا لم نغير وجهتنا قبل أن نصل إلى هنا فقد سألنا المهرب قبل أن ننطلق إلى الأردن عن إمكانية السفر إلى تركيا فأخبرنا أن الرحلة مشابهة لرحلة الأردن تقريباً و لا فرق في التكلفة بين الرحلتين سوى عشرة ألاف ليرة

جال في أذهاننا أنه ربما كان السفر إلى تركيا عن طريق سورية أسهل من الإنطلاق من هذا المكان المليء بالتعقيدات فأجابني أحمد بعد أن أخبرته بالخاطرة بأنه ربما يكون هذا الأمر سابقاً أما الآن فلا شك أن الرحلة إلى تركيا أشبه بالموت المحقق
خصوصاً مع ضربات التحالف التي لا تكاد تغادر سماء الشمال السوري
نعم لقد كان أحمد محقا فنحن و إن ابتعدنا عن الحرب في سورية إلا أن آثارها تلاحقنا هنا بشكل جلي
فقد عرض ماجد بيته للبيع فجاء أحد الزبائن ليشتريه و كان ضابطا أيضاً و عندما جلس معنا بدأ يتكلم عن داعش و يحاول أن يبرر عمل بلاده في مهاجمتهم
لم تكن المشكلة محصورة في تبريره المشكلة أننا بدأنا نشعر من نبرته أنه يصنفنا جميعاً في صنف الدواعش الذين لا يراهم إلا برابرة لا علاقة لهم بالدين .
مهما كان موقفهم تجاهنا لم يعد يهمنا كثيراً فنحن الآن على وشك مغادرة هذه البلاد إلى غير رجعة قمنا بإيصال جدتي و عدنا إلى البيت بانتظار يوم غد و الذي سننطلق فيه إلى المكان الذي دخلنا منه إلى الأردن .
رغم أن ماجد أبدى موافقته إلا أنه كان يحاول عرقلة العمل بأساليب غريبة فمرة يسألني إن كنت متأكداً و مرة أخرى يطلب مني اكتراء سيارة تقوم بإيصالنا إلى المخيم حتى لا نتأخر
و لم أكن لألقي له السمع و إنما أخبرته بأننا نريد منك الذهاب معنا هل ستذهب أم لا فأجاب بالموافقة نمنا تلك الليلة آملين أن تكون آخر ليلة نقضيها في الأردن.
لم نقم بإفراغ البيت من محتوياته و إنما عزمنا على العودة إلى البيت و إفراغه بعد سماح إدارة المخيم لنا بالسفر
انطلقنا في صباح يوم الأربعاء ٢٠١٤/٩/٢٤ أنا و أبي و أخي أحمد بصحبة جارنا ماجد عائدين باتجاه المخيم على أمل أن نغادر هذا البلد أخيراً بعد طول عناء فيه
كان ماجد يعمل في المخابرات و كان علينا استقلال سيارة أجرة تصل بنا إلى محطة الإنطلاق و بعد أن صعدنا في السيارة بدأ ماجد يحاول التبسط في الحديث مع سائق السيارة و الحديث الذي بات يطربه هو الحديث عن إنجازات الحكومة الأردنية في مكافحة الدواعش
فقال :" القت الحكومة منذ بضعة أيام القبض على عدد كبير منهم و كان أحدهم يحاول تصميم قنبلة انفجرت به في النهاية".
يبدو أن الشعب السوري هنا بدأ يصنف كدواعش فنحن لا نعرف مدى صحة هذه القصص و يبدو أنه من السهل الآن على الحكومة القبض على أي شخص بتهمة أنه ينتمي إلى داعش و لا شك أنه سيعترف لهم إذا أحبوا بما يريدون .
لم نضطر للبقاء طويلاً في السيارة ربع ساعة تقريباً كانت كافية لإيصالنا إلى محطة الإنطلاق و بعد أن نزلنا من السيارة مضينا مسرعين باتجاه الحافلة المتوجهة نحو مخيم الأزرق صعدنا بها جميعاً و بدأنا ننتظر انطلاق السائق بنا

و بعد دقائق مضت السيارة باتجاه مخيم الأزرق أخيراً لم أكن أشعر عندما خرجت منه أن المسافة بعيدة إلى هذه الدرجة فقد مضت ساعة و أكثر من ساعة و ها نحن ندخل في الساعة الثانية و لم نصل بعد

و بعد أن دخلنا في خضم الساعة الثانية من الرحلة توقفت الحافلة بدا السبب مجهولاً لنا لبضع لحظات ثم اكتشفنا جلية الأمر بصعود أحد الضباط إلى الحافلة ليسأل عن هويات الأشخاص

كنا نحمل الهويات فلم يكن هناك داع للقلق و لكن على الرغم من ذلك كنا مرتبكين بعض الشيء لأنها أول مرة نبرز فيها هذه الهويات الأمنية قبل أن يصل إلينا قام بإنزال أحد الشباب طالباً منه التوجه إلى أمام السيارة الموجودة بالقرب من الحافلة .

امتثل الشاب لأمر الشرطي بعد أن جادله مجادلة بسيطة لم تغن شيئاً ثم تابع في تفحص الهويات إلى أن وصل إلينا أخيراً فتمايز الهويات ثم تمايز وجوهنا ثم قام بإعادتها لنا دون أن يتكلم بكلمة .

تركت الحافلة الشاب الذي نزل منها و مضت في طريقها تتابع السير إلى وجهتها وصلنا قريباً من مخيم الأزرق و بما أننا على معرفة به فلا داعي أن ندخل من الباب الرئيسي بل سندخل من أقرب مكان إلى المركز الأمني الذي نقصده اليوم .

نزلنا من الحافلة فعلاً و دخلنا ضمن الطريق الترابي و لم نجاوز مسافة مائة متر حتى قدمت إلينا سيارة شرطة على ظهرها مذياع يطلب منا التوقف فتوقفنا قليلاً إلى أن جاءنا ثم سألنا من أنتم فقمنا بإظهار هويات مخيم الأزرق له و أخبرناه أننا كنا خارج المخيم في إجازة و نحن قادمون إلى هنا بقصد السفر إلى تركيا

إلا أن رده كان سيئاً جداً تحدث بنبرة يملؤها الإستعلاء و الكبر قائلاً هل معك فيزا حتى تدخل إلى تركيا فأجبته بأننا ندخل إلى تركيا دون فيزا لكنه لم يصغِ إلي و إنما بدأ التكلم مع الشرطي الآخر في المركز الأمني قائلاً له :" لدينا ثلاثة سوريين هنا يدعون أنهم سيغادرون إلى تركيا و قد سمح لهم بذلك".

فطلب منه أن يعيدنا إلى المركز الأمني .

حاول ماجد أن يتبسط في الكلام أيضاً مع هذا الشرطي إلا أنه كان محجماًَ عن الكلام لا يتكلم إلا بصعوبة و بعد أن وصلنا إلى المركز الأمني بدأ التحقيق معنا في الجريمة التي ارتكبناها و هي التجاوز عن مدة الزيارة

لم نكن أول الداخلين فكالعادة كان هناك من يحاول الهرب كما يحاول السوريون جميعاً فبدأ الظابط يتحدث مع المرأة التي فشلت في محاولة الهرب فقال لها اطمئني سيتوقف عمل الجمعيات الخيرية في الخارج لإن هناك من هو بحاجة في الأردن أيضاً من غير السوريين

بدا واضحاً من كلامه أنه يحسد السوريين على المساعدات التي يتلقونها و ربما هذا ما جعل نبرته ترتفع أمام المرأة المسكينة التي لا تملك سوى أن تهز برأسها

ثم قال لها :" هل تعرفين كم سيصبح نصيب الفرد هنا ؟

٥٠ دينار في حين أنه سيتوقف لمن هو خارج المخيم".
مهما جاوز الظابط في الإغراءات و الكلام الذي لا يشك أحد بكذبه فسيستمر السوريون في محاولات الهرب في كل يوم و بعد أن انتهى منها أخيراً جاء إلينا ثم قال و أنت ما قصتك فحاولنا أن نشرح له ما نريد لكنه لم يكن ليجعلنا نبين له ذلك و إنما اكتفى بالجزء الذي يهمه و هو أننا تجاوزنا عن مدة الزيارة المحددة بأسبوع واحد تجاوزنا عنها مدة شهرين و بضعة أيام أما الإستطراد بالسفر إلى تركيا فقد ألغى النقاش فيه.
كان ماجد قادماً معنا بهدف حل مشكلة معينة و هي الكفيل و لكنه كان ساذجاً إلى أبعد الحدود فقد حاول الظابط الإستفسار منه فقال ماجد :" إنهم مستأجرون عندي و جئت لأكفلهم حتى يسافروا".
فقال له الضابط :" كيف تقوم بتأجيرهم و هم مخالفون؟".
فأجاب ماجد بسرعة لا سيدي إنهم يحملون هويات ! .
قال ماجد هذه الكلمة و أسقط في أيدينا فقد جلبناه ليحل مشكلة فإذا به يصنع لنا مشكلة جديدة فما إن تكلم هذه الكلمات حتى رمقنا الظابط بنظرات الريب و شعر بأنه ظفر بما يرضيه منا فقال لأحد مساعديه أسرع في إجراء معاملاتهم أريد أن ألحقهم بباص القذف الذي ينطلق اليوم
ليست المشكلة بالنسبة لنا أن يتم قذفنا فالبقاء في سورية بالنسبة لنا يشعرنا و كأننا في الجنة مقارنة بالجلوس في هذا المكان و مع هؤلاء الحمقى و لكن الهوية الأمنية تسببت لنا بمشكلة جديدة.
فعندما رآها الظابط صاح بصوت عال مزورة هويات مزورة حاولنا أن نفهمه بأنها ليست مزورة لكن فرحته بما وجد لنا من تهمة جديدة جعلته في صمم عما نقوله وبعد أن خفت حدة فرحه قليلاً أخبرناه بأنها ليست هويات مزورة
فقال " إذاً كيف حصلتم عليها و أنتم تحملون هويات المخيم ؟"
فقلنا له طلبنا مساعدة أحدهم فقدم لنا المساعدة .
لم تكن الهويات مزورة فهي مختومة بختم قائد الشرطة و لا يستطيع هذا الظابط التطاول على ضابط قد يساويه أو قد يفوقه رتبة و مركزاً لذلك أصر على قوله ان هذه الهويات مزورة و عليك أن تخبرني كيف حصلت عليها
ثم قال لأحد مساعديه " خذهم إلى غرفة الحجز ".
لم تكن غرفة الحجز تبعد مسافة كبيرة عنا إنما بضعة أمتار فقط
دخلنا إليها ظانين أننا الوحيدون القادمون اليوم لنتفاجئ عندما وجدنا الغرفة عامرة بالشبان السوريين.
بدأنا نحاول التفكير بما سنقوله لهذا الظابط المتعنت و الذي لا يجد بديلاً عن اتهامنا.
ظننا أولاً عندما رأينا أن الظابط الذي يحقق معنا هو ذاته الظابط الذي قدم لنا الإجازة أن الأمر سيكون أسهل و سيكون قادراً على استيعابنا أكثر من غيره
إلا أن ظنوننا كانت خاطئة فقد بدا أكثر تعنتاً من غيره
كل ما يهم في الأمر ألا أذكر إسم أبا عمر الذي دلنا على الشخص الذي قام بتأمين الهويات لنا

أما بالنسبة لذاك الشخص فأنا لا أعرف إلا أسمه الذي يكنى به و هو أبو يزن بالإضافة إلى رقم هاتفه .

قمت بحذف رقم الهاتف أولاً و لا شك أن الإسم لوحده لن يقدم لهم شيئاً .
كان أحد الشبان الموجودين هناك ينتظر بلهفة فسألناه عن سر لهفته فقال أريد منهم أن يقذفوني
فقلنا له بأنهم ربما يقذفونك لوحدهم إذا شاؤوا دون أن تطلب منهم
فأجاب :" إن ذلك أمر مستحيل لقد قدم إلي مدير المخيم بذاته و طلب مني البقاء هنا و لكني رفضت ولا أزال أنتظر متأملاً أن يتم قذفي اليوم ".
أجمل ما في العودة إلى سورية الآن هو أنك ستغادر الأردن و هذا بحد ذاته إنجاز بالنسبة إلى كثيرين منا
بعد لحظات قدم المساعد إلينا و طلب منا الخروج معه خرجنا معه فعلاً إلى غرفة قريبة ليبدأ معنا التحقيق أحد العناصر الموجودين هناك .
يبدو أن التحقيق السابق كان مجرد تحقيق نظري و الآن سيبدأ بالتحقيق العملي فقد كان يكفي لجريمة التجاوز عن مدة الإجازة عقوبة أن يتم إعادتنا إلى المخيم و لكن الهويات الأمنية التي كنا نحملها قدمت مادة دسمة للتحقيق و عملا جديداً للناس الموجودين هنا و الذين يبدو أن عملهم شبه نادر لذلك شعروا بالسعادة بقدومنا إليهم.
بدأ التحقيق معنا سويةً جلس أبي أولاً و بدأ يسأله فأخبره أبي أنه لا يعرف شيئاً كنت موجوداً في البيت عندما ذهب ابني و جاء حاملاً معه الهويات
لكن ذلك لا يرضي المحقق فلا بد من الاعتراف بجريمة حتى لو كنت بريئاً لا يهم
المهم أن تعترف فسأل أحمد عدة أسئلة ثم بدأ يسألني لم أعرف كيف سأجيبه
ولكني لم أرد توريط أحد معي كما فعلت سابقاً في سورية لذلك سأحاول ذكر اسماء يستحيل الوصول إليها فيما إذا طلبوها
بدأ التحقيق معي و بدأ النهار يمضي بسرعة نشعر من خلالها بأن طموحنا في السفر إلى تركيا اليوم قد ذهب أدراج الرياح فلم يكن لنا سوى الإستسلام للأمر الواقع .

كانت المخابرات الجوية هي أول فرع أمني أزوره في حياتي و قد كنت مستعداً خلال وجودي هناك للإعتراف بأي شيء يريدونه مقابل ان يتوقفوا عن ضربي أما مع هذا المحقق الذي يبدو حملاً وديعاً مقارنة بأولئك فلا داع لأن ألقي بالكلام جزافاً .
بدأ الرجل يسألني أسئلةً تقليدية عن اسمي و عمري و كيف دخلت إلى الأردن ثم وصل إلى الجزء المهم الذي يبحث عنه و هو من أين حصلت على الهويات الأمنية حاولت عندها أن أمزج ما أنوي عليه من الكذب بشيء من الصراحة
فقلت له :" دفعنا مبلغاً مالياً لأحد الأشخاص مقابل أن يعطينا الهويات و قد وفى الرجل بوعده ".

فأردف بسؤال آخر من هو هذا الشخص ؟ من أين تعرفه ؟
قلت له " لا أعرفه و لكن ابن عمي يحيى ـ ابن عم لي متوفي ـ هو من قام بالتواصل معه نيابة عني"
فسألني كيف تواصل معه ؟
أجبته "لا أعرف أنا فقط طلبت من ابن عمي هذا الأمر و هو أخبرني بأن لديه صديقاً قديماً كان يعرفه من أيام عمله في الخليج و هو قادر على المساعدة فطلبت منه المساعدة فلبى النداء".
ثم حاول أن يستخلص أي معلومة مني فقال:" ألا تعرف رقمه ؟
أجبته : لا ، يحيى من يعرف الرقم.
فقال :" حسناً أعطني رقم يحيى ابن عمك فقمت بإعطائه أحد الأرقام السورية التي كنت أحملها سابقاً و التي لا أدرِ إلى يد من انتهى
ثم سألني :" حسناً كيف التقيت به ؟ كيف كان شكله ؟.
أجبته " بأن اللقاء كان قصيراً جداً فقط قام بإعطائي الهوية و قام بدوره بأخذ النقود و مضى كل منا في طريقه دون أن يتأمل كل منا وجه الآخر".
فقال :" حسناً ما لون السيارة ؟ .
لم أكن أذكر لونها و لكني أقررت في نفسي أنها ربما تكون فضية و لن يضر لون السيارة شيئاً فأجبته "كانت فضية اللون".
فسألني "كيف كان السائق كبيراً في السن أم صغيراً ؟.
لم أدر لم يريد كل هذه التفاصيل و إلى أي حد ستكون مفيدة بالنسبة له
فقلت : " كان شاباً في قرابة ال ٢٥ من العمر ".
حاولت أن أخرج عن إطار التحقيق قليلاً و أن أعود به إلى رغبتي في السفر باتجاه تركيا و أخبرته بأن الهويات ليست مزورة و بإمكانه أن يفحصها إذا رغب في ذلك
فأجابني " أنت مذنب و يجب أن تلقى عقابك أنت و هو كليكما ستعاقبان أنت مرتشي و الراشي و المرتشي في النار ".
جعلني كلامه أشعر بالإحباط لا لاختراقي قانونه و لكن لأن المسألة تحتوي على عقوبة .
حاولت أن ابتعد بنفسي عن الإحباط الذي دفعني إليه قائلاً في نفسي أنكم أنتم تدفعوننا بشروطكم المتعنتة إلى محاولة التخلص منها حتى و لو بالرشوة.
انتهى التحقيق المفصل الذي أراد هذا المحقق سماعه مني فطلب مني العودة إلى غرفة الإحتجاز حتى يقرر ماذا سيفعل بنا .
طلبت منه قبل الدخول إلى الغرفة أن يأذن لي بالوضوء لصلاة الظهر فأذن لي .
لم أكن قادراً على إجراء مقارنة البتة بين ما جرى معنا مع السلطات السورية و مع السلطات الأردنية كدنا نموت هناك و إذا فكرت أن نصلي علناً فسيصل صراخك إلى أبعد مدى تتخيله لشده الضربات التي تتلقاها.

دخلت إلى غرفة الإحتجاز لأجد الأشخاص على حالهم ينتظرون الشخص الذي ينتظر العودة إلى سورية و شخص آخر يلبس ثياب العمل و يبدو مهموماً .
لم يكلمه أحد حتى ذهب أبي إلى جانبه و بدأ يكلمه متسائلاً ما الذي جاء به إلى هنا و هل هو كالشخص الآخر الذي يسعى للعودة إلى سورية جاهداً .
فأجابه : " لقد كنت في عملي عندما قبضوا علي".
فسأله أبي : " أين كنت تعمل و ما عملك ؟".
فأجابه :" كنت في عمان و أنا أعمل كبلاط و لا أعمل إلا ليلاً لعلمي بما تبيته لنا السلطات من قذف من يقوم بالعمل إلى سورية و في إحدى الليالي بينما كنت مستغرقاً في العمل ناداني أحد الأشخاص و لم أبال بالأمر فقد كان يرتدي الزي المدني و ما إن وصلت إليه حتى طلب مني الهوية و تصريح العمل و الطلبات التي لا تنتهي و لا أملك منها شيئاً فأجبته بأني لا أملك من ذلك شيئاً فطلب مني الصعود إلى السيارة و لم يكن لي إلا الإستجابة ".
لم تكن مشكلة الرجل في أنهم قاطعوا عملوه و أودعوه في السجن و إنما كانت مشكلته بأن عائلته التي يعيش معها موجودة في عمان و قاموا بجلبه إلى هنا و رفضوا نقله إلى أي مكان آخر حتى يأتي جميع أفراد عائلته إليه .
مشكلة معقدة جعلت الرجل ينتظر إسبوعاً كاملاً دون نتيجة فمن جهة هو لا يرغب بالبقاء في هذا المكان و من جهة أخرى لا يريد لعائلته أن تعود إلى المخيم خصوصاً و أنهم كانوا متأقلمين تماماً في الخارج و لم تكن المساعدات التي يعطونها لها إلا مبلغاً زهيداً أمام ما ينتجه في عمله .
كانت الغرفة صغيرةً و الشمس تدخلها من سقفها فلم تكن مغلقة السقف و إنما مفتوحة أمام تقلبات الطقس .
مضت ساعة أو أكثر و لم ينادنا أحد و يبدو أن موعد الطائرة الذي حجزنا تذاكراً وهمية لأجله سيفوتنا.
بعد لحظات نادانا أحد الحرس قائلاً :" أين تذاكر سفرك ؟"
فقمت بإعطائه إياها بعد أن بحثنا عنها لأن ما جرى معنا جعلنا نسهو عن الأغراض التي نحملها و لا نعرف إلى أين صار بعضها و لكن لم يكن منها نتيجة فالتذاكر وهيمة و هي لا تغني و لا تسمن من جوع ثم بعد قليل عاد الحارس ليناديني مرة اخرى فمضيت معه و لكن هذه المرة ليس إلى المكتب المعتاد و إنما إلى مكتب آخر بجواره.
دخلته وحدي و إذا به مكتب الظابط الذي خط لنا الإجازة سابقاً و قام باستقبالنا هذا الصباح لم أعد أحب أن أجالسه فقد أبدى من العنف و العصبية ما يتجاوز ما فعلناه بمراحل
سألني : "هل تريد الذهاب إلى تركيا ؟".
أعادني سؤاله مباشرةً إلى سؤال المحقق في المخابرات الجوية "هل ترغب برؤية ابنك ؟".
لا أعتقد أن هذا المحقق سيكون أكثر صدقاً من سابقه فكلاهما يعمل في الأفرع الأمنية و هذه عملها الكذب و التلفيق لا أكثر فأجبته :" نعم أرغب ".

فقال لي : " إذاً من قام بإعطائك الهوية ؟ "
أجبته بأني لا أعرف الشخص فضرب طاولة المكتب مغضباً و قال :" ذهبت أو لم تذهب هذا ذنبك" ثم علق قائلاً " لن ترى عائلتك فيما يبدو".
و قد كان عارفاً بوضعي و سبب رغبتي في التوجه إلى تركيا إلا أنه أراد أن يستفيد مني بشيء يفيده بعمله و لكن كلانا لم ينجح فشلت أنا في الذهاب إلى تركيا و فشل هو في معرفة الشخص الذي أعطانا الهويات و الذي كان عازماً في القبض عليه ثم أمرني بالعودة إلى غرفة الإحتجاز التي كنا نجلس فيها.
من بين الموجودين في الغرفة أيضاً كان هناك شاب صغير يبدو أنه تأخر في القدوم إلى الأردن عن عائلته فكان موجوداً في المخيم و يبدو أنه حاول الهرب ليلة أمس فقاموا بجلبه إلى هنا و هو الآن ينتظر أمه حتى تقوم بكفالته لتخرجه معها من هذا المكان.
لم يمضِ وقت طويل حتى جاءت أمه فذهب معها و بعد لحظات أيضاً جاء دور الشاب السوري الذي كان يسعى جاهداً للعودة إلى سورية فطمأنوه بأنه سيمضي اليوم مع الرحلة التي ستنطلق مساءاً .
يبدو أن الغرفة بعد ساعات ستقتصر علينا فقط بعد أن انتصف النهار دخل الشرطي حاملاً معه وجبة دسمة تكفي الجميع .
قمنا بتناول الغداء ثم طلب مني الشرطي أن أقوم بتنظيف الإناء الذي تناولنا فيه الطعام لبيت طلبه محاولاً الإستفادة من هذه الفرصة بالطريقة التي تسهل علينا الوصول إلى تركيا عن طريق المطار فبدأت أسأل كل شخص أراه
و الإقتراح الأكثر طرحاً كان عد إلى سورية و انطلق منها باتجاه تركيا .
رغم سذاجة هذا الحل إلا أنه يبدو الحل الوحيد و الطريق الذي سنسلكه في النهاية .
مضى وقت الظهيرة و بدأت حدة حرارة الشمس تنخفض منبهة إيانا بأن النهار على وشك الانتهاء .
دخل حارس إلينا مجدداً و نادى بأسمائنا الثلاثة فانطلقنا معه دون أن نعرف وجهتنا لم ينطلق بنا كما اعتدنا هذا اليوم إلى مكتب المحقق و إنما مضى بنا خارج المركز الأمني ثم طلب منا الصعود في السيارة .
لا أعتقد أنهم سيمضون بنا إلى المطار .
الصعود في السيارة هنا و في هذا المكان تحديداً يعني شيئاً واحداً ألا وهو أننا سنعود إلى مركز الإستقبال الذي سيعاود إدخالنا إلى هذا المخيم.
بدأت أشعر بالدوار لمجرد فكرة أننا سنعود إلى هنا سألت الشرطي الذي يقوم بإيصالنا إلى أين نمضي فأجابني بالإجابة المتوقعة و التي أحاول أن أتفاءل بأنها غير مطروحة وبأن هذا مجرد وهم لكن كلام الشرطي أعادني إلى وعيي .
لم أتخيل أن أعاود المعاناة التي عانيتها سابقاً هنا لذلك طلبت منه التخلص من هذا المكان بأي طريقة

وقلت له :" لا نريد أن نعود إلى المخيم إذا أردت أن تعيدنا فقم بقذفنا إلى سورية هذا ما نريده". ولكنه أثبط عزيمتي عندما قال : " لقد فات الأوان على القذف لقد وصلت أسماؤكم إلى هذا المكان و عليكم أن تدخلوا إليه ".

حاول ماجد بعد أن تسبب لنا بمشكلة أن يفعل شيئاً يثبت من خلاله أنه وقف إلى جانبنا فلم نعد نراه منذ أن قال للمحقق إنهم يحملون هويات أمنية .

كأنه تسبب لنا بالمشكلة ثم ولى ظهره و عاد مسرعاً إلى بيته ثم اتصل بي قائلاً : " لقد تعاركت مع هذا الشرطي الوقح و اطمأن فلقد حاولت جهدي ألا يتم قذفك و سيكتفون بإعادتك إلى المخيم ".

تكلم بهذا الكلام طبعاً حتى ينفي صفة التخاذل عنه و لا شك أن ما قاله مجرد كلام فما آل إليه حالنا ليس له علاقة بماجد البتة قطعت السيارة المسافة الطويلة بين المركز الأمني و مركز الإستقبال في أقل من دقيقتين لنحط رحالنا مجدداً عند جهاد الموظف المسؤول عن مركز الإستقبال .

لم نرغب بالاستماع إليه هذه المرة فلن نقبل الدخول إلى هذا المكان و إذا كان سيهددنا بالعودة إلى سورية فهذا هو الشيء الوحيد الذي نفكر به الآن .

دخلنا مركز الإستقبال أخيراً بعد أن قام جهاد بتسجيل أسمائنا سألنا ماذا تريدون فأجبناه بأننا نريد العودة إلى سورية فلم يعلق و مضى في حال سبيله .

كان وضع مركز الإستقبال هذه المرة أفضل من المرة التي حاولنا فيها الهرب من المخيم و فشلنا .

ففي تلك المرة كانت الكهرباء مقطوعة أما اليوم فالكهرباء تعمل و المراوح لا تتوقف عن الدوران فقد كانت حرارة الجو مرتفعة فالمنطقة أشبه بصحراء قاحلة أو هي كذلك على الحقيقة

و إنما تم تخصيص هذا المكان كملجئ أشبه بمعتقل للقادمين من سورية .

و بعد أن دخلنا وجدنا كما في كل مكان أناساً متفائلين سعيدين بما سيحصلون عليه في الوقت القريب من كفالة تؤدي في النهاية إلى دخولهم إلى داخل الأردن دون مضايقات الحكومة

و أناساً لا يعرفون ما سبب وجودهم هنا .

رغم بعد الأردن عن محافظات الشمال كالرقة و حمص إل أنها لا تخلو على الرغم من ذلك من بعض القادمين من تلك المناطق .

لم يكن الموجودون كثراً بضعة أشخاص فقط شخص من حمص و آخر من الدير و آخر من الرقة و واحد آخر من درعا .

سألت الشاب الذي من دير الزور لماذا أنت هنا فأجابني متفائلاً : " أنا قادم إلى هنا حتى أنهي إجراءات الكفالة ".

تعجبت منه و سألته " أين كنت سابقاً؟"

فقال :" كنت في داخل عمان و قام بعض أقاربي بالسعي لتأمين كفالة لي و عندما أخبرني بأنه يجب أن آتي إلى هنا أتيت و سأخرج اليوم ".

دعوت له بالتوفيق و لكني لم أكن مطمئناً لكلام إدارة المخيم له فربما يكونون كاذبين

و هذا أمر لا أستبعده عنهم فحاول نفي شُبَهي قائلاً :" لا اطمئن لقد تأكدت من الأمر ".
ثم تركني و بدأ يناقش أحد الشباب القادم من حمص و الذي كان صوته يحوي بحة غريبة تجعل كلامه أحياناً صعب الفهم كان النقاش بينهما يدور بطبيعة الحال حول الأحداث في سورية ثم يتدرج للكلام عن داعش بصفة خاصة و ما بين مؤيد يرى كل الحق مع داعش فقط و بين معارض يرى أن داعش لا تختلف عن النظام لا يجاوز النقاش بضع دقائق حتي ينتهي بالصراخ بين الشخصين و غضب كل واحد منهما لرأيه. يبدو أن انعكاسات الثورة السورية و إفرازاتها لن تتوقف نتائجها عند حد معين أياً يكن فليس من المناسب الآن الدخول في هذا النقاش في هذا المكان
كل ما كنا نفكر فيه في بداية هذا اليوم هو الوصول إلى تركيا .
و الآن كل ما نفكر فيه هو العودة إلى سورية رغم أننا فشلنا في السفر إلى تركيا عن طريق مطار عمان و لكن يبقى بقاؤنا في مركز الإستقبال أهون علينا من الدخول إلى داخل مخيم الأزرق .

لا شيء جديد بعد وصولنا إلى مركز الإستقبال إلا أننا بدل أن نتقدم خطوة تراجعنا خطوة أو خطوات.
الشيء الجيد الآن هو أن الكهرباء تعمل و الشيء الأفضل منه هو أننا سنبقى هنا فيما يبدو إلى أن يحين موعد إرسالنا أو قذفنا إلى سورية.
كان الشاب القادم من الرقة في مقتبل العمر ربما لم يجاوز الحادية و العشرين من عمره أردت أن أستغله لأعرف شيئاً عن أخبار داعش و عن كيفية تعايشهم معها في الرقة المفاجأة كانت حينما صرح لنا بأنه كان يقاتل معهم .
حاولت أن أستفيد منه في أية معلومات يمكن من خلالها تجلية أمر ما يحدث في الشمال فسألته عن سبب بداية الإقتتال بين داعش و الجيش الحر
فقال :"كان هناك أحد المقاتلين يقاتل مع داعش ثم تبين بعد فترة أنه جاسوس فقام بالهرب قبل أن يتمكن أحد من القضاء عليه و لجأ إلى لواء "عاصفة الشمال" المتواجد في إدلب فقام التنظيم بطلب الجاسوس من اللواء لكنهم قاموا بالمماطلة ثم تم تهريب الجاسوس إلى تركيا ليعود من خلالها إلى بلده الذي جاء منه ".
لم أكن أعرف مدى صحة ما يقول و لكن لم يكن لي سوى الإستماع إلى كلامه و أما تجلي حقيقة الأمر فربما ينكشف بشكل تلقائي لاحقاً .
استرسل الشاب و بدأ يحدثنا عن إحدى المعارك التي تم الإتفاق من خلالها على الدخول إلى الساحل السوري و قد كانت المعركة مشتركة بين تنظيم الدولة و الجيش الحر في مجابهة النظام
" كان الإتفاق أن يقوم الجيش الحر بتأمين منطقة و تقوم الدولة بالدخول من منطقة أخرى و لكن الجيش الحر قد باع هذه المعركة مقابل مبلغ ٧ ملايين ثم ترك شباب التنظيم يواجهون مصيرهم كان شباب التنظيم عبارة عن ألف رجل و قد كان توقيت المعركة بعد الفجر بقليل و لكن بعد الخيانة التي حصلت دخل الجيش السوري من المكان الذي يفترض بالجيش الحر تأمينه و بدأ بإطلاق النار على

الإخوة الذين كانوا يؤدون صلاة الفجر و لم يكونوا ليتركوا الصلاة لذلك قتل منهم ما يقارب الثلاثمائة قبل أن يلتحموا مع الجيش و بعد أن أنهوا الصلاة قاموا بالاشتباك مع الجيش فاستشهد بعضهم و مضى الباقون عائدين إلى مكانهم السابق ".

لا شك أن كلامه مبالغ فيه إلى درجة كبيرة فمبلغ ٧ ملايين لم يعد يساوي شيئاً في هذه الأيام حتى يقوموا ببيع الأرض التي سيطروا عليها للنظام أما قصة انتظار الرد على الهجوم لحين انتهاء الصلاة فلا شك أنها من نسج خيال هذا الشاب حاولت أن أستفهم منه عن طبيعة العلاقة بين التنظيم و مقاتليه فسألته عن موضوع البيعة

فقال :" هناك ٣ أنواع من البيعة البيعة الكبرى و من خلالها تكون غير قادر على الرفض لأي شيء تؤمر به فليس لك إلا السمع والطاعة فقد يوقظونك في الصباح ليقولوا لك قم يا أخي لديك عملية استشهادية فعليك أن تنفذ دون اعتراض .

و هناك بيعة أخرى و هي بيعة الهجرة و الجهاد و فيها تكون أكثر حرية من السابقة فأنت ملزم فقط بالمعارك التي يخوضها التنظيم ضد من يقاتله و لست معرضاً أن يطلبوا منك تنفيذ عملية استشهادية و لكن قد يطلبون منك القتال معهم في العراق فعليك أن تسمع و تطيع . و البيعة الثالثة هي بيعة جهاد ينحصر جهادك فيها في المنطقة التي تنتمي إليها.

سألته :" ما نوع بيعتك التي بابعتها للتنظيم ؟."

فقال "بيعة هجرة و جهاد "

فقلت له :" هجرة و جهاد يعني أنه كان عليك الذهاب إلى العراق معهم فهل ذهبت؟". فأجاب :" البيعة ملزمة لي بالذهاب في حال طلبوا مني ذلك إلا أنهم لم يطلبوا مني ذلك ".

ثم سألته إن كان شارك في معارك فعلاً أم أنه جاء إلى هنا قبل أن يخوض أي معركة

فقال لي أنه كان معهم ضمن معركة المطار و التي لم يمضي على انتهائها وقت طويل.

كان حديث الشاب أول حديث نسمعه من شخص عاش في مناطق سيطرة داعش و في الوقت الذي كان فيه هذا الشاب يميل إلى أفكار داعش كان الرجل الموجود معنا و الذي ينتمي إلى درعا على الجهة المقابلة ليس في صف الثوار و إنما في صف النظام

فقد كان يبدو من كلامه مؤيداً جداً إلا أنه لم يصرح بذلك و إنما اكتفى بتحميل ذنب ما يجري في سورية على الثوار فقط و النظام بالنسبة إليه مسكين يدافع عن نفسه ضد الهجمة الشرسة التي تستهدف وجوده .

فقد تناقش هو و الشاب الحمصي و الذي كان يحمل صوته نشيجا غريباً

فقال معلقاً : " إن مجزرة الحولة التي قام بها النظام إنما كانت كرد فعل على ما فعله بعض رجال حمص و الذين دخلوا إلى إحدى المناطق العلوية ثم قتلوا كثيراً من أهلها بالسكاكين لذلك جاءت ردة الفعل تلك ".

شعرت من كلامه بأنه علوي أكثر من العلويين أنفسهم فعلى الرغم من أنه من محافظة درعا مهد الثورة إلا أنه من الواضح أنه يقف في الصف المقابل.

لم نتابع النقاش و إنما انصرف كل منا إلى شأنه لم أعرف ما سر البحة في كلام الشاب الحمصي إلى أن أخبرني الشاب القادم من الرقة فقال إنه كان من بين مقاتلي حمص و قد أصيب بشظية أدت إلى هذه البحة في صوته و لم يخرج من حمص منذ زمن طويل

و إنما خرج ضمن الإتفاق الأخير الذي اقتضى خروج مقاتلي حمص و دخول النظام إلى ذات المحافظة .

معظم المقاتلين الذين خرجوا من تلك الأزمة إما مضوا باتجاه الرقة و بايعوا تنظيم الدولة و الباقون منهم مضوا إلى اتجاهات شتى .

وجود هؤلاء الأشخاص هنا جعلنا لا نشعر بالوقت الذي سرعان ما يمضي .

أي شاب خارجٌ من الرقة سيكون مشبوهاً بتهمة الإنتماء إلى داعش و قد كان هذا الشخص منتمياً إليهم فيما سبق و ليس للحكومة الأردنية أن تمنع أي شخص قادم من الرقة من دخول أراضيها كما أنها لا تريد أن تبتلي بوجود الدواعش في داخلها فلا تغدو قادرة على التصرف معهم .

و بطبيعة الحال عندما وصل هذا الشاب بدأت التحقيقات معه بشكل مباشر لأنه جاء من الرقة .

أخبرني ذلك الشاب بما جرى بينه و بين المحقق الذي يشك ببراءة هذا الشاب

فقال له بعد أن أنهى التحقيق معه :" أين هي العبوات الناسفة؟"

أجاب الشاب ببراءة تامة " أي عبوات لا أعرف شيئاً عما تقوله".

فأجابه المحقق ساخراً :" حسناً إذهب و لكن لا تفجر العبوات الناسفة "،

فمضى الشاب إلى شأنه.

مضى مساء اليوم الأول بسرعة من خلال الكلام مع المتواجدين هنا و عندما جاء جهاد في اليوم التالي سألنا عما ننوي عمله هل نريد الدخول إلى المخيم أم ماذا فأخبرناه أولاً أننا نريد السفر إلى تركيا إن كان ذلك ممكناً و إلا فنريد العودة إلى سورية

فأجاب :" لا أعرف عن إمكانية سفركم و لكن في كل الأحوال عليكم أن تجلبوا المفوضية و بصمة العين "و هما عبارة عن الورقتان الرسميتان الأكثر استعمالاً في كل المعاملات هنا و قد تركناهما في المركز الأمني قبل أن نخرج من خلال ورقة الإجازة صدمني كلامه فالذهاب إلى جلب هذه الورقة قد يستغرق معي ضعة أيام لكثرة الناس المتواجدين الآن في المركز الأمني و الذين تختلف احتياجاتهم و طلباتهم ما بين إجازة و كفالة و معاملة داخل المخيم و لكن لم يكن لي إلا الإمتثال إلى طلبه و لكني أخبرته بأنهم لن يسمحوا لي بالدخول بالتأكيد ما لم يخرج شخص من داخل المركز و ينادي باسمي

هذه هي الوسيلة الوحيدة للدخول

فقال :" لا بأس سأكلم أحد الأشخاص هناك عند وصولك ليقوم بإدخالك "،و قال

لي مطمئناً إياي " لا داعي لأن تقطع هذه المسافة الطويلة كلها سيراً على الإقدام فهناك باص يأتي إلى هنا يعمل ضمن القرية الثالثة".

جعلني كلامه أشعر بشيء من الراحة فالمسافة بين المركزين الإستقبال و الأمني تحتاج إلى ما يقارب نصف ساعة من المشي خرجت من باب المركز و بدأت أنتظر و لكن أحداً لم يأتِ و بدأت أشعر بأني أضيع الوقت هدراً

فمن الأفضل لإنجاز المعاملات الرسمية الإنطلاق في الصباح الباكر لذلك قررت المضي سيراً على الأقدام مضيت بسرعة محاولاً تدارك ما فاتني من وقت آملاً أن يسمحوا لنا بمغاردة بلادهم عن طريق الحدود.

كالعادة عندما وصلت كان الناس يتجمهرون حول الباب كل يسعى إلى تخليص معاملته اليوم و كعادة حارس الباب يقف أمامه مانعاً أي شخص من الدخول و مستعيناً بالصراخ لتهدئة هذه الجموع الغفيرة .

كان الدخول دون صحبة أحدهم أمراً أشبه بالمستحيل لذلك اتصلت بجهاد حتى يساعدني في الدخول فقال" إن عليك الإنتظار".

إنتظرت تحت حرارة الشمس و الناس يتجمهرون في مكان آخر قريب من الباب حاولت أن أفهم سر هذا التجمع فتبين أن أحد الأشخاص يصيح بالأسماء التي خرجت في زيارة الإسبوع الماضي و عادوا اليوم حتى يعطيهم بصمة العين و المفوضية .

تابعت الوقوف دون عمل سوى مشاهدة الناس وانتظار الشخص الذي سيرسله جهاد بعد ما يقارب الساعة جاء شخص توقعت أنه من المفوضية فقلت له سبب مجيئي

و أخبرته بأن جهاد هو الذي أرسلني فتوقف قليلاً مع حارس الباب ثم طلب مني الدخول ليس الدخول إلى الباب سوى المرحلة الأولى فأنا لا أعرف إلى أين يجب أن نتجه سوى أنه علي الإستماع لكلام جهاد أو أي شخص يرسله.

لم أكن وحيداً عندما أتيت و إنما قدمت بصحبة أبي و أخي و بعد أن دخلنا عاد ذات الرجل و طلب منا الإنتظار مجدداً .

عندما دخلنا المخيم لأول مرة و كنا نسعى جاهدين للخروج منه وصلنا في طريق بحثنا إلى أبي سامر و الذي خرج معنا من السجن و كان على علاقة جيدة بالفرع الأمني حسب كلامه فطلبنا منه مساعدتنا في الحصول على إجازة لكنه لم يفلح في عمله .

و بعد لحظات من انتظارنا دخل أبو سامر

صدفةٌ كان علينا استغلالها علّنا نسترجع الورقتين المطلوبتين و لكنه لم يأت بجديد فقد طلب منا الإنتظار فقط و هذا ما كنا نفعله قبل أن يأتي.

بعد مضي معظم النهار و نحن في انتظار الدخول خرج شرطي و أخبر رجل المفوضية أن الموظف الذي أودعت عنده هذه الأوراق ليس موجوداً الآن و عليكم انتظاره إلى أن يأتي. سننتظر فهذا ما نستطيع عمله الآن

سألنا الرجل :" هل سيأتي اليوم أم هو في إجازة أم ماذا علينا أن نفعل ؟"

فقال ": لا إنها مجرد استراحة و سيأتي بعد بعض الوقت ".

انتظرنا و انتظرنا دون أن يأتي أحد فحاولنا الدخول مجدداً لنسأل عن الأوراق

فقال الشرطي :" ألم أخبركم بأنه يجب عليكم الإنتظار فأوراقكم عند شرطي آخر و المفتاح معه و هو الآن ليس هنا ".

عدنا إلى حالة الإنتظار التي كنا عليه سابقاً و اقتربت الساعة من الرابعة مضى النهار بأكمله و نحن هنا ننتظر الشرطي الذي يبدو أنه لن يأتي.

لم يعد لدينا صبر فقررنا الدخول مجدداً و السؤال عن الأوراق وصلنا الى ذات الشرطي الذي طلب منا الإنتظار فنظر إلينا متضجراً كأننا غير قادرين على فهم ما يريد

فحاول أن يتخلص من عبأ التعامل معنا بإلهائنا بشخص آخر فسأل شرطياً في الممر المواجه لمكتبه ألم يأتِ حضرة الشرطي، فقال "لا لم يأت"

فسأله "هل تعرف أين مفتاح غرفته ".

فأخرج المفتاح من جيبه لنشعر بصدمة لا توصف فقد انتظرنا كل هذا الوقت ليأتي المفتاح لنتبين بعد ذلك أن انتظارنا كان عبثاً و أن المفتاح موجود مع الشرطي الآخر .

أخذ الشرطي المفتاح و قال تعالوا معي

فمضينا خلفه فدخل مكتب الشرطي الآخر و بدأ يبحث و يبحث دون جدوى ثم قال أرني إجازتك فأريته إياها فأشاح برأسه يمنة و يسرة ثم قال " لا شيء لا يوجد شيء ".

بدأ صبرنا ينفذ دون أن نملك من أمرنا شيء ثم قرر الشرطي مجدداً قراراً ذكياً و هو البحث في الأوراق التي توجد في مكتبه فعاد إلى مكتبه و بدأ البحث ثم رفع أحد الأوراق فرحاً و قال وجدتها أخيراً بقدر ما شعرنا بالفرح بأنه وجد الأوراق شعرنا أكثر بمقدار استغبائه لنا فقد جعلنا ننتظر كل هذا الوقت حتى يأتي الشرطي الآخر الذي يفترض أن الأوراق عنده ثم تبين لنا بعد طول إنتظار أن الأوراق كانت على مسافة متر واحد من الشرطي الذي تكاسل في البحث عنها

لم أملَّ خلال هذا اليوم من سؤال أي أحد عن إمكانية السفر إلى تركيا من هنا و لكن الاقتراح الأكثر طرحاً كان اذهب إلى سورية و سافر من هناك إلى تركيا

رغم أن الجواب يوجهنا باتجاه آخر بعد عن الاتجاه الذي كنا ننوي سلوكه إلا أنه بدا الإقتراح الوحيد المتوفر رغم صعوبة هذا الطريق و لكن يبدو أنه الطريق الوحيد الذي علينا أن نسلكه في حال عزمنا على الوصول إلى بلاد العثمانيين

اقتراحات سَهلة وخَيار صَعب

لم نكن الأشخاص الوحيدين المضطرين للذهاب إلى المركز الأمني لجلب المفوضية و بصمة العين فقد التقيت في الطريق بإحدى النساء المسنات و التي جاوز عمرها الخمسين عاماً تمشي بصعوبة و لكن بإصرارٍ كبير على الوصول إلى وجهتها .

سألتها مالذي تفعله

فقالت إنها متوجهة إلى المركز الأمني أيضاً بقصد جلب بصمة العين و المفوضية

فرافقتها في هذا الطريق الطويل

كان الفضول يسيطر علي مالذي يجبر إمرأةً في هذا السن أن تبحث عن هذا العناء في تحصيل الأوراق الرسمية التي لا أعتقد أن لها حاجة فيها

سألتها فبدأت تشرح لي عن وضعها و الذي بدا مؤثراً إلى شكل كبير فهي ليس عندها أولاد و إنما تجلس هنا في بيت أولاد إخوتها و قد شعرت بالتضايق من نفسها فلم ترد أن تتحمل منة الجلوس لدى أولاد إخوتها على العموم أو عند نسائهم على الخصوص

فعادت من داخل الأردن بعد أن كانت قد خرجت فيما سبق بإجازة من هنا و تأخرت كحالنا ثم عندما طفح الكيل لديها جاءت إلى هنا تحث الخطى مسرعةً بحثاً عن الخروج بكفالة حتى تستقل بمفوضيتها فلا تبقى ممتنة لأحد.

صحبتها في اليوم الأول و عدنا كلينا دون أن نتمكن من الحصول على شيء و قد طلبت مني إخبارها عندما أنوي الذهاب في اليوم التالي فأخبرتها

و ذهبنا سوياً و بعد أن حصلنا على الأوراق الرسمية التي تخصني بدأنا ننتظرها و لكنها تأخرت حتى أبدت الإياس و طلبت منا العودة و ستعود هي عندما تحصل على أوراقها

لم نستطع الإنتظار أكثر لذلك مضينا عائدين إلى مركز الإستقبال تاركين تلك المرأة المسكينة تنتظر الحصول على أوراقها ثم العيش فيما بعد في ظلال أحلامها الوردية

قمنا بجلب الأوراق و لكننا إلى الآن لا ندري هل سنتوجه إلى سورية أم سنمضي إلى تركيا لم يكن تسليم تلك الأوراق كافياً بل كان لا بد من إعادة كل شيء استلمناه عندما وصلنا إلى هنا.

عقد الكرفانة و جرة الغاز و الغاز هي أهم الأشيء بالنسبة لهم هنا و بحمد الله قبل أن نخرج أعطينا عبوة الغاز و الغاز لجارنا السابق أبي فراس.

بعد أن جلبنا المفوضية كان علينا في اليوم التالي تسليمها للمكتب المختص فخرجنا في الصباح ماضين إلى مكتب المفوضية .

دخلنا و لم يكن هناك الكثير من الناس بضعة أشخاص فقط بدأنا ننتظر دورنا في الدخول لنعرف ما سيؤول إليه أمرنا في النهاية و بعد ما يقارب النصف ساعة دخلنا إلى مكتب يشبه مكاتب الإستقبال التي دخلناها عندما وصلنا إلى الأردن و هناك موظفة جالسة خلف المكتب

فتساءلتْ " ماذا تريدون ؟"

فأخبرناها بأننا قادمون لتسليم المفوضية و للسفر إلى تركيا فتبسمت

ثم قالت :" لكن أسماءكم مكتوبة هنا في أنكم ترغبون أن تكونوا من بين المقذوفين" فسألتها قائلاً :" لقد قال لنا جهاد أنكم إذا رغبتم بالعودة فعليكم أن تذهبوا إلى المركز الأمني لتقوموا بتسجيل أسمائكم فكيف تم تسجيله بشكل تلقائي ؟"

فقالت :" ماذا قلت له بالتحديد".

فأجبتها :" قلت له إن كان من الممكن السفر من هنا إلى تركيا فنحن نريد السفر و إن كان غير ممكن فنريد العودة إلى سورية ".

فقالت :" حسناً يبدو أنه أنهى الموضوع مع المركز الأمني بشكل مباشر لذلك أسماؤكم مسجلة هنا ".

رغم أن السفر من هنا إلى تركيا عن طريق المطار أسهل إلا أن العودة إلى سورية يبقى لها وهجها الخاص و الذي جعلنا نشعر بالسعادة لأننا سنغادر هذه البلاد أخيراً و التي من الواضح أنه غير مرحب بنا فيها .

بدأنا إنتظار موعد الرحلة القادمة و التي ستكون في يوم الأربعاء القادم و لكن قبل ذلك علينا أن نبرأ ذمتنا تجاه إدارة المخيم و علينا أن نعيد لهم ما أعطونا إياه عند دخولنا

و كان الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لهم هو جرة الغاز و جارنا أبو فراس الذي أودعنا الجرة عنده قد انتقل إلى مخيم الزعتري و لا سبيل للوصول إليه

هاتفناه لنسأله عن مصير جرة الغاز الذي بدأ يحدد مصيرنا فيما يبدو فلا نقدر على الخروج من هنا ما لم نعدها

فقال أنه قام بإيداعها عند جارنا السابق أبي ياسر فأزاح عن كاهلنا عبأ هم كبير فيما لو لم نجدها .

في اليوم التالي أخبرت الموظف بأننا سنعود إلى سورية فما الذي يريده منا حتى يعطينا ورقة براءة الذمة التي نخرج من خلالها إلى باص القذف المتوجه إلى سورية

فقال لي :" عليك أن تحظر جرة الغاز و الغاز ".

قلت " له هذه موجودة ".

ثم قال :" عليك أن تحظر المصباح أيضاً ".

لم أفهم ما التطور الجديد الذي جعلهم يريدون استعادة المصباح فنحن لا نعرف أين وصل المصباح فاتصلنا بجارنا أبي فراس لنسأله عن المصباح

فقال إنه عند جارنا أبي ياسر إتصلت بابن جارنا أبي ياسر لأن أباه قد حقق طموحه أخيراً و عاد إلى سورية

فمنذ أن التقينا به عند دخولنا هذا المكان و هو يخبرنا بأن الهموم لا تكاد تفارقه و سيعود إلى سورية في أسرع وقت

ولكن يبدو أن عودته جاءت بتوقيت غير مناسب لنا فعندما سألت ابنه عن المصباح أخبرني أن والده قد أخذه معه عندما عاد إلى سورية.

أصابني كلامه بصدمة لا تتعلق بفقدان المصباح و إنما بالتأخير الذي قد ينتج عن فقدان هذا المصباح أخبرت ابنه بحالنا الذي وصلنا إليه فطمأنني بأنه سيحاول البحث عن مصباح يحل لنا المشكلة .

كان علي أن أرافق الموظف المختص حتى أعطيه حاجياته و يعطيني بالمقابل احتياجاتي. صعدنا في السيارة من مركز الإستقبال و قبل أن ننطلق اشترط علي الموظف بأن أذهب معهم و لكن العودة معهم لن تكون ممكنة لأن لديه أعمالاً كثيرة عليهم القيام بها.

لم يزدني كلامه سوى ضجراً منهم و فرحاً بأنني بعد أيام لن أراهم أبداً .

صعدنا في السيارة و مضينا في اتجاه الكرفانة التي سكناها عند دخولنا هذا المكان أول مرة بدأت أشاهد الناس حولي و المخيم الذي كان يشبه مدينة الأموات في السابق قد بات يعج في الحياة .

الناس في كل مكان صراخ الأطفال يكسر سكون الصحراء و يضفي طابعاً أكثر بهجة.

و صلنا سريعاً إلى بيت أبي ياسر و بعد أن سلمنا على الرجل قام بإعطائنا حاجياتنا و لكن الموظف بدأ ينظر و يتأفف و يقول أين المصباح الآخر أجبته "هذا هو المصباح" .

و لكنه كان يريد المصباح الآخر الصغير

أجبته بأن " زميلك أخبرني قائلاً لي بأن هذا ما تحتاجه فقط ".

ولكنه أصر وتوقف ينظر إلي فنظرت إلى جارنا و سألته إن كان بإمكانه إعطاءنا مصباحاً يحل لنا هذه المشكلة فقد شعرت باليأس أمام إصرار الموظف و لكن ياسر كان حازماً أكثر مني فقال ليس عندي سوى هذا .

بدأت الحيرة تسيطر علي فقال لي أحد العمال مع الموظف " أين منزلك القديم؟"

فأشرت إليه و قلت له :" هذا هو المنزل المقابل".

مشيراً إلى المنزل الذي أمامنا فمشي معي العامل لينظر من النافذة الوحيدة للبيت فقال يبدو أن أناساً آخرين قد استقروا فيه .

ثم همس إلي قائلاً :" قل له لم أجده و انتهِ من هذه المسألة أصر على ذلك".

فعدت إلى الموظف المسؤول و قلت له :" لم أجده".

مستأنساً بقول العامل الذي طمأنني بأن الموظف سيرضخ في النهاية للأمر الواقع .

تلكأ الموظف قليلاً ثم قال :" حسناً لا بأس".

وقام بتوقيع ورقة براءة الذمة و أعطاني إياها.

أمسكتها و عدت مسرعاً باتجاه مركز الإستقبال.

رغم أننا في الصيف إلا أن جو هذا اليوم مكتنف بالغيوم مما جعل العودة أسهل مضيت و أنا أنظر إلى ما آل إليه حال المخيم.
لقد انتهى أخيراً بناء المسجد الذي كانوا يعملون فيه عندما كنا هنا و لكنه مغلق الآن و لا مجال للدخول إليه .
كانت رمال الصحراء قد غطت سطوح المنازل المتواجدة في هذا المكان لذلك قام كل صاحب منزل بوضع غطاء أمام باب منزله حتى يشكل سداً أمام هذه الرمال الصحراوية التي لا يكاد سعيها يتوقف.
مضى على وجودنا في مركز الإستقبال عدة أيام و طعامنا مقتصر على ما أعطانا إياه الموظفون عند وصولنا و هو عبارة عن كيس يحوي بعض المعلبات من التونا و الساردين لذلك قررت أن أزور سامح مول للمرة الأخيرة قبل مغادرة هذه البلاد دخلت إلى المول و لم يتغير شيء علي .
لا يزال المول هو المكان الوحيد لبيع احتياجات العائلة و مع ازدياد عدد الوافدين إلى هنا ازداد الزحام و الربح بشكل طبيعي غاضين الطرف عن السماح لمتجر آخر بالبيع هنا أو حتى التفكير بافتتاح فرع آخر .
قمت بشراء بعض الطعام ثم قفلت عائداً باتجاه مركز الإستقبال و أنا أحمل أخيراً الورقة المطلوبة .
رغم أن فترة أسبوع قد تبدو قصيرة بالنسبة للتغير في بعض الأحوال إلا أننا خلال قضائنا هذه الفترة هنا شهدنا تحولاً في الأوضاع على مستوى الداخلين إلى هذا المكان و الخارجين منه .
فعند وصولنا كان هناك الشاب الحمصي و الشاب من دير الزور و الآخر من درعا إلا أن كليهما رحل و بقي ابن مدينتنا درعا لا يعرف إلى ماذا سيؤول مصيره .
دخل بعد بعض الوقت شاب مع زوجته فبدأنا نتحدث معه لنتعرف لأول مرة هنا على شخص قادم من حلب .
سألناه ما الذي جاء به إلى هنا فقال " أريد العودة إلى سورية ".
فسأله أبي و الذي كان الأكثر تحمساً للإستقرار هنا لماذا ؟
فبدأ يشكو معاناته و أنه لم يعد قادراً على الإحتمال و أن البقاء في بلدته حلب في ظل خطر القصف و البراميل أكثر هناءاً من العيش هنا .
كنت أظنه يبالغ في كلامه و لكن عندما توجهنا معه إلى مكتب المفوضية حتى نتسلمها جميعاً أبدى فرحاً غامراً لأنه سيعود إلى سورية
و كان في كل لحظة يتخوف أن يكون اسمه ليس موجوداً ضمن القائمة التي ستغادر إلى سورية .
و قد ظننا أن عليه في البداية أن يتوجه إلى المركز الأمني حتى يدرج اسمه هناك ضمن قائمة المقذوفين و لكن يبدو أن المركز الأمني يرحب بكل من يحب المغادرة بسرعة
فحال الرجل كحالنا قد خرج منذ أكثر من شهرين من المخيم بإجازة ثم مضى ليعيش داخل إحدى مدن الأردن ثم عاد إلى هنا
سألته "ماذا قالوا لك عندما وصلت؟".

فقال :"لا شيء بمجرد وصولي إلى هنا قلت لهم أني خرجت من هذا المكان هارباً و أريد العودة إلى سورية فجلبوني إلى هنا مع عائلتي ".
يبدو أن الرجل كان أكثر حظاً منا فنحن انتظرنا ما يقارب الإسبوع و هو سينتظر بضعة أيام فقط .
و لكن كانت هناك مشكلة تعترضه و هي أنه من حلب و هذا يعني أن عليه أن يذهب ضمن خط التهريب و قدوم عائلته معه يجعل الأمر أكثر صعوبة
فسألني " كيف سيعيدوننا إلى سورية؟"
قلت له :"حسب علمي أنهم يرسلوننا من معبر نصيب الحدودي القديم ثم يمضي كل شخص في وجهته ".
ثم دفعني الفضول إلى أن أسأله :"لكن كيف ستصل إلى حلب فالطريق بعيد جداً و معك عائلتك".
فقال من الطريق النظامي ازددت تعجباً منه فكيف سيخاطر هذه المخاطرة و لا أحد يأمن في سورية المرور على الحواجز النظامية
فقلت له "جيد و لكن هل لسمك مطلوب؟
عليك أن تكون حذراً ".
فقال :" لا بأس أنا بطل الجمهورية بالتفييش أي بعرض إسمي على الأفرع الأمنية و لست مطلوباً و الحمد لله".
تبادلنا الحديث قليلاً ثم مضى كل منا في طريقه و لطبيعة المكان الذي تنعدم فيه كل وسائل التسلية وجدنا فرصة أكبر للتحدث مع بعضنا فبدأ يشرح لنا عن معاناته و التي كان اسمه هو السبب الرئيسي فيها.
فقد كان اسمه علاء عبدالقادر الصالح أي أن اسم والده هو اسم قائد لواء التوحيد سابقاً فقال لي :" المشكلة تنحصر باسمي ، مرة اعتقلوني على أحد الحواجز بسببه فحاولت أن أشرح للظابط سبب المشكلة فقلت له المشكلة في اسم ابي عبد القادر الصالح و أنا لست ابن عبد القادر الثائر فبدأ الظابط يسب و يشتم الذات الإلهية ثم أطلقني بعد أن تم تفييش اسمي مرة أخرى ".
لا شك أنها معاناة كبيرة
سألته :" لماذا اخترت الأردن أليس من الصعب عليك الوصول إلى هنا".
فقال :"نعم عانيت قليلاً فقد جئت عن طريق السويداء و قد تم اعتقالي عند أحد الحواجز و لكن ذلك لم يطل فقد نلت نصيبي من الشتائم التي لا تتوقف ثم تركني الظابط أمضي في طريقي فأتيت إلى هنا مسرعاً ".
يبدو أن المعاناة التي يعيشها السوريون تتشابه في كل مكان فعدوهم واحد و لكن كل واحد منهم اختار وجهته .
مهما كان الوضع سيئاً في سورية فهو بالنسبة لنا أفضل من البقاء هنا الآن و دائماً .

و قد أصبحنا الآن في عداد العائدين إلى هناك و ليس علينا سوى انتظار يوم الأربعاء القادم حتى تصبح عودتنا حقيقة واقعة .

بدأت لحظات الإنتظار التي قضيناها تنتهي إلى غير رجعة فالرحلة القادمة يوم الأربعاء و ليس بيننا و بينه سوى هذه الليلة .
خلدنا إلى النوم مبكراً حتى لا نتأخر أو نعاني التعب في يوم الغد و قد تعارفنا على صديقنا الحلبي الجديد الذي سيرافقنا في الطريق
و لكننا تبادلنا أطراف الحديث قليلاً قبل أن ننام فراح يحكي لي عن طريقة كسبه للعيش في سورية فرغم أن الحرب سيطرت على جميع أنحاء سورية إلا أن نصيب الدمار اليومي كان مختصاً بحلب بشكل أكبر .
و رغم ظروف الحرب إلا أن علاء كان قادراً على ممارسة التجارة فقد كان يقوم بشراء البضاعة الأكثر رواجاً و الأسهل بيعاً في هذه الظروف ألا و هي الدخان .
فقد كان يقوم بشراء البضائع من المناطق المحررة و يبيعها في مناطق النظام.
فقد جعلت الحرب هذه البلدة أشبه ببلدين مستقلين كل منهما تابع لسلطة مستقلة إلا أن حرية الإنتقال بينهما لا تحتاج إلى جواز سفر و إنما تكفي الهوية لذلك .
وحتى و هو يحاول القيام بهذا العمل لم يكن آمناً على نفسه من أن يكتشفه أحد جنود النظام فيزجه في السجن .
و قد اظطر مرة إلى التخلي عن أرباحه في معظم تنقلاته حتى يطلق سراحه العسكريُ المقيم على الحاجز و الذي بات في هذه المرحلة صاحب الكلمة العليا .
مضينا إلى النوم و مضت الليلة سريعاً .
و ما إن بدأت خيوط الشمس تتسلل إلى غرفة الإستقبال التي كنا نفترشها حتى هرعنا مسرعين نعد أنفسنا للعودة إلى سورية أخيراً .
لم نكن نعرف ما علينا فعله فحارس البوابة لا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج حتى يكون برفقة موظف أو يأمره أحد الموظفين بذلك.
و قد عانيت من هذه المسألة عندما ذهبت لأجلب أوراق المفوضية و عندما عدت طلبت من الموظف أن يفتح لي الباب و كأنه تفاجأ بي فأمرني أن أذهب لأدخل من باب آخر .
انتقلت إلى باب آخر فطلب مني العودة إلى الباب السابق.
انتظرت حتى وصل جهاد أخيراً و شرحت له أني غادرت هذا المكان بطلب منه فطلب من الحارس أن يسمح لي بالدخول .
لم تتوقف المشكلة عند يوم واحد فقد ذهبت مرة أخرى لأحظر بعض الأوراق و عندما عدت واجهت نفس المشكلة .

والآن نحن ننتظر جهاد الذي وعدنا أن يأتي مبكراً لكنه تأخر قليلاً فبدأنا نشعر بالقلق من خوف فوات الرحلة ثم الإنتظار نتيجة لذلك مدة أسبوع آخر .
ولكنه لم يتأخر كثيراً فبدأنا نحمد الله عندما رأيناه فطلبنا منه أن يفتح لنا الباب لأننا لا نريد أن تفوتنا الرحلة فسارع إلى الطلب ذلك من الحارس الذي فتح لنا الباب أخيراً .
بعد أن جددنا ذكريات السجن في هذا المكان لم نكن لنفكر بأن يقلّنا أحد فهذا أمر لم يكن يخطر لنا على بال
لذلك بدأنا نحث الخطى مسرعين باتجاه المركز الأمني .
و قبل أن نبتعد كثيراً نادتنا موظفة فعدنا إليها لنسألها عما تريد منا
ولكنها بادرتنا بالسؤال أولاً
فقالت :" إلى أين تذهبون؟"
فأجبناها بأننا نتوجه نحو المركز الأمني حتى نعود إلى سورية فبدت المفاجأة على وجهها
وقالت :" المركز الأمني تذهبون إليه مشياً هل ترغبون أن أحظر لكم سيارة؟".
كانت مفاجأتنا من عرضها أكبر بكثير من مفاجئتها بما ننوي عمله .
ووقفنا متحيرين من هذا اللطف الذي دب في قلوب الموظفين هنا فجأة .
ولم يكن لنا أن نفوت الفرصة فأبدينا موافقتنا بسرعة فقد كان الطريق طويلاً
وسيزيده صعوبةً وجود زوجة علاء صديقنا الحلبي و ولدِه .
فذهبت و عادت بعد لحظات مشيرةً إلى إحدى السيارات الخارجة من داخل أسوار مركز الإستقبال و قالت لنا بأن هذا السائق سيقوم بإيصالكم إلى حيث ترغبون .
لم نكن الوحيدين الذين صعدوا في هذه السيارة
فرغم كبر السن الذي كان يعوق حركة العجوزين الذين معنا إلا أن ذلك لم يمنعها من محاولة الهرب بالأمس والتي انتهت إلى الفشل و هما الآن يعودان إلى منزلهما القديم
وقد كانا مظطرين إلى الذهاب مشياً إلا أن قدوم السيارة أزاح هذا الهم عن كاهلهما .
بدأت السيارة تمضي مسرعة مثيرةً الغبار خلفها .
رغم أن الطريق كان معبداً إلا أن الجو الصحراوي كان يجعل الغبار يتناثر في كل مكان .
ورغم أن مساحة المخيم ليست كبيرة بالنسبة للسيارة فقدْ فَقَدَ السائق طريقه و لم يعد يعرف إلى أين يجب أن يتجه .
فقد ذهب لإيصال الرجل المسن و زوجته أولاً إلا أنه تاه في طريق الوصول إلى بيتهما و أمضى أكثر من ربع ساعة و هو يبحث عن البيت إلى أن وجده أخيراً .
من الغريب أن تجد أناساً في هذا السن لا يرضون بالبقاء هنا و يحاولون الخروج جاهدين حتى و لو اظطروا للهرب .
سألت الرجل فقلت له :" لماذا خرجت هاربا ؟ أليس من الأفضل لكما البقاء هنا؟"

فنظر إلي نظرة امتعاض و حاول أن يخفف من غضبه ببعض الكلمات
فقال:" أريد أن أخرج إلى أولادي في الخارج و لا يسمحون لنا بالخروج لا عن طريق إجازة ولا عن طريق كفالة لذلك لم أجد خياراً سوى الهرب و إن فشلت هذه المرة فربما يحالفني التوفيق في المرة القادمة".
لم أتعجب من إصراره على المغادرة فقد مررت بتجربته سابقاً و لكني أعجبت بإصراره المرافق لكبر سنه و الذي جعل زوجته التي تقاربه في السن تستسلم لرغبة زوجها و تحاول الهرب معه .
رغم أن الوقت الذي انطلقنا فيه كان مبكراً إلا أن الحياة سرعان ما بدأت تدب في هذا المكان .
الأولاد في كل مكان ، صراخهم يكسر حدة الصحراء .
و النساء اللواتي ينتظرن أن تتدفق المياه حتى يقمن بغسل ثيابهن على نقاط المياه المنتشرة و التي أضحت أشبه ما يكون بالمغاسل و قد سالت المياه منها في كل اتجاه
إلا أن إدارة المخيم كانت قد وضعت حسابها لهذه المسأله فأحاطت كل نقطة مياه بممرات تجعل المياه تنحصر و تتجه في اتجاه واحد .
وصل السائق بنا إلى بيت الرجل الذي برفقتنا و بدأ جيرانه يهنأونه بالسلامة على عودته و يعزونه لأنه لم يتمكن من الفرار .
نزل الرجل و عائلته ثم مضى السائق ليوصلنا إلى حيث ننوي .
كان طريقنا أكثر سهولة ووضوحاً من بيت الرجل الذي رافقنا قبل قليل.
فالمركز الأمني يتربع على تلة في إحدى زوايا المخيم يشرف من خلالها على كل المخيم و يراه الجميع أيضاً.
مضينا إلى هناك بسرعة و بدأنا ننتظر لنعرف إن كانت رحلة الذهاب إلى المملكة الأردنية الهاشمية ستنتهي اليوم أم سنحتاج إلى مزيد من البقاء هنا.
الشيء الوحيد الجديد في هذا المكان أن أعداد الناس تتكاثر
و بما أن اليوم هو يوم أربعاء فهذا يعني أن أعداد الناس المتواجدين حول المركز الأمني ستتضاعف لأنها ستختلط بالباحثين عن الخروج من هنا و الباحثين عن العودة إلى الوطن .
بدأنا ننتظر و بدأ قلق السفر يسيطر علينا فسألنا الحارس الذي يقف أمام الباب مالذي يجب علينا عمله حتى لا نتأخر هنا و تفوتنا الرحلة ؟ فإجاب إجابته المعتادة "إنتظر".
بدأنا ننتظر و القادمون يتزايدون لا نعرف أيهم سيرافقنا و أيهم سيبقى هنا.
رغم أن الجو الحاظر الذي نعيشه كان يفصح عن نفسه فلا يخفى على أحد لماذا يرغب الجميع بالعودة فالجلوس هنا لا يحتمل إلا أن موظفي الأمم المتحدة كانوا مصرين على إشعارنا بأنهم أصحاب نظرة إنسانية زائدة و بأنهم مهتمون لمعاناتنا
فبدأ أحدهم يسأل أحد الرجال المسنين المتواجدين هنا و الذين ينتظرون العودة إلى سورية
" لماذا ترغب بالعودة إلى سورية ؟

هل ضايقك أحد ؟
هل ستعود بملء إرادتك؟"

فوجد الرجل فرصة للتعبير عما يجيش في نفسه من مشاعر الغضب
فانفجر قائلاً :" لماذا أعود ؟، لا يسمحون بالخروج لا عن طريق زيارة و لا عن طريق كفالة و يريدون منا البقاء في هذا المكان

وضعوا شروطاً تعجيزية للخروج استوفيتها جميعاً إلا أنهم رفضوا طلبي في النهاية دون تقديم أي مبرر البقاء في سورية تحت ظلال الحرب خير من البقاء في هذا المكان".

أراد الرجل الإسترسال أكثر فيبدو أنه كان يمتلأ غيظاً على المخيم و إدارته إلا أن الرجل اعتذر منه وقال :"حسناً أريد أن أسأل الباقين".

ثم بدأ يسأل من بقي هناك عن سبب العودة و إن كانت عودتهم بملء إرادتهم أم كانوا مجبرين على ذلك. عندما انطلقنا في رحلتنا قاصدين هذا المكان لم نكن نحمل سوى بضع الملابس التي تقضي حاجتنا في الطريق و فيما بعده من أيام.

ورغم صعوبة الرحلة و وعورة الطريق إلا أن ذلك لم يمنع الكثيرين من حمل الأغراض الكثيرة التي يعجز عدة أشخاص عن حملها و كأنه قد حمل كل أثاث بيته.

وقد اظطر بعضهم إلى استأجار راحلة في الطريق يضع عليها أمتعته .
وكانت الراحلة هي الحمار.

بعد أن وصلنا إلى هنا و انتقلنا إلى البيت قمنا بشراء الكثير من احتياجاته و لكننا ظننا أننا سنعود لنسافر من داخل الأردن و لكن ذلك لم يكن ممكناً
مما اظطرنا للاستعانة بصديقنا الدائم في الأزمات و الذي كان عند حسن ظننا دائماً
و هو ابن عمنا أبو عاصم .
طلبنا منه أن يودع أغراضنا عنده فلبى طلبنا ثم أخبرنا بأنه أنهى العمل.

وها نحن الآن هنا على وشك العودة إلى سورية عائدين من مخيم الأزرق كما أتينا لا نحمل سوى الملابس التي نرتديها

و كما كنا في رحلة العودة كان غيرنا كما أتى في رحلة القدوم حاملاً أمتعةً كثيرة .
لاشك أن الدابة في هذه المرحلة لن تكون قادرة على حملها و لا شك أنها لن تكون هذه المرة متوفرة أساساً فطريق العودة أسهل بكثير من طريق القدوم.

عجز مجموعة من الشباب طلبت منهم إحدى العجائز مساعدتها في وضع أمتعتها في صندوق السيارة فجاء الظابط و طلب من الناس إفساح المكان ليرى ما يقومون بعمله

فأوسع الأمكنة بيديه و رجلييه حتى استوعب المكان أخيراً متاع هذه المرأة .
قدم أحد الظباط و بدأ يصيح بالأسماء فالتف الناس حوله فسارعنا لمعرفة ما يحمله من أوراق فتبين لنا أنه يهتف بأسماء الناس الذين وافقت إدارة المخيم على منحهم إجازة لمدة محددة

فانفضضنا من حوله و بدأنا ننتظر الظابط الذي سيصيح بأسمائنا .
لم يتأخر كثيراً فبعد أن انسحبنا من تلك الحلقة بدأت حلقة أخرى تتشكل إلى مقربة منه
فبدأنا نقترب من الظابط الذي يصرخ بالاسماء.
و أخيراً وجدنا الشخص الذي ننتظره منذ الصباح كان يصيح باسم كل شخص و بعد أن يعطيه الشخص الورقة التي حصل عليها من مكتب المفوضية يعطيه الظابط ورقة أخرى تمثل آخر أوراق الرجل التي يحصل عليها هنا .
إلا أن الهويات التي استلمناها عند دخولنا مخيم الأزرق لا تزال بحوزتنا و لا ندري متى سنتخلص منها صعدنا في السيارة أخيراً لم تكن سيارة صغيرة و إنما حافلةً كبيرةً من نوع بولمان .
بدأنا نعتمر الكراسي فيه و نلقي النظرات الأخيرة على هذا المكان و الذي لن نراه بعد الآن مدى حياتنا. جلست إلى جانبي العجوز المسنة صاحبة المتاع الكثير
فاغتنمت الفرصة لأعرف عن سر رغبتها في العودة إلى سورية مع أنها عجوز متقدمة في السن يوشك الموت أن يعاجلها في أي لحظة بسبب الأمراض الكثيرة التي تكتسح جسدها .
سألتها " من أين أنت ؟".
فتبين أن لديها مشكلة أخرى فهي من دير الزور و هذا يعني أن الوصول إلى هناك سيكلفها كثيراً
سألتها "ما الذي يدفعك للعودة أليس البقاء هنا أفضل لك ".
فأجابت قائلة : "إن الموت في بلادنا خير من الموت في هذا المكان".
يبدو شعور الإنسان بالحنين لوطنه لا يفتأ يخالجه حتى وهو على مسافة قريبة من الموت.
وقبل أن يهم السائق بالإنطلاق صعد أحد الظباط إلى الحافلة و بدأ يتفقد الناس من جديد
ثم نزل بسرعة
وعندها بدأ الباص يتوجه قافلاً نحو سورية .
في طريقنا إلى الوصول إلى هنا سابقاً صادفنا بعض الناس ممن جاؤوا فرفضت السلطات إدخالهم و قذفتهم إلى سورية فكانوا يسخرون من الفرق بين طريق الذهاب و طريق العودة.
قال لي أحدهم :"استمرت رحلتي حتى وصلت إلى الأردن أسبوعاً كاملاً و عندما أرادوا قذفي كانت نصف ساعة كافية حتى أعود إلى المكان الذي خرجت منه".
ظننا حسب كلام من سبقنا أن المسافة قريبة جداً و لكن السائق استمر في السير أكثر من ساعةٍ كاملة
و لا نزال داخل الأردن و أخيراً خرجت السيارة عن مسارها و انعطفت نحو أحد الطرقات
و بعد أن شاهدنا المكان ميزناه بسرعة فقد خبرناه سابقاً .
و صلنا أخيراً إلى المكان الذي دخلنا منه أول مرة إلى مخيم الأزرق و سنخرج منه اليوم إلى سورية وصلنا أخيراً إلى "مربع السرحان".

بينَ حَزم الخارج وخَطر الدّاخِل

عندما وصلنا إلى مربع السرحان في المرة السابقة كانت الساعة قد جاوزت الرابعة مساءً و انتظرنا طويلاً حتى بدأ الموظفون عملهم دون أن نعرف عن سبب تأخيرهم شيئاً .
عندما قدمنا كنا ثلاث حافلات كل واحدة تحوي ما يقارب الستين شخصا أو تنقص قليلاً
و ها نحن اليوم هنا في طريق العودة إلا أن عددنا أقل منه عندما دخلنا حافلتان فقط تحمل العائدين إلى سورية
إحداهما القادمة من مخيم الأزرق و هي التي قدمنا فيها و الأخرى قادمة من مخيم الزعتري .
وصلنا هذه المرة صباحاً و الساعة لم تجاوز الثانية عشرة .
كما حصل معنا عند دخولنا يحصل الآن توقفت السيارات و بدأنا ننتظر دون أ، نعرف ما سبب هذا التوقف .
وبعد نصف ساعة تقريباً عادت السيارات إلى الحركة و اقتربت أكثر من المربع و بعد أن توقفت صعد إلينا أحد الشباب الذي يرتدي الزي المدني و بدأ يشرح لنا ما يجب علينا فعله
فقال :"ستنزلون الآن الواحد تلو الآخر تقومون بتسليم الهويات التي استلمتموها عند دخولكم المخيم ثم يعود كل واحد منكم إلى مكانه".
رغم أن المسافة لا تزال بعيدة بيننا و بين سورية إلا أنه بدأ يحذرنا بشكل مخيف
قائلاً :" أغلقوا الجوالات لو سمحتم ".
لم نفهم سر طلبه و لكن معظمنا امتثل أمره و أغلق الهاتف ثم عاد ليؤكد علينا مجدداً
قائلاً :" ممنوع استعمال الجوال هل تفهمون كلامي و إياكم أن يقوم أحد منكم بالاتصال بأهله في سوريا كل ما تحتاجونه هو بعض الوقت حتى تصلوا إلى هناك فلا داعي للإستعجال".
أغلق جميع الموجودين هواتفهم و بدأنا ننزل من الحافلة الواحد تلو الآخر
و كان الموظفون يجلسون بمكان أشبه بخيمة فيها طاولات انتظار و فيها حاسب آلي ينزل كل شخص فيعطيه الهوية فيتأمل الموظف وجهه قليلاً ثم يتأمل هويته ثم يأمره بالرجوع إلى مكانه
أعطى معظم الركاب هوياتهم و بدأوا بالإنتظار لكن إحدى النساء بدأت تشعر بالقلق لأن زوجها قد نزل ليعطيهم الهوية و لم يعد حتى الآن سألناها ما سبب تأخيره
فقالت :" لا أعرف كل ما في المسألة أنه نظر إلى وجهه ثم قال له ابقَ هنا دون أن نعرف السبب و لكن أخاف أن تكون المشاجرة الكلامية التي جرت بينه و بين أحدهم هي سبب تأخيره ".
إنتظرنا بضع دقائق أخرى حتى عاد الرجل و زال الهم عن زوجته .

عند خروج الرجل الأخير أيقنا بأننا الآن سننطلق و لكن انتظرنا قليلاً ليخرج علينا الشاب الذي صعد عند وصولنا ثم قال بلهجة غاضبة :" من قام بالإتصال بسورية أجيبوني بسرعة قبل أن ألغي الرحلة و أعيدكم إلى الداخل ".
عندما كنا نريد الدخول كان تهديدهم بأنهم سيعيدوننا إلى سورية و اليوم انقلب التهديد إلى جهة أخرى وهي بأنهم سيعيدوننا إلى داخل الأردن لا أحد يريد العودة الآن فقد شارفنا على الوصول و لا نريد أن نعود لمعاناتنا مع الموظفين و إجراءاتهم الرسمية التي لا تكاد تنتهي
فبدأ الناس ينظرون إلى بعضهم كلٌ يتساءل عن هذا الذي عوق الرحلة الآن و يتمنى أن يخرج بسرعة.
أعاد الشاب سؤاله بلهجة أكثر غضباً قائلاً :" من قام بالإتصال بسورية ".
لم أستطع إدراك كيف عرفوا بهذه المهاتفة و لكن يبدو أن أجهزتهم متطورة جداً .
بدأ صبر الرجل ينفذ و بدأنا نظن أن هناك خطأً في المسألة و قبل أن يعيد السؤال مرة ثالثة رفعت أمرأة يدها على مضض و قالت :" أنا قمت بالإتصال".
نظر إليها و قد جعله الغضب يكتفي بتوسعة حدقة عينيه أكثر
و قال :" ألم أقل لكم أن الإتصال ممنوع أنتم لا تقدرون خطورة المسألة إذا استطاع النظام أن يحدد إحداثيات مكان وجودكم فلا تستبعدوا أن يكون أول من يستقبلكم هي قذائفه ".
حاولت المرأة أن تبرر تصرفها فطلب منها الهاتف فتصفحه قليلاً ثم أعاده عليها
و قال :" لا بأس ستعودون الآن ".
نزل هذا الشاب ثم بعد لحظات صعد رجل آخر قد جعلنا لباسه الأسود الكامل نوقن بأنه من المخابرات إنه الرجل الأصلع ذاته الذي استقبلنا عندما دخلنا و تعارك مع أحد الشباب السوريين القادمين معنا لسوء فهم حصل بينهما
و ها هو الآن يقف مرتدياً نظاراته السوداء .
لا نعرف ما يريد منا ربما يبحث عن العراك أو أنه سيودعنا في أحسن الأحوال.
لم يطل انتظارنا كثيراً فبعد صعوده مباشرة بدأ الكلام
و قال :" انتبهوا أنتم عائدون إلى سورية ، أنتم كنتم لاجئين هنا وقد اخترتم العودة إلى بلدكم فليس بإمكانكم العودة إلى هنا مستقبلاً إنتبهوا لهذا الأمر جيداً
اللجوء لمرة واحدة ، فلا يخدعنكم أحد و يخبركم بأنه قادر على إعادتكم مقابل مبلغ مالي هذا مجرد كلام لاأصل له
نحن نحاول إقصاء أسلوب الرشوة من عندنا و نوشك أن ننجح في ذلك و إن بدت بعض التجاوزات فسنستأصلها قريباً ".
ثم عاد ليأكد كلامه فقال :" لن يُسمح لكم بالدخول إلى الأردن فيما لو عدتم فيما بعد ".

بقدر ما كان يحمل كلامه من التهديد و الجدية كان يشعرني برغبة أكبر في الضحك من هذا الموقف. الرجل يهددنا بعدم الدخول إلى الأردن مستقبلاً لم أكن أشك أن جميع الموجودين هنا لن ترادوهم هذه الفكرة مجدداً .

أنهى الرجل كلامه ثم ترجل من الحافلة نظر إلينا السائق نظرة أخيرة ثم بدأ هدير المحركات يتصاعد معلناً أن المرحلة الأخيرة من طريق العودة قد بدأت الآن .

انطلقت السيارة أولاً على طريقٍ معبد مدةَ ساعة تقريباً ثم انحرف عن هذا الطريق و بدأ يسلك طرقاً فرعية إلى أن سلك في النهاية طريقاً ترابياً .

ظننا عند سلوكه للطريق الترابي أننا قد وصلنا إلى سورية و لكنه استمر في السير مدة.

كنا نظن أن القذف يتم إلى حدود منظمة أي أننا سننزل لنجد الناس تغدو و تروح من هذا المكان لكن تبين أن خيالنا قد تجاوز الواقع قليلاً .

فبعد سلوكه الطريق الترابي بدأنا نشهد أشجار الزيتون في كل مكان و بدأنا نشعر بأننا دخلنا في مدينة درعا .

سارت السيارة في الطريق الترابي و بصحبتها سيارة المسافرين الآخرين بالإضافة الى سيارة أخرى كانت أمامنا .

بعد لحظات توقف جميع السيارات فجأة ثم فُتح باب حافلتنا ليخرج الرجل الأصلع ذاته

و يبدأ الكلام مرة أخرى فقال :" حسناً هل تعرفون أين أنتم الآن ؟."

لم يجبه أحد فأجاب بنفسه قائلاً :" أنتم الآن في سورية ".

ثم تطرق فجأة إلى الكلام عن السياسة

و قال :" كلهم لا يريدون إنهاء الحرب لو أرادوا إنهاءها لأرسلوا طيارةً إلى قصر الأسد

و لكن الآن كل من في الداخل هم تجار حرب لا تغرنكم الأسماء الرنانة الآن الجيش الحر الجيش الوطني كلاهما تجار حرب الآن ".

ثم قال متسائلاً :" لماذا نساعدكم نحن؟."

فلم يجبه أحد

فأجاب نفسه مرة أخرى و قال :" نحن خارج هذه الحرب لسنا مع هؤلاء و لا مع أولئك نحن مع هؤلاء". ثم أشار إلى أحد الأطفال الصغار الذي كان ينام في حضن أمه قريباً منه.

أنهى الرجل استطراده السياسي ثم قال إلى هنا تنتهي مهمتنا نحن.

ثم نزل و عاد بعد لحظات بصحبة أحد ضباط الجيش الأردني يرتدي الزي العسكري

فقال :" هذا الظابط سيقوم بإيصالكم الآن إلى داخل الأراضي السورية اتبعوا كل ما يقوله لكم و لا تعصوه حتى لا تندموا".

ثم قال :"السلام عليكم ".

و نزل من الحافلة عائداً إلى سيارته التي كانت ترافقنا طوال الطريق.

رغم عودته إلا أن السيارة استمرت في الإنتظار .
بدأ الظابط الجديد ينظر إلينا متفحصاً ثم أخذ ورقة بأسماء المسافرين العائدين و بدأ يسأل عن هذه الأسماء ثم نزل و بعد لحظات جاءنا أحد الجنود
قائلاً :" انزلوا بسرعة و بهدوء ".
أشعرتنا كلماته بأننا نتسلل تسللاً للدخول إلى سورية كما تسللنا للخروج منها .
بدأ الجميع ينزل بسرعة و محاولاً اجتناب إحداث جلبة قدر المستطاع .
نزلنا أخيراً و بدأنا ننظر حولنا لا ندري إلى أين نتجه التفتنا قليلاً لنجد إحدى الآليات تحمل على ظهرها رشاشاً ثقيلاً " بي كي سي" و تتجول به يمنة و يسرة و إلى جانبها أيضاً مدرعة قريبة منها بالإضافة إلى الجنود المنتشرين حول المدرعات وقد جعلهم قضاء أيام متواصلة تحت أشعة الشمس يزدادون سمرة إلى سمرتهم الطبيعية.
شعرنا بأننا داخل معركة على وشك أن تبدأ ثم نادانا الظابط و طلب منا اللحاق به فمضينا خلفه ثم أمرنا بالوقوف فوقفنا
بدأنا ننظر أمامنا كان هناك حاجز رملي ارتفاعه يقارب المتر الواحد و خلفه أناس كثر جاوز عددهم العشرين لا نعرف ما ينتظرون
ما إن وقفنا خلف هذا الساتر الرملي حتى بدأ أولئك الناس يتحركون باتجاهنا
فبدأ الظابط يأمرهم بالتوقف عن الحركة لكن لم يلق إليه أحد بالاً
و استمروا بالتقدم ازداد غضب الضابط فبدأ يشتم و يقول توقفوا أيها البهائم و لكن إصرارهم على التقدم كان عجيباً
عندها شعر أحد الجنود بأن هيبة قائده لم تعد موجودة فلا بدّ من حل فحاول تدارك الموقف و رفع سلاحه في وجوه القادمين
و لكن أولئك الشباب كأن شيئاً لم يكن فقد استمروا بالتقدم غير آبهين للسلاح .
ازداد غضب الجندي عندها فقام بتلقيم السلاح و رفعه في وجوهم
و قال :" توقفوا قبل أن أضرب".
عندها خففوا من خطواتهم المتسارعة و لكنهم استمروا في المشي بخطىً أبطأ .
لم يكن للجندي أن يتهور و يطلق النار فقام بالتقاط الحصى من الأرض و ضربها باتجاه القادمين الذين وإن كان سعيهم نحونا قد خفت سرعته إلا أنهم لا يزالون ينتقلون بخطى بطيئة .
لم يعرف أحد منا سر إصرار هؤلاء الشباب على الدخول بهذه الطريقة
و التي تظهر أنهم لا يكترثون بحياتهم أساساً .
ظننا لوهلةٍ أنهم راغبون بالدخول إلى الأردن عن طريق هذه النقطة فهي لا تحتاج سوى مشي بضع الوقت حتى تصبح داخل الأردن دون أن تحتاج إلى المغامرة التي غامرناها في طريق قدومنا
و لكن هل تجعلهم رغبة الدخول مستعدين للموت في سبيلها .

لم تبقى سوى بضعة أمتار تفصل بين العسكري الذي يقف على الساتر الترابي و الناس الذين يمشون إليه

و في لحظة بدأ العسكري يصيح ارجع ارجع فهجم جميع القادمين نحونا .

ظننا للسرعة التي تحركوا فيها أن اشتباكاً سيحصل لا محالة و لكن ما إن تجاوز الشبان الساتر الترابي حتى أدار العسكري ظهره و مضى بعيداً عن الداخلين الجدد .

تابع الداخلون تحركهم بسرعة فما إن تجاوزوا الساتر حتى قام كل واحد منها بالتوجه نحو عدة أشخاص جاء أحدهم مسرعاً إلينا

وصاح بفرح هؤلاء لي هؤلاء لي فابتعد آخر كان متوجهاً إلينا.

بدأنا عندها ندرك شيئاً مما يدور حولنا فما إن وصل إلينا حتى سألنا " إلى أين تتوجهون ".

أخبرناه بأننا عائدون إلى قريتنا

فقال :" حسناً تعالوا معي ".

خرجنا جميعاً عندها من الأراضي الأردنية إلى الأراضي السورية أخيراً عبر تجاوز الساتر الرملي و الذي لا يرتفع اكثر من متر واحد .

وأخيرا أدركنا أن هؤلاء سائقوا سيارات ينتظرون المسافرين العائدين حتى يقوموا بإيصالهم

ولكننا لم نفهم مالذي يدفعهم إلى هذه الطريقة و إلى الاستعداد لمجابهة الرصاص بصدورهم .

ولكن أشغلتنا الوجهة التي نقصدها عن الخوض في هذا النقاش .

سرعة الحركة التي فاجأنا بها السائقون عندما ظفروا بنا جعلتنا نسير مع السائق دون أن نعرف كم يريد أجرةً حتى يقلنا

فسأله أخي أحمد

فقال :" لا بأس عليك تعالوا معي و لن نختلف ".

و هي الكلمة التي يأتي الخلاف بعدها مباشرة .

قبل أن ننطلق كان علينا أن نطمئن على صديقنا الحلبي و عائلته و الذي سيسافر الآن مسافة بعيدة جداً فذهبت إليه لأخبره بأننا سنعود الآن و قد كان يتجادل مع أحد السائقين

فقال :" لا بأس أنا سأمضي أيضاً ".

اتفق مع السائق الذي سيوصله عن طريق حواجز النظام و التي ستجعل الطريق أطول بأضعاف .

ودعت الرجل و مضيت عائداً إلى السائق الذي كان ينتظرني حتى يمضي بنا

عاد أبي ليسأله ذات السؤال

فقال له :" كم تريد أجرة".

فقال :" الأجرة ليست من اختصاصي ".

فسأله " من اختصاص من إذن؟".

فقال :" الأجرة يحددها الجيش الحر بما يناسب السائقين و الشعب و نحن نلتزم بها".
بدأت السيارة تعمل و سارت بضعة أمتار ليتوقف عند أحد الشبان الذي يرتدي الزي العسكري صاحب اللون الأبيض مما يعني أنه تابع للجيش الحر
فسأله عن مقدار الإجرة من هنا إلى أم ولد فقال ١٥٠٠٠ ليرة سورية تفاجأنا جميعاً بالمبلغ وبدأ أبي يحاول أن يخفض من السعر إلا أن إصرار السائق جعله يتوقف عند مبلغ ١٣٠٠٠ ليرة سورية .
لم يفهم أبي سر ارتفاع الأجرة إلى هذا الحد فقد كان أخي أحمد يتاجر بالنزين لمصلحة خالي و لم تصل الأسعار إلى هذا الحد .
استسلمنا أخيراً لرغبة السائق فلم يعد بإمكاننا النزول و بدأنا نجيل نظرنا لنرى ديارنا من جديد بعد غياب استمر أربعة شهور .

انتهت رحلتنا الطويلة إلى الأراضي الأردنية و ها نحن نعود إلى قريتنا.
ما إن دخلت السيارة قرية صيدا حتى بدأنا نتأقلم مع وضعنا الجديد و نشاهد الكهرباء تعمل فطلبنا من السائق أن يحث السير مسرعاً علنا ندرك الكهرباء تعمل فنقوم بشحن جوالاتنا و التي نفذت بطارياتها منذ عدة ساعات .
لم تأخذ مسافة العودة منا ذات الوقت الذي استغرقناه في القدوم انطلقنا من الأردن في حوالي الساعة الحادية عشرة و ها نحن ندخل قريتنا و الساعة لم تجاوز الخامسة بعد .
في حين أننا قضينا في طريق الذهاب أياماً متواصلة حتى وصلنا في النهاية إلى مخيم الأزرق .
رغم أن الوضع هنا ليس جيداً كثيراً إلا أن شعور العودة إلى المنزل يبقى له طعم خاص .
لا شيء جديد طرئ على المنزل سوى تراكم التراب و الغبار على السطوح و الممرات .
كانت وجهتنا بدايةً تركيا و ها قد وصلنا إلى سورية و لا شك أن الرحلة الآن إلى تركيا ستتطلب وقتاً أطول بالإضافة إلى مخاطر أكثر .
دخلنا سورية بتاريخ يوم الأربعاء ٢٠١٤/٩/٢٩ و لم يكن يفصلنا عن عيد الأضحى المبارك سوى بضعة الأيام .
و قدكان هو العيد الأول الذي أشهده في قريتنا بعد خروجي من السجن لذلك حاولت أن أشعر بمظاهر الفرح التي تلازم أجواء العيد و إن كانت الحرب قد غيبتها عن هذه البلاد .
لم انتظر كثيراً فقد كان العيد على وشك الدخول علينا و قد عدنا بحمد الله دون أن نقضيه في مخيم الأزرق فكانت فرحتنا مضاعفة فرحة بالعيد و فرحة بعدم شهوده في الأردن و حظوره في سورية .
عدنا الآن إلى الحياة الرتيبة التي كنا معتادين عليها قبل السفر .
رغم بساطة الحياة هنا إلا أن المخاطر التي تلازم جو الحرب أحياناً تجعلها معقدة أحياناً مضيت إلى صديقي إبراهيم لأرى ما قد حل به خلال غيابي هذه الفترة و كالعادة لا شيء جديد لا يزال يعمل في

صيدليته التي يديرها هو و مروان و يبدو أنه قد أبدى الإياس من العمل الجماعي للقرية المتمثل بالمجلس المحلي
فانطوى على نفسه و أصدقائه يحاول تحقيق ما يرى أن الجماعة فشلت أو لا ترغب بتحقيقه .
و بما أن عيد الأضحى على الأبواب فكل من يرغب بأداء أضحيته خارج البلاد يحاول أن يستغل هذه الفرصة فيرسل ثمن الأضحية إلى أحد الموجودين في الداخل إبراهيم أو المجلس المحلي و اللذان يقومان بذبح الأضاحي نيابة عن المسافرين .
و رغم كل المصاعب و المتاعب و ارتفاع الأسعار إلا أن عدد الأضاحي سيصل في هذا العيد إلى حد كبير حسب كلام إبراهيم .
وأخيراً حلَّ يوم العيد فتوجه الجميع لأداء الصلاة في المسجد على عادتهم كل سنة .
المسجد الذي كان يغص بالمصلين في كل عيد لا يحوي الآن إلا عدداً قليلاً ممن جاؤوا اليوم لأداء هذه الصلاة
لم يجاوز عددهم ثلاثة صفوف .
خطبة قصيرة ثم سارع كل إنسان للمضي إلى شأنه إما لتقديم أضحية أو تهنئة الأقارب بالعيد أو العودة إلى المنزل .
مضيت مع إبراهيم الذي مضى باتجاه بيته دخلنا هناك لأجد شابين أراهم لأول مرة
فقام الدكتور حيدر بتعريفنا بهم فذكر أسماءهما و قال إنهما من حزب التحرير لم أسمع خلال الثورة تاريخ الثورة السورية بأكمله عن وجود أو عن مشاركة لهذا الحزب هنا .
كل ما سمعته عنهم أن بعض الدعاة كان ينتقد طريقتهم و منهجهم و ظننت أن نشاط الحزب مقتصر على العمل في الأردن و لكن يبدو أن الثورة مكنت كل إنسان أن يدعو لتبني فكره .
رغم قدوم الشابين و نشاطهما السياسي إلا أن قريتنا كانت ركيزة العمل الأساسية فيها هي النشاط العسكري المتمثلة بجيش اليرموك حالياً و الذي يقوده أبو علي ، و عدة مجموعات أخرى لا توازي بوجودها وجود جيش اليرموك مما جعل كلام الشابين يراه البعض لا فائدة منه أو لا داعي له .
جلسنا قليلاً ثم مضينا لتلبية دعوة أبي عمر و الذي يعمل مع جيش اليرموك أيضاً تناولنا الطعام ثم مضى كل إنسان في وجهته رغم أن فرحة العيد كانت تسيطر على الأجواء إلا أن بعض البيوت لم تكن تخلو من غصة سببها فقد عزيز أو موت قريب .
جاء العيد هذه المرة ليحمل بالإضافة إلى فرحته خبراً صدمنا جميعاً
فقد تم اعتقال خالي أبو أحمد في السويداء .
لم أعرف السبب أولاً و لكن يبدو أن الجميع كان يتوقع حدوث هذا الشيء لنشاط خالي في تجارة المحروقات و التي باتت الوسيلة الأكثر إنتشاراً لكسب الرزق هذه الأيام
فقد بات من النادر أن تمر من جانب محل تجاري أو بيت أحياناً دون أن تجد على مقربة منه سعر البنزين و المازوت لهذا اليوم .

لم يكن باستطاعتنا أكثر من الإنتظار فخالي سجين لدى النظام و لا يستطيع إبراهيم رغم شبكة علاقاته الواسعة المحاولة في إخراجه مباشرة لهروبه من السجن و بالتالي عليه أن يستعين بواسطة تساعد على حل هذه المشكلة .
و لكن مهما يكن فقد كنا في أيام عيد و كانت جميع دوائر الدولة في عطلة الآن إلى حين إنتهاء إجازة العيد ظننت لوهلة عندما سمعت خبر اعتقاله أنه جاء على خلفية تواصله مع أهل القرية و الذين يمثلون الإرهابيين في نظر النظام ما يعني أن تهمته ستكون خطيرة فيما لو ثبت ذلك .
مضى العيد سريعاً و استمر سجن خالي دون أن نعرف هل سيخرج أم لا .
رغم وجوده في المخابرات الجوية و الذي كان يظهر طابعاً كبيراً من السرية عندما كنا معتقلين فيه ضمن فروعه في الشام إلا أن الجميع عرف بمكانه و أبدى إبراهيم أملاً كبيراً في خروجه بوقت قريب بعد أن تواصل إبراهيم مع أخوالي في الداخل و تمكنوا بعد تكاتف جهودهم من إخراج خالي بعد مدة إسبوعين فقط قضى منها أسبوعاً بسبب عطلة العيد .
لم يدخل خالي السجن وحيداً و إنما دخل برفقة صديقه الذي هو من أبناء السويداء مما خفف من حدة التهمة لوجود رجلين من طائفتين مختلفتين يصعب أو يستحيل اجتماعهما على هدف واحد .
خرج خالي و زميله سويةً و بعد أن جاء من السويداء و التي اتخذها مسكناً أخيراً ذهبنا جميعاً إلى إبراهيم حيث جاء أولاً إلى هناك حتى نهنئه بسلامته و بخروجه من السجن .
رغم أن الفترة كانت قصيرة إلا إنه بدا عليه خسران كمية لا بأس بها من وزنه .
بعد أن سلمنا عليه أردت أن أعرف كيف كان سجنه و هل جميع فروع المخابرات و الأمن تتعامل ذات المعاملة مع أي شخص كان مهما كانت تهمته أم أن التعذيب كان مقتصراً علينا ممن اعتقلنا أثناء المظاهرات.
فسألته كيف قضى سجنه فقال :" الأسبوع الأول كان عطلة قضيناها في انتظار حدوث شيء لا نعرف ما هو و لكننا تمنينا حدوثه و في الإسبوع التالي بدأ التحقيق فأجبتهم حسب أسئلتهم ".
ثم قال :" لقد تطرق الظابط مرة إلى موضوع مساعدتي للإرهابين إلا أنني أصرت أني لم أقدم لأحد شيئاً ثم بدأ الظابط يستعرض قدراته الإستخبارية أمامي فقال :" لا تعتقد أننا لا نعرف شيئاً عما يجري داخل قريتكم ، نحن نعرف كل شيء و أنا أعرف جميع الإرهابيين هناك ابتداء من أبي علي اللحام وصولاً إلى أصغر واحد فيهم"".
انحصرت معاناة خالي في غيابه عن أهله فترة العيد و وجوده في السجن .
و لم يكن هو الشخص الوحيد الذي اختار هذه التجارة وسيلة لكسب الرزق بل معظم أهل قريتنا إن لم يكن كلهم وجدوا في هذه التجارة وسيلة لكسب الرزق بل و لجمع الثروة حتى.
حتى أن أحد الأصدقاء عرض علي مشروعاً يتلخص بشراء سيارة و استعمالها في الذهاب إلى السويداء لجلب البنزين الذي غدت أسعاره في كل يوم تختلف عن غيره من الأيام

يتبع في ذلك مشاكل الطريق بين قريتنا و بين محافظة السويداء حتى غدا أشبه ببورصة أسهم لا يقر لها قرار.
انتهى العيد و بدأت الأيام تعود الى طابعها الروتيني الرتيب و يبدو أن تجارة المحروقات لم تعد مقتصرة على قريتنا فقط بل أغلب القرى باتت تمتهن هذه التجارة .
بدأت أنسى الناس الذين تعرفت عليهم خلال وجودي في السجن و ذلك لانقطاع التواصل بيننا إلا أن أبا عبدالله لم يقطعنا من زيارته
فبعد أن جاء في المرة السابقة و قد أطلق ذقنه و ارتدى اللباس الأفغاني ها هو يأتي اليوم مرة أخرى لزيارتنا وقد حط رحاله كما في المرة السابقة عند إبراهيم فأخبرني إبراهيم بذلك عن طريق مروان فمضيت مسرعاً لألقى الضيف الذي جاء و لم يخبرني مروان من هو .
دخلت إلى بيت إبراهيم لأجد أبا عبدالله قدم إلينا بعد غياب طويل .
لا زال أبو عبدالله يرتدي ذات اللباس الأفغاني و قد ازداد الشيب في لحيته هذه المرة لم يكن وحيداً بل كان يصطحب معه بعض أصدقائه كما كان يفعل دائماً .
جاء أبو عبدالله هذه المرة باحثاً عن وسيلة لكسب العيش و التي تتوفر هنا وهي تجارة المحروقات .
فقرب قريتنا من محافظة السويداء جعلها أشبه بنقطة لتمرير البضائع من السويداء إلى باقي القرى المجاورة لنا.
كان بصحبة أبي عبدالله رجل آخر و هو الذي يبحث عن استيراد المحروقات عبر قريتنا بالإضافة إلى شخص ثالث كان يتحدث بعيداً عن هذا الموضوع، فقد كان كلامه محصوراً في مسائل الإختلاف الدائر بين الفصائل المسلحة في سورية و أصوله الشرقية تدفعه للكلام عن الأحداث التي جرت في منطقته وهي المنطقة الشرقية من سورية دير الزور وقال موجهاً حديثه لإبراهيم حيث كانا يتناقشان في هذا الموضوع قبل وصولي
فقال :" و الله يا أخي أنا كنت من أنصار الدولة هناك و لكن أفعالهم معنا و انزوائهم على أنفسهم و الإختراقات التي اكتشفناها جعلتنا نتعارك معهم ".
فقال له إبراهيم :" كل مجموعة من المجاهدين تحوي المخلصين و غير المخلصين فنحن لا نشكك في إخلاص أحد و لكن يجب علينا ألا نركن إلى استخبارات الغرب أو نطمئن إليها
بالتأكيد هم لا يعرفون كل ما يدور هنا و لكن علينا ألا نكون ساذجين و نعتقد أن الإستخبارات قد تعجز عن اختراقنا أو أنها غافلة عما يحصل هنا لا شك أنهم يراقبون و يتصرفون حسب ما يناسب مصالحهم ".
رغم أن الزي الذي يرتديه أبو عبدالله يوحي بأنه من المجاهدين ضمن صفوف الجبهة
إلا أنه كان كان يقول دائماً أنه يعمل بانفراد و لا يريد الإقتصار على العمل مع فصيل معين .
مضى الوقت مسرعاً و أوشكت الشمس على المغيب فأصر الضيوف على العودة إلى بيوتهم قبل أن تغرب الشمس فسمح لهم إبراهيم بمغادرة البيت على مضض .

و لكن قبل أن يذهبوا سألني الرجل التاجر الذي جاء بصحبتهم قائلاً :" هل تستطيع أن تؤمن لي كمية من المازوت ؟".
قلت له :"كل القرية تمتهن هذه التجارة ، اطرق باب أي أحد و سيلبي طلبك بسرعة ".
فقال:" لكني أريد كمية كبيرة تقوم أنت بتأمينها عندما أطلب منك".
فكرت قليلاً ثم سألته :" و كم هي الكمية التي تريدها".
فقال :"٢٠ برميلاً ".
صدمني بكلامه فلا أعرف إن كان هناك أحد يقوم ببيع هذه الكمية فما أعرفه أن الناس يتوجهون إلى السويداء ليقوموا هناك بتعبئة صندوق البنزين ثم يعودون بسرعة إلى البيت ليقوموا بإفراغه و العودة مجدداً إلى السويداء إذا بقي لديهم وقت مما يعني أن منتهى تخزين أحدهم هنا سيكون ١٠٠ لتر أو ١٥٠ لتراً كحد أقصى .
فقلت له :" لا أعرف إن كان بإمكاني أن أؤمن لك هذه الكمية و لكني سأحاول البحث عمن يلبي حاجتك ".
قبل أن يمضوا حاولنا استذكار حال من كان معنا في السجن و إلى أي حال صاروا فسألنا أبا عبدالله عن طلال و الذي كان خلال وجوده في السجن الأكثر تحمساً للقتال في الخارج حتى أن حماسه الزائد دفعه ليقود الإستعصاء الذي حصل في سجنن غرز الذي كنا فيه و الذي انتهى بالفشل رغم قيام طلال باختطاف رئيس السجن و مجموعة من عناصر الشرطة .
فأجاب :" إنه يتاجر الآن أيضاً في المحروقات و قد مضى إلى الأردن منذ فترة ليست ببعيدة ".
دفعتنا حماسة طلال التي شهدناها خلال السجن إلى الإستغراب من الطريق الذي اختاره بعد تحرره .
مضى الضيوف عائدين إلى بيوتهم و أوشكت شمس اليوم على المغيب و لا أعرف إن كنت قادراً على تلبية رغبة الضيف أو أني سأخفق في ذلك لكن لابد من المحاولة.

انصرف أبو عبدالله و أصدقاؤه من ضيافة إبراهيم قبل أن يحل الغروب بوقت قصير.
لم أكن أعتقد أني سأجد كمية الوقود التي طلبها الضيف ٢٠ برميلاً يبدو شيئاً تعجيزياً بالنسبة إلي و لكنني قررت المضي في المحاولة.
سألت عن تجار الوقود الذين تتوفر لديهم كميات كبيرة فأشار الناس علي بالتوجه باتجاه جارنا غيث و الذي ورث الشهيد قاسم في قيادة الكتيبة.
مضيت إليه في اليوم التالي و قد وضعت في مخيلتي أسماء من سأمضي إليهم في حال لم أجد الكمبة المتوفرة عند غيث.
مضبت إليه عصراً لكني لم أجده في ذلك الوقت و لكن أهل بيته أخبروني بأنه سيعود مساءً فانتظرت إلى المساء ثم عدت إليه مرة أخرى و لكني لم أجده أيضاً و إنما وجدت أخاه الأصغر .

سألته إن كان بإمكانه أن يؤمن لي هذه الكمية الكبيرة و كل ظني أني سأخذ منه كمية صغيرة أُكمِلها من البائعين الآخرين المنتشرين في مختلف نواحي القرية
و لكن تبين أني كنت مخطأً في ظني فلم يظهر على وجهه أي تعبير يدل على المفاجأة عندما أخبرته بمقدار الكمية التي أريدها و إنما أجابني بكل هدوء
قائلاً :" متى تريدها ؟".
لم أكن قادراً على تحديد موعد قدوم الرجل فقدومه يعتمد على الإتصال بيني و بينه و لكني لا أملك رقمه أساساً و لا أعرف مدى جدية الرجل حتى الآن .
لذلك قلت له :" عند توفر الكمية سأخبر الرجل ".
فقال :" لكني لا أستطيع أن أحجز كمية عندي دون أن أبيعها إذا أردت الشراء فعليك أن تخبرني ما هو الوقت ، لإن السعر يختلف بين يوم و آخر بل و بين ساعة و أخرى البارحة بعناه بسعر و اليوم السعر مختلف تماماً ".
لم أكن قادراً على حسم الأمر من جهتي لذلك قلت له :" حسناً لا بأس سأسأل الرجل الذي يريد هذه الكمية ثم سأخبرك برده ".
لم أعد قادراً عندها على تحمل مسؤولية الكمية التي يريد الرجل شراءها فقد يطلب الرجل مني أن أتفق معه ثم يتعثر مجيئه عندها سأكون في موقف لا أحسد عليه
لذلك قررت أن أبتعد عن هذه المغامرة و أن أقوم بتعريف صديق أبي عبدالله التاجر بابن قريتنا التاجر .
لم يأت الرجل في اليوم التالي و لا في اليوم الذي تلاه مما جعلني أشعر بالإرتياح لأني لم أتورط بعقد كلامي مع الرجل .
بعد عدة أيام جاء صديق أبي عبدالله مرة أخرى إلينا لم يتوجه هذه المرة إلى إبراهيم و إنما قصد بيتنا مباشرة كان يركب سيارة جديدة صعدت في السيارة و مضينا سوياً لأرشده إلى بيت غيث و الذي كان كعادته ليس موجوداً في بيته و لكن العلاقة الآن أصبحت بينهما و لا علاقة لي بما يتفقان عليه . مضيت بعد ذلك عائداً إلى البيت لا أعرف ما يجب علي فعله .
كانت عودتنا من الأردن لغاية الذهاب إلى تركيا من طريق مطار عمان و لكننا فشلنا في ذلك و لم يعد لدينا خيار سوى سلوك الطريق الأصعب و هو السفر من قريتنا باتجاه تركيا مقتصرين في مرورنا على المناطق المحررة فقط و هذا ما سيصعب المسألة قليلاً أو كثيراً ربما .
فحسب معلوماتي إذا أردنا الانطلاق من الجنوب إلى الشمال فلا بد من المرور بالمنطقة الوسطى ألا و هي حمص و التي تقبع الآن تحت سيطرة النظام و الذي تمكن من استعادتها بعد جعل معظم المباني آثاراً للدمار و الخراب خلال وجودنا في السجن و كنا نرقب تلك الأحداث آملين بأن تكون الأخبار كاذبة و لكنها كانت صحيحة .

لا أعرف مع من سنتحدث حتى يشرح لنا الطريق أو يزودنا ببعض المعلومات عما نحتاجه في الطريق.
لذلك كان لا بد من السؤال و بعد أن تقصيت قليلاً عرفت أن أحد شباب قريتنا غادر القرية باتجاه تركيا و قد وصل بعد بضعة أيام حاولت أن اتواصل معه لكنني لم أجد إلى ذلك سبيلاً فبدأت أحاول سؤال من أعرفه من أصدقاء و معارف علّي أصل إلى حل .
قصدت مرة الحلاق لأحلق شعري و قد تحول دكانه إلى ما يشبه المنطقة الحرة التي يباع فيها كل شيء دون استثناء .
حتى إن مسألة بيع و شراء السلاح أصبحت أمراً معتاداً هنا بل و أغلب من يقوم بذلك يراها أصبحت ضرورة من ضروريات الحياة التي لا يمكن الإسغناء عنها .
جلست لأنتظر دوري بينما رحت أراقب جريان الصفقة بين الزبونين الآخرين اللذان سبقاني في التواجد في المحل .
وبين رفع و خفض للسعر من قبل البائع و تفحص و تأمل من قبل المشتري لم تنتهي العملية بنجاح فقد طلب البائع سعراً و عرض المشتري سعراً أقل بكثير منه لم يوافق عليه البائع، اكتفى المشتري بتفحص قطعة السلاح و التي كانت عبارة عن مسدس لا أعرف نوعه فلم أتثقف ثقافة السلاح بعد رغم ان الجميع قد تعلمها هنا .
قلب المشتري المسدس بين يديه ثم أعاده إلى البائع بعد أن أبدى أسفه لطلب البائع ثمناً غالياً لا يستطيع المشتري دفعه .
أخذ البائع الذي كان يحلق شعره سلاحه و مضى عائداً إلى قريته فلم يكن من أبناء قريتنا .
عندها جاء دوري و قمت لأقص شعري و لم يكن قد مضى وقت طويل على خروج تاجر السلاح حتى جاء تاجر آخر يبحث عن شراء اسطوانة غاز و التي تحولت أيضاً مع بداية الثورة إلى مشكلة تواجه أغلب الناس فتارة لا تكون موجودة و تارة يبلغ ثمنها حداً خيالياً تجعل من الصعب على الجميع التفكير باقتنائها و حتى أنه تحولت إلى وسيلة للتبرعات لمن يرغب بالمساعدة
حيث يقومون بشرائها من جارتنا المحافظة الهادئة محافظة السويداء ثم يقومون ببيعها في قريتنا بسعر رمزي أو بسعر يغطي الجهود التي بذلوها إلى حين وصول الإسطوانة إلى الرجل المحتاج .
و بعد أن أنهى الرجلان تجارتهما فكرت أن أسأل الحلاق ربما يفيدني بطريقة الوصول إلى تركيا أو ببعض المعلومات حتى .
لم يخيب الرجل ظني فقال إنه يعرف أحد المهربين يقوم بإيصالك من هنا إلى تركيا مقابل مبلغ بدا كبيراً بالنسبة إلي فقد طلب ٧٥٠٠٠ ليرة سورية للشخص الواحد .
فطلبت منه أن يكلم الرجل و أن يسأله إن كان لديه رحلة قريبة فقال :" عليك أن تنتظر عودة شبكة الإتصالات ، فأنا أكلمه عن طريق الإتصال بالهاتف و قد تستغرق عودة شبكة الإتصالات فترة طويلة". قلت :" له لا بئس ، أنا بانتظارك".

ثم مضيت عائداً إلى البيت ، لا أعرف إن كانت الرحلة قريبة أو بعيدة و لكن ما قاله الرجل جعل الرحلة في عداد المغيبات و لا بد من البحث عن وسيلة تكون أكثر ثقة بالنسبة إلي فأخبرت أخي أحمد بما قاله الحلاق لي ففكر قليلاً ثم قال :" سأذهب لأرى المهرب الذي سافرنا معه المرة الماضية باتجاه الأردن ربما يكون لديه شيء مفيد بالنسبة لنا ".

ذهب أحمد ثم عاد بعد قليل ليقول لي :" إن كنت جاداً في السفر فغداً هناك رحلة سيقوم الرجل بإيصالها إلى تركيا ".

فاجأني كلامه فقد توقعت أن تكون هناك مسافة زمنية أكبر مما قاله أحمد لي و لم أكن مستعداً للإنطلاق مباشرة فقلت له :" إذا كانت الرحلات مهيئة إلى هذه الدرجة و كل ما يفعلونه هو انتظار قدوم المسافرين حتى يقوموا بايصالهم بالأفضل أن ننتظر إلى بعد غد ، لا لشيء و إنما حتى نستعد نفسياً و جسدياً لهذه الرحلة التي لا شك أنها ستكون بصعوبة الرحلة باتجاه الأردن و ربما أصعب من ذلك".

أخبر الرجل أحمد بأننا في حال رغبنا بالسفر معه علينا أن نخبره و في حال عدم عودة أخي أحمد لتأكيد سفرنا سيعتبر أننا لن نذهب معه فتركنا الرجل يمضي في رحلته في ذلك اليوم بدوننا .

اليوم التالي سيكون هو اليوم الأخير في القرية بالنسبة لنا فجاء الأقرباء ليودعونا .

جرَّب أبي الطريق في المرة السابقة في الرحلة إلى الأردن و خَبِره و قد عانى كثيراً خلال المشي في طريق وعر اللجاة ولم يكن مستعداً لتكرار التجربة فكان علينا أن نسافر وحدنا أنا و أخي أحمد و هذا سيخفف من صعوبة الطريق بالنسبة لنا .

مضى النهار سريعاً و مضت الأيام الكثيرة التي قضيتها منذ خروجي من السجن و قدومي إلى القرية قضيت ثلاثة أشهر و نصف تقريباً بعد خروجي من السجن إلى تاريخ انطلاقنا إلى الأردن .

و ها نحن نقضي شهرين و بضعة أيام منذ قدومنا من الأردن مرت بسرعة كبيرة لم نشعر خلالها أننا قضينا كل هذا الوقت .

كانت القرية شبه خالية من أصدقائي باستثناء أصدقاء السجن فتحول أصدقاء أخي أحمد إلى أصدقائي أيضاً.

الجميع كان يبحث عن السفر الشباب و الرجال و النساء معظمهم يرغب في التوجه إلى الأردن و البعض كان يفكر في تركيا و لكنهم قليلون جداً مقارنة بمن يتوجه إلى الأردن.

سألت صديقه إسماعيل إن كان يرغب بمرافقتنا في هذه الرحلة و لكن ساقه المصابة بطلق ناري و الذي تعرض له خلال محاولة الدخول إلى الأردن عن طريق التهريب جعلته يرفض هذه الفكرة و يركن إلى الجلوس هنا ريثما تشفى إصابته تماماً .

معظم أصدقاء الدراسة كانوا قد غادروا القرية و معظمهم توجه الى الخليج و خلال وجودي في أحد الأيام عند إبراهيم أقضي بعض الوقت توقفت سيارة صغيرة أعرفها جيداً و نزل منها أحد الأصدقاء

تقدم قليلاً إلي و ابتسم فعرفته مباشرة إنه تامر صديقي من أيام الدراسة في المدرسة الإبتدائية و يبدو أنه زميل الدراسة الوحيد الذي بقي في هذا المكان .
سلم علي بحرارة و بدأ يهنأني على الخروج من السجن و بدأت أسأله ماذا فعلت به الأيام هل تزوج أم لا يزال وحيداً فأخبرني أنه تزوج و قد رزق بفتاة جميلة منذ فترة ليست ببعيدة ثم سألته كيف قضى الوقت خلال وجودي في السجن فبدأ يحدثني عن المعاناة التي تعرض لها خلال الثورة
فقال :" كنت أقوم بمساعدة أبي في عملنا المعتاد على السيارة و في أحد الأيام استوقفني حاجز للنظام و تم إرسالي للالتحاق بالخدمة الإلزامية بحجة أنه لا عذر لي في التأجيل و كان ذلك في الشهر الثالث من عام ٢٠١٣ أي خلال اشتداد وطأة الحرب".
تعجبت منه فكيف له أن يلتحق في هذا الوقت ثم يتمكن من الفرار بسهولة فما عرفته أنه مع مضي الأيام أصبحت مسألة الإنشقاق أشبه بالمستحيل لإنه مع تقدم الثورة يزداد تضييق النظام على جنوده حتى أن المنشق ربما يكون يخاطر بحياته في محاولته للهرب من قطعته فسألته كيف تمكن من الهرب فقال لي :" كل العساكر يربدون الهرب و لكن لا أحد يتمكن من ذلك و الوسيلة الوحيدة للهرب عن طريق إجازة ، فبدأت أقدم طلبات الإجازة بشكل يومي ، رغم أنه لم يمضِ على وجودي في القطعة العسكرية سوى بضعة أيام حتى الآن .
الشباب الموجودون معي كان ينظرون إلي و يستغربون من طلبي قائلين ما بال هذا المجنون لم يمضي على وجوده هنا سوى بضعة أيام و هو يقوم بطلب إجازة و ينتظر الرد على طلبه لا شك أن مجنون و قد كان هناك قرار معلق من قيادة الجيش يقضي بعدم السماح لأحد بالحصول على إجازة إلا إذا كان مصاباً بطلق ناري خلال الثورة و لكنني استمريت في طلب الإجازة بشكل متواصل إلى أن وافق عليها قائد القطعة فمضيت مسرعاً إلى السويداء أولاً ثم قمنا جميعاً بالتسلل أنا و عائلتي من بين الأشجار من السويداء إلى درعا ".
يبدو أني لست الناجي الوحيد فهروب تامر أيضاً يمثل نجاة شخص آخر كان سيواجه المصير المحتوم فيما لو بقي في قطعته أي الموت .
رغم أن قريتنا هادئة نسبياً مقارنة بالقرى المجاورة إلا أن تامر اختار النزوح مع عائلته إلى إحدى القرى المجاورة لقريتنا و التي يبدو أن عدد الموجودين فيها كان ينعش تجارة تامر.
عدت إلى البيت بعد لقائي تامر لأعود إلى حياتي التقليدية و بعد مضي الوقت عزمنا أخيراً على السفر إلى تركيا فذهب أخي أحمد إلى المهرب ليخبره بأننا نرغب بالسفر معه غداً فقال لا بئس إذاً انتظروني غداً في الثامنة و النصف صباحاً فأجابه أحمد بالموافقة ثم عاد ليخبرنا بموعد رحلتنا غداً .

في قَلب السّويداء

جاء أصدقاء أخي أحمد ليودعوه قبل أن يمضي في رحلته المجهولة النتيجة و بدأوا يحذرونه بناءً على ما سمعوه من أصدقائهم الذين مضوا في ذات الرحلة من أن يكون جواله يحوي أي شيء كان حتى و لو كانت مجرد صور فقد يلقى حتفه إذا وجد معه الدواعش صوراً للجيش الحر أو أي شيء يتعلق بالثورة فقام أحمد بحذف كل ملفات الهاتف و قمت بما قام به إلا أني حذفت برامج الإتصال حتى و بقي هاتفي لا يحوي شيئاً حسب معرفتي .
مضى أصدقاء أحمد إلى بيوتهم في وقت مبكر حتى يتركوا له الوقت ليرتاح قليلاً قبل أن ينطلق في سفره غداً و بعد أن نمنا نومة هادئة استيقظنا على قرع الباب مجدداً خرجت لأعرف من هذا القادم في هذا الوقت المبكر فكان ضيوف الأمس هم ضيوف اليوم أي أصدقاء أحمد جلسوا في البيت قليلاً و بدأنا نرتدي ثيابنا و نعدُّ ما نحتاج لأخذه معنا في السفر .
علمتنا التجربة السابقة أنه علينا أن لا نحمل الكثير من الأغراض لذلك اكتفينا بالثياب التي نرتديها و التي ضاعفنا عددها حتى لا نضطر لحملها و بذلك سنخرج من القرية غير حاملين أي شيء باستثناء ثيابنا .
كان موعدنا مع المهرب في الثامنة و النصف صباحاً و كنا نتوقع تأخيره فهذا أمرٌ اعتدناه و لكنه لم يتأخر كثيراً لم تجاوز الساعة الثامنة و الخمس و أربعين دقيقة حتى بدأ صوت السيارة يعلو في الخارج و بدأ ينبهنا بمزمار سيارته فخرجنا لنجد الرجل ينتظرنا .
طلبنا منه بعض الوقت حتى ننتهي من تحضير أنفسنا و قمنا بالإضافة إلى أخذ الثياب بأخذ ما لا تتم الرحلة بدونه ألا وهو النقود .
الإتفاق كان يقضي بدفع ٤٠,٠٠٠ ليرة سورية للشخص الواحد.
مبلغ يبدو كبيراً إلا أن العملة السورية قد أصبحت معدومة القيمة خلال الثورة.
أنهينا كل شيء سريعاً و صعدنا في ذات السيارة التي صعدنا فيها في المرة السابقة عندما توجهنا إلى الأردن مع ذات الشخص إلا أن الفرق الوحيد بين هذه الرحلة و سابقتها أننا جلسنا أنا و أخي في المقدمة إلى جانب السائق في حين جلس أبي و محمود في الإمام في المرة الماضية .
قمنا بتوديع الموجودين قبل أن نصعد بالسيارة ثم تابعنا التوديع عن طريق التلويح باليد لهم و بدأت السيارة تمضي في طريقها نحو المجهول.
في المرة الماضية انطلقنا من قريتنا ثم لندخل قرية المسيفرة لنتابع في طريقنا أما في هذه المرة فقد آثر السائق المضي بنا في طريق آخر فقبل أن يدخل قرية المسيفرة انعطف نحو الشمال و مضى إلى

قرية الكرك الشرقي التي تقع غرب قريتنا فدخلها و مضى في طرقاتها يبحث عن الطريق الذي سيوصله إلى القرية التالية و هي الغارية الشرقية .
كان الجو ماطراً الليلة الماضية مما جعل آثار المطر تتجمع في البقع المختلفة و رغم مطر البارحة إلا أن شمس اليوم تزداد في الحرارة بشكل تدريجي و رغم أن قريتنا أهدئ نسبياً من هذه القرية بالنسبة لعدد القذائف المتساقطة عليها إلا أنه يبدو أن الناس هنا أكثر من الناس في قريتنا .
فقد غادرنا قريتنا قبل قليل و لم نكد نصادف أحداً سوى بضعة أشخاص أما هنا فالكثير من الناس يتجولون في الطرقات جيئة و ذهاباً لا نعرف إلى أين وجهتهم.
تابع الرجل طريقه لنقطع القرية الأولى و نمضي باتجاه القرية التالية و هي الغرية الشرقية و لم نكن صامتين خلال وجودنا في هذه السيارة البيضاء الصغيرة و إنما حاولنا التحدث مع الرجل لمعرفة المزيد من المعلومات عن الطريق و إن كانت الرحلة تحوي نسبة مخاطرة كبيرة أم أنها لا تختلف عن رحلتنا نحو الأردن فعاد ليؤكد علينا أن " الطريق آمن ، كلُّ ما في السألة أنه عليكم أن تمشوا مسافة قد تكون كبيرة و الأهم من ذلك هو أنه يجب إبقاء جوالاتكم آمنة أي احذفوا منها أي صورة تحوي سلاحاً أو أي شيء له علاقة بالثورة ".
قلنا له:" أننا فعلنا ذلك بناء على نصيحة أصدقائنا".
فقال :" لا بأس إذاً ، الطريق آمن".
سألناه إن كان بإمكانه أن يخفض لنا من الثمن الذي طلبه فاعتذر قائلاً :" أنه ليس الوحيد القائم على العمل إنما يعمل مع بضعة أشخاص و لا يستطيع أن يتسامح في حقهم ".
تابع الرجل في طريقه لنستمر في اجتياز سلسلة القرى التي تفصل بيننا و بين و جهتنا القرية التي تبدو عليها آثار الدمار أكثر من غيرها حتى الآن هي الحراك فبعض البيوت محترقة تماماً و بعضها يظهر عليه بشكل جلي آثار اصطدام البراميل بها .
قبل أن نواصل في طريقنا نحو قرية بصر الحرير أخبرنا الرجلُ أنه سيعرج بنا على أحد بيوت أصدقائه لأنه جلب له معه شيئاً يتعلق بميكانيك السيارة كان الرجل قد طلبه منه فمضى بنا إلى بيت صديقه و أعطاه أغراضه ثم سأله بأي طريق ينصحنا بأن نسلكه فمناطق الإستهداف يبدو أنها تتغير من وقت لآخر
فقال له :" لا تسلك الطريق الرئيسي فقد تم استهداف إحدى السيارات البارحة و أصيبت السيارة لكنها نجت ، فلا تعلم ربما تكون أنت الضحية ، و قال عليك أن تسلك الطريق القديم ".
بقيَ الرجل متردداً قليلاً في اختيار الطريق الذي سيسلكه فحتى مع استهداف الطريق فربما يكون أمراً استثنائياً حدث البارحة فقط
فسار في السيارة و نحن لا نعرف أي طريق سيسلكه فوصل إلى طريق معبد يبدو أنه الطريق التقليدي الذي ينتقلون من خلاله إلى القرية المجاورة ثم فكر قليلاً فأدار عجلة السيارة و مضى عائداً إلى الخلف و قال :" لا داعي للمخاطرة من الأفضل أن نستمع إلى النصيحة ".

بدأ يسير بسيارته إلى أن وصلنا إلى طريق ترابي و بدأ يمضي به و قد جعلت أشعة الشمس التي لا تزال حرارتها في ازدياد منذ الصبح الطريق الترابي يجف و بدأ الغبار المرافق لمسير السيارة يتصاعد ليس الغبار ما خشيناه و إنما بدأنا نتخوف أن يعطي الغبار المتصاعد تنبيهاً للقطعة العسكرية المجاورة لنا فيقوموا على إثر ذلك باستهدافنا في بداية الطريق .

كانت الأبنية تحيط بنا و تجعل نسبة المخاطرة أقل و قد وصلنا تقريباً إلى نهاية الأبنية فتمهل الرجل قليلاً حتى توقف ثم نظر يمنة و يسرة و الخوف باد على وجهه و قبل أن يعزم على المضي مرت سيارة بجوارنا إلا أنها كانت عائدة من الوجهة التي نقصدها الآن فسأله الرجل الذي معنا إن كان الطريق آمناً أم لا

فقال له :" انتبه قاموا أمس باستهداف الطريق ، و لا أعرف ماذا قد يخطر ببالهم اليوم ثم قال توكل على الله و امض في طريقك".

نظر الرجل إلينا و كأنه يحبس أنفاسه ثم وجه نظره باتجاه الطريق و أعطى السيارة أكبر قدر من البنزين حتى تندفع بأقصى سرعة .

لم تكن المسافة المكشوفة و التي يمكن حدوث استهداف لسيارتنا خلالها كبيرة فقد قطعتها السيارة في بضع دقائق لنصل أخيراً إلى القرية التي سننطلق منها نحو تركيا و هي قرية بصر الحرير.

الدمار هنا مشابه لمدينة الحراك أو يزيد عليها و المناظر لا تختلف كثيراً عما رأيناه سابقاً عندما كنا نتوجه نحو الأردن و يبدو أن آخر معركة قد جرت هنا قد مضى عليها زمن بعيد و هي معركة عمود حوران و التي أخذت تغطية إعلامية جعلت من القرية تشتهر بصور الدمار و الخراب في مختلف أحيائها.

مضينا إلى ذات الرجل الذي قدمنا عليه في المرة السابقة و هو أبو أنور .

بعد أن نزلنا من السيارة و دخلنا البيت لم نجد أحداً كما في المرة السابقة و إنما وجدنا صاحب المنزل فقط بالإضافة إلى شاب أسمر تجلس إلى جانبه فتاة قد ارتدت الخمار .

كالعادة الشيء الأهم حتى تدخل هذا المكان هو دفع ما عليك من نقود فأعطيناه المبلغ الذي طلبه و هو ١٦,٥٠٠ ليرة سورية عن كل شخص تعتبر جزءاً من أجرة الطريق الكاملة و التي علينا أن ندفعها في مراحلة مختلفة من الطريق .

لم أكن أتخيل أن أبيت في هذا المكان فالبيت لا يشجع على قضاء الوقت فيه بالإضافة إلى أن الكهرباء معدومة و لا شيء نفعله هنا سوى الإنتظار الأمر الذي يجعل الوقت يمر ببطئ شديد

فقلت للمهرب الذي سيتولى إرشادنا في بقية الطريق أن يجلي لنا الأمر إن كان من الممكن أن ننطلق اليوم أم أننا سنقضي هذا اليوم هنا و لكن المهرب أصابني بالإحباط عندما قال :" و ماذا بيدي أن أفعل ليس لك إلا الإنتظار لو أتيت مبكراً لأدركت الرحلة التي خرجت اليوم و لكنك تأخرت ، و هذا الرجل و أشار إلى الشاب و زوجته ، ينتظر هو و عائلته لأن المجموعة انطلقت بدونه كل ما تستطيعان فعله الآن هو الإنتظار".

رغم أن المهرب يقول أننا وصلنا متأخرين إلا أن النهار لم ينتصف بعد بل لم تبلغ الساعة الحادية عشرة صباحاً مما يعني أن علينا قضاء يوم طويل متعب سيكون من ضمن أيام طريق السفر التي نقضيها خارج قريتنا ما من شيء نفعله الآن حتى يحل الغد سوى الإقتصار بالتسلية على الهواتف المحمولة و التي لا نعرف إلى أي وقت ستبقى محتفظة بشحنها دون كهرباء .

اقترب منا الشاب الأسمر و الذي يبدو أنه الوحيد الذي سيرافقنا في هذه الرحلة مع زوجته و بعد أن سلم علينا طلب منا الاتصال مع أحد أقربائه في الإردن عن طريق الإنترنت إلا أن شبكة الإنترنت كانت متوقفة أيضاً حالها كحال باقي الخدمات في هذه المنطقة .

بدأنا نحاول التخفيف من وطأة الإنتظار بمحاولة النوم تارة و باستخدتم الهاتف الجوال تارة أخرى و كان علينا أن نبدأ بإعداد أنفسنا لقضاء هذه الليلة هنا في ظل هذه الظروف التي نعيشها

فمضينا إلى الدكان لشراء بعض الشمع ننير به ليلتنا الطويلة المعتمة بالإضافة لشراء بعض الطعام حتى لا نصاب بالجوع .

رغم أن المنطقة هنا أشبه بصحراء قاحلة أي أن الخدمات فيها شبه معدومة إلا أنه لم يحل المساء حتى بدأت شبكة الإنترنت بالعمل ثم و بعد وقت قليل تبعتها الكهرباء أيضاً لتجعل من المكان الميت مكاناً أكثر حياة إلا أن فرحتنا بعودة الكهرباء للعمل لم تدم طويلاً فلم تجاوز مدة عملها الساعة ثم عادت للإنقطاع مجدداً و أما شبكة الإنترنت فكانت تعمل بشكل متقطع تعمل ساعة و تغيب ساعات .

مضى النهار أخيراً بعد عدة محاولات منا في جعله أقصر و قد حل الظلام و زاد من وحشة المكان لنشعر بأننا في أحد البيوت المهجورة التي قد أكل عليها الدهر و شرب و لا يخلو الأمر من بعض القطط التي تتسلل إلى النافذة لتلقي النظر إلينا ، و التي نشعر بالخوف منها عند رؤيتها للوهلة الأولى ظناً منا أنها حيوان مفترس ثم نشعر بالصدمة بعد أن نكتشف أنها مجرد قطة .

مضت الليلة الطويلة بصعوبة و لم ندرك إن كان وجود الشمعة يبث روحاً من الحياة في المكان أم أنه يزيد المكان رعباً خلدنا إلى النوم و نحن ندعو و نتمنى أن يقدم إلينا الكثير من الناس غداً صباحاً حتى نتمكن من المضي قدماً في هذه الرحلة .

مع إشراقة شمس الصباح سمعنا صوت أقدام تتجه نحونا ثم وقفت عند الباب و دخلت الغرفة بعد أن طرقت الباب طرقات خفيفة نظرنا إليه لنجد أحد الشباب و الذي يبدو من حقيبته أنه عازم على السفر إلى تركيا بالتأكيد فطريق عمان مغلق و طريق السفر الوحيد الآن هو نحو تركيا.

سلم علينا الشاب و دخل ليجلس في الغرفة و يبدأ بالإنتظار كما كنا نفعل نحن بالأمس سألته عن وجهته و من أي قرية هو فقال :" أنه من قرية الجيزة و أنه يتوجه إلى تركيا ليستطيع من خلالها العودة إلى الكويت حيث مكان عمله حتى يدرك إقامته قبل أن تنتهي فقد أغلقت الأردن حتى طريق السفر من خلالها و لم يعد أمامي سوى اللجوء إلى هذا الطريق".

قمت بعد المسافرين مجدداً فقلت :" إن العدد لا يزال قليلاً و لا ندري إن كنا سنتمكن من المضي اليوم أم سننتظر إلى الغد ".

فقال الشاب :" لا بأس إن أراد منا الانتظار حتى الغد فسأعود إلى القرية".
قلت له :" ستعود الآن و ترجع غداً ؟".
فقال :" نعم ما المشكلة هذا خير من البقاء هنا ثم إن هذه ليست تجربتي الأولى فقد قدمت في الأمس و لكني لم أدرك الرحلة فعدت إلى القرية و دفعت ثمن العودة ٥٠٠٠ ليرة سورية ".
قلت له :" لا بأس إن شاء الله سننطلق في رحلتنا اليوم و لن تظطر إلى العودة إلى قريتك مجدداً ".
كان الجو معاكسا لجو البارحة تماماً فلا أثر للشمس سوى بالضوء الذي تنشره من خلال الغيوم مما جعلنا نشعر أن هذا اليوم سيكون بارداً أكثر من سابقه .

مع دخول القادم الجديد بات عددنا خمسة أشخاص إلا أنه ليس عدداً كافياً لتسيير هذه الرحلة فلا بد من الإنتظار و لا نعرف كم ستستمر مدته .
بعد وصول عبد الكريم ببعض الوقت بدأنا نسمع وقع خطواتٍ كثيرة في الخارج مما بث الأمل فينا مجدداً بأننا لن ننتظر المزيد من الوقت و لن نظطر لقضاء يوم آخر هنا .
خرجنا جميعاً من الغرفة لننظر من هم القادمون الجدد كان العدد كبيراً و هذا ما يهمنا أكثر من أي شيء آخر.
بدأ الجو الندي يزداد برودةً و اختفت الشمس تماماً خلف الغيوم بينما بدأ القادمون الجدد يفاوضون المهرب و يتفقون معه على الوجهة و التكلفة و على كيفية سير الرحلة.
تولى الكلام معه أحدهم و كانت لهجته شامية و انصرف الآخرون ينتظرون النتيجة التي يصل إليها زميلهم بدأ اثنان يتراجعان القرآن و يتذاكران سورة يوسف مما جعلني أستعيد ذكريات السجن عندما كنا نحفظ سورة يوسف أيضاً .
بدا على وجه أحدهم الخوف بشكل واضح جداً رغم أنه كان يحاول ضبط تصرفاته إلا أن تعابير وجهه كانت تظهر خوفه بشكل جلي .
بعد أن أنهى الرجل الشامي حديثه بدأ الشخص الآخر يتكلم مع المهرب و بعد أن أنهوا حديثهم المنفرد ارتفع صوت المهرب قائلاً :" لا تخف يا أخي ، قل لهم كنت في الأردن و قد قاموا بأخذ هويتي عندما قذفوني ".
حاول بعض أصدقاء المهرب الذين كانوا يقفون على مسافة قريبة من الحوار بأن يخففوا من ضغط الرجل فقال أحدهم :" لا تبالغ في خوفك ، لن يتعرض لك أحد اطمئن ".
رغم التطمينات المتوالية التي سمعها الشاب إلا أن الخوف لم يكن يفارقه.
بعد ذلك انصرف الجميع إلى شؤونهم و بدأنا ننتظر قدوم السيارة التي ستقلنا إلى النقطة التي سنبدأ منها المشي و هي ذاتها النقطة التي انطلقنا منها المرة الماضية و هي اللجاة .
التنبيهات المتوالية للجميع " انتبهوا إلى جوالاتكم ،و احذفوا كل ما يمكن أن يعرضكم لخطر".

انتظرنا قليلاً لتصل السيارة بعد قليل نحن الآن في منتصف الشتاء و الجو خلال الرحلة لا شك أنه سيكون بارداً فقد كان بارداً في منتصف الصيف فلا شك أنه سيكون في الشتاء أشد برودةً بكثير .
السيارة القادمة اليوم تحمل شادراً يمنع تساقط الأمطار علينا في حال كان الجو مهيئاً لذلك .
صعدنا جميعاً في السيارة وصعد الرجل المتزوج أبو جهاد و زوجته في الإمام إلى جانب السائق .
كانت أرض السيارة باردة فقام أحدهم بجلب فرشة كانت للمهرب قائلاً له :" لن نأخذها معنا ، و ستعود لك مع السائق في سيارته ".
تنازل المهرب عن فرشته مقابل إصرار الشاب على ذلك و صعدنا جميعاً في السيارة لنبدأ الرحلة .
بدأت عجلات السيارة تعمل و بدأت تزداد سرعتها لتزداد استجابتها أيضاً لعثرات الطريق و منعطفاته مما جعلنا نترنح يمنة و يسارة داخل السيارة .
اللجاة ليست بعيدة من هنا و لكن الطريق يحوي الكثير من العثرات .
قبل أن ندخل قرية اللجاة توقفت السيارة على غير عادتها دون أن نعرف السبب فقال أحدهم :" حاجز ، حاجز".
جاء رجلان يحملان السلاح إلينا، وقفوا أمامنا ثم تفحصوا وجوهنا قليلاً ثم قالوا :"هوياتكم شباب لو سمحتم ".
بدأ الجميع يخرج ما يحمل من إثباتات شخصية فأخرجت جواز سفري فرأوه ثم أعادوه لي دون أن يعلقوا. عبدالكريم من الجيزة لم يواجه مشاكل فقد كان يحمل هويته أما الشباب الذين قدموا قبل انطلاق الرحلة لم يكونوا يحملون إثباتات شخصية باستثناء أوراق زرقاء و بعض أوراق بألوان أخرى فسألهم الرجلان المسلحان عن ذلك فقالوا :" كنا محبوسين في لبنان و قد أطلقوا سراحنا ، و لكنهم لم يعطونا أي إثباتات شخصية ".
تفحص أحد المسلحين و الذي كان يضرب وجهه إلى السمرة الأوراق و وجوهَ المسافرين ثم أعاد الأوراق إلى أصحابها ، و بدأ ينتظر أن يزوده الشاب الأخير و الذي كان خائفاً قبل الإنطلاق بإثباتاته الشخصية إلا أن الشاب فيما يبدو لم يكن يحمل شيئاً
فسأله المسلح :" أين هويتك ".
فقال الرجل و الارتباك باد عليه :" لا أملك هوية ".
فقال المسلح :" دفتر الجيش ، جواز السفر ، أي إثبات لشخصيتك ".
فقال الرجل :" ليس معي شيء ".
فقال أحدهم :" إنه منشق ".
فتغيرت تعابير وجه الرجل المسلح عندما سمع تلك الكلمات فقال مستغرباً :" منشق ، متى قمت بالإنشقاق؟".
ازداد ارتباك الرجل و قال بحذر :" في الشهر التاسع ".
فازدادت تعابير الدهشة على وجه المسلح فقال :" انزل ، انزل".

خاف الشاب الذي كان معنا ، و بعد قليل جاء مسلح آخر فقال :" ما المشكلة؟".
فأجابه المسلح الآخر قائلاً " إنه منشق".
فتولى المسلح الجديد الكلام فقال :" من أين انشققت؟".
فقال الرجل :" من معبر نصيب الحدودي ".
فقال المسلح :" لا شك أنك كنت حاضراً في المعركة الأخيرة التي دارت هناك".
ازداد خوف الشاب أكثر فبدأ الشاب المسلح يهون من هول الصدمة التي تلقاها الرجل فقال :" حسناً ، سنتركك إذا تشفَّع لك أهل حوران ".
فقال عبدالكريم عندها :" اتركه ، دعه يمضي في طريقه".
فسأله المسلح :" هل نتركه؟".
فأعاد عبدالكريم كلمته و قال :" اتركه".
فقال المسلح :" طيب ، لقد نجوت هذه المرة و إلا فنحن من عادتنا أننا نقوم بقتل كل من لم يمضِ على انشقاقه ستة أشهر ، و لولا أن حظك كان جيداً لكنت مت هنا ".
و أشار بيده إلى التراب القريب منه ثم صاح المسلح بالسائق قائلاً :" امضِ في طريقك ".
حاول عبدالكريم أن يعبر عن شكره للمسلح لأنه لم يخيب ظنه فصاح قائلاً :" رحم الله أبا إسلام".
و هو قائد ألوية العمري سابقاً فأجابه المسلح :" بنعم ".
ثم عاد محرك السيارة للهدير و عادت عجلات السيارة للعمل ليعود معها الدم شيئاً فشيئاً إلى وجه الرجل المنشق حديثاً .
بدأ أحد الموجودين معنا يقوم بتعنيف الشاب المنشق على الموقف الذي عرض نفسه له و كان الغضب بادياً في كلامه فقال :" ما بالك يا رجل ، انتبه لما تقول ، حاجز للدولة أو حاجز للنصرة أو حاجز للحر و تدفع حياتك ثمناً لذلك الأفضل ألا تقول أنك منشق ".
لم يعرف الرجل بماذا عليه أن يجيب ففضل السكوت .
بعد أن تجاوزنا أول حاجز من الحواجز بدأنا نتعمق داخل قرية اللجاة .
الجديد الآن هو الكتابات المتوزعة على جدران بعض المنازل " باقية و تتمدد"
" قادمون" ، " دولتنا منصورة" هذه كانت بعض الكتابات التي ترحب بقدوم داعش إلى اللجاة و منها إلى الجنوب .
بدأ المطر يتساقط حولنا و لكن بقطرات خفيفة لتتوقف بعد لحظات على مسافة ليست بعيدة عن المكامن الذي وقفنا عنده سابقاً .
عادت السيارة للتوقف مجدداً جاء أحدهم إلينا و طلب منا جميعاً النزول من السيارة .
الفرق بين هذا الشاب و الشاب المسلح على أول حاجز أن الأول ذقنه خفيفة و وجهه مكشوف إلا أن القادم إلى هنا يغطي وجهه و تظهر ملامحه البسيطة الظاهرة للعيان أنه أقل سناً من الشاب السابق.

نزلنا جميعاً من السيارة فطلبوا منا أولاً الإثباتات الشخصية فأخذوها جميعاً ثم طلبوا جميع هواتفنا المحمولة فقمنا جميعاً بإعطائهم كل ما نحمل من هواتف و إثباتات شخصية .
خلال هذا الوقت كان قد دخل وقت صلاة الظهر فسألنا أحد الشاب و الذي كان وجهه مكشوفاً و قد أطال شعره و ذقنه و قصر شاربه و كان يقوم بتفحص الهويات سألناه إن كان بإمكاننا أن نصلي في مكان ما فنحن لا نعرف القبلة و لا شك أن الصلاة داخل هذه الحجرة المبنية من الحجر و التي توجد على مسافة قريبة منا خير من الصلاة في العراء في هذا الجو
فقال :" اذهبوا إلى الغرفة و صلوا هناك".
فمضى بعضنا إلى الغرفة و مضى آخرون إلى الوضوء دخلنا إلى الغرفة لنجد بعض الشباب المسلحين يقومون بتناول الإفطار سبعة شباب أو أكثر يجلسون على كمية قليلة من الطعام من الواضح أنه من طبخ أحدهم لا شك أن جهاد الجوع لوحده هنا هو جهاد مستقل .
سألنا الشباب عن القبلة فأشاروا لنا إلى جهتها فدخلنا حجرة أخرى إلى جانب الحجرة الأولى لكنها أصغر بكثير لنؤدي صلاتنا و بعد أن انتهينا عدنا سريعاً إلى حيث تقف السيارة لنبدأ بانتظار الشاب الذي أخذ هواتفنا أن يعيدها لنا .
نظرت إلى الشاب الذي يتفحص الهواتف فوجدته مستغرقاً بعمله بشكل جدي و كان يجلس في سيارة على مسافة قريبة منا و يتأمل الهواتف و بعد قليل جاء ليعيد إلينا كل ما أخذه من هواتف و إثباتات شخصية. أخذنا حوائجنا ثم صعدنا في السيارة مجدداً فقال أحدهم موجهاً الكلام لعبد الكريم :" من هي أقوى فصائل الجنوب ".
فأجابه عبد الكريم دون تردد قائلاً :" الجبهة أي جبهة النصرة و هي صاحبة الحاجز الأخير الذي تجاوزناه الآن ".
لم يستمر النقاش طويلاً فسرعان ما عاودت السيارة التوقف مجدداً و طلب منا السائق النزول لإننا وصلنا إلى الطريق الذي سنحتاج إلى المشي فيه.
عددنا أحد عشر شخصاً عددٌ سيسهل مهمتنا في المشي فلن نظطر لانتظار النساء و الأطفال كما احتجنا إلى ذلك في رحلتنا الأولى إلى الأردن المرأة الوحيدة الموجودة معنا هي زوجة أبي جهاد و يبدو عليها الشباب و لن تعيقنا في رحلتنا كثيراً أو هكذا نظن .
لم يكن السائق هو من سيرشدنا و إنما انتظر شخصاً آخر فقام بالإتصال معه هاتفياً ليحظر ذلك الرجل بعد لحظات و بعد أن وصل إلينا رفع يده مشيراً بأن علينا أن نتبعه فبدأنا الرحلة بسرعة .
لا شيء جديد حتى الآن الطريق مشابه للطريق السابق إلا أنه يبدو أقل صعوبة مما مضى ربما لإننا اعتدنا عليه في المرة السابقة و المهرب يبعث الأمل فينا تماماً كما كان يفعل في المرة السابقة مشيراً إلى أحد قمم الجبال التي تبدو قريبة قائلاً :" سنذهب إلى هناك، و لن نحتاج إلى وقت طويل مجرد ساعتان أو ثلاثة على الأكثر".

طأطأنا رؤوسنا أنا و أخي أحمد راضين بما يقوله الرجل فقد سمعنا ذات الكلام في المرة السابقة و قمنا بالمشي عشر ساعات إلى قمة كانت تبدو أقرب من هذه حتى.
بدأ الطريق يعود إلى طبيعته التي ألفناها سابقاً صخرة ترفعنا و أخرى تظطرنا للنزول. ارتفعنا على أحد الصخور العالية قليلاً فبدأ المرشد يصيح بنا قائلاً :" انخفض ، انخفض".
لم أفهم سر هذا الخوف المفاجئ فقد قطعنا الطريق في المرة السابقة و لم يخف أحد كل هذا الخوف الذي دفع الرجل إلى الصراخ بهذه الطريقة .
و بعد أن اقتربنا من بعضنا قال المهرب :" ابقوا قريبين من بعضكم فهناك قطعة عسكرية تتموضع على مسافة قريبة منا ".
زادنا كلام الرجل هلعاً على الهلع الذي سببه صراخه لنا فاستمعنا لنصيحته و اقتربنا من بعضنا حتى نتجاوز مرحلة الخطر و التي لا نعرف كم ستمتد .
رغم أن كل المسافرين هم شباب إلا أن طبيعة الطريق كانت تجبرنا على الإستراحة في بعض الأحيان.
قمنا خلال وجودنا في الحاجز الأخير الخاص بالنصرة بأداء الصلاة جمعاً و قصراً لأننا مسافرون إلا ن بعض الشباب لم يصلوا هناك فطلبوا من المهرب التوقف قليلاً ريثما ينهون الصلاة فاستوى أحدهم إلى إحدى الصخور و بدأ يرفع الأذان .
منظر لم نعتده في السفر فعادة أغلب الناس أنهم يؤدون الصلاة في طريق السفر مقتصرين في اهتمامهم على دخول الوقت غير مهتمين بأداء الأذان أدى الجمع الصلاة ثم عدنا لنتابع الطريق .
كان أحدهم يقوم بتوزيع التمر للشباب المسافربن و آخر كان يحمل بسكوياتاً .
يبدو أن هؤلاء الشباب لا يحملون هم المخاطرة في هذه الرحلة و يبدو أنهم يعتقدون أنها رحلة للترويح عن النفس .
بعد ثلاث ساعات تقريباً توقف المهرب و قال :" بالنسبة إلي فقد انتهت مهمتي ، و سيصل الرجل الآخر الذي سيقوم بإيصالكم إلى المكان التالي قريباً ".
بعد كلامه ببضع دقائق وصل الشاب الآخر فسلما على بعضهما ثم قام المهرب الأول بتوديعنا لنبدأ رحلتنا مع الرجل الآخر الذي وصل للتو .
بذات السرعة التي كنا نسير بها مع الشخص الأول بدأنا بالسير مع الشخص الثاني كل هذا الوقت سرناه و كانت الشمس تظهر أحياناً و تختفي أحياناً أخرى
و لكن الشمس قد تبلدت بالغيوم الآن و لا نعرف متى قدرتنا على السير في حال تساقط المطر فالأرض ترابية و بمجرد هطول المطر سيتحول التراب إلى طين و سيكون من الصعب المشي عليه .
لم يكن بإمكاننا سوى المتابعة في السير سواء عادت الشمس للسطوع أو بدأت الأمطار بالهطول .
لأول مرة يصيب المهرب في تقديراته فبعد ثلاث ساعات من المشي تقريباً قام المهرب الأول بإنهاء مهمته عبر تسليمنا إلى المهرب الآخر .

عاودنا السير مجدداً في هذا الجو الذي غابت شمسه تماماً ، بعد مسيرة بعض الوقت بدأت الأمطار بالهطول لتصعب الطريق علينا .

كنا نعتقد أن الصخور الكثيرة المتوزعة في أرجاء هذه المنطقة ستخفف من تأثير المطر و لن تعيقنا عن السير إلا أنه بعد هطول قليل من الأمطار تبين أننا كنا مخطئين و بدأنا نجد صعوبة في نقل ارجلنا من مكان لآخر و بدأنا نحاول إيجاد حل لذلك عبر الإقتصار في سيرنا على المناطق التي تحوي الصخور الكبيرة .

لم تقتصر المشكلة على مشكلة الطين فقط فقد بدأت الأمطار تتساقط بسرعة أكبر مما جعل ثيابنا ممتلئة بالماء.

المهرب الجديد قال أن الرحلة لن تستغرق سوى ثلاث ساعات فقط ست ساعات من المشي المتواصل تبدو منطقية و مقبولة في إيصالنا إلى وجهتنا .

لم يستمر هطول الأمطار بشكل متواصل فقد هطلت أحياناً و توقفت أخرى و مع توقف الأمطار و ظهور قوس قزح في الأفق بدأ الجميع يستغل هذا المنظر الرائع في كسر روتين الطريق من خلال التقاط الصور في الطريق .

بعد ثلاث ساعات سيكون علينا قطع طريق السويداء دمشق إلى الجانب الآخر حيث تنتظرنا السيارة التي ستقلنا في بقية الطريق هذا كل ما كنا نفكر فيه و هذا يعني أنه كلما أسرعنا في المشي كلما وصلنا إلى السيارة في وقت أقل و لن نحتاج إلى المشي عندها مما دفعنا إلى الإسراع أكثر و أكثر. كنا نظن أن صعوبة الطريق ستواجه فقط الفتاة التي معنا زوجة أبي جهاد إلا أنه حتى الشباب بدو متعبين من متابعة الطريق

فحاولنا الإستراحة قليلاً لكن هطول الأمطار المتواصل دفعنا إلى التفكير أن المشي خير من الإنتظار تحت هذه الأمطار .

كلما مشينا أكثر نظرنا إلى المهرب متأملين أن يبدأ بمهاتفة السيارة و هذا سيعني لنا أننا وصلنا و أخيراً بعد مشي ما يقارب ثلاث ساعات نظرنا إلى المهرب لنراه يقوم برفع الهاتف حتى يتصل مع أحدهم مما جعلنا نتنفس الصعداء لإحساسنا بأننا وصلنا إلى المكان الذي نريده.

تحدث الرجل فترة ثم أغلق الهاتف ثم عاد ليتصل مرة أخرى و بعد أن أنهى كلامه طأطأ رأسه إلى الأرض كأن هناك شيئاً سيئاً يخشى إخبارنا به ثم جاء حاملاً معه أخباراً صادمة

فقال:" إن النهر يجري هذا اليوم بسبب هطول الأمطار المتواصل و لن تأتي السيارة لأخذكم".

و توقف عن الكلام .

لم يستسغ أحد كلامه فإذا لم تأتي السيارة فماذا علينا أن نفعل هل علينا أن نعود من حيث أتينا و نقطع ذات المسافة ثم نعود غداً لنحاول ذات المحاولة هذا أمر لم يكن مقبول لأحد منا .

فبدأ الجميع يناقش المهرب :" لماذا ما السبب ، النهر قادم هذه حجة ليست مقنعة اتصل بالسيارة و أخبرها بأنه عليها أن تلاقينا حيث اتفقتم ".

و لكن المهرب كان يائساً تماماً فقال :" السيارة لم تأتِ ، و الأمطار التي هطلت شكلت نهراً جعلت من المستحيل على السيارة عبوره ".
استشاط عبد الكريم القادم من درعا غضباً و الذي كان الأكثر استعجالاً فقال :" لا ، لا ، لابد من حل أجبر السيارة على القدوم ".
فكرر المهرب كلامه مرة أخرى فقال عبد الكريم :" إذاً هل سنرجع الآن ؟".
فأجابه المهرب :" لا ، هناك مكان قريب هنا يحوي بعض الأغطية ستقضون به الليلة حتى الغد".
إلا أن الفكرة لم ترق لعبد الكريم فقال :" يبدو أني سأعود ".
فقال المهرب :" عد إن شئت مهمتي تنتهي عند إيصالكم إلى وجهتكم ".
لم يكن عبدالكريم الشخص الوحيد العازم على العودة و إنما الشباب الآخرون بدأوا يفكرون بذلك و لكنني كنت مستغرباً منهم كيف تمكنوا من حفظ الطريق من أول مرة
فسألت أحدهم و كيف سترجع هل تحفظ الطريق فقال :" لا ،أنا لا أحفظه و إنما هذا يحفظه و أخرج من جيبه جهازاً إلكترونياً سألته ما هذا فقال هذا جهاز جي بي اس و قد قمت بحفظ الطريق الذي قدمنا منه حتى الآن ".
يبدو أن هؤلاء الأشخاص قد أعدوا نفسهم جيداً للرحلة .
بدأ التخبط يظهر على وجوه الجميع و بدا أننا سنرضى بالحل الذي عرضه المهرب علينا و هو المضي إلى أحد البيوت القريبة من هذا المكان ثم الانتظار حتى حلول الغد عسى أن يكون الطريق متوفراً .
فسألنا المهرب مستسلمين :" أين هو المكان الذي سنقضي فيه هذه الليلة".
فأشار إلى أحد الإتجاهات و يظهر في آخرها بيتان يقفان إلى جانب بعضهما فسلمنا بالأمر الواقع و بدأنا نمضي إلى اتجاه جديد في رحلتنا.
أوشك النهار على الإنتهاء و زادت الغيوم المتواجدة في السماء من سرعة انتشار الظلام فكان علينا أن نسرع أكثر قبل أن يحدث شيء لا تحمد عقباه .
بعد مسير بعض الوقت شاهدنا البيتين قريبين منا فأسرعنا إليهما حتى نختبئ من هذا الجو الذي انقلب إلى البرد القارس بسبب ابتلال ثيابنا بالماء .
لم ييأس الشباب من احتمالية قدوم السيارة فاستمروا يسألون المهرب أن يتواصل مع الرجل و يخبره بأن عليه القدوم و لكن المهرب كان واضحاً و قال :" السيارة لن تأتِ فلا تتعبوا أنفسكم أنا لا أفيدكم بشيء".
غضب عبدالكريم كثيراً و قال :" اتصل مع صديقك ماهر المهرب الأساسي و أعطني إياه حتى أكلمه".
فلبى الرجل الطلب على مضض استلم عبد الكريم الهاتف فبدأ بالكلام بهدوء أولاً ثم ارتفعت حدة صوته ليبدأ بالصراخ قائلاً :" تريدون أن تخدعونا ، ألم ندفع النقود التي طلبتموها فلماذا هذا التصرف".

حاول الرجل على الجانب الآخر من الهاتف تهدئته إلا أن ذلك لم يجد نفعاً فاستمر عبد الكريم بالصراخ و قال :" إذا لم تحظر السيارة و ننطلق اليوم فسأشكوكم إلى جبهة النصرة ".
تحدث الطرف الآخر قليلاً ثم أغلق الهاتف فبدأ الجميع ينظر إلى عبدالكريم ليرى نتيجة صراخه هل عاد علينا بالنفع أم أنه مجرد تنفيس عن غضبه فنظر إلينا نظرة المنتصر و قال :" سيأتي ماهر بعد قليل".
بدأنا ننتظر قدوم الرجل متأملين أن يقدم لنا حلاً للمشكلة التي نواجهها الآن.
لم يطل انتظارنا فبعد انتهاء المكالمة ببضع دقائق سمعنا صوت تحرك خلف المنزل الذي كنا نقف أمامه فحاولنا استكشاف القادم فكان شاباً بدوياً فأشار المهرب إليه و قال :" هذا صاحبكم ماهر".
فقال ماهر :" ما بالكم ما المشكلة؟"
فتولى شاب شامي النقاش و قال :" المشكلة يا أخي أننا نريد المضي في طريقنا و الرجل يقول السيارة غير موجودة و نحن لا نريد الإنتظار أكثر ".
فكرر ماهر كلام المهرب الأول :" الطريق مغلق بسبب الأمطار التي شكلت نهراً يستحيل على السيارة عبوره و لا بد لكم من الإنتظار للغد هذا هو خياركم الوحيد".
لم يكن أحد على استعداد لقضاء الليلة في هذا المكان الموحش و قد قطعنا مسافة طويلة دون طعام و بدأ الجوع يسيطر علينا فقال أحدهم :" لماذا لا نذهب باتجاه هذه القرية و أشار بيده إلى المباني التي تبعد عنا مسافة ليست بكبيرة ".
فقال ماهر :" خياركم الوحيد هو الجلوس في هذا المكان لإن إخبارية واحدة كافية بأن يستضيفكم النظام في سجونه و لا شك أنه مما من أحد منكم يرغب بهذه الضيافة ".
لم يعد أمامنا خيار سوى الركون إلى البقاء هنا بانتظار قدوم الغد عسى أن يحمل أخباراً أكثر تفاؤلاً قدم البدوي غاضباً لكنه كظم غيظه إلى أن انتهى الحديث ثم سأل عن الرجل الذي كلمه في الهاتف فقد بدا على وجهه أن كلمات عبدالكريم أثارت اشمئزازه
فقال :" من كلمني في الهاتف؟".
فقدم عبدالكريم و قال :" أنا كلمتك ".
فقال له :" تعال معي". ثم مشوا إلى مسافة قريبة منا و بدأا يتحدثان ثم عادا سوية لم يستطع ماهر أن ينفس عن غضبه فنطق ببعض كلمات قبل أن يذهب تبين جودة عمله
فقال :" الدنيا كلها تعرف عملنا سواء كانت جبهة النصرة أو الجيش الحر و ما حصل اليوم كان خارجاً عن إراداتنا و ليس لكم إلا الإنتظار حتى حلول الغد ".
بدأنا نتخوف من قضاء يوم آخر في الطريق في حال هطلت الأمطار فقلنا له :" و غداً هل سنمضي بالتأكيد أم أن ما حدث معنا اليوم سيتكرر في الغد ؟".
لم يجزم ماهر بجوابه و قال :" نرجو أن تواصلوا طريقكم غداً ".

ثم أراد المضي عائداً إلى بيته فقلنا له :" قبل أن يذهب لقد أنهكنا الجوع فاجلب معك بعض الطعام لنا ".

فقال: " حسناً ". ثم غادر باتجاه القرية.

البيتان اللذان نقف أمامها عبارة عن غرفتان منفصلتان مبنيتان من الحجر كما هي المباني القديمة في قريتنا و إلى جانبهما أيضاً غرفة مكشوفة السقف يبدو أنها كانت زريبة للحيوانات .

كان البرد مسيطراً علينا فبدأنا نحاول إشعال النار و قد كانت الزريبة تحوي بعض المواد المشتعلة من مخلفات الحيوانات فبدأنا نحاول إشعالها .

بدأت النار تضيء شيئاً فشيئاً أمام البيتان اللذان سننام فيهما هذه الليلة و بعد محاولات عديدة بدأت النار تبث شيئاً من الدفء في أجسادنا التي أنهكها البرد و التعب .

لم نكن نفكر في أنفسنا كثيراً في هذا الوقت رغم صعوبة الوضع الذي نواجهه و إنما جميعنا حمل همَّ الزوج والزوجة القادمان معنا في هذا الموقف.

و أبدى أحدهم تأثره قائلاً :" صدقوني لا أشعر بشيء من التعب و لكني أشعر بالقهر لما تتعرض له هذه المرأة في هذه الرحلة و كلما فكرت فيها فكرت ماذا لو كانت زوجتي أو أختي في هذا الموقف".

بعد أن ازدادت النار اشتعالاً ابتعدنا عنها و طلبنا من أبي جهاد و زوجته أن يأتوا لينالوا شيئاً من الدفء. نحن الآن في مكان أشبه بصحراء و ألسنة اللهب بدأت ترتفع ناشرة النور في كل مكان مما يعني أنه بإمكان أي أحد أن يرانا و لكن إحساسنا بالبرد شغلنا عن التفكير في هذا الأمر .

بعد قليل قدم ماهر مجدداً و عندما رأى ألسنة اللهب المتصاعدة صاح قائلاً :" ما هذا هل جننتم اطفأوها بسرعة قبل أن يراها أحد نحن هنا في قلب السويداء و بعملكم هذا كأنكم تقولون للنظام ها نحن هنا فقم بقصفنا أو تعال و اعتقلنا ".

وبدأ يحاول إطفاء النار بساقه ثم قال :" جلبت لكم الماء و بعض الخبز الآن و غداً أجلب لكم الطعام فلم أتمكن من ذلك اليوم ادخلوا و ناموا الآن و ارتاحوا حتى يوم غد".

لم أعرف مدى صدق المهرب عندما قال أن المكان يحتوي على بعض الأغطية و لم أدخل الغرفة حتى الآن فقد حاولت تدفئة نفسي بالنار المشتعلة و لم يعد هناك بدٌ من الدخول الى هذه الحجرة و تحمل الإقامة فيها حتى يوم غد .

دخلت الغرفة متأخراً لأجد أن معظم الشباب قد حصلوا على مكان يستيطعون النوم فيه و لو بصعوبة قليلاً فعددنا كبير يجاوز العشرة والمكان ضيق .

حاولت أن أجد فسحة لي و لأخي أيضاً نحاول قضاء الليلة فيها و لكن الأصعب في المسألة أن الأغطية لم تكن كافية لنا فكان علينا أن نتقاسمها لكل اثنين أو ثلاثة أشخاص غطاء واحد و المشكلة الأخرى أن آثار المطر لا تزال تجعل من ثيابنا مبتلة لتحيط بنا الرطوبة من كل الاتجاهات .

و حتى مع تقاسمنا الأغطية بدا أنه من الصعب أن ننام جميعاً في وقت واحد فكان لا بد من أن يستيقظ بعضنا بينما يحاول الآخرون أن يرتاحوا في جزء من هذه الليلة العصيبة .

حاول أحدهم التخفيف من شدة البرد و عبء نقص الأغطية فقام بإدخال الوعاء الذي كان يحوي الحطب الذي كنا نتدفئ عليه و الذي تحول إلى جمر .
حاولت أن أبقى مستيقضاً و لكن التعب هدني فألقيت نفسي على الأرض مفترشاً أحد أكياس النايلون و سحبت قليلاً من غطاء الشخص الذي بجانبي لأنام قليلاً .
لم يكن الجو يساعد على النوم فكنت انظر كلما شعرت بشيء إلى ما يفعله الشبان الذين قرروا السهر إلى جانب الجمرات فاستمروا بجلسوهم إلى أن عجزت عن فتح عيناي فغططت في نوم عميق غير آبه بما سنواجهه غداً من متاعب في حال تكررت حادثة اليوم من هطول أمطار و وعورة طريق .

ليل دامس أحاط بنا بعد أن حاولنا إطفاء النار التي نبهنا المهرب أنها ستشكل علامة جيدة للجيش في حال رغب بقصفنا .
رغم أن البيت خرب إلا أن وجود الجمرات المتبقية من النار أحاطه بهالة من الدفء و بعبق الدخان المتصاعد الذي أخر البعض عن النوم لكن التعب ألجأه إلى النوم في النهاية .
لم أكن أشعر بتعب كبير جداً عندما هممت بالنوم و بعد مضي عدة ساعات استيقضت و الصداع يكاد يكتم أنفاسي دون أعرف السبب فلم أعاني كثيراً خلال القدوم .
نظرت إلى الساعة لأجد أن موعد صلاة الفجر قد حان فكان لا بد من أدائها فتكاسلت أولاً و لكن لم يكن هناك مجال لترك الصلاة فجاهدت نفسي و وقفت لأشعر بأن الصداع يكاد يعييني عن الوقوف لم أعرف كيف سأكون قادراً على الوضوء في هذه الحالة.
 تذكرت أن الشباب في الليل قد قاموا بجلب ماء للشرب من مستنقع قريب تجمعت فيه مياه الأمطار .
مشيت قليلاً ثم عجزت عن إكمال المسير فاستلقيت على الأرض حتى التقط بعض الأنفاس و أخفف شيئاً من الصداع الذي يجعلني تائها تماماً في هذا المكان .
ثم قررت أن أتيمم لأداء الصلاة فلن أكون قادراً على الوصول إلى مستنقع المياه و هذه حالتي فعدت إلى البيت مباشرة و بعد أن تيممت أديت الصلاة بسرعة حتى أعود للنوم و أيقضت باقي الشباب الذين لم يؤدوا الصلاة .
و بعد أن استيقظت شعرت بأن الصداع قد خفت وطأته إلى حد بعيد و هذا ما سيجعل همّ التنقل خلال مراحل الطريق أقل .
استيقظنا جميعاً لنحمد الله على وجود الشمس الساطعة التي لن تلجأنا إلى البقاء ليلة أخرى هنا و لكن رغم وجود الشمس إلا أن عبدالكريم لا يزال على طبيعته القلقة المتعجلة
 يريد أن يذهب إلى تركيا ، يريد أن يعود إلى بلدته ، يريد أن يتحرك من هذا المكان فقط لا يهم إلى أين. كان اظطرابه يجعل الجميع في حالة من القلق من عدم معرفة وجهتهم التالية .
لم يعرف أحد مدى جديته في العودة إلى قريته بعد هذا المشوار الذي قطعناه فسألته :" هل أنت جاد في حديثك عن العودة إلى القرية بعد هذه المسافة التي قطعناها ؟".

فقال :" طبعاً بكل تأكيد ، الآن قاربت الساعة العاشرة و لو مضيت عائداً منذ أن استيقظت لكنت الآن في القرية ".
لم أعرف ما سر اظطرابه إلى هذه الدرجة فهو يسعى جاهداً للوصول إلى تركيا و لكنه لا يمانع من إهدار كل مجهوداته في لحظة واحدة ليعاود المحاولة بعد بضعة أيام .
حتى نحاول التخفيف من ردة فعل الموجودين على اظطراب عبد الكريم بدأ الجميع يحاول الإتصال بالبدوي الذي سيرشدنا في بقية الطريق .
اتصل عبدالكريم مع ماهر فأجابه بأنه سيأتي بعد بعض الوقت ولم يمضِ وقت طويل على انتظارنا حتى وصل أحد البدو جالباً لنا معه الكثير من الطعام .
فبدأنا مباشرة بتناوله للتخفيف من حدة الجوع لأننا لم نتناول الطعام منذ صباح أول أمس سأل عبدالكريم البدوي القادم إن كنا سنتابع رحلتنا اليوم أم ان هناك شيئاً جديداً قد طرئ فاكتفي البدوي بقول :" إن شاء الله ستتابعون رحلتكم اليوم ".
لكن عبد الكريم لم يزدد إلا قلقاً فاتصل بماهر مرة أخرى ليسأله مجدداً عن مصير الرحلة فطمأنه قائلاً :" سآتي إليكم يا أخي بعد بعض الوقت ، و ستمضون في رحلتكم و لكننا سنقطع الطريق الرئيسي بين السويداء و الشام هذا اليوم و لا بد أن نقطعه ليلاً و إذا مضينا الآن سنظطر للإنتظار قرب الطريق إلى حلول المساء و هذا أمر قد يشكل خطراً عليكم فاصبر قليلاً ".
لم يكن بيدنا سوى الإنتظار فتفرقنا في أرجاء المكان بانتظار قدوم ماهر .

ارتفعت حرارة الشمس و حان و قت صلاة الظهر فعزمت أن أمضي إلى مكان الماء الذي ورده الشباب في الأمس .
سألت أحدهم فأرشدني قائلاً :" المكان ليس بعيداً ،بضعة أمتار في هذا الإتجاه ".
و أشار بيده إلى بيت خرب يبعد عن البيت الذي نمنا فيه مسافة قريبة فمضيت إلى هناك و أخذت معي قارورة ماء حتى أعبأها لنشرب منها في وقت لاحق .
و بعد أن وصلت وجدت أن المياه عبارة عن مستنقع صغير لا يمكن تعبئة مياه الشرب منها فما إن وضعت في القارورة قليلاً من المياه حتى كان التراب الذي دخلها أكثر من الماء و لم أكن عطشاً كثيراً فتوضأت للصلاة دون أن أشرب ثم عدت إلى المكان الذي كان يتواجد فيه زملاء الرحلة و الذين قد جعلهم النعاس يفترشون الأرض تحت أشعة الشمس الدافئة .
مضى بعض الوقت فعاد عبدالكريم ليساوره القلق من جديد فقد كان مضطرباً لدرجة أنه لا يعرف ما يريد و قبل أن يهم بالإتصال بماهر مجدداً وصل ماهر أخيراً فتجمع الجميع حوله لنعرف وجهتنا في هذا اليوم فقال :" لا بأس اطمئنوا ، لقد تكلمت مع السائق و قال أنه سيأتي جهزوا أغراضكم و استعدوا للرحيل بعد قليل :.

لم نكن أنا و أخي أحمد نحمل شيئاً باستثناء ثيابنا التي نرتديها فقد عشنا هذه التجربة سابقاً و لا نريد أن نكرر ذات الخطأ بحمل أغراض كثيرة لا نحتاجها .
استعد الجميع بسرعة بانتظار أن يطلب منا البدوي السير خلفه .
لن يطول انتظارنا فالساعة الآن قد جاوزت الثانية و قد اقتربت الشمس من الغروب فنحن في الشهر الأخير من العام مما يعني أننا لن ننتظر طويلاً على الطريق الرئيسي .
طلب منا ماهر المشي فبدأنا نسير خلفه ، بدا أن الرحلة اليوم أسهل بكثير من رحلة الأمس فقد كانت مياه المطر و الأرض الترابية التي تحولت إلى طين تجعل من العسير علينا المشي في هذه الأرض الموحلة، وحتى إن وجدت بعض الأحجار المرصوفة أو الكبيرة فربما لن تمشي عليها بعض خطوات قبل أن تنزلق ساقك عنها .
أما اليوم فالأرض تكاد تكون جافة و أشعة الشمس توحي بأننا في رحلة سياحية لا في طريق سفر غير نظامي .
بعد مشي ما يقارب الساعة طلب منا ماهر التوقف مجدداً و :" قال ها قد وصلنا ".
فقال أحدهم :" لكن الطريق لا يزال بعيداً ".
فقال ماهر :" ليس بعيداً ، الطريق على مسافة قريبة و لا يمكننا الإقتراب أكثر حتى لا نكون مكشوفين على الطريق ، فنحن سنقطع الطريق ليلاً بعد غروب الشمس و الشمس ما تزال موجودة حتى الآن و قد يسبب لنا الإقتراب أكثر مشاكل نحن بغنىً عنها لذلك من الأفضل الإنتظار هنا حتى غروب الشمس ثم نتابع في طريقنا ".
أسكت كلام ماهر الجميع فلا أحد يريد المخاطرة ثم إننا لن ننتظر طويلاً فالشمس أوشكت على الغروب تفرقنا في أرجاء المكان و عدنا لتناول ما بقي من طعام الإفطار .
كان ماهر و زميله البدوي الآخر الذي قدم معه يحمل كل منهما سلاحاً رشاشاً فبدأ أحدهم يتفحص السلاح تفحص الخبير ليعطيه رأيه فيه ، فبدأ باقي الشباب الآخرون يشاركونه فيما يفعل بقصد إمضاء الوقت ، وما بين تناول الطعام و تفحص السلاح مضى الوقت سريعاً و غربت الشمس و بدأت الظلمة تزداد و نحن لا نزال نقف في مكاننا و بعد أن استحكم الظلام أشار ماهر علينا بالتجمع للمضي مجدداً ،فتجمعنا سريعاً و بدأنا نسير خلفه مشينا قليلاً على ذات التربة التي كنا نمشي عليها من الأمس و قبل أن نشعر بأننا مشينا كثيراً بدأت أقدامنا تطأ التربة الترابية فكان علينا أن نسرع قليلاً .
فما إن لامست أقدامنا التراب حتى أشار ماهر علينا بالإسراع جميعاً حتى نختبئ خلف أحد السلاسل الحجرية، وبعد أن ركضنا نحوها كان علينا أن نركض مجدداً باتجاه سلسلة أخرى و قبل أن ننطلق مجدداً
قال ماهر :" إنتبهوا لقد وصلنا ، سنركض الآن و ننتظر قبل حافة الطريق ببضعة أمتار و عندما أرى الطريق خالياً أشير عليكم بالعبور و عندما أمركم بالعبور تركضون بسرعة دون توقف إياكم و التلكؤ هل هذا واضح ؟".

الكلام واضح بالنسبة لنا جميعاً فلا أحد يرغب منا أن يقع في الأسر .
رغم أننا سافرنا في المرة الماضية في منتصف الصيف إلا أن الطريق كان خالياً تماماً من السيارات أما اليوم فعلى العكس من ذلك فلا تكاد تمر سيارة حتى تتبعها أخرى .
ربما لأن الوقت لا يزال مبكراً الآن ، فالساعة لم تجاوز الخامسة .
راقب ماهر السيارات و تابع الإنتظار ثم بدأ يخيفنا أكثر فعندما يرى عدة سيارات متتابعة يقول :" إنتبهوا يا شباب هذا رتل عسكري !".
لم أعرف كيف له أن يكتشف أن هذا رتل عسكري أو لا و لكن من الأسلم أن نتبع كلامه و بعد انتظار بضعة دقائق جعلها الخوف تبدو طويلة صاح ماهر بصوت منخفض :" الآن ، هيا الطريق خال أسرعوا" وما إن سمعنا كلماته حتى بدأنا نركض بسرعة .
قطعنا الطريق الإسفلتي الأول ثم الثاني و تابعنا الركض و لكننا لم نقطع هذه المرة الطريق الثالث لا أعرف لماذا يبدو أن هذا الطريق مختلف عن الطريق السابق .
ركضنا بعد أن قطعنا الطريق و استمرينا على تلك الحال منتظرين أن يصل إلينا ماهر حتى نعرف ماذا يجب علينا أن نفعل و بعد أن التفتنا يمنة و يسرة وجدنا ماهر قد صار في مقدمتنا و لم أعرف كيف سبقنا فقد كان آخر عهدي به أنه كان يأمرنا بالمسير أمامه همس بنا بصوت حذر :" هيا بسرعة لا تتوقفوا ".
استجبنا لأمره مباشرةً و بدأنا بالركض خلفه لا نعرف أين سيصل بنا خلال هذا الظلام الذي يجعلنا كالتائهين في هذا المكان .
لم يواصل السير بخط مستقيم و إنما كان يذهب في الطريق يمنة و يسرة و يقول :" كونوا على حذر".
و هذا ما كان عليه الجميع فنحن الآن بين أحضان النظام و إذا ما عرف بخبرنا فسيكون هذا آخر عهدنا بالحياة أو بالحرية على أقل تقدير .
مشينا قرابة نصف ساعة لنصل إلى نهر و لم أعرف أن في السويداء نهراً إلا الآن نظر الشباب في وجوه بعضهم و تبين لهم أن ماهر كان محقاً عندما رفض المسير بنا إلى وجهتنا، فما نراه الآن ليس نهراً و إنما هو تجمع لسيول الأمطار التي هطلت البارحة قد جعلها مسيرها في هذا الأخدود أشبه بنهر.. مشى ماهر بضع خطوات ليبحث عن المكان الذي نستطيع من خلاله تجاوز هذه المياه دون أن نبتل بها إلى أن وجد بغيته فرمى بعض الحجارة في الماء لتبدوا منها رؤوسها فقط ثم قفز هو أولاً مجتازاً هذا السيل إلى الجانب الآخر .
و بعد أن وصل نظر إلينا و قال :" ماذا تنتظرون هيا اتبعوني".
بدأنا عندها بسلوك طريق ماهر ذاته محاولين تجنب تبليل أنفسنا بالماء ما أمكن .
وصلنا أخيراً إلى الجهة الأخرى فمشى قليلاً ثم بدأ يتكلم بهاتفه و يهمس بمحدثه بصوت يرتفع حيناً عندما يغضب و ينخفض حينما يفطن إلى خطورة الموقف قال :" أين أنت لقد وصلنا ".

تلفت قليلاً و كأن الرجل يخبره بأنه موجود في ذات المكان أيضاً و بعد لحظات طلع علينا عدة أشخاص فأسرع ماهر و سلم عليهم لنفهم أنهم هم من سيتابع إرشادنا في هذا الطريق لا نعرف كم عدد المرشدين الذين يجب أن يقودونا في هذه الرحلة و لكن ما دمنا نصل إلى غايتنا في النهاية دون مشاكل فليس ذلك مهماً ، وبعد أن انتهى كاهر من الكلام مع أصدقائه التفت إلينا و قال :" شباب ، كيف كانت رحلتكم معي؟".

فأجاب الجميع بالثناء رغم أننا كنا في الصباح نتأفف إلا أن ماهر كان يريد أن يطمئن إلى مستقبل عمله فعندما هدده عبدالكريم بالثوار من جبهة و جيش حر بدأ ماهر يخشى على نفسه إذا تمادى عبدالكريم في صياحه العبثي و حوله إلى حقيقة .

حاول ماهر أخذ أكبر قدر من التطمينات التي تجعله يشعر بأننا نقدر جهده و لن نتكلم عن تقصيره في هذه الرحلة إن وُجد تقصير بنظره .

ودعنا ماهر و قال :" الآن أنا أعود و أنتم ستكملون طريقكم يسر الله لكم ".

ومضى في طريقه التفتنا إلى دليلنا الجديد و كالعادة ليس رجلاً لوحده و إنما رجلان التفتا إلينا و قالا :" شباب ، من منكم يريد أن يركب الدراجة النارية ؟".

لا شك أنه أمر مغرٍ أن نركب الدراجة الآن بعد هذا المسير و لا نضطر للسير أكثر فسألناه عن السعر فقال :" ٣٠٠٠ ليرة سورية للشخص ".

مبلغ بدا بالنسبة لنا كبيراً و ما الذي يجبرنا على دفعه أصلاً كان الطريق في ذهننا مقتصراً على المشي و مشي ساعة زائدة لن يؤثر في نيتنا فآثر معظمنا المشي و لكن الرجل حاول أن يغرينا لإنفاق بضاعته فقال :" كونوا على علم ، المسافة بعيدة و ستضطرون للمشي بحدود ثلاث ساعات و نصف أو ربما أربع ساعات ".

سمع الجميع عرضه و لكننا لم نمشي كثيراً حتى الآن فكل ما مشيناه إلى الآن هي ساعة قبل طريق السويداء الرئيسي ثم انتظار ثم مشي قليل و لا يزال النشاط يسري في عروقنا فأعرضنا عن عرضه و مشينا .

و لكن بعد أن مشينا قليلاً بدأ بعض الشباب يفكر و يقول في نفسه :" مالذي يجبرني على أن أسير كل هذه المسافة ؟".

فتوقف عندها أحدهم و قال :" أنا أريد أن أركب الدراجة".

ثم تبعه آخر فقال لنا المرشد عندها :" هل من أحد آخر يرغب بالركوب".

فتجاهلناه جميعاً فتوجه لمخاطبة مرافقه و قال له :" حسن امضِ أنت معهم إلى مكان الدراجات و أنا سأمضي مع الباقين و نلتقي في نهاية الطريق ".

مشى الرجل و بدأنا نمشي ، كلنا من الشباب باستثناء زوجة أبي جهاد التي كان عليها أن تكابر و تصبر لتوفر بعض نقود زوجها بغرض الوصول إلى وجهتهما بأقل التكاليف .

قذائف وشَهامَة

بدأنا بالمسير بسرعة ، لا همَّ لأحدنا إلا أن يصل بأقصى سرعة إلى مكان السيارة التي ستقله إلى المحطة التالية .
استأثرت الأنانية بنا في هذا الوضع إلا أن أحد الموجودين السائرين معنا و اسمه أبو أحمد نادى أحد أصدقائه و تكلم معه بعض كلمات ثم توجها سويةً إلى الرجل القادم مع زوجته أبو جهاد
فقالا له :" لماذا لا تصعد مع عائلتك على الدراجة النارية؟".
إلا أن الرجل كان يحاول بشكل واضح عدم التضحية بالنقود في مكان يستطيع المشي فيه و ربما يحاول توفيرها إلى وقت تكون الحاجة فيه أكثر جدية إلا أن الشابين كانا جادين في كلامهما و حاولا إقناعه بشكل جاد فلم يتمكن من مقاومة نفسه و غلبته العاطفة تجاه زوجته المسكينة التي قضت ليلة بائسة البارحة فاقتنع بكلامهما
و لم تكن خطوة الشابين عبارة عن مجرد تشجيع و إقناع بل ساهما بدفع جزء من المبلغ النقدي لصاحب الدراجة حتى يقلَّ الزوجين .
شجعت هذه العملية بعض الشباب ممن فكروا بقطع الطريق سيراً بالتعاقد مع صاحب الدراجة فانقسمنا عندها إلى مجموعتين
مجموعة توجهت إلى مكان الدراجات النارية ليكملوا طريقهم و مجموعة أخرى هي مجموعتنا قررت متابعة الطريق سيراً على على الأقدام .
و قبل أن ينطلق دليل المجموعة الأخرى تكلم الدليل الذي سيكمل الطريق برفقتنا محاولاً تقليص عدد المشاة إلى الحد الأدنى فقال :" انتبهوا يا شباب المسافة بعيدة جداً ستظطرون للمشي ثلاث ساعات و نصف بل ربما أربع ساعات فمن يرى نفسه عاجزاً عن إتمام الطريق فليذهب مع المجموعة الأخرى من الآن حتى لا يؤخر غيره".
كان يقول كلامه بعد أن مشت كل مجموعة في طريقها و ازدادت المسافة بيننا حتى لم نعد نعرف أين اتجهت المجموعة الأخرى و تابعنا نحن مسيرنا في طريقنا .
منذ لحظات كان الظلام حالكاً و يصعب رؤيتنا لبعضنا و الآن القمر يجعلنا نميز بعضنا من مسافة قريبة .
أرض ترابية منبسطة علينا أن نسير عليها و قد تعرضت لمياة المطر البارحة إلا أن الأرض متماسكة و لم تجعل أمطار البارحة من هذه الأرض اليوم طينية بشكل كامل

إلا أن معاناتنا كانت تكمن في المشي خلال هذه الأرض فلا نستطيع التدقيق أين نقوم بوضع أرجلنا لأننا نحاول السير بسرعة و كلما قطعنا بضعة أمتار دعسنا على أحد الأحجار و بعد أن نحاول استيعاد توازننا نقوم بالدعس على حجر بالرجل الأخرى لنكون خلال مشينا في هذه الأرض كمن يقوم بالرقص لا يستطيع رفع قدم حتى تنزلق به الأخرى دافعة جسم الرجل أمامها و نحن لا نملك شيئاً سوى محاولة الإسراع مما يجعل عملية المشي أصعب.

لم نعرف أين توجهت المجموعة الثانية فقام الدليل المرافق لنا بمكالمة زميله ليطمئن على سير العمل بشكل سليم و بعد نقاش دار بينهما خلال الهاتف وقف الرجل قليلاً

ثم قال :" اتبعوني ".

ولم نكن نفعل شيئاً سوى محاولة تتبعه و اللحاق به فانحرف عن الوجهة التي كنا نسير إليها لا أعرف إلى أي تجاه فقد بت كالتائه الآن في الليل و ضمن أرض لا أعرف عن اتجاهاتها شيئاً .

تابعنا السير على ذات المنوال لنصل قريباً من مكان يشبه مزرعة للدواجن أو بيتاً مهجوراً له فناء إلا أنه خال تمام من أي مظهر من مظاهر الحياة .

و بعد أن تجمع معظمنا حول المكان قال :" سننتظر هنا قليلاً فيبدو أن زملاءكم تاهوا في الطريق و لا يعرفون إلى أين يجب أن يتجهوا فانتظروا هنا حتى يأتوا ".

أصابتني الدهشة من كلامه فليس من عادة البدو أن يضلوا الطريق فما الذي حصل هذه المرة .

بدأنا نحاول البحث عن جدار نسند إليه أظهرنا لننتظر باقي زملائنا فوجدنا سياجاً من الحجارة على مسافة قريبة من البيت الذي وصلنا إليه فوضعنا رحالنا عنده لنبدأ بالانتظار. نحن الآن في قلب المحافظة و لا شك أن النظام هنا في أوج قوته فأي خطأ قد يؤدي إلى قضاء بقية ليلتنا في السجن بأحسن الأحوال.

عاود الدليل الكلام مع زميله الآخر عبر الهاتف و لكن يبدو أن الخطأ الذي حصل معهما جعل التفاهم بينهما صعباً ليرتفع صوت الصراخ بينهما كل منهما يحمل الآخر المسؤولية لينتهي النقاش بينهما بإغلاق الهاتف صمت الدليل قليلاً ثم تلفت يمنة و يسرة بقلق ثم التفت إلينا و قال :" تعالوا معي".

سرنا معه مباشرةً فقد بدا من تحركه أنه سمع خبراً سيئاً .

وصلنا إلى حافة الأرض المنخفضة قليلاً و قبل أن نرقى هذه الأرض حتى نجاوز الطريق الذي أمامنا مد الدليل يديه على جانبيه و وجه باطن كفيه نحونا ليمنعنا من التقدم

ثم همس بصوت مرتفع قليلاً :" هدوء ".

سكتنا جميعاً فقد تملكنا الخوف من تصرفات هذا الرجل و بعد لحظات صمتٍ قليلة

سمعنا صوت صفير قادم من بعيد لم نميز الصوت أولاً و لكن الدليل أشار إلينا مباشرة

قائلاً :" انبطحوا انبطحوا".

عند سماعنا لتلك الكلمات ألقينا أنفسنا جميعاً على الأرض منتظرين ماذا سينتج عن صوت هذا الصفير المنطلق ارتفع الصفير بسرعة ليجاوزنا و نحن منبطحون على الأرض ننتظر

ثم ليدوي بعد ذلك صوت انفجار في مكان قريب منّا .
يبدو أنه قد تم اكتشافنا و هذه القذائف بدأت تتصيدنا .
لكن القذيفة الأولى أخطأت الهدف بحمد الله .
همَّ أحدنا بالتحرك إلا أن الدليل نهره لنسمع جميعاً بعد ذلك صوت القذيفة الثانية يمر من فوق رؤوسنا يبدو أن القذائف تقترب منا بشكل سريع ربما القذائف التي أخطأتنا في صيدا و في غرز ستصيبنا هنا في السويداء .
بدأ الرعب يدب في قلوبنا فنحن لا نعرف ما يجب علينا فعله و أفضل شيء نفعله هو الإنتظار و لكن ليس في مكان تقوم القذائف بدكه لم يعد لنا سوى الملجأ الأخير و الذي كان يفترض أن يكون ملجأنا الأول دائما إلا أن نفوسنا تبحث عما يضرها دائما فتلجأ إلى من لا ينفع دائماً و تذر من ينفع دائما بدأنا ندعو الله عز وجل أن ننجوا الموت الذي بدا بالنسبة لنا محتماً .
فبدأنا نتلفظ بالشهادتين "لا إله الا الله محمد رسول الله".
نكررها عسى أن تكون آخر كلامنا من الدنيا .
رغم الرعب الذي كان يعمّنا نحن المسافرين إلا أن الدليل و زميله كانا في عالم آخر يتشاجران و يتناقشان حول السبب الذي أدى إلى كشف الموقع الذي نحن فيه للنظام
فقال أحدهما لصاحبه :" سمعت أحدهم اليوم يتحدث ".
فقال له مغتاضاً :" عن ماذا سمعته يتحدث ؟".
قال :"لم أفهم كلامه تماماً إلا أنه بدا أنه يصف لأحدهم ما يراه من عملنا و يحدد له المكان ".
اغتاظ الرجل الآخر أكثر فقال :" لماذا لم تخبرني لماذا ؟".
فقال :"لم أفهم كلامه تماماً و ظننت أني مخطأ ".
كان هذا الحوار يدور أمامنا بينما كنا نحن ننتظر برعب القذائف المتوالية القذيفة الثانية سقطت أقرب منا بكثير من الأولى و ها هو دوي صوت قذيفة ثالثة يبتدأ بالصفير أولاً ثم يتابع مرتفعاً حتى يتجاوزنا - حسبما نأمل- لينتهي ذلك الصفير بانفجار مدو قذيفة اثنتان ثلاثة ثم عمَّ هدوء كامل المنطقة بأسرها
صمت الدليل قليلاً و بعد لحظات بدأ يهاتف صاحبه من جديد ليرى أين أصبحوا و ماذا حل بهم فأخبره الآخر أنهم على مسافة قريبة منا و لا أدري كيف تمكن من تحديد أماكن بعضهم و لكن لم يكن بيدنا حيلة فانتظرنا قليلاً ليخرج علينا من وسط الظلام رجل
فبدأ الدليل يكلمه فقال :" هيا انطلقوا حلت المشكلة ".
فسأله الرجل :" هل حل بأحد شيء؟".
فقال :" لا الحمد لله سقطت القذائف على مسافة قريبة منا إلا أن أحداً لم يتأذى ".
حمدنا الله على ذلك و بدأنا نحث السير مسرعين باتجاه السيارة التي ستقلنا إلى المرحلة التالية الآن نحن في السويداء و حسبما فهمت أن المرحلة التالية ستكون في ريف دمشق
و لكن مادام عبور الطريق سيكون بالسيارة فلا مشكلة أينما كانت وجهتنا .

طلب منا الدليل الإسراع قليلاً فبدأنا نسرع فعلاً ليس هرولة و إنما نحاول المشي بسرعة ما أمكن و لم نكن أنا و أخي أحمد نحمل شيئاً يثقلنا باستثناء أننا كنا نحمل بعض الطعام و رغم أنه لم يك مثقلاً علينا شيئاً إلا أننا آثرنا التخلي عنه .

بدأنا نمشي و نمشي و لكن دون أن نرى موطئ أقدامنا أو أن نرى أضواءً في الأفق .

لا نزداد إلا إيغالاً في الظلام دون أن نعرف وجهتنا و ما علينا من معرفتها ما دام الدليل يعرفها .

لم أكن أفهم كيف يسبقنا هذا الرجل فقد كنت أحاول جاهداً السير أمامه و عندما أظن أني سبقته أتلفت للبحث عنه فأجده قد سبقني فأضطر للركض حتى لا أضيع في هذه الصحراء و إن كان لون ترابها أحمر فلم أجد فرقا بينها و بين الصحراء الحقيقة إلا هذا الفرق

و حتى السراب بدأ يخيل إلى أعيننا و لكن ليس على شكل ماء هذه المرة و إنما على شكل سيارة كبيرة أو صغيرة أو أياً كان نوعها تقلنا من هذا المكان الذي أتعبنا هذه الليلة .

جل همي كان أن أبقى قريباً من أخي أحمد و لا شك أننا سننهي الرحلة اليوم حتى لو مع طلوع الشمس فلا داع للتفكير بذلك .

إلا أن مشكلة أخرى بدأت تواجهنا و هي أننا نتيجة المشي المتواصل بدأنا نشعر بالعطش الشديد و لم يكن أحد منا يحمل ماءً معه فلم نعرف ما هو الحل

فسألنا الدليل :" هل تحمل ماءاً ؟".

فقال :" أنتم عطاش ؟".

فأجبناه بنعم فقال :" لا بأس سنشرب بعد قليل ".

اطمأننا إلى قوله و بدأنا ننتظر مضي هذا القليل خلال مشينا و بعد مضي قليل حسب تعبيره نادانا و قال :" هلموا ".

فهرعنا جميعاً إليه فقال :" هذا هو الماء اشربوا ".

نظرنا إلى الماء فكان عبارة عن تجمع لمياه الأمطار في بقعة منخفضة من الأرض لم يكن لدينا خيار أخر فبدأنا نغترف المياه بأيدينا و نرشفها بشفاهنا حتى تذهب حدة العطش التي نشعر بها .

شربنا على عجالة ثم عاودنا السير مجدداً باتجاه المجهول لا نرى شيئاً سوى الظلام و الوقت يمر ببطء مرت ساعة ثم تبعتها ساعة أخرى و لا نعرف متى سيبشرنا الدليل و يقول لنا أننا وصلنا .

بدأ المسير المتواصل يشعرنا بالتعب و الإعياء و بدأنا نفترق في السهول و مع أننا نمشي في ذات الإتجاه إلا أن إعياءنا كان واضحاً من خلال تفرقنا

فواحد يمشي إلى أقصى اليمين و آخر إلى أقصى اليسار و الدليل يسير مسرعاً أمامنا حتى لا نكاد نميزه خلال الظلام إلا للحظات قليلة ثم يختفي لأخرى .

بدأ الإرهاق يزداد إلا أنه لم يكن لنا بد من مجاراة الدليل حتى لا نضيع في هذا الظلام اقتربت مدة سيرنا من ثلاث ساعات و لم نصل إلى شيء حتى الآن فبدأ اليأس من رؤية المرحلة التالية يدب في قلوبنا .

حاولنا كسر ذلك الإحباط فسألنا الدليلَ :" كم نحتاج من الوقت حتى نصل فقد جاوزنا الثلاث ساعات سيراً على الأقدام ؟".
فقال :" لا بأس اقتربنا اقتربنا أسرعوا ".
ثم قال :" لقد أخبرتكم من البداية أن المسافة بعيدة و أنتم اخترتم السير على الأقدام فلا خيار أمامكم سوى الصبر ".
نعم كان الرجل محقاً فقد أخبرنا أننا سنظطر للمشي إلى أربع ساعات ربما إلا أننا لم نصغ لكلامه و ها نحن نحصد نتيجة اختيارنا .
جعلنا التعب نندم لأننا لم نركب الدراجات النارية كما فعل زملاؤنا و لكن و لات حين مندم .
بعد ذلك بدأ الدليل يحثنا على السير و بدأنا نسمع أصوات درجات نارية ليصل بعد قليل إلينا قادة الدراجات النارية الذين قاموا بإيصال زملائنا ليقوموا بعرض سلعتهم مجدداً و لكن هذه المرة بسعر أقل فقد جربوا العرض الأول فلم يكن مغرياً و عسى أن يكون عرضهم الثاني الآن أكثر جذباً في نظرهم لنا فقالوا :" يا شباب من يريد ركوب الدراجة الراكب ب ٢٥٠٠ ليرة سورية ".
جميعنا كان يرغب في أن يكون ذلك الراكب و لكن المبلغ لا يزال كبيراً بعد التعب و الإرهاق الذي أصابنا عرض علي أحمد الفكرة فقال :" هيا لنركب لا داع لمزيد من المشي".
أحسست بتعبه من خلال كلامه و كنت أنا أيضاً متعباً فتوجهنا نحو أحدهم نساومه على المبلغ الذي يريده ثمناً لركوبنا فقال ٢٥٠٠
قلنا له :" نحن شخصان فخفض السعر أكثر".
فقال :" ٢٠٠٠ واركبا بسرعة ".
فقلنا :" قلل أكثر ".
فقال :" آخر كلام ١٥٠٠ للشخص الواحد ".
حسناً بدا أننا وفرنا قليلا من المال فالأجرة التي كنا سندفعها لراكب واحد سندفعها الآن لراكبين اثنين بعد أن رأى علامة القبول بادية على وجهنا هتف بنا بلهفة :" هيا اركبا بسرعة".
فصعدنا على الدراجة مباشرة و كذلك فعل الباقون جميعهم حتى أنه لم يبق من أحد يمشي.
بدأت الدراجة تقطع الأرض الترابية و نحن نترنح عليها كما لو أننا نركب خيلاً فما إن ترتفع قليلا عن الأرض ثم تعود إليها حتى نعلو عنها ثم نعاود الإصطدام بها .
لم تكن الأرض ممهدة لسير الدراجة فكان علينا أن نصبر على تلك الصدمات و لكن لا ضير فقد صبرنا على مشي ما يزيد على ٣ساعات إلى الآن فلا شك أن الصبر و نحن جالسون على الدراجة سيكون أسهل من مكابدة عناء الطريق سيراً على الأقدام .
سلسلة من الدراجات النارية تسير بشكل متصل إلا أن جميعها كانت مطفأة الأنوار حذراً من أن يتنبه احد إلينا .

لقد ابتعدنا تماماً عن منطقة سقوط القذائف و لكن مع ذلك لا نزال ضمن السويداء التابعة للنظام عملياً
.
بدأت سرعة الدراجات تخف و بدأنا نهبط في منحدر خفيف ثم توقفت الدراجات فجأة فقال السائق :" انزلوا".
فنزلنا بسرعة يبدو أننا تسرعنا في ركوب الدراجة فلم تكن المسافة التي سارت بها الدراجة كبيرة جداً قرابة عشر أو خمس عشرة دقيقة وضعتنا في نقطة الإنطلاق إلى المرحلة التالية رغم أن المسافة قصيرة إلا أن التعب جعلنا نشعر بالفرح لركوبنا الدراجة و لم نبال بما دفعناه ثمناً لذلك فقدكنا مستعدين لدفع مبلغ أكبر منذ بعض الوقت .
نزلنا جميعا من الدراجات و بدأ الدليل يقول :" بسرعة بسرعة اتبعوني".
فمشينا وراءه و نحن لا نرى سوى أحجار مرصوفة و لا نرى السيارة التي سرنا طوال الطريق و نحن نحلم بها .

طريقٌ صعب و طويل قطعناه هذه الليلة و لكن بحمد الله انتهت مرحلة الخطر عند القذائف التي نزلت بعيداً عنا و قريباً من أصحابنا إلا أن أحداً منهم لم يصب بأذى .
بعد أن نزلنا جميعاً من متون الدراجات النارية التي ركبناها في آخر الرحلة طلب منا الدليل الإسراع قليلاً حتى لا يشعر بنا أحد التفتنا يميناً و شمالاً فلم نجد السيارة التي كان من المفترض أن تنتظرنا هنا فبادرنا الدليل بالسؤال عنها فقال :" السيارة موجودة هنا امشوا قليلاً ".
و قبل أن ينهي كلماته كانت جلبة الشباب الواصلين قبلنا عند صعودهم إلى السيارة تبعث القليل من النشاط في هذه النقطة الميتة .
سيارةٌ ضخمة مكشوفة الظهر علينا أن نركبها لتصل بنا إلى النقطة التالية .
جميع الموجودين كانوا شباباً فلم يكن لديهم مشكلة من ركوب السيارة بهذه الحالة إلا أن المشكلة كانت في الفتاة المسكينة التي كان عليها أن تصعد معنا و تجلس معنا في ذات السيارة .
رغم أن الخمار كان يغطي وجهها عنا إلا أن الحياء الشديد كان بادياً من تصرفاتها . صعدتْ هي وزوجها أولاً لتمضي إلى أمام السيارة ليجلسا هناك سوية ثم صعدنا جميعاً لنفاجأ بأن السيارة ليست فارغة فقد كانت الأرض مغمورة بالأكياس التي ظننا أنها أكياس قمح .
صعدنا جميعاً ليجلس كل منا على كيس كأنه يجلس على قبة مرتفعة و ليسند ظهره إلى جدار السيارة كل من استطاع ذلك ، فالمسافة لا تزال بعيدة .
بعد أن أخذنا جميعاً أماكننا بدأت المرحلة الأولى في بداية كل طريق و هي التفاهم على السعر تكلفة الطريق كاملاً كانت عبارة عن أربعين ألف ليرة دفعنا منها قسماً للمرحلة الأولى و هي قطع الطريق من بصر الحرير في درعا إلى هذه النقطة في قلب السويداء و الآن علينا أن ندفع ثمن انتقالنا من هذه النقطة إلى النقطة التالية في ريف الشام بدأنا بدفع النقود كل يدفع حصته إلا أن أحدهم لم يكن يحمل

عملة سورية فرفض السائق أن يأخذ غير العملة السورية دون أن نعرف سبب تصرفه فقد دفعنا تصرفه للاستغراب من شخص يرفض أخذ الدولارات التي هي في صعود مرتفع و يفضل أخذ الليرة التي هي في هبوط مستمر

عند ذلك غضب أحد الأشخاص من كلامه و هو أبو أحمد ذات الشخص الذي دفع بأبي جهاد ليركب الدراجة مع زوجته فقال :" ما هذا الكلام يا أخي لماذا لا تريد أن تأخذ دولارات ما هذه السخرية من أين أتي لك بصراف هنا ".

ارتفع صوت الرجل بشكل واضح معبراً عن غضبه من تصرفات المهربين خلال الطريق .

لم يعد لدى السائق حل فالمكان مقطوع و الرجل لا يحمل سوى دولارات فأعلن رضاه بالصفقة التي يظن أنها تبخسه حقه .

أخرج الرجل الدولارات و بدأ أبو أحمد بعدها إلا أن الظلام كان يجعل عملية العد عسيرة فطلب أبو أحمد من صديقه أن يقوم بتوجيه الضوء على ما يعده من نقود فقابله السائق مباشرة باستهجان فعله و طلب منه مباشرة أن يطفئ ضوء القداحة فازداد أبو أحمد انزعاجاً و قال :" لا تلقي له بالاً".

فقال السائق مهدداً :" قد تعرضنا للخطر".

فأجاب أبو أحمد باستهزاء وهو غير مبال بما ينتج عن فعله قائلاً :" ليفعلوا ما بدا لهم ".

كان خوف السائق مبالغاً فيه فعلاً فضوء القداحة كان يعسر علينا أن نراه نحن فكيف سيراه غيرنا من مسافة تزيد على عشرة كيلو مترات .

أخذ الرجل نقوده من الدولارات و حصته منا كذلك خمسة ألاف و مئتا ليرة لكل شخص ستصل بنا إلى النقطة التالية و هي بادية الحماد في ريف الشام .

صعد السائق بعد أن أخذ نقوده مباشرةً إلى السيارة و عاد المرشدون الآخرون الذين كانوا يركبون الدراجات النارية من حيث أتوا أدار السائق محرك السيارة و بدأ يمضي بنا في طريق جديد لا نعرف كيف ستكون نهايته رغم إحساسنا بالإرهاق و التعب إلا أن الليل لم ينتصف حتى الآن فالساعة لم تصل إلى الحادية عشرة لكن ما دمنا قد صعدنا إلى السيارة فلا يهمنا كم هي المسافة المتبقية.

بدأت السيارة تمشي و تثير الغبار مجدداً إلا أنه في هذه المرة أقل بكثير فلا تزال بعض الرطوبة موجودة في الأرض من ليلة البارحة سألْنا السائق قبل أن ينطلق :" كم من الوقت سيستمر سيرنا ".

فقال :"عشر ساعات".

أصابتنا إجابته بالصدمة فالمسافة من أقصى جنوب سوريا في درعا إلى أقصى شمالها في حلب لم تكن تستغرق هذا الوقت فلماذا نحتاج كل هذا الوقت يبدو أننا سنمشي ببطئ شديد .

مضت السيارة و بدأ التعب يدبُّ في أوصالنا و يدفعنا إلى النوم إلا أن البرد الذي كان يزداد خلال سير السيارة جعل محاولة النوم أشبه بعميلة مستحيلة لذلك كان علينا أن نكابر على أنفسنا و أن نكتفي بضم أجسادنا على بعضها محاولين إيجاد الدفء ما أمكن .

كانت السيارة تارةً تتجه يميناً و تارةً شمالاً و تارةً تمشي في خط مستقيم و نحن لا نعرف عن الإتجاهات التي نسير بها أو نتجه إليها شيئاً .
مضت قرابة الساعة ثم توقفت السيارة دون أن ندري ما الذي حدا بالسائق بالوقوف .
هل كانت المسافة ساعة واحدة فقط و أراد السائق مداعبتنا فقال إنها عشر ساعات لنشعر بالفرح و المفاجأة بعد وصولنا بساعة هذا ما تمنيناه جميعاً .
توقفت السيارة و نزل السائق و التفتنا لنرى أين وصلنا فوجدنا خيمةً منصوبة و بداخلها أناس و قريباً منها يوجد خيمة أخرى .
شيء يبعث على الأنس قليلاً في هذه البادية الموحشة إلا أن الأنس لم يدم طويلاً فبدأ نباح الكلاب يعم المكان ليستيقظ منا من غلبه النعاس ظناً منه أن الرحلة قد انتهت و أننا قد وصلنا إلى مبتغانا .
بدأنا ننتظر في السيارة عودة السائق إلا أن الوقت بدأ يمضي و يمضي دون أن يعود أحد فبدأنا نحاول فهم ما يفعل و قد تركنا في العراء و البرد يضرب أجسامنا و لا نفهم ما يقوم بفعله ثم تبين أنه يقوم بنقل أغراض خيمته بشكل كامل .
لا نعرف إلى أين و لم نسأله طبعاً إلى أين سيمضي فما يهمنا الآن هو متى سيمضي بنا .
مرت أكثر من ساعة و الرجل لم يعد و لا نستطيع أن ننام فالبرد قارس في هذه البرية فاكتفينا بمشاهدته أولاً ثم نظر إلينا و كأنه يطلب المساعدة فليس معه أحد يساعده باستثناء أهله الذين سمعنا صوتهم و لم نراهم بالإضافة إلى الرجل الذي صعد بجانبه منذ بداية الطريق .
هممت بالنزول لمساعدته ثم تكاسلت قليلاً فحاولت دفع الكسل عن نفسي و التخلص من هذا البرد بقليل من الحركة فنزلت من السيارة و بدأت أحمل معهما عندها دبَّ النشاط في باقي الشباب و بدأوا يحاولون المساعدة حتى نمضي سريعاً .
فالنائم أراد المضي في الطريق حتى يعاود نومه لأن التوقف جعل البرد يمنعنا من النوم و المستيقظ رأى أنه ليس من الشهامة ترك الناس تعمل و الاكتفاء بالمشاهدة .
أنهت روح الجماعة التي دبت فينا أخيراً العمل الذي كان يحتاج وقتاً طويلاً لإنهائه .
شكرَنا السائق و بعد أن أخلى المكان تماماً من بيته الذي هو عبارة عن خيمة توجه إلى قمرة القيادة ليعاود السير بنا في طريقنا و قد ترك البقعة التي كان يعمرها بيته جرداء قاحلة .
عادت السيارة للمشي و عدنا جميعاً لمحاولة النوم .
قام السائق في الفترة التي توقف بها بتحميل كل فرش بيته و كان من ضمنه بعض الأغطية فأخذ كل اثنين أو ثلاثة منا غطاءً لنلفه على أجسادنا لنتقي به برد الصحراء القارس و الممتزج أيضاً بالبرد الناجم عن سرعة السيارة .
أفضل حل تقطع به طريق السفر هو النوم لكن هذا حل لا يتوفر في كل الأوقات خصوصاً إذا كان السفر في طريق التهريب .

إضافة إلى البرد لم يكن الطريق معبداً فقد كانت السيارة ترتفع و تهبط في معظم الطريق و يندر أن تجد طريقاً مستوياً تسير عليه و إذا ما وجد هذا الطريق فإن سرعة السيارة ستزداد ليزداد البرد معها مضت ساعةٌ تلو أخرى و نحن نسير في هذه الصحراء.

يا الله هذه صحراء سورية التي لم نكن نعرف إن كان فيها صحراء أصلاً فكيف بالصحراء الكبرى كنت استغرب عند رؤيتي لبعض المسلسلات تظهر بعض التائهين يرون سراباً في الصحراء يظنونه ماء و أظن أنها من نسج خيال المؤلف لكن في هذا اليوم يبدو بأني سأشعر بشعور الباحث عن السراب و سأواصل البحث عنه و لا أعرف إن كنت سأصل إلى السراب الذي أتخيله .

السراب بالنسبة لي الآن ليس ماءً و ليس تركيا و إنما هو المرحلة الثانية التي يجب أن نقف عندها .

مضى كل الليل تقريباً و بدأت أشعة الشمس تعلن ولادة نهار جديد لا أعرف إلى متى سنستمر بالسير و لكن قد يمضي السائق و تفوتنا صلاة الفجر فمن الأفضل أن نتوقف للصلاة ثم نتابع السير خير من أن تفوتنا الصلاة .

أجْلتُ نظري خلال السيارة لأرى شخصاً مستيقظاً يساعدني في إقناع السائق بالتوقف فالسائق بدوي و معظم من رأيتهم من البدو لا يعرفون شيئاً اسمه صلاة .

ظننت أني المستيقظ الوحيد فتحرك أحدهم حركة فهمت منها أنه مستيقظ فقلت له دعنا نطلب من السائق التوقف هنا لنصلي الصبح .

كنت أخشى أن يتكاسل و يرفض لأواجه مشكلة مع شخصين بدل شخص واحد إلا أنه تحمس و قال :" هيا ".

فطرق على الزجاج الخلفي لمقعد السائق فلم يفهم السائق ماذا يريد فخفف السرعة ليتوقف أخيراً فبدأنا جميعاً بالنزول نستغل هذه الفرصة بقضاء حاجتنا فقد مضى على وجودنا في السيارة وقت طويل ثم تيممنا لأداء صلاة الفجر .

صلينا جميعاً و عدنا إلى السيارة مجدداً قاربت الساعة السادسة صباحاً و بدأت الشمس ترتفع في السماء و لم نصل إلى وجهتنا بعد .

بعد سير السيارة قرابة ساعتين توقف السائق أخيراً أمام خيمة تبدو قابعة في الصحراء وحيدة كحال بيته الذي قمنا بتفكيكه و تحميله في الليلة الماضية .

لا أفهم كيف يقيم هؤلاء في هكذا أماكن منعزلة جداً عن العالم و مالذي يجنونه سوى أنهم يحتاجون إلى وقت أطول للتواصل مع الآخرين .

نزل السائق فانتظرنا قليلاً ثم جاء وقال :" إذا أردتم شراء شيء فتعالوا ".

فنزل معظم الشباب من السيارة و بقيت أنا أنتظر و نزل أخي أحمد .

بقيت أتأمل في حال حياة هؤلاء البدو و التي كانت عصيةً على فهمي فهل يعقل أن هذا الشخص يفتح بقالة هنا في وسط الصحراء ؟.

بعد قليل عاد الجميع و قد جلبوا معهم أنواعاً شتى من العصائر و البسكويت.

أصابتني هذه الخيمة بالحيرة كانت الخيم سابقاً تقتصر في ضيافة زوارها على ألبان الأغنام أما اليوم فقد باتت ضيافة الخيمة عبارة عن عصير و بسكويت .
عاد السائق إلى السيارة و عاد للمضي في الطريق ظننت أولاً عند وصولنا إلى السوبر ماركت "الصحراوي" أننا وصلنا إلى وجهتنا إلا أنه تبين لنا بعد لحظات أننا لم نصل كل هذا السير و لم نصل بعد .
أخبرنا السائق بأنه سيسير مدة عشر ساعات و قد جاوزت مدة سيرنا العشر ساعات انطلقنا في الحادية عشرة تقريباً و قد جاوزت الساعة التاسعة و لا نزال نسير في السيارة .
وقف أحدهم في السيارة ليرى الطريق و ليستمتع بجمال المناظر من حوله و لا أدري إن رأى جمالاً أم لا فقد كانت الأرض صفراء مبسوطة يستوي أولها و آخرها و لا تكاد تعرف الطريق الذي جئت منه.
بعد قليل قال الرجل :" يبدو أننا وصلنا يا شباب ".
تأملنا جميعاً أن يكون الرجل مصيباً في حدسه فقد أصابنا الإعياء من هذا الطريق.
بعد لحظات توقف السائق فعلاً و تبين لنا أن حدس الشاب المراقب كان مصيباً فبعد أن توقفت السيارة نزل السائق و توجه إلينا مسرعاً كأنه يريد التخلص منا فقال :" الحمد لله على السلامة لقد وصلتم إلى وجهتكم يا شباب انزلوا الآن".
تساقطنا عندها من السيارة جميعاً على عجل لنجد بدوياً آخر بانتظارنا رحب بنا الرجل و أشار إلينا بالمضي باتجاه خيمة منصوبة تبعد عن الخيمة التي نزلنا قريباً منها .
مضينا إليها فوجدنا حولها موقداً للحطب فبدأ الشباب يجمعون الحطب للتدفئة عليه فرغم أن الشمس كانت ساطعةً إلا أن البرد استمر في السريان في أجسادنا .
لم تغير الرحلة من طبيعة الأشخاص شيئاً فعبدالكريم الذي كان مشوشاً و متعجلاً لا يزال على حاله فما إن وصلنا حتى سأل البدوي الآخر متى سنمضي فأجابه :" إننا لا نستطيع المضي في النهار لأننا سنسلك طريقاً دولياً و من الجنون السير خلاله نهاراً فلا بد من الإنتظار حتى الليل".
سلم عبدالكريم بالأمر الواقع و رضي بأن ينتظر معنا كما ننتظر نحن .
لا أعرف ما بال هؤلاء البدو كلما مشينا وجدناهم مبعثرين شذر مذر فالسوبر الماركت الصحراوي يبعد عنا الآن مسافة طويلة و هنا خيمتان كل منهما بعيدةٌ عن الآخرى لا أدري ما يمنعهم من التجمع في مكان واحد و لكن يبدو أنهم يأنسون في وحدتهم كلما ابتعدوا عن بعضهم أكثر .
رغم أننا في صحراء إلا أن المياه كانت موجودة في إحدى الخزانات التي اقتناها سكان هذه المنطقة لاستعمالها في شؤونهم اليومية .
استأذناهم في أخذ بعض الماء لنغسل به وجوهنا و نمسح غبار الطريق عن وجوهنا فأذنوا لنا بذلك .
فبدأ كل واحد منا يأخذ إبريق الماء ليستعمله في قضاء حاجته .

و بما أن الحمامات ليست موجودة فعلينا المضي في الصحراء في كل وجه لنقضي حاجاتنا بدأ كل شخص يأخذ الإبريق و يمضي حتى يصبح بعد مشيه مسافة طويلة أشبه بالسراب .

عندما بدأنا نشب و نكبر في قريتنا كانت قريتنا في بداية النهضة العمرانية ولم تكن بيوتها ضاربة في القدم و لم تكن غاية في الكمال في وقتها كانت تقوم بحاجة أهلها و تزيد عن حاجتهم .
لم نكن نعرف من حياة البداوة شيئاً إلا ما نشاهده على شاشة التلفاز في بعض المسلسلات البدوية و التي كانت تشكل جاذباً لكبار السن من أهلنا لكونها حسبما أظن تحكي شيئاً يشبه واقعهم في تلك الأيام.
وصلنا أخيراً إلى النقطة التي سرنا طوال الليل إليها أتعبنا المسير طوال الليل و لكن الجو لم يكن يساعد على النوم فالأرض الصفراء المنبسطة حولك بتعث في نفسك شيئاً من خوف و لا شيء يبعث على الإنس هنا سوى هاتان الخيمتان أحدهما نجلس عندها نحن و الأخرى يجلس فيها البدو لا أعرف إن كان لهم علاقة بمهمة إيصالنا أم أن وجودهم هنا ليس مرتبطاً بوجونا إلا أن أغلب الظن أنهم كانوا هنا يستفيدون من إيصال من يعبر الطريق من درعا إلى تركيا و أعتقد أنهم يستفيدون عمولةً مالية من المهرب فلم يطلبوا منا شيئاً .
وصلنا مبكرين و لم نكن نعرف متى سيحين موعد الإنطلاقة الأخرى .
محطة تلو محطة و كلما وصلنا إلى إحدى المحطات أصبح ما كان هدفاً لنا منذ قليل ماضياً بالنسبة إلينا و يصبح الهدف البعيد أقرب خطوة .
رغم شعورنا بالتعب إلا أننا كنا مستعدين للمضي إلى النقطة التالية لنصل إلى وجهتنا الأخيرة بأسرع وقت.
قبل أن ننطلق في السيارة ليلاً نبهنا السائق قائلاً :" سنمر على حاجز للدولة الإسلامية و الدخان ممنوع فانتبهوا لأنفسكم ".
مضينا طوال الطريق إلا أننا لم نصل لذلك الحاجز فأزاح عن كاهلنا عبئ التفتيش الذي يجري على الحواجز عادة و الذي لا ندري أين سيوصلنا في النهاية .
ظننت عند وصولنا إلى تلك المنطقة أننا ضمن الأراضي الواقعة تحت سيطرة تنظيم الدولة و بعد قليل جاء صاحب الخيمة جالباً معه الإفطار لنا فبدأنا جميعاً بتناول الطعام ثم قدم بعد قليل شخص آخر ظننت لأول وهلة أنه من اتباع تنظيم الدولة فقد كان يرتدي عباءة بشكل يوحي أنه شيخ وقور و هو إلى ذلك شاب صغير قد أعطته لحيته مزيد هيبة
عندما رأيت ذلك المظهر قلت لا شك أننا الآن في أراضي تنظيم الدولة و لكن سرعان ما خاب ظني و تبين لي أنني مخطئ فقد أشعل الشاب السيجارة و بدأ يتحدث مع الشباب و كنت هممت بالإستماع لحديثه إلا أن منظر السيجارة جعل همتي تفتر عن الإستماع له و بدأ يتكلم مع الشباب .
لا شيء مهم في حديثه ما يهمنا الآن هو معرفة متى ستكون انطلاقتنا إلى النقطة التالية فتبين أن الشاب لا علاقة له و لكن قال :" الرحلات تنطلق ليلاً ".

قال هذا الكلام و نحن لا نزال في الصباح أي أن علينا إنتظار اليوم بكامله و لا خيار آخر لدينا بدأنا ننتظر و حاول كل منا الإشتغال بشأنه .
كنت أنا و أخي و عبدالكريم ثلاثتنا من درعا و كان معنا شاب من إدلب و هو الشاب الذي فرّ من الخدمة العسكرية مؤخراً أو انشق كما يحب أن يقول بالإضافة إلى أبي جهاد و زوجته و باقي الشباب كانت اللهجة الغالبة على لسانهم لهجة ريف دمشق و لا أعرف من أين هم تحديداً
و قد جمعتهم أزمة عصيبة فأوجدت بينهم الثقة و ألفت بين قلوبهم و هي أنهم كانوا في لبنان لا أعرف ماذا كانوا يعملون تحديداً إلا أن وجودهم في لبنان لم يستمر طويلاً لينتهي بهم المقام في السجن و رغم أنني ذقت مرارة السجن مع النظام و لكنني اعتقدت لبعض الوقت أن مصيبتهم كانت أكبر من مصيبتنا ذلك أننا كنا في سجن صيدنايا و هو سجن سيء بكل ما فيه .
و لكن هم كانوا في سجن رومية و حسبما سمعنا أنه سجن للإسلاميين و هذا يعني أنه نسخة لسجن صيدنايا و لكن بنكهة لبنانية و لكن تختلف الإدارة فهنا يديرها النظام و هناك يديرها الحزب و إن كان لا يوجد اختلاف بينهم في الأهداف و الرؤية و لكنهم يتمايزون عن بعضهم بالحقد علينا نحن أي أهل السنة و أظن أن سجون الحزب في لبنان أكثر حقداً .
جمعت الألفة بين أولئك الأصحاب و رغم أن طريق السفر من شأنه أن يبعث الرفاق على الثقة ببعضهم إلا أن الشباب الشاميين لم يكونوا يثقون بالشاب الإدلبي و يظنون به سوءاً و يرون في تأخر انشقاقه إلى هذا الوقت جريمة يجب أن يعاقب عليها .
افتقد أحد الشباب شيئاً من أغراضه لا أدري نقوداً أو شيئاً آخر فسأل الجميع باستثناء الشاب الإدلبي فلم يجبه أحد بشيء فتوجهت ظنونه باتجاه الشاب الإدلبي و لم يستبعد ذلك
فسأل صديقه أبا أحمد و الذي كان يمثل كبيرهم و كانوا يرونه أرجحهم رأياً فأشار بمكالمته على انفراد ليتبين صدق ما يقول فأجاب صديقه طلال إلى ذلك جلسنا جميعاً خارج الخيمة
و رأيت طلال يحمل آلة أشبه بعدة الميكانيكي بيده وهي تحوي كماشة مع سكين مع مفك كلها ضمن آلة واحدة فظننت أن الرجل ينوي تهديده فدخل هو و صاحبه أبو أحمد بالإضافة إلى الشاب المتهم .
انتظرناهم قليلاً ثم نسيناهم في الداخل دون أن نعرف ماذا حدث معهم
لم يكن هناك من قاض للعشيرة فكان لا بد من حل المسألة فيما بيننا .
رغم سطوع الشمس إلا أن البرد كان ينسل تحت ثيابنا فعدنا لجمع الحطب مجدداً لنزيد من لهيب النار التي كانت تشتعل حيناً و تنطفئ أحياناً .
لا شيء من حياة البداوة التي كنا نشاهدها على التلفاز نراه هنا باستثناء الخيمتان المنصوبتان حولنا .
أوشك النهار أن ينتصف و انصرف كل منا إلى شأنه منهم من مضى ليتوضئ ليصلي الظهر و منهم من اكتفى بالجلوس حول النار التي لا تكاد تدفئ نفسها .
بعد قليل انتبهنا أن المتحاكمين قد خرجوا فسألت طلال :" هل كان الرجل عند ظنك أي هل كان هو السارق فعلاً كما تخيلت ؟".

فقال لي :"يبدو أننا ظلمنا الرجل ". رغم إقرار طلال بأنه تسرع في حكمه على ذلك الشاب إلا أنه استمر على ظنه السيء به .
دخل وقت الغداء فجاءنا الرجل المضيف بالطعام و الذي كان عبارة عن البرغل بالإضافة إلى اللبن و كان كافياً لنشعر بالشبع حتى يحين موعد الرحلة .
بينما كنا نشرب الشاي بعد الغداء جاء أحدهم من عند الخيمة الأخرى و التي كانت تبعد عنا قليلاً فلم ننتبه لسيارته التي جاء بها ثم تبين أنه السائق جاء ليساومنا على الثمن الذي سندفعه حتى نصل إلى النقطة التالية و التي ستكون مدينة الميادين في دير الزور .
كنا قبل أن ننطلق اتفقنا مع المهرب على التكلفة بشكل كامل فأخبرنا أن التكلفة بالنسبة للشخص الواحد أربعون ألفاً و ستكون مرحلة تجاوز هذه النقطة الأكثر تكلفة لبعد المسافة و للخطر الزائد.
بدأنا بالمساومة على التكلفة و قد أراد منا بدايةً أن ندفع ١٦ ألفاً للشخص الواحد فحاولنا مساومته إلى أن نزل عن القليل من أجرته فسألناه بعد أن اتفقنا على السعر :" متى ستنطلق الرحلة ؟".
فقال :" لن ننطلق قبل غياب الشمس ".
رغم أننا نعي تماماً أن الرجل إنما يفعل ذلك بحثاً عن سلامته فهو سيقود بنا السيارة إلى أن طبيعة العجلة التي جُبل عليها الإنسان كانت تدفعنا في كل مرة إلى الإستعجال و كنا نظن أحياناً أن مخاوفهم مبالغ بها لكن لم يكن لنا في النهاية إلا الإنتظار .
بحمد الله النهار قصير فلن نظطر للانتظار طويلاً وصل الرجل في تمام الثالثة تقريباً و نحن في آخر العام و الشمس تغرب في وقت مبكر في الرابعة و النصف أو أكثر قليلاً .
انزوى كل منا إلى جليس يحدثه أو قام إلى شأن يقضيه ريثما يحين موعد الإنطلاق جاوزت الساعة الرابعة و بدأت الشمس أقرب إلى الغياب و ازداد البرد أيضاً ثم سمعنا صوت محرك السيارة قد بدأ يعمل لم نفهم لماذا يريد أن ينطلق الرجل الآن و الشمس لم تغب بعد و قد كان مصراً قبل قليل على أن اطلاقتنا ستكون بعد الغروب لكن ذلك شيء لم يزعجنا على العكس فقد سعدنا أننا سنطلق الآن .
اقترب الرجل بسيارته منا ثم أمرنا بالصعود جميعاً فتفقدنا أنفسنا لنجد أنه لا أحد غائب الجميع موجود و لكن كانت المشكلة في زوجة أبي جهاد جاءت الفتاة و كان يغلب ظننا أنها ستصعد مع زوجها في مقدمة السيارة رأفة بها إلا أننا عندما تواجدنا جميعاً قدم صاحب للسائق و صعد ليجلس بجانبه و أمر الفتاة بالصعود في الخلف معنا .
كان أبو جهاد شاباً غيوراً إلا أنه مسالم فاستسلم للأمر الواقع و عاد مع زوجته و بعد أن جلسنا جميعاً في مؤخرة السيارة وقف أبو جهاد و زوجته ينظر إلينا لم نفهم ما يريد أولاً ثم أشار إلينا بأن نفسح له و لزوجته الطريق ليجلس معنا .
نظر إليه أبو أحمد بغضب و قال :" ماذا تفعل ؟".
فقال :"أريد الصعود هنا ". فتساءل أبو أحمد مغضباً :" تصعد ! أين تصعد ؟ هنا ! لماذا لم تصعد في المقدمة".

فقال :" هناك رجل إلى جانب السائق و لا يوجد مكان ".
ازداد أبو أحمد عندها غضباً و نزل من السيارة مسرعاً و توجه إلى السائق قائلاً :" أين تريد الذهاب بالفتاة".
فأجابه ببرود :" لتصعد معكم". زاد جوابه عصبية أبا أحمد فحاول أن يتمالك نفسه و قال :" يا اخي هذا لا يجوز لينزل الراكب الذي بجنبك و ليصعد معنا و لتركب المرأة و زوجها في المقدمة ".
عندها تكلم الراكب بجانب السائق فظننا أنه سيصاب بالإحراج و سيدع المكان للمرأة و زوجها إلا أن جوابه أصابنا بالصدمة فقال :" يا أخي رجلي تؤلمني و لا أستطيع الصبر عللى هذه المسافة في السفر".
فسأله أبو أحمد متعجباً :" أنت رجل لاتستطيع الصمود هذه المسافة في السفر و تريد من هذه الفتاة أن تتحمل ذلك ما بالك ؟".
راح السائق و صديقه الراكب بجانبه يراوغان أبا أحمد حتى يستطيع الرجل البقاء في المقدمة و تبقى المرأة في الخلف ثم لم يبق عند أبي أحمد سوى الحل المعتاد و هو الإستعلاء على هؤلاء الناس و جعلهم يذعنون بالصياح فانفجر صارخاً و بدأ يذكر و يعض و يقول :" ما هذا هل هذه أخلاق إنسان محترم تجلس في المقدمة بينما المرأة في الخلف ".
استكان عندها السائق و صديقه أمام هدير صوت أبي أحمد لينزل بعد ذلك الرجل ثم ليصعد أبو جهاد و زوجته في مقدمة السيارة و ليعود ذلك الرجل ليجلس معنا بالخلف ازددت تقديراً لهذا الشاب
لقد ساند أبا جهاد في المرحلة الماضية و ها هو لم يرضخ لجلافة الأعراب بل حاورهم و خاصمهم حتى تمكن من إجلاس المرأة و زوجها في المقدمة و أعادة ذلك البدوي الغليظ إلى الخلف .
كل السيارات التي ركبناها خلال طريقنا كانت مكشوفة الظهر أما هذه فقد أخبرنا السائق بأنه سيتكرم علينا و سيضع لنا شادراً يغطي ظهر السيارة عسى أن يكف عنا شيئاً من البرد الذي سنواجهه في هذه المرحلة .
بدأت السيارة تمشي و أخذت معها الشمس تغيب و تزداد ظلمة المكان .
جلُّ همنا قبل انطلاقنا في أي رحلة هو إيجاد مكان نستطيع النوم فيه ذلك أن الرحلة ستكون طويلة و سيحملنا التعب و عناء الطريق على النوم و لكن مهمنا اجتهدنا في تحصيل أسباب النوم فقد كان ذلك صعباً جداً ذلك بأن الطريق الذي نسلكه ليس طريقاً معبداً و إنما طريق رملي تنتشر به المطبات في كل مكان .
بدأت السيارة تمضي و بدأنا نقفز مع السيارة كلما ارتفعت عن الأرض قليلاً ثم عادت إلى وضعها بدأت الرؤية تصبح صعبة و الكلام أصبح صعباً أيضا فلم نعد نستطيع سماع بعضنا إلا بصعوبة فانشغل كلٌّ منا بنفسه محاولاً النوم و لو على مضض .

حسب كلام السائق و الذي قال لنا بأننا سنسلك طريق بغداد دمشق الدولي و هو ما جعلنا ننتظر حتى المساء خوفاً من استهدافنا .
و نحن نسير على الطريق كثرت المقولات حول داعش من مجرِّم لها و ملحق لها بالشياطين و من منزه لها و ملحق لها برتبة الملائكة و عندما أخبرنا السائق سابقاً بأننا سنمر على حاجزين لتنظيم الدولة وجدت في ذلك فرصة لاستكشف الأمر بنفسي و لكن السائق لم يصب و لم نلتق بالحاجزين المذكورين .
الآن سننطلق باتجاه دير الزور و هي تخضع لداعش فلا شك أننا سنمر على حواجزهم لكن لا أعرف متى سيكون ذلك .
عشر ساعات قضيناها في الطريق للوصول إلى ريف الحماد و الآن سنقضي ٨ ساعات للوصول إلى مدينة الميادين في دير الزور .
كنا نقاوم النعاس أحياناً و نستسلم له أحيانا أخرى و لا نجد شيئاً في الطريق ننظر إليه باستثناء الصحراء الخاوية مرت ساعة ثم ساعتين ثم ثلاث و لا زلنا نسير في الصحراء و بعد مضي ٨ ساعات تقريباً بدأنا ننظر من مؤخرة السيارة لنشاهد بعض المباني حولنا لنكتشف أننا وصلنا إلى محافظة دير الزور أخيراً و بتنا أقرب خطوة للوصول إلى تركيا .

عندما خرجنا في إحدى المظاهرات قبل أن يتم اعتقالنا شاهدت في قرية كحيل منظراً غريباً و هو أن أحد المباني قد امتلئ بالثقوب استغربت المنظر أولاً فقال أحدهم :" إنه رصاص".
ازددت استغراباً عند ذلك و قلت في نفسي :" هل يصل الجنون في القمع إلى هذه الدرجة ربما ليس الأمر كما يقول و أن في الأمر خطأً ".
بعد عدة أيام و في المظاهرة التي سبقت اعتقالنا أطُلق علينا جميع أنواع الرصاص و استُهدفت كل المباني حولنا فزالت ظنوني و أيقنت أن ما رأيته سابقاً كان رصاصاً حقاً .
خلال وجودنا في السجن ازدادت وسائل التدمير المستخدمة لتصل في النهاية إلى البرميل الذي يتم إلقائه من المروحية .
كان التدمير في قريتنا قليلاً بالنسبة إلى باقي القرى و خلال رحلتنا هذه كانت قرية بصر الحرير هي الأكثر دماراً نتيجة البراميل المتساقطة عليها .
بدأنا ندخل في أحياء مدينة الميادين التابعة لمحافظة دير الزور و لم يكن الدمار فيها يوازي نسبة الدمار في مدينة بصر الحرير لكننا دخلنا المدينة ليلاً و المدينة كبيرة فلا شك أنه خفي علينا جزءٌ كبيرٌ من الدمار الذي نال كل شبر.
رغم أننا دخلنا في الأحياء المسكونة إلا أن السيارة استمرت في السير مدة ليست بالقليلة ليتوقف السائق بعد ذلك و يأمرنا بالنزول . نزلنا متلهفين نبحث عن ملاذٍ آمن و فراشٍ دافئ نسند إليه رؤوسنا بعد هذه الرحلة الطويلة .

دخل السائق أحد الأبنية المكونة من ثلاثة طوابق و بدأ يصعد الدرج و قد طلب منا أن نتبعه .
لم يتهيأ لنا رؤية ما اكتسانا من الغبار حتى بتنا تحت الأضواء فبدأنا نحاول التعرف مجدداً على بعضنا و قد غيّر الغبار ملامح وجوهنا بدأنا ننفض الغبار عن ملابسنا و أجسادنا في هذا البيت الذي دخلناه و الذي يبدو أقرب إلى محطة عبور .
أزلنا الغبار عنّا و دخلنا إلى الغرفة التي ستكون مأوانا لهذه الليلة و نحن نرجو أن تكون الليلة الأخيرة في هذه الرحلة .
لم يكن غريباً أن نجد هناك أناساً يهمّون بالسفر مثلنا أيضاً ، دخلنا لنجدهم قد افترشوا الأرض و شغلوا معظم الأمكنة لنتأمل بعضنا دون أن نعرف أين نجلس .
في النهاية لم يكن هناك بد من الاستسلام للتعب فأزحنا عن كاهلنا عباءة الأدب الزائد لنجلس كيفما اتفق.
كنا نظن أن الموجودين هنا سيتسببون بتأخيرنا و ذلك أنهم قد وصلوا قبلنا فلا شك أنهم أحق منا بالإنطلاق أولاً .
تململ أحدهم معبراً عن انزعاجه من القادمين الجدد و بدأ الباقون بالاستيقاظ ليتأملوا وجوهنا المكسوة بغبار السفر .
بدأت الأحاديث الجانبية بسرعة لنطلع على مدة إقامتنا المحتملة هنا إلا أن المفاجئة كانت قول أحدهم أنه ينتظر أن يكون الطريق آمناً حتى يمضي في سفره و لكن ليس باتجاه تركيا هذه المرة و إنما من الجهة التي أتينا منها أي إلى درعا .
حسناً يبدو أن المدة الطويلة من الحرب جعلت الناس تتأقلم مع الواقع و جعلتهم يمضون لمتابعة حياتهم.
بدأوا يسألوننا عن الطريق الذي وصلنا من خلاله إلى هنا فأجبناهم حسبما سمعنا السائق يتحدث بأننا أتينا من الطريق الدولي بين دمشق و بغداد .
سألنا أحدهم :" متى خرجتم في أي وقت ؟ ".
أجبناه بأننا انطلقنا قبل غروب الشمس فنظر إلينا بخوف و قال :" كيف تخاطرون بالخروج نهاراً احتمال استهداف الطائرات للسيارات التي تعبر هذا الطريق وارد في النهار ".
أجابه أحد الموجودين :" يا رجل أنت تتخوف بشكل زائد ".
فقال :" لا صدقاً لقد رأيت إحدى السيارات و قد اصطفت على جانب الطريق بعد ان استهدفها أحد الصواريخ ".
أياً يكن فإن تلك المرحلة انتهت و نحن الآن على وشك البدء بمرحلة جديدة حاولنا ان نضيق على أنفسنا حتى يتسع المكان لجميعنا ليأتي بعد قليل رجل يحمل دفتراً و يسأل عن اسمائنا .
ظننت أولاً أنه يقوم بجمع المعلومات ليقوم بإيصالها إلى تنظيم الدولة إلا أنه كان قادماً حتى يعرف من يريد المضي قدماً و من هو على استعداد لتحمل تكلفة الرحلة الجديدة بدأنا ندون أسماءنا فقال :"

إذا أردت أن تدخل عن طريق الحدود النظامية فستدفع مبلغاً أقل و هو ٦ آلاف ليرة لكن إذا أردت أن تدخل عن طريق التهريب سيزداد السعر لتدفع ١٠ آلاف ".

لم أفهم سر هذا الفرق فما تبادر لذهني أن المسألة ستكون معكوسة فسألته عن ذلك فقال :" إذا دخلت بشكل نظامي ستفقد فرصة الذهاب إلى أوروبا و ستضطر للبقاء في تركيا و ذلك أن الدول الأوروبية لا تستقبل من دخل إلى تركيا بشكل نظامي ".

فكرت قليلاً و سألت أخي أحمد فقال :"لنمضي في الطريق الأقل تكلفة ".

حسناً كانت تركيا هي أقصى أمانينا و لم يكن يدور في ذهننا التوجه إلى أوروبا فأخبرناه بأننا سنذهب عن طريق الحدود و أعطيناه المبلغ المطلوب فدون أسماءنا و بعد أن أخذ تفاصيل رغبات كل منا قال :" حسناً الرحلة موعدها غداً في الساعة السابعة ناموا الآن حتى تستيقظوا نشيطين ".

سارعنا لتنفيذ نصيحته و أخلد كل منا إلى النوم وما أن مضت لحظات قليلة حتى بدأ الجميع بالاستيقاظ مجدداً لنرى أشعة الشمس قد بدأت تسطع بسرعة.

رغم شعورنا المتواصل بالنعاس إلا أنه كان علينا أن نبدأ بالاستعداد لرحلة اليوم بدأ الشباب يغسلون وجوههم و يعدون أنفسهم للطريق الجديد الذي سنسلكه هذا اليوم .

بدأ الشباب يأخذون ما تركوه ليلة أمس ملقىً على الأرض من ثياب و أشياء مهمة أو غير مهمة جرت الأمور بشكل طبيعي حتى بدأ أحدهم يزيح الأغراض بغضب و بدأ يتأفف ثم بدأ بالسؤال قائلاً :"لقد تركت هاتفي المحمول هنا البارحة هل رآه أحد منكم ".

بدأنا ننظر إلى بعضنا و نخمن أن هذه هي المشكلة التي ننتظرها حاولنا سريعاً مساعدته حتى لا نتأخر فبدأنا نقلب الفرش و نزيح الأغراض عن مكانها لكن دون جدوى.. بحثنا حتى شعرنا باليأس سأله أحدنا فقال :" ما نوع هاتفك هل هو هاتف ثمين؟".

فقال :" ليس ثمينا جداً و لكنه من الهواتف الحديثة".

بدأ الوقت يمضي و يجب أن نسافر اليوم فقال له أحدنا :" ابحث جيداً في أغراضك أو في المطبخ ".

فقال :" لقد بحثت في كل مكان لكن دون فائدة ".

في المرة السابقة كانت الشبهات تتوجه للشاب الذي فرّ متأخراً من خدمة الجيش أما اليوم فحصر الشبهات في شخص واحد مسألةٌ صعبةٌ جداً لإننا وجدنا أناساً جدداً و لا نعرف مدى جرأتهم على القيام بهذا العمل.

بدأنا ننظر إلى بعضنا و نحن نأمل أن يصرف الشاب ـ ابو حسن ـ فكرة البحث عن الهاتف و يعود إلى التفكير بالسفر إلا أن الرجل أصر على إيجاد هاتفه و استطرد كثيراً حتى قال :" إن لم أجد الهاتف فسأخبر الأمن ".

و الأمن هنا يعني أمن تنظيم الدولة تغيرت ملامح الوجوه و بدأ أحدهم يوزع النصائح قائلاً :" يا شباب من أخرج الهاتف فليخرجه إذا أتى الأمنيون إلى هنا فسيحمل السارق يده على رقبته فلا داعي أن يفقد أحدكم يده نتيجة دعابة ".
قطع يدالسارق كان تهديدا عابراً في الماضي أما اليوم فهو أمر تقوم به جماعة التنظيم .
لم نعرف كيف نرضي أبى حسن فنحن لا نعرف أين هاتفه و لا نريد أيضاً أن نحتك مع أمني التنظيم و قد وصلنا البارحة .
رغم إصرار أبي حسن على عناده إلا أن أبا أحمد الرجل الذي يستمع معظم رفاقه إلى كلامه استطاع إقناعه بنسيان أمر الهاتف و التفكير بالسفر مجدداً و هكذا انتهينا من المشكلة التي كنا نظنها أنها ستعرقل سفرنا .
بعد قليل أتى الرجل صاحب المنزل و الذي أخذ أسماءنا بالأمس لينهي عمله فبدأ بإعطائنا بعض النصائح فقال :" يا إخوان ستمرون على حواجز كثيرة تابعة للدولة الإسلامية و سيقومون بتفتيش الهواتف لذلك احذفوا كل شيء يمكن أن يشكل شبهة من صورة و غيرها ".
استخف أحدهم بكلامه فبدأ آخر ينتصر لرأي المهرب قائلاً :"هناك أناس قتلوا مقابل صورة وتس آب لقريب له يعمل مع الثوار و صورة رجل مع سلاحه تكفي بالتسبب بقتله فلا داعي لأن تضعوا أنفسكم في هذا الموقف الحرج و الذي قد يؤثر به بعضكم على بعض ".
استمع الجميع لنصيحته أما أنا فقد كنت حذفت جميع الملفات سواء المرئية أو المسموعة
ثم سألنا الرجل :" هل يحمل أحدكم شيئاً يمكن أن يتسبب لكم بالمشاكل ".
لم نكن نحمل شيئاً فقد اكتفيت أنا و أخي أحمد بثيابنا التي كنا نرتديها و هكذا كنا نظن باقي رفقائنا في هذه الرحلة حتى قال أحدهم و هو أبو أحمد ـ الرجل الذي يبدو قائد المجموعة التي ترافقنا ـ :" أنا احمل شيئاً ".
فسأله الرجل :" ما هو؟". فقال :"مسدس".
فقال:" ماذا؟ مسدس ! و ماذا ستفعل به ".
فقال :" سأصطحبه معي ". سأله الرجل :" هل تمزح أم تتكلم بجد ".
فقال :" لا أنا جاد تماماً ". ظننا بانتهاء مشكلة الهاتف أننا سنتابع طريقنا و لكن هاهي مشكلة أعقد منها أبو أحمد يظن بل على يقين أن حمل مسدس لن يتسبب له بالمشاكل و المهرب على يقين بأن المسدس قادر على جلب كارثة لنا
قال له المهرب عندها :" أخي لا تستطيع الذهاب بالمسدس أنت لن تذهب وحدك فسيرافقك شبان آخرون و وجود السلاح معك مضر عليهم كما هو مضر عليك فلا تتسبب بإيذائهم ".
لم يقتنع أبو أحمد بكلام الرجل و إنما ازداد إصراراً على موقفه فقال :" لماذا المشاكل أنا أحمل مسدس ما هي المشكلة و لن أذهب بدونه ".
بدأ الرجل الآخر يضرب على جبينه معلناً إياسه من نقاش الرجل .

فكر قليلاً ثم قال :" إن كنت تريد الإحتفاظ بسلاحك فهذا حقك لكن لا يمكنك الذهاب به لذلك أفضل حل أن تعطيه أحداً من أصدقائك الذين تثق بهم هنا ". لكن أبا أحمد قال :" لماذا يا أخي ماذا سيفعلون لي أليست الجماعة تحكم بحكم الله و بحكم الشرع فليطبقوا الشرع علي إذاً أنا أريد أن يطبقوا علي شرع الله".

أيس الرجل من النقاش في النهاية ثم قال :" لا مجال للذهاب بمسدسك احتفظ به عند صديق من أصدقائك و لا تتسبب بالتأخير للشبان الآخرين فهم على وشك المضي في طريقهم ".

كان أبو أحمد مؤثراً في باقي رفاقه فقرروا الإنتظار معه حتى يحل مشكلة مسدسه أما نحن فلم تربطنا بهذه المجموعة سوى مدة هذه الرحلة لذلك عزمنا على الذهاب لنفترق أخيراً بعد أن ترافقنا على طول الطريق من بصر الحرير في درعا إلى مدينة دير الزور .

بدأنا نعد أنفسنا لنجد العازمين على الذهاب سبعة أنا و أخي أحمد و عبدالكريم الشاب القادم من الجيزة و العسكري المتأخر في الفرار و أبو حسن صاحب مشكلة الهاتف و شابان من رفاق أبي أحمد وتأخر أبو جهاد و زوجته حتى يستكملا المبلغ المطلوب .

بعد أن جاوزت الساعة السابعة بقليل أتانا المهرب قائلاً استعدوا للإنطلاق فقد أتت السيارة .

من دُول الخِلافة إلى بِلاد الفَصَائل

نصحنا معظم أصدقائنا أن نقوم بمحو الملفات الصوتية و المرئية في جوالاتنا قبل أن نمضي في الرحلة و قد التزمت أنا و أخي بالنصيحة فقمت بإفراغ الهاتف من جميع محتوياته حتى من برامج الإتصالات التي لا يخلو منها هاتف ذكي .

المرة الأول التي تم تفتيش هواتفنا فيها هي عند الحاجز الذي يفصل اللجاة عن البادية التي تقودنا إلى ريف دمشق و هو حاجز تم وضعه بعد محاولة تنظيم الدولة التسلل إلى درعا من هذا الطريق فكان المرابطون هناك يتصدون للمهاجمين من طرف التنظيم و كان عليهم أن يكونوا حذرين من أن يتسلل أحدهم ممن يتبع للتنظيم سراً فيلتحق بهم فيكونون بذلك قد سهلوا الطريق لخصومهم بتزويدهم بمزيد من المقاتلين .

لم يستغرق تفتيش هواتفنا على الحاجز التابع لجبهة النصرة سوى بضعة دقائق ثم مضينا في طريقنا إلى أن وصلنا أخيراً إلى مدينة الميادين في دير الزور .

جاء المهرب صباحاً و أخبرنا بأننا يجب أن نمضي في طريقنا فقد وصلت السيارة أخيراً .

نزلنا مسرعين حتى نجلس في السيارة بشكل نكون مرتاحين فيه استعداداً لمتابعة طريقنا بسيارات الشحن الكبيرة فقد كانت وسيلة مواصلاتنا الوحيدة منذ بدأ الرحلة و لكن بعد نزولنا بدأنا نبحث عن سيارة كبيرة فلم نجد فأشار لنا الرجل بيده باتجاه سيارة صغيرة من نوع "فان" تقف أمامنا .

أخيراً انتهينا من العناء في سيارات الشحن صعدنا جميعاً في السيارة و صعد معنا الرجل أيضاً .

كان الجو لا يزال غائماً لكن لا برودة تذكر .

مضت السيارة على مهلها حتى دخلت السوق ثم توقفت أمام أحد مكاتب السفريات فنزل الرجل المسؤول عن طريقنا فنزلنا معه دخل المكتب و بدأ يعمل في مكتبه ثم أخذ من مكتبه عدة كتيبات و أهدانا إياها فتحت الكتيب فإذا هو حصن المسلم للقحطاني و معه أيضا بطاقة المكتب و هواتفه أعجبتني فكرة الإعلان بهذه الطريقة تنال أجراً في الآخرة و تروج لعملك .

كان صاحب العمل يبحث عن سائق آخر يساعد السائق الذي سيقوم بإقلالنا حاول لكن دون جدوى ثم قرر أنه لا بد من مضينا في طريقنا فطلب منا العودة إلى السيارة حتى نمضي في طريقنا .

صعدنا سريعاً و بدأنا نودع شوارع الميادين و التي كانت أكثر المدن حيوية من بين المناطق التي رأيناها مضت السيارة أولاً في الشوارع الجانبية حتى وصلنا إلى طريق الأوتوستراد بدأ السائق عندها بتوجيه الإرشادات إلينا فيما إذا واجهنا أحد الحواجز التي تتبع لتنظيم الدولة فقال :" يا شباب انتبهوا و لا تورطوا بعضكم من كان لديه أي شيء مشبوه فليتخلص منه و إذا سألكم أحدهم إلى أين تتوجهون

فقولوا بأن وجهتكم هي الرقة لا تتكلموا عن تركيا أو السفر أو الثورة أجيبوا على السؤال فقط دون مزيد كلام".

هززنا جميعاً رؤوسنا مبدين موافقتنا على كلامه . أسرعت السيارة قليلاً و بدأنا نستسلم للنعاس عندها و لكنها ما لبثت أن خففت من سرعتها و أدار السائق رأسه باتجاهنا قائلاً :"حاجز يا شباب انتبهوا".

أبطئت السيارة من سرعتها حتى توقفت و تسارعت عند ذلك نبضات قلوبنا خوفاً من خطأ محتمل .

توقفت السيارة و فتح أحدهم الباب من الخارج و بدأ يجيل النظر في وجوهنا كان ممتلئ الجسم قصيراً يرتدي معطفاً يزيد من حجم جسمه و قد ملأت لحيته وجهه و إلى جانبه شخص أضخم منه فسألنا :" إلى أين تذهبون؟".

تولى السائق الكلام عند ذلك و قال :" إلى الرقة ". فقال :" إلى الرقة .. حسناً هاتوا بطاقاتكم الشخصية".

كنت أنا و أخي نجلس إلى جانب باب السيارة و كان أحمد يحمل بطاقة شخصية لكنني لم أكن أحمل هوية فقد دخلتْ معي السجن لكنها لم تخرج معي منه .

كنت أحمل جواز السفر بالإضافة إلى دفتر الخدمة العسكرية أخذ الرجل جواز سفري أولاً و تأمله ثم نظر إلي سائلاً بتعجب :" من درعا ماذا تفعلان هنا و إلى أين تذهبان ؟".

فأجبته حسب تعليمات السائق قائلاً :" إلى الرقة ".

لم يقتنع بجوابنا فتأمل وجوهنا مجدداً وقال :" تعالا معي".

نزلت أنا و أخي أحمد نتبع الرجل الذي أخذ مستنداتنا و مضى إلى الأمام كان الحاجز الأمني على طريق حيوي فكانت السيارات لا تتوقف عن الذهاب و المجيء فتولى أحدهم متابعة السيارات التي تعبر الطريق و تولى الآخر الكلام معنا .

كل ما كان يقوم به الرجل الآخر هو توقيف السيارة ثم يلقي نظرةً بداخلها ثم يطلب من السائق متابعة طريقه و إذا كانت السيارة لا تحتمل شبهة كما إذا كان سائق السيارة مسناً يطلب منه الأمني متابعة طريقه بسرعة أما سيارتنا فقد كانت مشبوهة لوجود عدد كبير من الشباب بها .

لم يجد الرجل شيئاً مريبا سوى أننا من درعا فأراد الاطمئنان أكثر فقال لي :" أين أديت الخدمة الإلزامية؟". طبعا كان السؤال لاصطياد المنشقين الذين يكونون ربما قد قاتلوا مع الجيش الحر قلت له :"لم أؤد الخدمة الإلزامية ". فقال :"حسناً أين هويتك ". قلت له :"لقد ضاعت خلال الأحداث التي نعيشها".

فقال :" ليس معك إثبات آخر غير جواز السفر". فقلت :" بلى معي دفتر الخدمة الإلزامية".

فقال :" أعطني إياه". فأعطيته فبدأ يتصفحه الجيد في المسألة أنني كنت مؤجلاً عن الخدمة الإلزامية و لكن التأجيل انتهي منذ أكثر من ثلاث سنوات .

تصفح الصفحة الأخيرة فوجد سبب التأجيل أنني كنت أدرس في الجامعة فقال :" ماذا كنت تدرس ".

فقلت :" إقتصاد ".

ازداد عندها اهتماماً بالبحث عن شيءٍ يدينني فقال :" هل معك هاتف ". فقلت :"نعم".
فقال :" هاته ". فأخذ هاتفي و هاتف أخي أحمد أيضاً كنت أحمل هاتفا ذكياً إلا أنني كنت قد حذفت جميع البرامج و الملفات التي يحويها فبدأ يتصفح الهاتف فلم يجد شيئاً فقال لي :" أين الواتس اب ".
قلت له :" لا أتعامل مع الواتس ". فقال :"تريد أن تقنعني أنك درست في الجامعة و هاتفك خال من الوتس أب و من وسائل التواصل كيف كنت تتواصل مع أصدقائك إذن ؟ ".
فقلت له :"كنت أتواصل معهم عبر الفايبر ".
قلت تلك الكلمة حتى أتخلص من إصراره و نسيت أنني قد قمت بحذف الفايبر أيضاً فقال :" أين الفايبر إذاً ". فقلت له :" في الهاتف ". فقال :" لا ، لا يوجد ".
لم أعرف كيف أتخلص من إصراره . عندها أحس بأنني مثير للشبهة فوضع يده على كتفي و قال :" قل لي مع أي فصيل كنت تعمل ؟ ".لم أرد المبالغة بالنفي حتى يشعر بأني كاذب فقلت له :"أي فصيل لم أكن أعمل كنت أدرس فقط ". فقال :" قل لي لا تخف لن أؤذيك ".
أصرّ على طلبه و أصررت على كلامي فتوجه إلى أخي أحمد و لم يكن قد أخلى هاتفه من جميع البرامج فوجد الفيس بوك فقال :" افتح حساب الفيس بوك ". فقال أحمد :" ليس معي إنترنت ".
فقال :" لا بأس أنا سآتيك بالإنترنت ". لم يكن أخي أحمد خائفاً فلم تكن لديه مشكلة في أن يتصفح الرجل حسابه على الفيس بوك فقد كانت معظم منشوراته تعجب التنظيم و تطبل لهم .
نادى الرجل زميله و قال :" ائتنا بإنترنت ".
انتظر أحمد قليلاً ثم سأله الرجل مرة أخرى فقال:" ماذا حصل معك ". فرفع أحمد الهاتف في وجهه :"و قال لا يوجد إنترنت ". اطمئن الرجل عندها من ناحية أحمد ثم سأله :" هل في حسابك ما يسيء إلى أحد الإخوة ؟". فقال :" لا أبداً ".
عندها يأس الرجل و في قلبه منا شيء فأعاد لنا مستنداننا و طلب منا العودة إلى السيارة فعدنا سريعاً إلى السيارة و شعور الفرح بالنجاة يغمرنا إلا أنه الحاجز كان الأول و لا يزال الطريق طويلاً و هو مليء بالحواجز الأمنية .
سارت السيارة مسرعة ثم أدار السائق وجهه نحونا و قال :" كونوا على حذر الجانب الآخر من المنطقة التي سنسير أمامها يتبع للنظام و يوجد بها قناصة ".
ثم أدار وجهه و زاد من سرعة السيارة و بعد أن مشى مسافة قصيرة قال :" لا بأس تجاوزنا الآن منطقة الخطر ".
إلا أنها لم تكن المنطقة الخطيرة الوحيدة التي سنعبرها اليوم فما إن مشى السائق بضع دقائق بسرعة حتى بدأ يخفف سرعته قائلاً :" حاجز يا شباب استعدوا".
بدأنا نعد أنفسنا و نحظر المستندات حتى نعطيها الرجل عندما يطلبها منا . توقفت السيارة أخيراً و فتح الباب رجل جهم ممتلئ يحمل رشاشاً كسابقيه و إلى جانبه شاب تغلب عليه الحداثة لا أظنه جاوز العشرين تحدث الرجل بلهجة مخالفة للرجلين السابقين فقد كانت لهجتهما أقرب إلى لهجة أبناء الساحل

حتى حار ذهني كيف لعلوي أن يقاتل مع تنظيم الدولة و لكن ربما يوجد لهجة مشابهة للهجتهم من المناطق الأخرى .
أما هذا الرجل فيبدو أنه من أبناء هذه المنطقة أي من دير الزور و كذلك الشاب الذي معه بادرنا الرجل بالسؤال :" إلى أين اتجاهك ؟".
فبادره السائق بالكلام أملاً منه أن ينهي رحلته بسلام ـ فقد كان يصحب ابنه معنا و لم يكن يريد له الأذى لا لابنه و لا لنفسه ـ فقال :" إلى الرقة ".
فقال الرجل عندها :" إلى الرقة من أين أنتم ؟".
من الصعب الإجابة على هذا السؤال فنحن من تشكيلة جغرافية مختلفة لم ينتظر الرجل طويلاً فقال " :" هوياتكم". فأخرجت جواز سفري و أريته إياه فنظر إليه و قال :" من درعا".
توقف قليلاً ثم تابع الإطلاع على باقي المستندات فعرف أن أخي من درعا أيضاً عندها قال :" طيب أروني هواتفكم ".
قمت بإعطائه هاتفي مباشرة لم يزد على أن تصفحه دقيقة ثم أعاده إلي و كذلك فعل مع باقي المسافرين ظننت أن الرجل ألين من سابقه و أننا سنجاوز هذا الحاجز دون مشاكل حتى وصل إلى الشاب الأدلبي المنشق حديثاً فتح هاتفه و بدأ يتصفحه فوجد أحد الفيديوهات فقام بتشغيله انطلق الصوت عندها عالياً
"باردوتي بيدي وبجعبتي كفني
بارودتي بيدي وبجعبتي كفني
يا أمتي انتظري فجري ولا تهني "
أنشودة جهادية عندما سمعتها ظننت أن الرجل سيعيد الهاتف إلى صاحبه دون المزيد من الأسئلة و لكننا تفاجأنا بالعكس فما إن سمع تلك الألحان حتى تغير وجهه و بدأ يسأل :" ما هذا ما هذا؟".
لم يعرف الرجل بماذا يجيب فهو لا يحمل شيئاً محرماً أو شيئاً يسبب هذا الهيجان من هذا الرجل تلعثم الرجل قليلاً ، عندها حسم جندي التنظيم قراره و قال :"إنزلوا جميعاً ".
فنزلنا عند ذلك و بدأنا نمشي خلف الجنديين باتجاه أحد الأمكنة التابعة للدولة سابقاً و قد بات سجناً للتنظيم لم نعرف هل سيطول بنا المقام هنا أم أنه سوء تفاهم بسيط .

التنظيم الأكثر خطورة الذي كنا نسمع عنه قبل الثورة هو تنظيم الإخوان المسلمين و كنا نسمع من عجائب تعامل الدولة مع من ينتسب إليه أشياء أقرب إلى الخيال و لا ندري ما صحتها حتى سمعت أن العقوبة بالنسبة للمنتسب للتنظيم قد تصل إلى أقربائه من الدرجة الرابعة و قد يلقى أحدهم حتفه نتيجة لقرابته لك و لارتباطك بالتنظيم .
قصة أخرى سمعتها أن أحد الأشخاص السوريين كان مقيماً في إحدى البلاد الغربية و عندما عاد إلى سورية تم إيداعه في السجن مباشرة دون أن يعرف شيئاً عن جرمه و بعد أكثر من عشرة أعوام لم

يعرف فيها سبب اعتقاله تبين له لاحقاً أن سبب اعتقاله كان أنه من الإخوان المسلمين مع أنه كان نصرانياً تسبب سوء فهم النظام بالسجن أعواماً عديدة للرجل .
سمع الرجل المنتمي لتنظيم الدولة إنشودة جهادية إلا أنه أساء فهم الصورة فظن أن الصوت عبارة عن أنشودة جهادية و الصورة عبارة عن مقاطع للجيش السوري .
خشيت أن يتسبب سوء فهم الرجل لنا بالنتيجة نفسها للنصراني الذي حبس بتهمة الانظمام للإخوان المسلمين .
حاول السائق أن يكون إيجابياً إلى أبعد الحدود فقد كان يخشى على ابنه الذي يصحبه معنا فسأل الشاب المسلح الصغير :" ما الذي يحدث ؟".فتبسم الشاب و قال :" إن صديقكم قام بدبلجة أنشودة بارودتي بيدي على مقطع للجيش السوري ".
كنت على يقين بأن هناك خطأً فمن سيقوم بمثل هذا العمل و هل شبيحة النظام من محبي الأناشيد أصلاً؟! طلب منا الرجل أن نتبعه جميعاً فقام السائق بركن سيارته على جانب الطريق حتى لا يعيق حركة المرور و مضينا خلف جندي التنظيم .
يبدو أن البناء كان سجنا سابقاً فقد أودعنا الرجل في إحدى الغرف و التي كان بابها عبارة عن قضبان حديدية .
بقي الشاب الصغير يحرسها عندنا و توجه الرجل الآخر للتحقيق معنا جميعاً فنادى أحد الأشخاص عشوائياً و بدأنا نحن ننتظر .
بدأ الجندي الصغير التابع للتنظيم بالتفاخر بزميله فقال :" ما شاء الله أبو عمر لا تفوته شاردة".
فوجد السائق كلامه فرصة مناسبة لكسر الجمود عسى أن يفهم إلى أين ستصل بنا تحقيقاتهم فقال المسلح الصغير :" لا تخف إذا لم يكن عليك شيء ستخرج مباشرة ".
كانت هذه الجملة تتسبب لي بالإرباك دائماً فقد سمعتها قبل أن أودع السجن محكوماً بالإعدام حتى منَّ الله علي بالخروج .
بدأ الشباب الآخرون يتدخلون في الحوار فشرح لنا الشاب عندها مميزات سجنه حتى قال :" إن السجناء يفضلون البقاء هنا على الخروج إلى بيوتهم فهم يتلذذون هنا بأطايب الطعام و لا شيء يدعوهم إلى الخروج من هنا سوى الخوف من قصف التحالف ".
سأله أحدنا:" أين نحن الآن ؟". فقال :" ألا تعرف أين أنت أنت في ولاية الخير و بعدها حاضرة الخلافة ".
لم أعرف ما هي حاضرة الخلافة التي يقصدها فسألته فقال :" مندهشاً لا تعرف حاضرة الخلافة أيضاً إنها الرقة ".
و بعد برهة طلب أبو عمر المفتش من صاحبه أن يرسل له شخصاً آخر فاصطحب أخي أحمد ليقوم بتفتيشه دون أن يعيد الشخص الأول ثم بدأنا بالتناقص الواحد تلو الآخر .
كنت أحمل علبة عطر بيدي فأخذتها و بدأت أعطر يدي فانتبه الشاب إلي فقال :" ما هذا؟".

فمضيت إليه و مدت له علبة العطر حتى أُمِرها على يديه أيضاً فمد يده فعلاً و قال :" العطر لا يرد".
بدأ عددنا بالتناقص و لا نعرف عمن يخرج إلى أين يتجه .
أتى دوري أخيراً فاصطحبني الشاب إلى صاحبه فطلب مني أن أرخي الحزام ففعلت فأمر يديه على جسمي ليتحسس إن كنت أحمل شيئاً ثم قال لي :" امض إلى طريقك ".
تفتيش سريع جداً لم أكن أتوقع أن يتعامل الرجل بهذه السلاسة و لكن الحمد لله على كل حال .
خرجت لأجد باقي الشباب قد تجمعوا في السيارة بانتظار من بقي في الداخل . خرجنا جميعاً و بقي الشاب الإدلبي المنشق حديثاً في الداخل تأخر قليلاً حتى بدأنا نظن أنهم اكتشفوا أمره بأنه منشق حديثاً و لكن بعد لحظات أتى الرجل مبتسماً .
صعدنا جميعاً في السيارة استعدادا لمتابعة طريقنا كان القائمون على هذا الحاجز أكثر تفاعلاً معنا من الحاجز السابق فعندما رآنا الرجل أول مرة و قد ارتدى أحدنا و هو أبو حسن -الخارج من سجن رومية- بنطالا ضيقاً فانتقده مباشرة و قال :" ما هذا يا أخي لماذا ترتدي بنطالاً ضيقاً لهذه الدرجة لماذا لا ترتدي مثل بنطال الشيخ مشيراً إلى بنطالي و كلمة شيخ عندهم هي الأكثر استخداما فلا يكاد أحد ينادي آخر دون أن يسبق اسمه بكلمة شيخ .
عندها برر له أبو حسن قائلاً :" و ماذا تريد من الشيعة أن يلبسوني ".
فقال الرجل :" الشيعة مالهم". فقال :" لقد كنت مسجوناً عندهم فأعطوني هذا البنطال عند خروجي".
قبِل الرجل عذره عندها و انصرف لعمله .
لم يخف الشاب المسلح رغبته في أن يكون تنظيم الدولة موجوداً في الجنوب حيث لم يكن له فرع هناك في تلك الفترة فقال متشوقاً عندما أجبناه على سؤاله من أين أنتم بأننا من درعا فقال :" درعا آه سنأتيها سنأتيها ".
حاول أحدهم التملق قائلاً :" إن شاء الله قريباً نصركم الله ".
عندها قال الشاب :"الآن مرحلة الخلايا النائمة ثم سندخل إن شاء الله ".
بعد أن أنهى الرجل التحقيق معنا أعطانا كل أغراضنا و عندما التم شملنا أخيراً سألنا الشاب الإدلبي عن سبب تأخره فقال :" لقد قاموا بتفتيشي".
فقلنا:" و ما الجديد كلنا قد تم تفتيشنا". فقال :" عندما قام الرجل بتفتيشي أتت يده على أسفل بنطالي فتحسس شيئاً و أخرجه و كانت ذاكرة هاتف قد أخفيتها في ذلك المكان ".
فازددنا تعجباً عندها فسألناه :" و ماذا حصل بعد ذلك؟".
فقال :" سألني الرجل ماذا يوجد فيها فأخبرته بإنها ملفات عادية فسألني مالذي دفعك إلى ذلك فقلت لا أعرف خشيت أن تضيع فأعادها إلي و قال امض في طريقك ".
منذ بداية الرحلة كان الشباب الخارجون من سجن روميةينظرون إلى الرجل نظرة ريبة لتأخر انشقاقه و لكني حاولت أن أحسن الظن فيه فربما يكون الرجل تأخر في الانشقاق و لكن عسى أن يكون تاب

توبة نصوحاً و لكن بعد تصرفاته الغريبة بدأت أظن أن الحق مع الشباب الآخرين أياً يكن فرفقتنا له لن تدوم أكثر من يوم واحد .
وبعد اجتماعنا عادت السيارة تدير عجلاتها و تمضي في طريقها مجدداً المحطة التالية ستكون مدينة الباب في حلب و لا نعرف متى سنصل إليها استغرق الحاجز الأول مدة ربع ساعة فقط و لكن الحاجز الثاني قضينا فيه قرابة النصف ساعة و لا نعرف ما هي عدد الحواجز التي ستواجهنا فقد كانت حسب التوقعات تفوق العشرة و هذا يعني أننا قد نحتاج لخمس ساعات لعبور الحواجز فقط .
سيطرة داعش على أجزاء واسعة من البادية الشرقية كانت مضرة للثورة و الثوار و لكنها كانت مفيدة لأناس آخرين أيضاً فقد كانت تسيطر على كثير من الأبيار النفطية فكان التاجر يأتي من السويداء إلى دير الزور ليحمل النفط الغير مكرر طبعاً أو مكرراً تكريراً بدائياً ليحمله إلى مناطق الجنوب لذلك كثرت السيارات المتجهة من الجنوب إلى البادية أو العكس .
الجو متقلب بين غائم و مشمس أحياناً تشرق الشمس لتضيء لنا الطريق بشعاع من الأمل ثم تحتجب تارة أخرى خلف الغيوم مضفيةً على الجو سكينة و أمناً من قصف الطيران للمناطق التي نمر بها فدرعا و إن كانت سابقةً في الثورة إلا أن نصيب مناطق الشمال من البراميل كان هو نصيب الأسد.
مضت السيارة على طرقٍ معبدة مسافةً طويلة دون أن نتعرض لحواجز حتى ظننا أننا انتهينا من الحواجز ثم بدأت السيارة تخفف من سرعتها ليخبرنا السائق بأننا سنمر على أحد الحواجز فبدأنا نعد أنفسنا لاستجواب جديد .
فُتِح باب السيارة فأجال الرجل الواقف على الحاجز نظره علينا ثم سأل :" إلى أين تتجهون ".
فأجابه السائق :" إلى الرقة ". فقال :" و من أين أنتم ". فسمى كل واحد منا منطقته ففكر قليلاً ثم أغلق باب السيارة دون مزيد أسئلة و أشار للسائق بمتابعة طريقه فاستجاب السائق لأمره و بدأنا بمتابعة سيرنا.
أمر غريب لم يسألنا هذا الجندي أكثر من سؤالين ثم أمرنا بمتابعة طريقنا تمنينا أن تكون باقي الحواجز بهذه السهولة .
مضت ساعة أخرى أو أكثر ليعود السائق و ينبهنا بأننا أمام حاجز مجدداً مضت الحواجز السابقة على خير و نحن الآن مطمئنون نوعاً ما.
أوقف السائق السيارة ففتح الرجل الآخر الباب و الذي كان كسابقيه لحيةٌ طويلة و قلابية قصيرة بالإضافة إلى الرشاش على عاتقه سألنا مباشرة :" إلى أين تتجهون". فأجابه السائق :" إلى الرقة ".
فقال :" و من أين أنتم ". فأجابه السائق :" بأننا من مناطق مختلفة هذان من درعا ".
فقال :" من درعا هات هويتك". فأعطيته جواز سفري فنظر فيه ثم قال أين هويتك فقلت له لا أحمل هوية و لم أكن الوحيد الذي يحمل هوية فقد كان الشاب الأدلبي المنشق حديثاً لا يحمل هوية أيضاً بل كنت أحسن حالاً منه فقد كنت أحمل جواز السفر و دفتر الجيش أما هو فلم يكن حاملاً لأي إثبات لشخصيته. فكر الرجل قليلاً ثم قال لي ماذا تحمل أيضا فأخرجت دفتر الجيش و أعطيته إياه فقلب

الصفحات مباشرة ليتبين له تاريخ الإنشقاق فيما إذا كنت منشقاً لكنني اختصرت عليه الطريق و قلت له :" أنا متخلف عن الخدمة لم أذهب إلى الجيش ".
فاطمأن عندها و أعاد الدفتر و أمر السائق بمتابعة طريقه فاستجاب لأمره ثم و بعد مضي قليل من الوقت عاد السائق لينبهنا أننا أمام حاجز جديد .
فُتح الباب و ذات الأسئلة تُطرح دوماً لم يكن الشاب الأدلبي حاملاً لإثبات لشخصيته فسأله الرجل عن هويته فقال :" ليست معي هوية ". فسأله :" أين ذهبت هويتك ".
فاخترع الرجل قصة معقولة و قال :" كنت في الأردن و قذفونا من الأردن إلى هنا دون أن يعطونا إثباتاتنا الشخصية ". لم يجادله الرجل في صدقه أو كذبه و إنما قال :" نعم هذا نصيبكم لأنكم تركتم الجهاد".
و أغلق الباب بعد هذه الكلمة فانطلق السائق مسرعاً مضى معظم النهار و قطعنا غالبية الطريق و لم يكن الشاب الأدلبي عازماً على الذهاب إلى تركيا و إنما كان عازماً على العودة إلى بلده إدلب و عندما وصلنا إلى محطة الإنطلاق الأقرب إلى بلده نزل الرجل و ودعنا ليتابع كل منا في طريقه .
أثار ذلك الشاب العديد من الشبهات و لا أدري هل كان صادقاً في انشقاقه أم هل يمكن أن يكون جاسوساً للنظام لا أعرف و لكن هل تبلغ الجرأة بالجاسوس أن يسير كل هذه المسافة و يجتاز كل هذه المخاطر ليعود إلى بلده حسبما قال ربما أياً يكن فقد ارتحنا من هم الشك به .
بتنا الآن قريبين جداً من حلب المحطة الأخيرة قبل تركيا . حل المساء و بدء يشتد الظلام و بدأت سرعة العجلات تخف و هدير محرك السيارة يهدئ ليتوقف السائق أخيراً في حي من الأحياء ثم قال :" الحمد لله على السلامة لقد وصلتم ".
أخيراً تجاوزنا سلطنا تنظيم داعش حسبما ظننا و لكن الرجل الذي كان بانتظارنا و بعد أن نزلنا من السيارة أمرنا بالإسراع قائلاً :" عجلوا قبل أن تأتي الحسبة". أي أمنيو الدولة يبدو أننا لم نتجاوز مناطق سيطرة التنظيم .
أصغينا للرجل و بدأنا نحث الخطا مسرعين باتجاه المكان الذي سنبيت به ليلتنا هذه بعد أن قضينا ما يقارب نصف النهار و نحن في السيارة.
معظم المناطق التي مررنا بها سابقاً كانت تغطية الهاتف النقال ضعيفة أحياناً و معدومة في معظم الأوقات . وصلنا أخيراً إلى البيت الذي كان من المقرر أن نبيت به ليلتنا و الذي كان يخالف باقي البيوت من حيث النظافة و الإهتمام فقد كان نظيفاً و مرتباً إلى حدٍ بعيد على عكس عادة البيوت التي تكون محطات للمسافرين .
كان عبدالكريم قد قضى معظم فترة الرحلة دون اتصال مع أهله و هو أمر لا يصبر عليه و قبل أن يغادر
الرجل منزله الذي سنقضي فيه ليلتنا سأله عبدالكريم إن كانت هناك وسيلة للإتصال مع أهله فقال :" يوجد محل قريب لبيع بطاقات الإنترنت و بإمكانك الذهاب برفقتي إليه لكنك ستعود وحدك ".

فوافق عبدالكريم ثم سأل إن كان أحد من الباقين يرغب بمرافقته أم لا فأجبته:" بأني سأذهب معك ".
فانطلقنا عندها إلى محل بيع بطاقات الإنترنت و رغم أن الكهرباء كانت مقطوعة في كل مكان إلا أن الحي الذي يتواجد فيها المحل كانت معظم محلاته مضيئة - إما عن طريق بطاريات الشحن أو عن مولدات الكهرباء - بالإضافة إلى إقبال من الزبائن عليها و الذين كانوا كلهم شباباً .
اشترى عبدالكريم بطاقة و اشتريت واحدة أخرى و التي كانت عبارة عن حزمة ١٠٠ ميغا مقابل ١٠٠ ليرة سورية نصحنا بائع المحل بعدم الإبتعاد عن محله لإن البطاقة تعمل عبر المخدم الموجود في محله فإذا ابتعدنا قليلاً لن نعود قادربن على الإتصال بالإنترنت .
لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق لننهي اتصالاتنا و لم ينقص رصيد البطاقة سوى قليلاً أذن العشاء و بدأت حركة سريعة في معظم الشوارع و أخيراً سمعنا صوت الأذان بعد انقطاع طويل .
لم نعرف سبب تحرك الناس بهذه السرعة و بعد لحظات خرج البائع و أغلق محله ثم وجه إلينا نصيحة قائلاً :" قد يسبب وجودكم هنا مشكلة لكم فقد تأتي الحسبة بعد قليل فتأخذ من لم يذهب إلى الصلاة فالأفضل أن تذهبوا إلى المسجد ".
فقلت في نفسي :" لا داعي للذهاب للمسجد فقد جمعنا الصلاة خلال طريق سفرنا ".
و لكني فكرت قليلاً و تأملت فيما إذا أتت الحسبة سأخبرهم أني جمعت فسيسألونني عندها لماذا و ينفتح باب من الأسئلة لا نهاية له فمن الأفضل العودة إلى البيت .
عدت مسرعاً مع عبد الكريم لنقضي الليلة الأخيرة - حسب ظننا - في سورية.

كانت طبيعة قريتنا هادئةً دائماً فالمحلات التجارية تغلق أبوابها مع حلول الظلام أو بعد غياب الشمس بساعة أو ساعتين في أحسن الأحوال و حافلات نقل الركاب باتجاه المدينة "درعا" تتوقف عن العمل عند الساعة الثالثة ظهراً و تتخذ يوم الجمعة عطلةً لها هذا في زمان قبل الحرب و لطبيعة الحرب التي تشهدها البلاد تقلصت مدة العمل تلقائياً مع تقلص عدد الساكنين فيها.
وصلنا منذ دقائق إلى مدينة الباب في حلب و توجهنا إلى المحل لشراء بطاقات الإنترنت و رغم أن مدينة الباب كانت أكثر استهدافاً من قبل البراميل إلا أن عدد الأشخاص المتواجدين أمام المحلات التجارية كان كبيراً و لولا أن الكهرباء كانت مقطوعة و كانت المحلات التجارية تستعين بالمولدات و البطارية لجزمنا أنه لا يوجد شيء في هذه المدينة من آثار الحرب .
وصلنا إلى البيت و بدأنا نستعد للنوم لنستيقظ باكراً فالرحلة لم تنتهي بعد . لحظاتٌ قليلة ثم سمعنا صوت انفجار مدو لم يكن صوته غريباً علينا إنه صوت برميل قامت بإلقائه إحدى مروحيات النظام لم تعد هناك ردة فعل منطقية تجاه هذه البراميل المتساقطة لإن المنطق يقول أننا مع سماع هكذا صوت ينبغي أن نخاف أو أن نتوجه إلى أحد الأماكن الآمنة التي نظنها ستحمينا من هذه الإنفجارات و لكن طول مدة الحرب قضى على المنطق و أورثنا منطقا جديداً يحكم حياتنا .

أخلدنا جميعاً إلى النوم وقبل أن نغط جميعاً في نومٍ عميق سمعنا صوت ضجيج في الخارج ليدخل علينا الرجل الذي استقبلنا مصطحباً معه رفاقنا الذين تركناهم في دير الزور و الذين رفضوا متابعة الرحلة لإصرارهم على اصطحاب المسدس معهم . و قبل أن نسأل أبا أحمد عما فعله بمسدسه بادرنا رفاقه بسؤالنا :" كيف تركتمونا و ذهبت دوننا كان بإمكانكم انتظارنا ثم نتابع الطريق سوية ؟".

و لكن لم يكن أحد منا يظن أن مشكلة أبا أحمد ستنتهي فهو كان مصراً على اصطحاب مسدسه و لا يرغب أحد منا أن تتم مساؤلته على أحد الحواجز عن سبب وجود المسدس .

انتهى العتاب اللطيف سريعاً ثم بدأنا بالإستيقاظ و الإستعداد لإكمال رحلتنا اكتمل جمعنا باستثناء الشاب الإدلبي الذي تركنا البارحة و فرح القادمون الجدد بنبأ رحيله عنا جلست أم جهاد مع زوجها في المقعد الأخير فيما جلسنا قبلهم و تصدر القادمون الجدد مقدمة الحافلة .

بدأت تمضي السيارة قي طريقها و قبل أن نغادر المدينة اقترح أحد الشباب أن نشتري إفطاراً قبل أن نغادر المدينة حتى لا نشعر بالجوع فوافق الجميع و نزل أحدهم ليشتري لنا الإفطار لنتذوق آخر سندويشة فلافل قبل أن نغادر سورية .

بعد ذلك بدأت السيارة تمضي في طريقها و بدأتُ أغالب النعاس حتى سمعت الشباب حولي يصرخون :" انظروا انظروا". لم أعرف سبب هيجانهم فسألت أحدهم :" ماذا يجري؟".

فقال:" هناك رأس إنسان معلق على أحد الأعمدة". يبدو أنه قد أصاب حداً فتمت معاقبته لم أشهد ذلك المنظر و لكنه أمر لم يعد غريباً هنا في الشمال .

بدأت الشعارات الموجودة على الجدران تتغير تدريجياً فبعد أن كانت تقول دولة الإسلام باقية و تتمدد و أهلاً و سهلاً بدولة الخلافة في اللجاة ، أصبحت الخوارج كلاب أهل النار داعش باغية و تتبدد عرفنا عندها أننا خرجنا من مناطق سيطرة تنظيم الدولة .

مسافة طويلة قطعناها في سلطان تنظيم الدولة بل ربما تفوق مسافة المناطق الأخرى إلا أننا عبرنا الحواجز دون مشاكل كبيرة لم تكن مسألة الحواجز و التفتيش عليها حكراً على تنظيم الدولة فكل الفصائل المسلحة تضع الحواجز في مناطق سيطرتها بغية الحفاظ على أمنها حتى أن أحد أصدقائي أخبرني أن طريق درعا دمشق يحوي خمسة و عشرين حاجزاً كلها للنظام .

و بعد أن تجاوزنا حواجز تنظيم الدولة كان لزاماً أن نمر على حواجز الفصائل الأخرى بدأنا نرى الرايات الموجودة على الحاجز ترفرف من مسافة بعيدة و بعد أن اقتربنا من الحاجز تبين الشعار المكتوب و هو "مشروع أمة" شعار جميل يوحي بأن أغلب الفصائل توافق على المشروع و تقاتل متكاتفة مع بعضها و لكن الواقع بعيد عن هذا الشعار .

توقفت السيارة و فُتح الباب و بدأت الأسئلة المعتادة :" من أين أنتم ؟ و أين طريقكم ؟".

اشتغلت حواجز تنظيم الدولة بي و بأخي كوننا من درعا فوجودنا في مدينة تبعد عن موطننا مئات الكيلو مترات في هذا الوقت أمر مثير للريبة أما الحاجز الذي توقفنا عنده أخيراً فما إن سأل عن أوراقنا الثبوتية حتى أخرج له القادمون الجدد أوراقاً خضرا و حمراً و أخرى لا يعرف لونها حتى

أصيب الجندي الواقف على الحاجز بالذهول عندما رأى هذه الأوراق الكثيرة و التي لا تحوي بينها هوية شخصية واحدة .
فسأل الرجلُ :" ما هذه الأوراق أين هوياتكم؟". فتولى الكلام أحدهم فقال :" هذه أوراقنا و قد كنا في لبنان في سجن رومية فأخذوا جميع أوراقنا الثبوتية و بعد أن تم إخلاء سبيلنا أعطونا هذه الأوراق بدلاً عنها و لم نستطع مراجعتهم فما كان لنا إلا الرضى بهذه الأوراق و المضي في حال سبيلنا".
اقتنع الجندي بكلام الرجل فأعاد الأوراق لأصحابها ثم طلب منا متابعة طريقنا ظننا أولاً أن وجود عدد أكبر من الركاب سيتسبب لنا بالمشاكل لكن بعد تجاوز الحاجز الأول تبين أنّا كنا مخطئين .
الحاجز الأول كان لفصيل أحرار الشام و بعد مدة عاودت السيارة التخفيف من سرعتها ليتبين أننا على حاجز جديد و لكنه يتبع في هذه المرة إلى جيش الإسلام عبرنا الحاجز الثاني بهدوء .
و بعد مشي مسافة أخرى بدأ عدد السيارات يزداد و بدأنا نعاين يمين الطريق و قد امتلأ بالسيارات الذاهبة و يسار الطريق قد امتلأ بالسيارات العائدة لا نعرف من أين أو إلى أين و لكن أغلب الظن أننا قد شارفنا على الوصول إلى الحدود .
لحظاتٌ و عاودت السيارة التوقف على أحد الحواجز و بعد الأسئلة الإعتيادية ارتبك المجند الواقف على الحاجز فقد كان أصغر سناً من سابقيه فذهب مسرعاً باتجاه قائده و الذي عاد معه سريعاً ليسأل عما يجري و عن قصة الخارجين من سجون لبنان وقف القائد أمام الباب فقال :" من الخارجون من سجون لبنان؟". و على عكس العادة في أن يتولى الكلام رجل واحد سارع جميع الموجودين إلى الكلام و شرح معاناتهم لكن الرجل لم يفهم شيئاً فقال :" حسنا أين أوراقكم؟".
فترامت عليه الأوراق من اليمين و اليسار دقق الرجل النظر في الأوراق قليلاً و نظر باتجاه الموجودين فيأس من أن يفهم شيئاً أو أنه فهم كل شيء لا أعرف، عندها أعاد الرجل الأوراق لأصحابها و أشار بيده أن امضوا في طريقكم لنتجاوز بذلك الحاجز الأخير قبل عبور الحدود السورية التركية و صلنا إلى الحدود أخيراً فكان لا بد من الإفتراق .
فقد قرر بعضنا أن يدخل الحدود بطريق نظامي أي من خلال جواز السفر كأخي أحمد و أنا و عبدالكريم فيما قرر الباقون كأبي جهاد و زوجته و معظم الشباب الباقين بالدخول تهريباً فأغلبهم لم يكن يحمل أوراقاً ثبوتية و إن كان تجاوز معظم الحواجز في الطريق إلا أن الأمر هنا يختلف بالتأكيد.
ودعنا رفاق الدرب بعد رحلة لا تخلو من متعة و مغامرة و مضى كل منا في دربه .
لا شك أن الطريق الذي قطعناه سويةً كان صعبا و خطراً إلا أن أبا أحمد ورفاقه قد بلغوا الجهد في معاناتهم في هذا الطريق فقد خرجوا من سجن رومية في لبنان حيث كانت تستذلهم قوات الحزب الإيراني و الأمن اللبناني و بعد خروجهم من هناك لم يعد يخطر في بالهم أن يتعرضوا للإعتقال مرة أخرى فبدأوا يدفعون على كل حاجز يمرون عليه ٥٠٠ دولار حتى يدرؤا الشر عن أنفسهم و بعد أن وصلوا إلى الحدود السورية دخلوا من طريق القنيطرة مشياً على الأقدام ليقطعوا بذلك سورية من أقصى جنوبها إلى أقصى شمالها .

مضيت أنا و أخي و عبدالكريم نبحث عن الوسيلة التي سنتابع بها طريقنا و كعادة السائقين ما أن يروا راكباً يبغي السفر حتى يتهافتوا عليه تهافت الذباب على الحلوى فلا تستطيع التخلص منهم إلا بعد عناء شديد .
سألنا أحدهم :" أين الوجهة". فأجبناه :" إلى تركيا". فقال :" حسناً تعالوا إلي أنا بحاجة راكبان".
تحرجت أنا و أخي أحمد من ترك عبدالكريم فقلنا له معتذرين :" نحن ثلاثة ".
فسارع البحث عن غيرنا ليأتينا السائق التالي قائلاً :" أين تتجهون؟". فأجبناه :" إلى تركيا".
فقال :" حسناً هلموا إلى سيارتي". مضينا معه جميعاً متعجلين ففتح لنا الأبواب فسارعنا الدخول ظناً منا أنه سيسير بعد دخولنا مباشرة و لكن بعد لحظات فهمنا شيئاً مما يجري حولنا .
فقد كانت السيارات كلها تنتظر دورها في العبور و لا يزال الطريق أمامنا طويلاً جداً و بدأ يغلب على ظننا أننا سنبيت هنا على الحدود .
بعد أن ركبنا في السيارة سألنا السائقُ عن نوع النقود التي معنا فنصحنا أن نبدل شيئاً منها بالليرة التركية فقد نحتاجها بعد قليل و ثم لا نجد مكاناً نبدل فيه النقود فاستمعت لنصيحته و مضيت لتبديل النقود و كان تجار العملة يسيرون في كل مكان باحثين عمن ينتفع بهم و ينتفعون به
مئة و ست ليرات سورية مقابل ليرة تركية واحدة هذا هو سعر الصرف اليوم عدت إلى السيارة و بدأنا ننتظر في هذا الرتل الذي لا نستطيع رؤية أوله و لا آخره .
لحظاتٌ قليلة ثم نزل عبدالكريم و بدأ يتجول يمنة و يسرى ثم غاب عن ناظرنا قليلاً ليعود بعد قليل و هو مبتسم فأخذ حقيبة سفره و قال :" السلام عليكم". دون مزيد بيان هممنا بسؤاله عن وجهته و لكننا تمهلنا قليلاً ثم فكرنا بأن الرجل لو رغب بإخبارنا بوجهته لفعل .
أغلب الظن أنه وجد سيارةً ستقله و لا يريد أن نتسبب له بالتأخير .
لا بأس فهكذا نرتاح من مسألة ارتباطنا بشخص ثالث .
مرّ وقت طويل دون أن يتحرك شيء من رتل السيارات حتى بدأنا نيأس من متابعة الطريق و بعد لحظات تحركت السيارات قليلاً فأحسسنا بأننا قد وصلنا إلى وجهتنا و لكن ما هي إلا لحظات حتى عاودت التوقف، وبعد وقفة طويلة أخرى عاودت السيارة المشي لتدخل ما ظننا أنه القسم التركي من الحدود و لكن ما رأينا الشارات و الأعلام حتى عرفنا أننا لا نزال على الجانب السوري فقد كانت راية أحرار الشام ترفرف في كل مكان .
ما أعرفه عن الحدود السورية التركية أنه يوجد بينهما العديد من المعابر و كنت أظن أن الدخول من مدينة حلب هو الأسهل كونها أقصى الشمال و لكن صديقي في السجن "منار من إدلب " أخبرني أنهم كان يتوجهون إلى تركيا قبل الثورة بسهولة و يسر و لا شك أن الأمر الآن لا يزال سهلاً و المعابر التي كنت أسمع الإعلام يردد اسمها هي معبر باب الهوى في إدلب و معبر باب السلام في حلب و نحن الآن في حلب في معبر باب السلام لحظات قليلة تفصلنا عن الإنتقال إلى الجانب التركي و ننهي عندها هذه الرحلة الطويلة .

بَينَ الاستقرار والهِجرَة

أعطى دخول الهواتف الذكية إلى بلادنا فرصةً للاحتفاظ بالذكريات الجميلة و لم يحدث هذا بعد خروجي من السجن و إنما قبل دخولي بفترة طويلة فما كان أحد أصدقائي يشعر بأن لحظات جميلة لن تتكرر أو مشهدا لافتاً لا يفوت حتى يسارع لأخذ هاتفه و يبدأ بالتقاط الصور و مقاطع الفيديو .
و مع بداية الثورة أصبحت كاميرات الهواتف الوسيلة الإعلامية الأكثر مصداقية في تغطية الأحداث فلم تكن تحتاج المسألة سوى إلى تصوير للمشهد و شرح مبسط و سريع و بعد انتهاء اليوم يمسي الفيديو على شاشات التلفزة يشرح ما حدث في ذلك اليوم .
و بعد خروجي من السجن شعرت أن الإهتمام بالتصوير بات ضعيفاً لكنه لم ينعدم نهائياً إنما بقي متداولاً بين الإعلاميين الجدد و الذين تركوا التصوير بالهاتف و بدأوا التصوير بالكاميرات حتى يوازوا بصورهم الإعلام الذي يواجههم.
و قد تسبب لي التصوير بمشاكل كثيرة فما كنت أرفع كاميرة الهاتف حتى يظن البعض أنني أهم بتصوير النساء الموجودات في موقع التصوير ورغم أنني كثيراً ما أُسيءَ فهمي و كثيراً ما تعرضت للتأنيب ممن كان يصحبني إلا أن عادة التصوير لم تكن تفارقني.
قطعنا المسافة كاملة و نحن الآن أمام الحدود ننتظر الباب حتى يفتح لنا فندخل إلى تركيا حسبما نظن .
بعد لحظات فُتح الباب و دخلت السيارة التي كنا نركبها لنتفاجأ بأننا لا زلنا في الجانب السوري حيث توجد المكاتب المسؤولة عن تسيير عمل المهاجرين .
دخلت السيارة ببطئ فراودني شعور غريب أحسست أنها آخر لحظات أعيشها في سورية و مشهد دخول الحدود سيكون مميزاً جداً فيما لو صورته لم أفكر كثيراً فقد أغرتني فكرة التصوير جداً رفعت الهاتف لأبدأ بالتصوير و لكنني خشيت أن يُساء فهمي كالعادة فلم أرفع الهاتف كثيراً و لكن رغم ذلك انتبه لي أخي أحمد فبدأ يأنبني و يحاول أن ينهاني عن التصوير و لكنني لم أكن أستمع إليه فقد كنت مشغولاً بالتصوير. دخلت السيارة من البوابة و رفعت الهاتف لأصور ثم شاهدت أحدهم يمشي نحونا بسرعة كانت المسافة بعيدة إلا أنني شعرت بأنه يتجه نحونا .
و ما إن توقفت السيارة حتى وصل إلينا الرجل و قال :" تعال معي".
يبدو أنه أُسيءَ فهمي مرة أخرى نزلت أنا و أخي أحمد و مضينا مع الرجل لم نكن نعرف ما يريد فلم يصرح لنا بشيء سوى أنه طلب منا مرافقته و بعد أن وصلنا الى المكتب توجه إلي قائلاً :" أعطني

هاتفك". حاول أخي أن يبرر موقفي قائلاً :"لم يكن قصد شيء كان فقط يصور و نهيته فلم ينته لا داعي لهذا كله إذا أردت بإمكاننا أن نحذف الصور الآن ".
لم يبال الرجل بنا و إنما قال :" انتظروني قليلاً ". انتظرنا لحظات فخرج رجل آخر ضخم الجثة و يرتدي معطفا عسكرياً فقال :" أعطونا هوياتكم ".
فأعطيناه ما نملك من وثائق رسمية فأعطاها للأشخاص الذين يجلسون خلف المكاتب التي نتواجد عندها و يعزلهم عنا الزجاج .
بدأ الموظف بالبحث سريعاً ثم توجه إلينا الرجل الضخم قائلاً :" ماذا يدور في ذهنك مالذي كنت تصوره و لماذا؟ ". أجبته :" لا شيء فقط صورة للذكرى قبل أن أغادر البلد ".
نظر إلي و تنهد قائلاً :" للذكرى ؟ البلد على كف عفريت و أنت تلتقط صورة للذكرى ".
لم أعرف بماذا أجيبه فلم أكن أريد سوى صورة و لم أكن أتوقع أن تصل المسألة إلى استجواب سألنا الرجل عن دراستنا فأخبرته أنني متخرج من كلية الإقتصاد و أن أخي قد أنهى الثانوية فأبدى أسفه لمغادرة معظم الشبان البلد في الوقت الذي تحتاجهم البلد فيه .
لم يكن لدي وقت لأشرح قصتي من الإعتقال ثم إلى الأردن ثم إلى هنا إلا أنني اكتفيت بالقول :"بأن لكل منا ظروف تحكمه و بعضنا قد يكون أشد صبراً من غيره".
أنهى الموظف البحث سريعاً و أعاد للرجل الوثائق فقام الأخير بإعطائها لنا متمنياً لنا التوفيق فخرجنا بسرعة لنعود إلى سائق السيارة الذي كان بانتظارنا .
بدأنا ننتظر مجدداً و لا شيء يعوقنا الآن سوى أن يفتح الحاجز الذي أمامنا ظننا بعد تجاوزنا الحاجز الأخير أنها لحظات و سنصبح في تركيا إلا أنه تبين لنا أننا مخطئين فقد انتظرنا أكثر من ساعة ثم ساعتين و السيارات واقفة لا تتحرك .
نصحنا سائق السيارة أن نجرب العبور إلى الداخل سيراً على الأقدام إلا إنه طلب منا في حال نجاحنا في الدخول إلى تركيا أن نخبره بذلك استمعنا لنصيحته فنزلنا من السيارة و بدأنا نمشي باتجاه الأمام.
لم نعرف إن كان الدخول مشياً أمراً ممكناً فلم نكن نرى أحداً يدخل مشياً إنما يدخل الناس عن طريق السيارات حتى أن من يصل و يقف على الباب ينتظر اللحظة التي تمر بها إحدى السيارات التي ستدخل
فيتعلق بها ليدخل كيفما كان .
حاولنا أن ندخل مراراً لكن دون فائدة و بعد أن شارفت الشمس على الغروب دخلت سيارة شحن كبيرة فأشرنا للسائق بأن يقلنا فأشار بيده إلينا بأن نعجل في الصعود إليه فاغتنمنا موافقته و ركبنا معه إلا أن السيارة عادت و توقفت مجدداً فعاودنا النزول .
انتظرنا لحظات فشاهدنا أحد الرجال المسنين يدخل بعد أن تكلم مع العسكري الذي يقف على الحاجز فاغتنمنا الفرصة و سارعنا باتباعه تمهل العسكري بالسماح لنا أولاً ثم أمرنا بالإسراع حتى لا نبقى واقفين أمامه في موقف غير قانوني .

سارعنا ووقفنا ضمن الصف الواقف أمام المكتب الذي يعاين جوازات السفر ثم يقرر إذا كان سيسمح لأصحابها بالدخول أم لا . لم يطل بنا الإنتظار حتى وقفنا في مواجهة الموظف فطلب منا جوازات السفر فأعطيناه إياها فتفحصها قليلاً و بعد أن عاينني جيداً قرر أن يسمح لي بالمرور أخيراً فختم جوازات السفر ثم أعطانا إياها لندخل تركيا أخيراً بعد رحلة طويلة استمرت من يوم الإثنين ٢٠١٤/١٢/٨ لنصل يوم السبت
٢٠١٤/١٢/١٣
.

الآن نحن في بلد مختلف له ثقافة مختلفة و معنا كامل الحرية في التوجه أينما شئنا لم نعرف أين نتوجه أولاً فكل هدفنا كان هو الوصول إلى تركيا و ها قد وصلنا .
كان السبب الذي جعلنا ندخل هو رجل مسن تكلم مع العسكري بلغته و أصر عليه حتى أدخله فتبعناه نحن و بعد أن دخلنا جميعاً تكلمنا مع الرجل محاولين شكره لأنه كان سبب دخولنا و متسائلين عن الطريقة التي استطاع بها إقناع الحارس بإدخاله فقال :" قلت له أني مريض و لا أستطيع العودة ظهري يؤلمني و يجب أن أدخل ". فسمح لي فسألنا عندها أين ننوي التوجه و عرض علينا أن نذهب معه الى بيته الكائن في مدينة كلس لنقضي عنده هذه الليلة ثم نمضي حيث نشاء إلا أننا أثرنا أن نمضي في طريق آخر .
فقبل أن نمضي في طريقنا كنت قد تواصلت مع أخي محمد لنتفاجأ بأنه قد سبقنا إلى تركيا فاتفقنا أن نلتقي به حين وصولنا إلى تركيا تكلمت معه لأسأله عن مكان وجوده و عن كيفية الوصول إليه فقال :" ليس عليك إلا أن تصل إلى مدينة مرسين و أنا ألقاكم في الفندق الذي يقابل محطة الإنطلاق تماماً
.
أخبرنا الرجل بأننا نريد أن نمضي إلى مرسين فأراد أن يساعدنا فمضى بنا إلى مكتب السفريات الذي يرى سعره مناسباً فقمنا بشراء التذاكر و بدأنا بانتظار موعد انطلاق الرحلة و الذي كان في الساعة الثامنة أي بعد ساعتين ودْعنا الرجلَ الذي ساعدنا و مضى في طريقه بينما بقينا نحن ننتظر موعد إنطلاق الرحلة متجولين في محطة الإنطلاق .
شعور الحرية المطلقة لم يراودنا منذ فترة طويلة ففي الأردن كنا أقرب إلى سجناء نقضي الوقت في البيت أو مستخفينن من الشرطة حتى لا يتم طردنا فيما لو تم اكتشاف أن طريقة خروجنا من مخيم الأزرق غير قانونية .
أما أخي محمد فقد اختار الهجرة منذ فترة طويلة كان ذلك بعد أن سافر خالي إلى قطر و بدأت تتسهل الهجرة إلى ذلك البلد في ذلك الوقت إلا أنها سرعان ما ارتقت شروط الحصول على إذن سفر حتى أصبحت أشبه بحلم . تمكن أخي من الدخول إلى هناك قبل أن تتعقد إمكانية الدخول و رغم وصوله إلى هناك إلا أن دربه لم يكن مفروشاً بالمسك و الرياحين فكان عليه أن يسعى للبحث عن أي عمل بأي وسيلة حتى يسدد الديون التي بدأت تتراكم عليه . فقد تكلف مبلغاً كبيراً حتى وصل إلى قطر لكن

مشكلة أخرى واجهته و هي أنه لم يكن يحمل مؤهلاً علمياً أو شهادةً جامعية بالإضافة إلى عدم إتقانه اللغة الإنجليزية مما جعل فرصته بالحصول على عمل شبه معدومة لم ييأس محمد من البحث حتى أصبح هو الأكثر تقديماً لطلبات العمل من بين المسافرين إلى هناك حتى أخبرني ابن عمي و الذي عايشه فترة هناك "بأن محمد هو الأكثر تقديما لطلبات العمل ربما أرسل ألفي طلب للعمل و ربما لم يبق شركة إلا وتقدم لها ".

رغم ذلك لم ينجح في الحصول على عمل و بعد مضي فترة طويلة على سفره أصيبت أمي بمرض السرطان و الذي استمر بالسريان في جسدها حتى أوشك أن ينهي حياتها و لم نستطع أن نفعل لها شيئاً سوى معالجتها بالجرعات الكيماوية و التي لا أعرف إن كانت علاجاً حقاً أم هي عبارة عن سم على شكل دواء فما كانت تأخذ جرعة حتى يهد التعب جسدها و يبيض وجها تماماً و كأن الدم قد فارقه.

بدأت أمي تحتضر و أصبحت مسألة موتها أمراً نخشاه و ننتظره في كل لحظة .

و لم يكن هناك بد من أن يأتي محمد لرؤيتها فربما تتحسن فقد فارقها منذ فترة طويلة إلا أنه وجد أخيراً عملا جيداً .

لم يكن على محمد أن يقارن بين رؤية أمه أو الاستمرار بالعمل فلا شك أن أمه تحتاجه فقرر أن يأتي لرؤيتها لمدة وجيزة خمسة أيام فقط حتى لا يخسر العمل الذي وجده أخيراً جاء محمد و ألقى نظرة الوداع على أمي و التي كانت ترميه أيضاً بنظرات الوداع عاجزة عن الكلام فقد أنهكها المرض.

و بعد أن قضى محمد إجازته القصيرة ثم عاد إلى عمله مسرعاً أما أمي فقد ماتت بعد سفر محمد في بضعة أيام في يوم الأحد 24/1/2010 لا تزال ذكرى ذلك اليوم تنخر في ذاكرتي و تستحث مشاعري كلما وردت على خاطري لا أعرف إلى الآن كيف كان يجب علينا أن نتعامل مع مرض أمي فقد كنا نعاين ضعفها دون أن نقدم لها شيئاً و كأننا ننتظر موتها آيسين من حياتها و الآن و قد مضت إلى ربها فلا أملك لها شيئاً إلا الدعاء فاللهم ارحمها كما ربتني صغيراً .

و بعد اندلاع الثورة لم يعد لدى محمد دافع للعودة إلى سورية فقد قضى في قطر قرابة ٣ أعوام و تأقلم مع العيش هناك أما ما دفعه لمغادرة قطر فقد عقد قرانه على خطيبته على الطريقة السورية الجديدة و التي تقتضي أن يكون الزوج في بلد و الزوجة في بلد آخر .

فقد كان هو في قطر و زوجته في الإمارات و لم يستطع أن يحصل لها على قبول بالقدوم إلى قطر فكان عليه أن يحاول محاولة أخرى و قد قرر أن يمضي إلى أوروبا لإنه يعتقد أن بحصوله على جواز سفر أوروبي فستنحل جميع مشاكله و هذا ما يعتقده بناء تجربته في قطر حيث كان يرى التمييز بين الوافد العربي و الوافد الأجنبي الذي يكون أكثر تميزاً بل إن الفرق بين المصري مثلاً الحامل للجنسية الأمريكية المصري الحامل للجنسية المصرية كالفرق بين السماء والأرض مما جعله يفكر بل حتى يحلم بالحصول على الجنسية الأوروبية أو أي جنسية كانت دخلت أنا و أحمد و شاب حمصي رافقنا عند محاولتنا العبور في سيارة الشحن فرافقنا حتى شرائنا التذاكر .

و خلال تجولنا شاهدنا أبا حسن و الذي تركنا قبل استقبالنا الحدود لإنه سيدخل بطريقة غير نظامية فسلمنا عليه و أشرنا عليه بالمكان الذي اشترينا منه التذاكر فاشترى التذاكر و بدأ بالإنتظار معنا ريثما يحين موعد الرحلة .

رغم أن الأردن بلد مجاور لنا و لا نحتاج في الأحوال العادية للوصول إليه أكثر من ساعتين إلا أننا في ظروف الحرب احتجنا أكثر من يومين حتى نصل إلى حدوده و احتجنا أسبوعاً كاملاً لنصل إلى داخل الأردن حيث استقرينا في مخيم الأزرق .
كانت المسافة التي تفصلنا عن تركيا بعيدة فنحن في أقصى الجنوب و تركيا في الشمال فلا عجب إذا استغرقت رحلتنا أسبوعاً كاملاً في هذه الظروف . وصلنا إلى النقطة الأخيرة بصحبة رفاق الرحلة الذين صحبونا منذ بداية الطريق لنفترق عند النقطة الأخيرة قبل الدخول إلى تركيا .
بعد أن اشترى أبو حسن تذكرة الرحلة مضينا سويةً ثم دخلنا إلى أحد المقاهي المتواجد في محطة الإنطلاق . افترقنا عن أبي الحسن في البداية لأننا اخترنا الدخول من الطريق النظامي في حين اختار هو و رفاقه الدخول من طريق التهريب سألناه عن مصير أصدقائنا و أين غدو الآن فقال :" لم يدخلوا بعد ". تعجبنا من إجابته فسألناه :" كيف تمكنت أنت من الدخول دونهم إذن ".
فطأطأ رأسه متأسفاً على عدم استطاعة رفاقه الدخول ثم عاد ليروي لنا كيف تمكن من الدخول دونهم فقال :" الخطة كانت بسيطة كل ما كان علينا فعله هو أن نمشي باتجاه الحدود ثم و عندما نصل الشريط الحدودي نحاول الابتعاد إلى أقصى مكان عن الشرطة بدأنا بالمشي و بعد مشي واحد كيلو كان علينا أن نسرع قليلاً فأسرعت و تنبه لنا أحد الحرس فبدأ يركض ليمسك بنا و كنت قد عزمت على الركض فأسرعت بالهرب . صدقوني لو أنهم أسرعوا قليلاً لتمكنوا من الدخول بسهولة حتى أن الشرطي لم يكن يرغب بإمساكنا لولا أننا لفتنا نظره بكثرة عددنا و بكلامنا المتواصل".
هوّنا على الرجل و قلت له :" إن لم ينجحوا في المحاولة الأولى فعسى أن ينجحوا في المحاولة الثانية ".
فقال :"إن شاء الله سينجحون" .
رغم إشغالنا الوقت بالحديث مع أبي حسن إلا أنه لا يزال هناك متسع من الوقت لحين حلول موعد الرحلة فاستغللنا وجودنا في أحد المقاهي فطلبنا منه كلمة السر لشبكة الإنترنت لنتمكن من التكلم مع أهلنا و إخبارهم بأننا قد وصلنا أخيراً إلى داخل تركيا انشغل كل منا بجواله و مع اقتراب حلول موعد الرحلة توجهنا باتجاه مكان الحافلة التي ستقلنا إلى وجهتنا إلى مدينة مرسين .
و عند حلول موعد الانطلاق بدأنا نصعد للحافلة التي ستقلنا مدة أربع ساعات .
بعد أن كان السفر لمدة ساعتين متعباً لنا سيغدو الآن ترفيهاً لنا و ذلك أننا نسير في شوارع معبدة منظمة دون أن نظطر إلى عبور السهول و الوديان كل ما علينا هو الجلوس في هذه المقاعد المريحة بانتظار إعلان السائق لوصولنا إلى وجهتنا .

انطلق السائق مع بداية الساعة الثامنة و ما إن مشى قليلاً حتى بدأنا نشعر بالنعاس فرغم أن الطريق كان معبداً إلا أن التعرجات الكثيرة التي يسلكها الباص كانت تبعث على الدوار لذلك أسندنا كل منا رأسه إلى كرسيه و أغمض عينيه متأملاً أن يستيقظ مع وصولنا إلى وجهتنا .

مضت السيارة مسافة ساعتين ثم توقفت للاستراحة رغم أننا الآن في منتصف الشتاء تقريباً إلا أن الجو كان معتدلاً و رغم ذلك آثرنا البقاء في الحافلة .

لم تطل استراحة السائق كثيراً عشر دقائق أو ربع ساعة ثم عاد لينطلق مرة أخرى . وبعد مضي أربع ساعات على انطلاق الرحلة بدأت السيارة تخفف من سرعتها و بدأ الناس المتواجدون في الحافلة يستيقظون و يلتقطون أغراضهم مستعدين للنزول فاستيقظ منا من كان نائماً .

توقف السائق أخيراً بعد رحلة استغرقت أربع ساعات لم نشعر بمعظمها لنومنا خلالها وصلنا أخيراً إلى وجهتنا.

كنا نتحرك في الأردن ببساطة لأن هناك من يوجهنا و هناك من يعرف الطريق غيرنا و في حال احتياجنا لشيء لم يكن تحصيله صعباً من خلال سؤال غيرنا . أما الآن فلا أحد منا يتكلم اللغة التركية و لا نملك شبكة اتصالات فعالة للإنترنت فلا وسيلة عندنا للتواصل مع محمد .

رغم أنه أشار إلينا أننا بمجرد نزولنا من الحافلة فسنجد الفندق مواجهاً لنا .

لم نعرف ماذا يعني مواجهاً لنا فعند نزولنا كانت الفنادق التي تطل على المحطة في كل الاتجاهات فوقعنا بحيرة شلت حركتنا قررنا عندها أن نسأل أي إنسان نواجهه محاولين الاستعانة بما نحفظه من كلمات إنكليزية إلا أن الوقت كان متأخراً وأوشكت المحطة أن تقفر من الموجودين إلا أننا تعثرنا بأحد الموجودين يجلس على كرسي في المحطة فأسرعنا بسؤاله باللغة الإنكلزية

": can you speak english".؟ " هل تستطيع التكلم بالإنكليزية ".

إلا أن الرجل اكتفى بهز رأسه يمنة و يسرة مبيناً أنه غير قادر على الكلام باللغة الإنكليزية .

لم نعرف عندها ما الذي يتوجب علينا فعله فقررنا البقاء في محطة الإنطلاق عسى أن يأتي محمد لأخذنا . وبعد لحظات رن جرس الهاتف فأحسسنا الفرج قادماً سارعت للإجابة فكان أخي محمد فأرشدني إلى طريق الفندق الذي ينزل فيه .

مشينا سوية باتجاه فندق محمد لنلتقي به بعد انقطاع طويل دام أكثر من خمس سنوات .

لم يكن محمد وحيداً إنما كان مصطحباً معه صديقاً قديماً لنا اسمه أحمد و بعد أن سلمنا عليهما مضينا سوية باتجاه " الفندق " الذي ينزلان فيه .

كانت كلمة فندق التي أسمعها من محمد تجعلني أظن أن المكان الذي نقصده هو مكان يفوق البيت الذي سكناه في الأردن على أقل تقدير و لكن بعد أن دخلنا إلى المكان عرفنا أنه عبارة عن سكن مشترك يمتلكه رجل عراقي يقوم بتأجيره ليتكسب منه . لم يكن لدى الشابين الحمصي أبوتيم و الآخر أبو حسن من مكان يلجآن إليه فطلبنا منهما القدوم معنا لقضاء هذه الليلة و مع حلول الصباح ينطلق كل منهما في الوجهة التي يرغب بها . لم يكن لديهما خيار آخر فأجابا دعوتنا و مضيا معنا إلى الفندق.

رغم أن افتراقنا عن أخينا محمد دام أكثر من خمس سنوات إلا أن حديث استعادة الذكريات لم يدم طويلاً فقال محمد :" لا شك أنكم تشعرون بالتعب بعد هذا السفر الطويل منذ الصباح و حتى الآن فبإمكانكم النوم هنا " و أشار لنا باتجاه الفرشات الموجودة فأخذ كل منا مضجعه و بدأ يعد نفسه للنوم بعدما تناولنا عشاءً سريعاً و اغتسلنا .

رغم شعوري خلال لحظات النعاس التي تمر بي خلال الرحلة بأنني عند الوصول إلى هدفي فسأخلد إلى نوم عميق إلا أنه ما مضت ساعات قليلة حتى بدأت الشمس بالشروق و بدأت أشعر باستحالة استمراري بالنوم إلا أن الآخرين كانوا يغطون في نوم عميق فلم يكن لي إلا انتظارهم ريثما يستيقظون.

و مع اقتراب الساعة من العاشرة استيقظ جميع الموجودين فبدأ الضيوف المؤقتون أبو حسن و أبو تيم يعدون أنفسهم لمتابعة طريقهم بينما لم يكن لدنيا نحن الضيوف الدائمون من مكان آخر نلجأ إليه فكان بيتنا هو البيت الذي يقيم فيه محمد .

محمد موجود هنا منذ بضعة أيام إلا أنه اطلع على الأماكن الموجودة هنا فأشار علينا بأن نذهب سويةً باتجاه أحد المطاعم السورية المتواجدة هنا و الذي يقوم بعمل فتةٍ لا مثيل لها . ولم يكن هناك مجال لرفض هكذا دعوة فخرجنا سوية مع محمد و أحمد باتجاه المطعم .

الحياة هنا طبيعية تماماً الشوارع تزدحم بالمارة و المحلات التجارية تعمر جوانب الطريق كان المطعم في مكان بعيد فاضطررنا للمشي قرابة نصف ساعة لنصل إلى المطعم أخيراً و الذي كان طاقم العمال فيه من السوريين .

ليس للسوريين الذين خرجوا من سورية إلا محاولة الانخراط و البحث عن الرزق في المكان الذي يتواجدون فيه وكان عدد الزبائن المتوافدين على المطعم و هيئته بشكل عام توحي بأنه قد حقق لأصحابه النجاح الموعود .

تناولنا الإفطار ثم مشينا دون أن نعرف أين نذهب أولاً فاقترح صديقنا أحمد علينا الذهاب إلى شاطىء البحر فتوجهنا إلى هناك ثم عدنا قبل أن توشك الشمس على الغروب .

كان السبب الرئيسي الذي دفعني للخروج من الأردن هو أن السلطات لم تسمح لزوجتي بالدخول إلى الأردن و رفضت القدوم إلى سورية معتذرة بخوفها فلم يبق لي في النهاية إلا تركيا للقدوم إليها .

رغم أنني عايشت النهار منذ إشراقة شمسه و حتى مغيبها إلا أن النهار انقضى بسرعة و بدأت الأسئلة التي تتكرر في كل مرحلة تتردد في ذهني :" ماذا بعد ، إلى أين يجب أن أتجه ، هل أبقى في مرسين أم أغادر باتجاه اسطنبول ؟". أسئلة كثيرة بدأت تتردد في ذهني دون أجد لها جواباً .

كان خيارنا الأول الذي اتخذناه في أنفسنا هو الإستقرار في تركيا و لكن مع وصولنا إلى مرسين و بعد أن أخبرنا محمد أن من الأفضل أن نذهب باتجاه معه أوروبا بدأت أشعر بالحيرة بين البقاء هنا وبين المضي بعيداً إلى البلاد التي لم أكن أحلم بالوصول إليها يوماً إلى بلاد الغرب إلى أوروبا.

قبل أن أغادر سورية و خلال مكالمتي الأخيرة مع محمد قال لي :" إذا أدركتمونا قبل أن ننطلق في رحلتنا تمضون معنا إلى حيث نتجه و إن لم تدركونا فالأمر يرجع إليكم ". أوحى إلي كلام محمد بأن

موعد انطلاق رحلته وشيك جداً و أنا قد لا ندركه في تركيا أصلاً فسألته عن سر تأخر رحلته حتى الآن فقال :" نحن بانتظار موعد انطلاق الرحلة ".
لم أعرف ماذا يعني بموعد الإنطلاق هل ينتظر موعداً محدداً أم أن المسألة ترجع إلى ضروف معينة تحكم عملية السفر فسألته :" و متى موعد الرحلة ؟".
فقال :" الموعد المفترض هو يوم الخميس بعد القادم ". فكرت في نفسي و قلت سأنتظر عشرة أيام حتى حلول موعد الرحلة ثم أتخذ قراري إما بالبقاء هنا أو بالهجرة .

اللحظات العصيبة التي كنا نعيشها في السجن جعلت من مرور الوقت شيئاً صعباً و جعلتنا نحصي الأيام و نعدها عداً بانتظار اليوم الذي كنا نراه أشبه بمستحيل و الذي سيحمل فرحة الخروج من غياهب السجون بالنسبة إلينا . أما بعد تحريرنا عادت الحياة إلى طبيعتها و بدأت الأيام تمضي سريعاً حتى نتساءل عن بعض الأيام إن كان هو الجمعة ام لم يكن حتى لا تفوتنا الصلاة . لم يختلف الأمر بعد دخولنا تركيا بل ازداد تشابه الأيام ببعضها و بدأ يندر وجود شيء جديد نميز به يومنا أو التاريخ الذي نحن فيه.
لم أعرف أين أتجه هل أبقى في تركيا أم أمضي بعيداً مع أخي باتجاه دول الغرب و التي كنا نراها بلاد كفر في يوم من الأيام. استخرت و استشرت إلا أن حالة التردد استمرت بملاحقتي فما أن يمضي يوم يبدو فيه ضعف احتمال السفر إلا و أخبر إخوتي بإنني قررت البقاء هنا إلا أني ما ألبث بالاقتناع بأراءهم و إكمال الطريق معهم حتى نهايته .
عند الإخلاد إلى البقاء في تركيا كان يفترض بي أن أجد عملاً حتى تتمكن زوجتي من القدوم و ذلك أمر صعب نوعاً ما فأنا لا أتقن اللسان التركي و إن كنت أستطيع التكلم باللغة الإنجليزية إلا أن هذا لم يكن مفيداً هنا فهي لا تعد ميزة في تركيا و إن كنت أريد أن أعمل فليس لي إلا التواصل مع أهل قريتنا المتواجدين في تركيا و الذين يقطن معظمهم في اسطنبول و التي تبعد عنا الآن أكثر من عشر ساعات. تحدثت مع رجل أعمال من قريتنا لها أعمال في اسطنبول فسألته عن إمكانية عملي معه فرحب بي الرجل و أخبرني أن الراتب المفترض سيكون ١٤٠٠ ليرة تركية و هي تعادل ٧٠٠ دولار تقريبا لم أعرف إن كان هذا المبلغ كافياً للعيش هنا أم لا لكنه يبقى في النهاية خياراً بديلاً في حال انغلاق طريق السفر .
رغم إيجادي لعمل مفترض إلا أن أخوتي اقنعوني في النهاية بتجربة السفر معهم و لم يكن لي في النهاية إلا الاستسلام أمام إصرارهم .
بعد أن قررت السفر مع إخوتي كان علي الإنتظار كما ينتظرون ريثما يحين الموعد المنتظر لانطلاق السفينة إلا أن يوم الخميس مر دون أن يتصل أحد بأخي . في اليوم التالي اتصل محمد بالمهرب الذي سيتولى إيصالنا إلى أوروبا و سأله عن سبب عدم انطلاقنا بالأمس فقال :" لم نتمكن من الإنطلاق بسبب خفر السواحل ".

ووعده بالإنطلاق بعد فترة وجيزة إلا أن الأعذار توالت فمرة يكون السبب خفر السواحل و مرة الجو لم يكن مهيئاً و مرة من اجتماع السببين . بعد وعود أبي محمود الكثيرة بدأ إخوتي يشعرون باليأس و كنت قد سبقتهم في الوصول إلى تلك المرحلة بزمن فما إن اعتذر أول مرة حتى أحسست بأنه غير جاد في عمله . كان من المفترض أن ننطلق من مدينة مرسين باتجاه أيطاليا راكبين سفينة كبيرة آمنة كما يصفها محمد و التي لن يستغرق سفرها أكثر من ٦ أيام .

٦ أيام يجب أن نقضيها في البحر في منتصف الشتاء على أمل الوصول إلى أوروبا .

بعد وعود المهرب أبي محمود كثيرة بدأ أخي محمد و صديقه أحمد يشكان في جدية أبي محمود في نقلنا فطلبا منه أن يلتقيا به فأجابهما لذلك و طلب منهما أن يلتقياه في إحدى المقاهي المجاورة للبيت الذي نسكن فيه و ذلك أن البيت قريب من محطة انطلاق الحافلة فكانت تكثر المقاهي في الشوارع المجاورة له و لن يشكل لقاءه لنا شبهة و ذلك أن العمل الذي يزاوله أبو محمود غير قانوني أصلاً فلا بد له من اتخاذ احتياطاته . خرجت معهم حتى أقابل هذا الرجل فواجهت شخصاً يختلف عن الصورة التي رسمتها له في ذهني تماماً. كان شاباً في مقتبل العمر و يبدو أنه أصغر مني بكثير و يبدو من لهجته أنه من أبناء الساحل ثم قطع شكي عندما قال بأنه من أبناء الساحل التركمان .

كان أحمد يحسن الظن بالرجل كثيراً دون أن أعرف السبب لذلك و قال له :" ألم تقل لي أن هناك رحلة في موعد محدد و رحلة أخرى ستتبعها في وقت لاحق فآثرت اختيار الرحلة الأخرى لأنك ستذهب بها أنت ؟ ". فهز أبو محمود رأسه مبدياً موافقته على ما قاله أحمد فقال له أحمد :"حسناً إذن أعطني كلمة موثوقة حتى نعرف ماذا يجب أن نفعل أنت تعرف أن البقاء هنا مكلف ومن الأفضل السفر بأسرع و قت ".

فأجابه أبو محمود :" أنتم تعرفون أن المسألة ليست بيدي . المسألة تخضع لظروف كثيرة و شروط لا بد من تأمينها و بإمكاني إرسالكم مع أول سفينة تنطلق من أي مهرب كان لكني أضن بسلامة ركابي و لا أريد أن أعرض أحدهم لأذى فنحن نتعامل مع أرواح بشر يجب أن نكون حريصين عليها ، اصبروا قليلاً و ستجري الأمور كما تحبون إن شاء الله".

انتهى النقاش مع أبي محمود دون أن نحصل على جواب نهائي نعرف من خلاله إن كانت رحلتنا ستنطلق قريباً أم أننا سنبقى هنا نعد الأيام دون أن نميزها عن بعضها .

مضى أسبوع و أسبوعان دون أن يحصل شيء فاستسلمنا للخيار الذي بين أيدينا و هو البقاء هنا بانتظار اتصال المهرب و بدأ يجول في ذهننا أن المهرب لن يتصل أبداً. و عندما أيسنا تماماً من الانطلاق اتصل المهرب بمحمد و أخبره بأننا يجب أن نسافر و لكن ليس إلى إيطاليا هذه المرة و إنما إلى أنطاليا و ذلك أن طريق مرسين لم يعد آمناً حسب كلامه فكان لابد من البحث عن طريق جديد و هو طريق انطاليا بالإضافة إلى أن الإنطلاق من تلك المدينة سيختصر لنا يوماً كاملاً كان يجب أن نقضيه في البحر .

سلم أخي باقتراح أبي محمود و قال له :" حسناً سننطلق غداً إلى أنطاليا ". و في ذات الليلة توجه أخي إلى محطة الإنطلاق و قطع التذاكر لنا جميعاً .
في اليوم التالي توجهنا نحن الأربعة باتجاه محطة الانطلاق لنقطع أولى خطواتنا باتجاه أوروبا . انقضت رحلات السفر الطويلة التي كنا نقضيها بأوضاع مزرية بإيصالنا إلى أهدافنا السابقة في نهاية رحلتها و كلما ازدادت وسائل الراحة و الترفيه ضمن طريق السفر بات الوصول إلى وجهتنا أصعب.
يبدو أن نسبة العناء تتناسب طردا مع احتمال تحقيق الهدف و ليس ذلك لزاماً فقد عانى أناس في طريق السفر إلا أن رحلتهم لم تتكلل في النهاية بالنجاح فمنهم من قضى نحبه و منهم من عاد قبل أن يتم طريق سفره.
حافلات حديثة الكراسي مزودة بشاشات تلفاز مصغرة و شبكة الانترنت متاحة مجانا ليس علينا الآن سوى إسناد رؤوسنا إلى كراسينا و النوم في الطريق أو اللهو بأدوات الترفيه المتوفرة في الحافلة ريثما يحين موعد وصولنا إلى مدينة أنطاليا و نكون بالإضافة إلى سيرنا في طريق آمن مرفه قد اختصرنا من طريق خطر لا نعرف عاقبته يوماً أو أكثر .
بدأت الرحلة و بدأ السائق يمضي في طريقه الذي ملأته المنعطفات فما إن ينعطف يمينا حتى يعاود الانعطاف لليسار مسرعاً و ما إن نشعر بمضي الحافلة باتجاه الأعلى حتى تعاود الانخفاض بسرعة.
عشر ساعات زمن طويل جداً لابد من الاستراحة خلاله توقفنا في إحدى الإستراحات و أردت قضاء الحاجة فوجدت بعض الحمامات التابعة للمسجد و الذي أغلق أبوابه منذ قليل و كان المكان خالياً تماماً توظأت وصليت وعدت إلى الحافلة مسرعاً و التي مضت بعد لحظات . مضت عشر ساعات و وصلت السيارة أخيراً إلى وجهتها فنزلنا دون أن نعرف أين يجب أن نتجه فالرحلة حسب كلام أبي محمود لن تنطلق اليوم و إنما غداً و ليس بإمكاننا قضاء الليل بأكمله في العراء لذا كان لا بد لنا من البحث عن مكان نقيل فيه ريثما يحين موعد الرحلة .
تركيا بلد سياحي و الفنادق تتوفر فيها بكثرة و هذا جيد بالنسبة لنا إلا أن المشكلة أننا من السوريين و أنطاليا لا يدخلها عادة إلا السياح و بالتالي فنحن موضع اشتباه من قبل الجميع إلا أنه لا خيار آخر لنا.
بحثنا عن فندق و بعد بحث قرابة ساعة بالاستعانة بال جي بي اس تعثرنا بأحد الفنادق فسارعنا الدخول إليه و طلبنا منه أن يأوينا في ليلتنا هذه فأجابنا على مضض و سمح لنا بالدخول بعد أن أخذ من كل واحد منا إثباتاته الشخصية .
أخيراً سنقضي ليلتنا في مكان يمكن أن يسمى فندقاً لا كفندق أبي قاسم في مرسين . أخلدنا إلى النوم سريعاً فقد كانت الرحلة طويلة و متعبة . و بعد أن استيقظنا و لم نكن نعرف أين يجب أن نتجه سألنا محمد عما يجب فعله فقال :" يجب علينا البقاء في الخارج و التجول في شوارع أنطاليا ريثما يتصل بنا أبو محمود و يخبرنا أن الطريق آمن و بإمكاننا الرحيل ". لم يكن لنا إلا الإذعان لأوامر أبي محمود فهو قائدنا في هذه الرحلة الآن . خرجنا من الفندق في الساعة العاشرة صباحاً و بدأنا نتجول في شوارع أنطاليا . رغم أن مدينة مرسين كانت جميلة و تجتذب السياح إلا أن مدينة أنطاليا كانت تفوقها

تنظيماً و جمالاً و طَرْقاً من السياح لم نكن نعرف المكان الأقرب لأبي محمود و الذي يمكننا عند اتصاله بنا من تلبية ندائه سريعاً فهمنا على وجوهنا في شوارع أنطاليا .
اللحظاتُ كنا نقضيها في مرسين دون أن نشعر بمرور الوقت بل وحتى الأيامُ أما الآن فالدقيقة تمتد لتصبح ساعة و الساعة تمتد لتصبح يوماً بأكمله . مشينا ساعة و ساعتين و ثلاثة ثم التجأنا إلى إحدى الحدائق و جلسنا فيها عسى أن يتصل أبو محمود إلا أن آمالنا بدأت تتلاشى مع اقتراب شمس اليوم من الغروب . حاول محمد أن يقضي على الإحباط الذي أصابنا فاتصل بأبي محمود و سأله عن سر تأخر انطلاقنا حتى الآن فقال له:" اطمئن الأمور كلها بخير و لكن عليكم الانتظار و التحلي بالصبر".
لم أعرف ماالذي قصده أبو محمود من قوله الأمور بخير فبعد كل هذا الانتظار بات كل شيء بالنسبة لنا ليس بخير إلا أنه لا خيار آخر سوى الإنتظار . بعد أن غربت الشمس أعلنا أياسنا من انطلاقنا إلى أوروبا في هذا اليوم فعدنا أدراجنا و لم يكن هناك حافلات تنطلق الآن إلى مرسين فبقي الملجأ الأخير بالنسبة لنا و هو الفندق الذي قضينا به ليلتنا البارحة .
كنا قد ابتعدنا كثيراً عن الفندق فكان علينا العودة تلك المسافة و علامات التعب تلوح على وجوهنا . وصلنا الفندق أخيراً فسارعنا بأداء الإجراءات الروتينية من تسجيل إثباتاتنا الشخصية و بينما كان موظف الفندق يقوم بذلك دخل الفندق عدد كبير من الأشخاص نظرنا إليهم فإذا هو أبو محمود المهرب قد جاء ليقضي ليلته هنا .
الإجراءات الروتينية تسري على الجميع فكان لزاماً على أبي محمود و أصدقائه أن يقدموا هوياتهم. استغل أحمد تلك اللحظات ليسأل المهرب عن سر عدم انطلاقنا اليوم إلا أنه لم ينل منه جواباً شافيا فما زاد على أن قال :" لم تسر الأمور كما يجب ".
استغرق أحمد معهم في الحديث ثم عاد إلينا بعد قليل و علامات الغضب بادية على وجهه فسألناه عن سر غضبه فقال :" يقول لي أبو محمود أن تجمع عدد كبير من الأشخاص السوريين في فندق ما ربما يكون مثيراً للشبهات ، فقلت له : نحن حللنا في هذا الفندق البارحة و أنتم وصلتم بعدنا اليوم فنحن أولى بالبقاء هنا ". لم نلق أذاناً صاغية لكلام أبي محمود فلم نكن مستعدين أن نمشي مسافة مئة متر حتى نبحث عن فندق آخر فهذا ما لا يمكن أن نفعله .
خلدنا إلى النوم سريعاً و في اليوم التالي انطلقنا سويةً برفقة أبي محمود و أصدقائه من السوريين. رغم أن أبي محمود أزعج أحمد باقتراحه بتغييرنا الفندق البارحة إلا أن أحمد تجاوز هذه المسألة و تصرف كأن شيئاً لم يكن . لم نكن الوحيدين الراغبون بالهجرة إلى أوروبا فقد كان أبو محمود مصطحباً لأصدقاء له من مختلف المحافظات السورية هدفهم كهدفنا الهجرة الى أوروبا .
بدأت الغيوم تتكاثف في السماء و كان علينا الانتظار قرابة ساعة فبدأنا نقضي الوقت بالحديث مع بعضنا . توجهت لأحدهم بالحديث و سألته :" من أين أنت ؟ ". فقال :" من اللاذقية".
رغم أن محافظة اللاذقية تتبع للنظام إلا أن قاطنيها لم يشذوا عن غيرهم و كانت رغبة الهجرة موجودة عندهم سألته :" أين كنت تسكن ؟" فقال :" في مخيم أضنة ؟". سألته عن سر رغبته بالهجرة

إن كان مستقراً مع عائلته حتى و لو كان يعيش في مخيم فهذا يبقى أفضل من تشتيت عائلته بغيابه عنها فقال :" أنا أقيم هنا منذ أكثر من عامين و أوضاعي المادية لا تساعدني و علي وصل الليل بالنهار من أجل تأمين لقمة العيش . الهجرة ليست خياراً بالنسبة إلي و إنما هي حلي الوحيد عساي أنهض بعائلتي و أبني لأولادي مستقبلاً أفضل مما عشته أنا ".
سألته عن وجهته فقال :" إلى بلجيكا ". كان خياراً جديداً بالنسبة إلي فالمكان الوحيد الذي سمعنا أن الناس تهاجر إليه و نحن نتجه إليه أيضاً هو ألمانيا فسألته عن سر اختياره لذلك البلد
فقال :" بلجيكا فيها عدد كبير من المسلمين بل بإمكانك القول بإن الغالبية من المسلمين . و الحجاب و الخمار أمر متواجد هناك و طبيعي جداً و بالتالي لن تشعر زوجتك بالحرج في حال كانت ترتدي خمارا ". لم أعرف صحة معلوماته إلا أنني أعجبت ببحثه عن مكان يناسبه و عائلة سوية .
مرت لحظات الإنتظار و حان موعد انطلاق الحافلة فصعدنا إليها و بدأت تمضي إلى وجهتها و التي غادرناها منذ يومين تمضي إلى مرسين .

عشر ساعات أخرى علينا أن نقضيها في ذات الطريق الذي قطعناه منذ يومين . يبدو أنه حتى نصل إلى أوروبا عبر البحر علينا قطع ذات المسافة براً . لم ننل شيئا من حلولنا في أنطاليا سوى أننا دفعنا أجرة المبيت في فندق لليلتين متتاليتين بالإضافة إلى دفع ثمن تذاكر الطريق جيئة و ذهاباً.
لم أكن أعرف سر إصرار محمد و صديقه أحمد على اختيار أبي محمود كموصل لنا إلى وجهتنا .
فرغم أن معظم بل كل وعود الرجل لم يتحقق منها شيء إلا أنهما لم يفكرا بالبحث عن مهرب آخر .
ما دام طريق الهجرة مفتوحاً فليس أحدُ أولى بالهجرة من أحد في فندق أبي قاسم الذي كنا نسكن فيه كان يوجد أحد الرجال المسنين من الفلسطينيين المقيمين في سوريا .
قبل أن ننطلق إلى أنطاليا و خلال فترة ترددي في اتخاذ القرار باختيار القرار الأنسب بين الذهاب إلى أوروبا و بين البقاء في تركيا توجهت إلى جارنا الفلسطيني أبو أحمد و كان الوقت لا يزال باكراً فكان معظم إخوتي نائمين مضيت إليه و طرقت الباب عليه ففتح الباب و رحب بي قائلاً :" أهلاً سيد عبدالله تفضل ".
فأجبت دعوته و دخلت لأجد غرفة صغيرة إلا أنها تحوي تلفزيونا أيضاً كما في غرفتنا إلا أنه أصغر بالإضافة إلى غازٍ صغير يستعمله أبو أحمد لأداء طبخات يسيرة و نستعيره نحن منه أحياناً .
كان السفر بالنسبة إلينا لا يلبث أن يصبح واقعاً لذلك لم يكن هناك داع بالنسبة إلينا لشراء أشياء تشجعنا على الاستقرار كهذا الغاز مثلاً. سألته عما يفعله هنا و إن كان يرغب بالسير في هذا الطريق الصعب و هو في هذه السن فقال :" لا أنا خالص ". لم أعرف ماذا يعني بكلمة "خالص" فسألته فقال :" خالص أموري منتهية يعني أنا سأسافر بطريقة نظامية عن طريق لم شمل . أولادي و زوجتي في هولندا و قد أنهوا إجراءات الفيزا و أنا الآن أنتظر قدوم الأوراق من هناك إلى السفارة هنا ثم أمضي

بعدها عن طريق الطائرة ". أحسست أن ابا أحمد قد تجاوزنا بمراحل كثيرة فلا تزال مسألة سفرنا تابعة للاحتمالات و قد تتحقق و قد لا تتحقق .

سألته عما كان يفعله قبل وصوله إلى تركيا فقال :" كنت أعمل في الجزائر و قد كان الوضع فيها جيداً بشكل عام بل هو خير من الجلوس هنا فعلى الأقل هناك أصدقاء أستطيع التواصل معهم و قضاء الوقت أما هنا فلا شيء من ذلك".

رغم أن أبا أحمد كان يتقدمنا بالسن كثيراً إلا أن إرادته لم تضعف أمام حاجز اللغة بل اشترى قاموساً للغة التركية و أشار إليه قائلاً :" هذا كتاب لتعلم اللغة التركية أقرأ منه كل يوم بعض الكلمات محاولا الإستفادة من وقتي ". لم يكن لدينا إصرار أبي أحمد فما إن تراود ذهننا أي فكرة حتى تطردها فكرة السفر فنصل إلى نتيجة أن كل ما يمكن ان يوحي إلى ذهاننا بأن وجودنا يمكن أن يستمر يجب أن نستبعده فوراً و نقضي أيامنا بتناول وجبة سندويش حتى لا يوحي الغاز إلينا باننا باقون هنا .

رغم أن خيار سفر ابي أحمد مؤكد بالنسبة له إلا أنه يتصرف على عكسنا تماماً و كأنه جاء إلى هنا ليستقر في هذه البلاد . فهو يحاول تعلم اللغة و استأجر الغرفة من أبي قاسم مدة شهر بأكمله في حين كنا ندفع لكل يوم مستقل بحجة أن السفر قد يحل في أحد الأيام التي لا نعرفها فلا داعي لخسارة أجرة يومين زائدين رغم أن فكرة الدفع الإسبوعي قد توفر لنا الكثير من النقود.

حتى أن أبا أحمد قد اطلع على أسواق الخضار هنا و قال لي :" إذا أردت شراء الخضار فلا تشتره من المحلات التجارية و إنما عليك بالشراء من البازار الذي يقام هنا كل يوم خميس ". أجبته باستحسان نصيحته و بأنني سأفعلها إلا أن فكرة السفر تقول لي :" لا تفعل ذلك فأنت عما قليل مسافر ".

أبو أحمد كان جارنا الأول و الذي تعرفنا عليه في اليوم التالي لوصولنا إلى مرسين النزيل الآخر و الذي كان جاراً لنا في نفس البناء هو حازم وهو شاب من صيدا إلا أننا لم نلقه إلا نادراً فقد كان يقضي معظم النهار خارج المنزل . لم أعرف إن كان يعمل أم أنه يقضي الوقت خارجاً فقط فقد كان وجوده في المنزل نادراً . بالإضافة إلى هؤلاء كان صاحب المنزل أبو قاسم يقطن في هذا المكان وقد كان يمتلك قهوة تحت منزله و بعد أن ينتهي عمله فيها نهاراً يعود ليلاً حتى يقضي ليلته .

رغم سن أبي قاسم المتقدم و ما يملكه من مؤهلات ليغدو رجل أعمال إلا أن صبوة الشباب لم تفارقه حدثني عنه أبو أحمد ذات ليلة فقال :" لا تنظر إلى أبي قاسم هكذا و كأنه لا يعجبك . أبو قاسم نفسه لا تزال خضراء ". فقلت له و ما أدراك فقال :" مرة بعض النساء خدعنه ، فقد أتين إليه وقلن له بأن الطريق انقطع بهن و لا مكان يقضين الليلة فيه فأجابهن أبو قاسم و أعطاهن الغرفة و خلال الليل قامت إحداهن بإعداد القهوة له متذرعات برد الجميل له وبأنهن سيساهرنه و بعد أن شرب فنجان القهوة مالبث أبو قاسم أن نام فأخذن ما كانت تحتوي محفظة أبي قاسم من نقود و ولين هاربات ".

فقلت له مازحاً :" لا تظلم الرجل ربما أراد أن يقدم معروفاً إلا أن النساء لم يكن اهلاً له ". فقال :" نعم يجوز ".

بين أبي أحمد و أبي قاسم و حازم قضينا الوقت بانتظار حلول موعد الرحلة إلا أن الرحلة الموعودة بقيت كذلك . كان أبو أحمد على اطلاع على أوضاع اللاجئين هنا بشكل عام و كان ينتقد تعاملنا مع المهرب أبي محمود باستمرار و يقول :" كيف تدفعون أجرة السكن المسافرون الآخرون ينزلون في فنادق في فنادق! و لا يدفعون شيئاً و أنتم تدفعون الأجرة لهكذا مكان أنا أشك في أن وضع مهربكم ليس سليما".

لم نكن نعرف إن كانت مسألة دفع أجرة السكن من قبل المهربين الآخرين للاجئين أمر صحيح إلا أن كلامه حول أبي محمود بدا واقعياً ومع ذلك أصر كل من محمد و أحمد البقاء مع أبي محمود و لم يكن إلا الالتزام بخيارهما فمحمد هو من سيتحمل تكلفة سفرنا في النهاية .

عدنا من أنطاليا و الإحباط من إمكانية السفر قد بلغت من أنفسنا مبلغاً بعيداً. دخلنا الغرفة ليلاً و قد كنا أعطينا مفتاحها لأبي أحمد و قلنا له :" إن لم نعد خلال يومين فأعطي المفتاح لأبي قاسم ".

أما الأجرة فقد كنا دفعناها مسبقاً قبل أن نغادر . طرقنا الباب في وقت متأخر على أبي أحمد فأخذنا منه المفتاح ثم دخلنا إلى غرفتنا و بدأ محمد يعد الطعام سريعاً فقد كانت رحلة متعبة .

و خلال إعداد العشاء أتى أبو أحمد إلينا ليعرف سر عودتنا فأخبرناه بما جرى معنا فقال :" قلت لكم منذ البداية رجلكم وضعه ليس سليما ". سكت قليلاً ثم قال :" لماذا لا تبحثون عن مهرب آخر ".

فأجابه محمد :" لم نجد مهرباً آخر حتى نوفره ". فكر أبو أحمد قليلاً ثم قال :" ما رأيكم أن أكلم لكم أبا صهيب المهرب الآخر الذي كنت حدثتكم عنه ؟:".

كان أبو أحمد لا يوفر فرصة يقارن فيها بين سلبيات مهربنا و إيجابيات المهربين الآخرين فقد كان يرى أن المهرب الذي نتعامل معه ظالم لنا بمعنى الكلمة . كان يمكن لتلك الكلمات التي أطلقها أبو أحمد أن تمر دون أن تجد آذانا صاغية إلا أن حالة الإحباط التي كنا نعانيها جعلتنا هذه المرة ننقض الإتفاق السابق مع أبي محمود و نتوجه إلى اتفاق جديد مع مهرب جديد فسارع محمد بإبداء موافقته و طلب من أبي أحمد أن ينفذ كلامه .

قام أحمد عندها بالإتصال مباشرة و تكلم مع أبي صهيب و بينما كان بعضنا منشغلاً بإعداد الطعام و بعضنا الآخر يعد نفسه للنوم وقف محمد أمام باب غرفتنا و قال :" بسرعة يا شباب يجب أن نذهب".

استمرت رحلتنا عشرة ساعات و معدة كل واحدة منا خالية الآن فسألنا محمد :" ألن نأكل أولاً".

فقال :" لا وقت لدينا يجب أن ننطلق الرحلة ستنطلق بعد قليل ". لم نعرف ماذا نفعل فاستسلمنا لعجلة محمد و سارعنا بإعداد أنفسنا و تركنا الطعام الذي أعددناه و بدأنا برحلة جديدة لا نعرف شيئاً عنها سوى أن قائدها هو أبو صهيب .

لم نكن نعرف أين نتجه فطلبنا من أبي أحمد أن يرشدنا إلى المكان فقال :" لا مشكلة سأذهب معكم أوصلكم إلى هناك و أعود ". شكرنا أبا أحمد على موقفه و مضينا مسرعين إلى الشارع نبحث عن سيارة أجرة تقلنا إلى حيث تنطلق الرحلة . وجدتنا السيارة فدخلناها بسرعة و جلس أبو أحمد إلى جانب السائق و بدأ يرشده إلى الإتجاه الذي يجب أن نذهب فيه . لم يكن أبو أحمد يتقن التركية و لكنه

فهم من أبي صهيب أنه يحتاج كلمة واحدة حتى نصل إليه و هي "السولي" و هي المنطقة التي نتجه إليها .
مضى السائق حتى جاوز في سيره مدة ثلث ساعة تقريباً و بدأنا نخشى أن تفوتنا الرحلة التي نحلم بها متذ وصولنا إلى تركيا . حاول أبو أحمد الاستيثاق من معرفة السائق للطريق بشكل أكبر فأعطاه هاتفه النقال و قال لمحادثه على الهاتف قبل أن يعطيه السائق :" خذ أخبره أنت ".
تناول السائق الهاتف على مضض و بدأ يتلكم بالتركية و يهز برأسه محاولاً أن يفهمنا بأننا نسير بالاتجاه الصحيح . معظم سير السيارة كان على طرقات رئيسية و الآن بدأ السائق يدخل طرقاً فرعية.
وصلنا أخيراً إلى مكان فيه عدة أبنية مرتفعة و هناك أناس كثر يتجمعون أمام باب أحد تلك الأبنية و أصوات ترتفع و تنخفض دون أن نفهم من دويها شيئاً. سارع أبو أحمد بالنزول و قام أخي بدفع أجرة السيارة و التي بلغت خمسين ليرة تركية ثم حاولنا الإسراع لندرك أبا أحمد الذي نزل من السيارة و بدأ يلوح لنا بيده حتى نتبعه .
وقف أبو أحمد مع شاب يرتدي قبعة سوداء و قد جعلته الظلمة مجهول الملامح بالنسبة إلينا .
بدأ أبو أحمد بالكلام و أشار إلينا و قال :" هؤلاء أربعة ركاب ". فأجابه الشاب :" أربعة ؟ من جماعة من أنتم ؟". فقال أبو أحمد :"من جماعة أبي محمود". و ذلك أن أبا صهيب أخبره أنه ليس لديه المزيد من الأمكنة وبإمكاننا السفر مع أبي محمود و الذي يعمل في ذات المكان مع أبي صهيب .
لم أكن أعرف أن هناك أكثر من جماعة لكن تبين أن المهربين كثر و ليس أبو محمود المهرب السابق هو كل المهربين كما كان يدور في أذهاننا و لعله عامل لدى احدهم في النهاية .
أجابه الشاب عندها :" حسناً هات ناولنا الحساب ". توجه عندها أبو أحمد إلى أخي محمد و قال :" هات ناولنا النقود ". فتناول أخي محمد النقود من جيبه و أعطاه إياهن بهدوء فتناولهن أبو أحمد بسرعة ليمررها إلى المهرب و الذي بدأ يعد بسرعة . خمسة ، عشرة ، خمسة عشر، عشرون .
عشرون ألف دولار سلمناها في ساعة واحدة . مبلغ لم يدر في ذهني يوماً أنني سأشاهده فضلاً عن أن ندفعه و ما إن رأيناه حتى دفعناه إلى يد المهرب .
بعد أن أخذ المهرب النقود أشار إلينا بالوقوف أمام باب الفندق الذي يتجمهر حوله عدد كبير من الناس و تقف أمامهم سيارة فان يتزاحمون عليها . ودعنا أبو أحمد عندها و عاد إلى بيتنا السابق و بقينا نحن ننتظر حلول دورنا حتى نمضي في طريقنا إلى إيطاليا. لم نكن نعرف أين تتجه الناس إلا أنه كان علينا انتظار قدوم السيارة مجدداً حتى تقلنا فلم يكن هناك أكثر من سيارة واحدة .
جاوزت الساعة الواحدة و قد استيقظنا منذ الصباح فبدأ التعب يلقي بأثقاله علينا و بدأنا نشعر بالنعاس في اللحظة التي وقفنا فيها أمام باب الفندق أشار لنا المهرب بأن هناك مكاناً لشخصين حتى نصعد فيها.

إلا أننا بعد أن ألقينا نظرة على داخل السيارة كان المكان يضيق على الموجودين في السيارة بالإضافة إلى أن عددنا كان أربعة أشخاص .دفعنا عندها أحد المسافرين القادمين من الخلف و أشار إليه المهرب أن بإمكانه الصعود فصعد هو و شخص آخر ثم أغلق المهرب باب السيارة و صاح بالسائق انطلق .

كان اليأس في أنطاليا سهلاً فعند عدم قدرتنا على السفر كان بإمكاننا التوجه للبحث عن فندق يأوينا في

تلك الليلة ثم نبحث في اليوم التالي عن حل آخر و قد كان يمكن أن نفعل ذات الشيء هنا إلا أننا دفعنا تكلفة الرحلة كاملة و لم يبقَ معنا نقود فمصيرنا الآن معلق في من يملك نقودنا وهو أبي محمود .

مرت ساعتان و بدأ الإياس يصيب قلوب المسافرين و بدأوا يستسلمون للنعاس إلا أن بعضهم لم يفقد الأمل فاستمر بالسهر . مع قرابة الساعة الثانية بدأ أحد الشباب يصيح بصوت عال و يصفق بيديه :" هيا انتهينا اليوم هيا ليعد كل إنسان إلى غرفته فقد التغت العملية اليوم ". لم نعرف ماذا يعني بكلامه فنحن لم نعد نملك مأوى و مأوانا هو بجانب الشخص الذي يملك نقودنا و هو أبو محمود و نحن لا نعرف عنه شيئاً ولا شك أن أبا أحمد يغط في نوم عميق الآن .

توجهنا إلى الشاب الذي أخذ النقود من أبي أحمد و سألناه عما يجب فعله فقال :"عليكم الانتظام في الدور و إخبارهم بأنكم دفعتم التكلفة و هم يسيعطونكم غرفة تنامون فيها الليلة ". ثم قال بعد ذلك:" من جماعة من أنتم ذكروني ". فأخبرناه أننا من جماعة أبي محمود .

ما أسرع ما نسي من جماعة من نحن . بدأنا نرجو أن لا يكون قد نسي أننا أعطيناه المبلغ النقدي كاملاً أيضاً .توجهنا إلى حيث ينتظر الناس و بدأنا ننتظر مثلهم.

في بِلاد العُثمانيّين

انتظمنا في رتل الانتظار ثم رأينا أن بإمكان شخصٍ واحدٍ منا أن ينتزع لنا مفتاح غرفة ، فابتعدنا عن مكان الانتظار و بقي أخي محمد يحاول الحصول على مفتاح غرفة نقضي بها ليلتنا .
انتظرنا بعض الوقت و المكان أشبه بالدوائر الرسمية عند حصول أمرٍ يستدعي الاجتماع كتوزيع الراتب أو محاولة الحصول على الخبز من فرن وحيد في مكان عامر بالسكان . انتزع محمد المفتاح أخيراً و بدأ يلوح لنا بأننا نستطيع أن نمضي للنوم الآن . مشى محمد فتبعناه ثم سألناه :"أين يجب أن نتجه". فقال :"إلى الطابق الثامن ". كان للأمر أن يبدو تعجيزياً لولا وجود المصعد الذي تكاثر حوله الناس الذين استطاعوا الحصول على مفتاح لغرفهم أيضاً. صعدنا جميعاً و دخلنا الغرفة و التي لا تختلف كثيراً عن غرفة فندق أنطاليا إلا أن مساحتها أكبر قليلاً. صالةٌ كبيرةٌ تحتوي على صوفا مريحة للجلوس بالإضافة إلى تلفاز و فيها أيضاً غرفة مزودة بسريرين .
دخل اثنان منا إلى الغرفة و استلقيت أنا على الصوفا بينما جمع أخي محمد كرسيين كبار ليشكل منهما سريرا متواضعا ينام عليه .لم نكن نعرف مالذي علينا فعله في اليوم التالي إلا أننا فضلنا عدم طرح الأسئلة و أخلدنا إلى النوم . بدأ نهارنا مبكراً كالعادة ألقيت نظرةً على إطلالة الفندق فوجدت منظراً رائعاً يستحق التصوير فبدأت التقط الذكريات عبر كاميرا الهاتف . الشيء الذي يجعل الوقت يمضي سريعاً هو الانترنت و قد كان معدوماً عند أبي قاسم إلا أن هناك شركةً تعمل بجانبه كانت تبث اتصالاً مفتوحاً نتطفل عليه نحن حتى نقضي وقتنا . و عند خروجنا من المنزل كان أخي محمد يفعل أحياناً خطه الدولي و الذي تبلغ تكلفته أسبوعياً فيما لو أراد "١٠٠ دولار" مقابل واحد غيغا بالإضافة إلى رصيدٍ للاتصالات ،و كانت شبكة اللاسلكي متوفرة هنا إلا أنها لا تصل إلى الطابق الثامن فكان على من يرغب باستعمال الانترنت النزول إلى الطابق الأرضي. نزلت مرة و بدأت أراقب القادمين إلى هذا المكان .
رغم أن الرحلة خطرةٌ جداً و احتمال الموت خلالها كبير إلا أن العدد كان كبيراً حتى أن نسبة المسافرين من العائلات كادت تتفوق على نسبة الشباب المسافرين .
بدأ وجود المسافرين هنا يحول المكان إلى أشبه بقريةٍ صغيرةٍ غالبية سكانها من السوريين و العراقيين و كان هناك جنسيات أخرى متواجدة إلا أن عددها كان قليلاً مقارنةً بالسوريين . عادت الأيام تجري بسرعة و بدأ السؤال المعتاد يتحول من " متى موعد الرحلة ؟" إلى " هل هناك رحلة الليلة ؟". و كلما مضى الوقت قليلاً أعلنّا إياسنا من الرحلة .

لم نكن الأشخاص الوحيدين الذين نرغب بالوصول إلى هدفنا بأقصى سرعة فمعظم الموجودين هنا لا يختلفون عنا في هذه النقطة و كان صبر أحدهم يضيق أحياناً فيتوجه للمهرب ليسأله عن موعد السفر فإن كان قريباً قبل الرجل بالبقاء و إن كان بعيداً هدد الرجل بالرحيل و لم يكن لأبي محمود "الجديد" و غيره من المهربين في هذه الفترة سوى أن يشجعوا المسافرين على البقاء معهم فكانوا يُسيّرون بعض المسافرين في ليلة ثم ما يلبث الرجل الذي يُسيّر الرحلات ان يصيح بمن ينتظر دوره من المسافرين الآخرين قائلاً :"فشلت المحاولة فليعد كل إنسان إلى غرفته ". لم نعرف إن كانت تلك الرحلات تمضي حقاً إلى عرض البحر و يجري اعتراضها من قبل السلطات قبل أن تصل إلى هدفها أم أن الأمر كان عبارة عن خدعة حتى يحتفظ المهربون ببقية المسافرين .

جرت عدة محاولات و لم يكن نصيبنا منها سوى الانتظار في الطابق الأرضي للفندق ريثما يتم إعلان نهاية المحاولة . الرحلات البحرية عادةً ما تكون خطيرة و إذا كانت في الشتاء فستزداد خطورة و رغم أننا في آخر شهر من العام إلا أن الجو كان مقبولاً ولم يكن بارداً جداً كما يفترض في هذا الوقت من العام . غالباً ما تعطي المظاهر صفات لا يتلبس بها الإنسان و قد يقدم الإنسان على أمر يراه خطيراً أملاً بالحصول على نتيجة أكبر ، سمعنا في ليلة أن المسافرين بدأوا بالإنطلاق فسارعنا بالنزول إلى الطابق الأرضي و بدأنا الإنتظار ووجدنا أن الناس قد تجمهروا كلٌ منهم يأمل بمناداة اسمه أولاً حتى ينطلق في الرحلة.

لم أعرف بماذا أتسلى حتى يمضي الوقت فبدأت باستماع حوارات المسافرين . رأيت أحدهم و قد أطلق شعره حتى أسدله على كتفيه و أعطته نظارته التي يرتديها قالب المثقفين الذين يظهرون في المسلسلات و زاده غرابةً سواكه الذي كان يضعه في فمه . لم أعرف إن كان شيخاً أم مثقفا و جاء أحدهم و قد جزم بأنه شيخ فيما يبدو و ذلك بسبب سواكه فسأله أولا :" هل هذا سواك ". فقال :"نعم سواك ". ثم سأله مستفتيا :"أليس خروجنا اليوم انتحارا ".

لم يعرف الشاب بماذا يجيبه فقال :" و الله لا أعرف ". فصرح الرجل بإجابته التي كان يسأل عنها وقال :" بلى انتحار . هل من أحد يخرج برحلة بحرية في هذا الوقت إلا باحث عن الانتحار ".

فقال الشاب :" لم يجبرك أحد على الذهاب المسألة بيدك ". كان سؤال الرجل تثبيطا لا أكثر فكل الموجودين هنا اختاروا السفر و إن لم يكن الوقت الأنسب إلا أنه الوقت المتاح بالنسبة لهم . تركت حديثهم و انصرفت . رغم أننا خرجنا من سورية إلا أن ما كان يجري في سورية كان يؤثر بنا و نتأثر به لحظة بلحظة و استمرت الأسئلة التي كانت تُسأل في سورية بالتكرار في تركيا :" من المخطأ الأول ؟". و استمرت الكلمات التي في كانت في معظمهما تبريراً لجرائم النظام للحالة الانهزامية التي كان يعانيها الخارجون من سورية بشكل عام فالمعارضة و إن ارتكبت بعض الأخطاء فهذا لا يجعلها مجرمة مقارنة بالنظام و هل يستوي القاتل و المدافع عن نفسه " أفنجعل المسلمين كالمجرمين ".

جلست في الطابق الأرضي أحاول الاتصال بالانترنت فأتى رجل يظهر منه التأفف فنظر إلي و بدأ يفتح حديثاً معي و الأسئلة المتكررة تبدأ أولاً " من أين أنت ؟ أين وجهتك ؟..". ثم قال :" و الله يا أخي

كنا مكيفين ". عند سماعي لهذه الكلمة أجزم أحياناً بأن قائلها موال للنظام فأفضل عدم الخوض في النقاش معه ففضلت السكوت و قلت له " هذا ابتلاء رباني في النهاية " فبدأ الرجل يشرح لي عن نعيمه الذي كان يعيشه في سورية و الذي تسببت الثورة بإنهائه حسب وجهة نظره ، انظم إلينا بعد قليل رجلٌ و معه ولد و بدأ يستمع لحديث الرجل الأول . استرسل الرجل " الموالي " كثيراً في الحديث و قال :" يا أخي عين لا تقاوم مخرز كان يجب قبل أن نقوم بالثورة أن نكون معدين أنفسنا لها . هذا رجل مثبت نفسه منذ أكثر من أربعين سنة كيف لنا أن ننزعه دون أن نستعد لذلك لو فعلنا ذلك لما اضطررنا للتشتت في كل صقع من أصقاع الدنيا ". حاول الرجل الآخر الإستدراك على كلام صاحبه فقال :" يا أخي أنا كنت مرتاحا ماديا و أموري بخير بشكل عام و حتى الآن كنت أستطيع العيش بشكل جيد . لكن مجرد العيش دون هدف قد لا يكون طموحاً لكثير من الناس ليس من المعقول أن تتكلم كلمة تسيء للنظام لتختفي بعدها عن أهلك إلى إسبوع أو إسبوعين أو ربما لا تعود إلى الأبد لو كان لدينا شيء من الديمقراطية لوجد الشعب متنفسا و مساحة قليلة من الحرية إلا أن النظام كان متشددا في البداية و رد فعله على بداية الأحداث كان أهوجا ". بدا كلام القادم الجديد أكثر عقلانية من الرجل الأول الذي لم يعجبه هذا الكلام فبدأ يقاطع الرجل الذي اضطر للسكوت في النهاية . كنت انطوائيا نوعا ما إلا أن صديقنا أحمد كان اجتماعيا و يحب الكلام مع الناس فتركنا مرة قبل أن نخلد إلى النوم و قال :" سأذهب لأسهر مع الشباب ".

لم نعرف من هم أولئك الشباب في البداية حتى عرّفنا عليهم في اليوم التالي فوجدنا أصدقاء جدد نقضي معهم بعض الوقت . كان كل من جلال و قريبه عبدالهادي و عادل يسعى إلى السفر كحالنا و كانت وجهتهم واضحة لكل واحد منهم و هي ألمانيا.

قد يتبادر للذهن عند رؤية عدد المتوجهين للسفر إلى أوروبا أن معظمهم ممن لا يحمل شهادة علمية إلا أن معظم من رأيتهم من المسافرين هم من حملة شهادات التعليم العالي حتى أن بعضهم كان طبيباً. الشاب الذي اختلط علي منظره بسبب طول شعره و سواكه كان هو الشاب الذي تعرف عليه أحمد و هو جلال . قضى جلال معظم حياته في الإمارات ثم أكمل دراسة الطب البشري في الأردن و عند عودته إلى سورية اندلعت الأحداث فدرس سنة أو أكثر و الأحداث في ذروتها ثم اختار طريق السفر .

لم يكن جلال الطبيب الوحيد الذي التقيناه فقد كان عادل زميل جلال في السكن طبيباً أيضاً إلا أنه لم يدخل الجامعة بعد و إنما تخرج من معهد طبي بتقدير ممتاز يؤهله لمتابعة الدراسة كطبيب و كان عبدالهادي خريج كلية الإقتصاد . و بعد أن التقينا بالأصدقاء الجدد عدة مرات راح عبدالهادي يحدثنا عن خبرته في طريق السفر الذي سنسلكه فلم تكن التجربة الذي يخوضها الأولى و إنما الثانية فقال :" في المرة الماضية عندنا توجهت إلى السفر توجهت و أنا بكامل أناقتي حتى وصلت إلى الميناء حتى أنني كنت أرتدي ثيابا رسمية أما هذه المرة فربنا نواجه الموت قبل أن نصل إلى السفينة".

حاول عبدالهادي محاولةً لم تتكلل بالنجاح خسر خلالها مبلغاً كبيراً من النقود و لكن المهرب الذي تعاقد معه في المرة الأولى تعهد بأن لا تذهب نقود عبدالهادي هباءً و سيقوم بإيصال عبدالهادي إلى المكان الذي كان يحلم في الوصول إليه .

لم يتوقف أحمد عند الدكتور جلال الذي تعرف عليه مؤخراً بل كان لا يكف عن البحث عن الأصدقاء حتى التقى أخيراً بصديق جديد ليس من حلب هذه المرة و إنما من الموصل من العراق . لا يختلف وضع أبي مصطفى عن وضعنا فهو يحاول السفر إلى أوروبا و يتعاقد مع شريك المهرب الذي نتعامل معه وهو أبو صهيب أما عائلته فقد كانت تقيم في تركيا . مضت عدة أيام حتى عادت النفوس إلى اليأس و ما إن شعر المهربون بذلك حتى أعلنوا أن الرحلة على وشك الإنطلاق في اليوم التالي.

و في اليوم التالي بدأ أحد عمال الفندق يطرق أبواب الغرف و يطلب من قاطنيها النزول إلى الأسفل استعداداً للرحلة التي ستنطلق اليوم .

نزلنا فعلاً و بدا الأمر هذه المرة جدياً على غير عادته . كنا عندما عزمنا على السفر مع أبي محمود اللاذقاني قد اشترينا ستراً للنجاة ندفع بها احتمال الغرق عن أنفسنا في حال تعرضت السفينة للخطر ، و بقيت تلك الستر بصحبتنا حتى هذا اليوم.

كانت الحافلات الكبيرة (البولمان) تنتظرنا في الخارج و بدأ الناس يصعدون إليها بعد أن ينادي أحد الحاظرين بالأسماء التي معه في القائمة و كان ما يوحي لنا بأن المحاولة جدية هذه المرة هو أن أحد الرجال يقوم بتفتيش البضائع التي يحملها كل شخص و إذا وجد ستراً للنجاة قام برميها مباشرة .

اعترضت إحدى النساء على تصرفه و رأته دون مبرر فقال :" لست مستعداً أن أعرض رحلة كاملة للخطر من أجل مسافر أو مسافرين . ستر النجاة ممنوعة ". لم نعرف مدى خطورة المسألة في حال اكتشاف السلطات التركية حملنا لستر النجاة إلا أن محمد احتال حتى أوصل الستر إلى ما بين الأمتعة دون أن أعرف كيف فعل ذلك .

و أخيراً انطلقت الرحلة . العدد الكبير و التدقيق و التفتيش أشعرنا أن السفينة تنتظرنا و ما من شيء يعيقنا سوى الوصول الى الشاطئ . انطلقنا سوية و برفقة جلال و عادل اللذان انطلقا في حافلة أخرى و لم يصحبهما عبدالهادي لأن المهرب أمره بالانتظار و لم يكن له إلا الاستجابة.

حافلتان كبيرتان انطلقتا تحملان الركاب و الباقون لم نعرف ماذا سيحل بهم هل ستأتي حافلات أخرى لإقلالهم أم أنهم سينتظرون كما يفعل عبدالهادي. عندما أخبرنا أبو محمود اللاذقاني أن علينا الاتجاه إلى انطاليا حتى ننطلق من هناك ظننا أنه يعبث معنا و أنه يحاول بث الأمل فينا عبر رحلات عبثية و لكن الحافلات التي تقلنا الآن لم تخالف طريق أنطاليا و إنما مشت على ذات الطريق .

يبدو أن السفر من مرسين لم يعد ممكناً و بات المكان الوحيد الذي يمكن السفر منه هو أنطاليا . كان علينا الإنتظار عشر ساعات أخرى حتى نصل إلى أنطاليا و لا نعرف إن كان المبيت هذه الليلة سيكون أسهل أم أن علينا البحث مجدداً عن فندق . انطلقنا في الساعة الرابعة مساء لنصل بعد عشر ساعات أي في الساعة الثانية و هو وقت متأخر جداً للبحث عن فندق . مضت الحافلات داخل أنطاليا حتى

وقفت أخيراً فأدركنا أننا وصلنا إلى الفندق الذي سنقضي به ليلتنا . نزلنا جميعاً و كان العدد كبيراً حتى ضاق الفندق على الواصلين فقال أحد منظمي الرحلة :" اتبعوني ". فمضينا خلفه أملاً منا أن نجد فندقا نقضي به بقية ليلتنا

لم يكن الفندق الجديد بعيداً عن الفندق السابق إلا أنه بدا أقل حداثةً من سابقه . أيّاً يكن فالمهم بالنسبة لنا الآن هو الإخلاد إلى النوم و لغدٍ شأن آخر . صعدنا إلى الغرف و التي كان أقصى اتساعٍ لها ثلاثة أشخاص فاضطر أحمد لمشاركة كل من جلال و عادل في النزل و رحبا هما بذلك. الساعة المتأخرة التي وصلنا فيها جعلتنا نغط في نومٍ عميق و لم نستيقظ قبل أن تصل الساعة إلى الواحدة .
و ما إن عرفنا الوقت حتى أدركنا أن إمكانية السفر اليوم باتت معدومة . مضى اليوم و جاء اليوم التالي و قبل أن نشعر بالإحباط جاءنا أحدهم و قال إن الرحلة ستنطلق في الثانية ظهراً. تناولنا شيئاً من الطعام و استعدينا بسرعة للإنطلاق في الرحلة ، و فعلاً و قبل أن تجاوز الساعة الثانية بدأ الناس يصعدون في الحافلة فسارعنا بالصعود . بدأت الحافلة تمضي في الشوارع الفرعية دون أن تقصد الطريق الرئيسي . لم نفهم أولاً السبب في ذلك ثم فطنا إلى أن الرحلة لن تنطلق اليوم و إنما سيتم تغيير الفندق و ذلك أن المكان بات مشكوكاً فيه . و فعلاً و كما توقعنا استمرت السيارات بالدوران مدة ساعتين تقريباً ثم نزلنا عند فندق آخر بدا عليه أفضل من سابقيه . نزلنا و بدأنا بالإجراءات المعتادة الهوية جواز السفر ثم الحصول على مفتاح الغرفة . حصلنا على المفتاح فعلاً و مضينا إلى الغرفة التي تتسع لأربعة أشخاص هذه المرة . في صباح اليوم التالي بدأ الناس ينزلون من غرفهم في وقتٍ باكر ، سارع أحمد للنزول حتى يفهم ما يجري ثم عاد إلينا و أخبرنا أن هناك إفطار مجاني يقوم الناس بتناوله . نزلنا لنشارك الناس في تناول الإفطار أما بالنسبة للغداء فكان علينا تأمينه بشكل شخصي . خرج أخي محمد و أحمد و اشتروا بعض الأغراض لطعام العشاء .
لم أكن أعرف بماذا يمكن أن نشغل وقتنا فنزلت إلى الطابق الأرضي للفندق عسى أن أجد ما أشغل به وقتي. مع اقتراب الغروب ازداد عدد الناس العائدين إلى الفندق و الذين خرجوا منه حتى يبتعدوا عن الجو الممل الذي سببه الانتظار الطويل لهم . لم تنته سلسة العائدين حتى وصلت الشرطة أخيراً لم أعرف ما الذي علي فعله في البداية هل يجب أن أخرج من الفندق أم هل يجب أن أنبه أصدقائي على ضرورة العودة أم أخبرهم بأن الأفضل لهم أن لا يعودوا .
لم أعرف كيف اتصرف و بدأت أنتظر ما الذي يمكن أن يصدر عن قدوم الشرطة . توجه الشرطي مباشرةً إلى الشخص الذي يتولى إدارة الفندق و بدأ يتكلم معه بالتركية و قام أحد الموجودين من المسافرين ممن يتقن التركية بترجمة ما قال الشرطي و قال :" الشرطي يطلب من الجميع النزول إلى هنا فليقم كل شخص منا بمناداة زملائه في الغرفة و من خرج من الفندق فيجب الإتصال به ليأتي إلى هنا فسنعود من حيث أتينا ". بدأ البعض يفكر بالبقاء و الهرب من الشرطة إلا أن ذلك لم يكن ليعود علينا بنتيجة تذكر فمن يبقى هنا سيضطر لدفع أجرة الفندق من جيبه فبدأ الناس يستدعي بعضهم بعضاً

ليجتمع الجميع عند غياب الشمس أمام الفندق . كان قدومنا إلى هنا مجانيا فالحافلات تولى تكلفتها المهربون أما الآن فيبدو أننا سنظطر لدفع تكلفة العودة . لم نعلم ما سر رغبة الشرطة بترحيلنا من الفندق رغم أنه لم نتسبب بأية فوضى فقام المترجم بتوضيح السبب في ذلك و قال:"أنطاليا مدينة سياحية و وجودنا هنا يثير الريبة فما الذي يدفع اللاجئين السوريين للقدوم إلى هكذا مدينة إلا محاولة السفر إلى أوروبا و حتى إن كان هناك من يرغب بالسياحة فبالتأكيد لن يكون هذا العدد ". سلمنا بأن المحاولة باءت بالفشل و بدأنا ننتظر قدوم الحافلات التي ستقلّنا . قدمت الحافلة الأولى و بالطبع لم تكن تكفي لكامل العدد فاضطر الشرطي لطلب حافلة أخرى . أتت الحافلة و بدأ الركاب يسألون السائق عن المبلغ الذي يريده ثمناً للرحلة فطلب مبلغاً كبيراً عبارة عن ٥٠ ليرة تركية أي ما يعادل ٢٥ دولاراً. لم يستطع الركاب أن يتصوروا أنهم يدفعون هكذا مبلغاً للعودة من حيث أتوا إضافةً إلى أن الرحلة كانت فاشلة . بدأ جلال يتحدث مع مرافق السائق بالإنجليزية و ازدادت حدة النقاش حتى اضطر السائق أن يخفض من التكلفة قليلاً .

صعدنا إلى الحافلة و بدأنا نعود أدراجنا و قد تكللت رحلتنا الثانية بالفشل. انطلقنا ليلاً لنصل مع بدء الفجر هذه المرة . سارع كل منا بأخذ مفتاح الغرفة السابقة التي نزل فيها و صعد إليها. لم نعد نعرف ما هو التصرف الأنسب انتهت محاولة مع أبي محمود اللاذقاني بالفشل و ها هي المحاولة الثانية تنتهي بالفشل على يد أبي محمود " الهيبي " كما يسمونه . رغم أن المحاولات التي كنا نقوم بها تنتهي بالفشل إلا أن من سبقنا و نجح في الوصول إلى أوروبا قبلنا كان يشجعنا و يطلب منا عدم اليأس فمن سبقنا لم ينجح بالوصول من المرة الأولى. أبو مصطفى العراقي كان أكبرنا سنا وبدا أن وضعه المادي ميسور نوعاً ما لكنه اظطر في النهاية للسفر لاضطراب الأوضاع في مدينته الموصل. أعجبت بإصراره على رغم أنه يكبرنا فقد كان يقوم أيضاً بمحاولة تعلم اللغة التركية حدثني عن نفسه مرة مفتخرا ناقلا شهادة أحد أصدقائه السابقين و قال :" قال لي صديقي عليك ألا تيأس من الوصول إلى هنا و إذا وصلت فأنا واثق بإمكانيتك الكبيرة بالنجاح ". قصص الواصلين قبلنا كانت تدفعنا على الأمل إلا أن المحاولات الفاشلة التي كنا نقوم بها أو يقوم بها غيرنا كانت تحطم معنوياتنا .

سألته :" كم استغرق صديقك في الوصول إلى وجهته ". فقال :" سنة كاملة". سنة كاملة بدت مدة تعجيزية بالنسبة إلي فقد كانت الرحلة على وشك الإنطلاق بمجرد وصولنا و الآن ربما نحتاج إلى سنة هذا شيء يصعب علينا تخيله . مع أبي محمود اللاذقاني كنا المتعاملين الوحيدين و كان يبعثنا انعزالنا عن بقية المسافرين على الشك في صدقه و لكن عدد المسافرين هنا يبعث شعوراً على الاطمئنان بأنه من المستحيل مخادعة هكذا عدد من الناس. رغم ذلك إلا أن العدد الكبير يتم خداعه أحياناً. حدثنا عبدالهادي عن إحدى الرحلات التي سبقتنا و التي لم يتسن له الخروج معها في البداية فحزن أولاً ثم فرح و ذلك أن السفينة التي يفترض بها أن تنطلق في البحر نحو أوروبا انطلقت فعلاً في البحر و لكنها لم تجاوز على أن عامت في البحر عدة إيام حتى وصل المسافرون في النهاية إلى مصر و تم إيداعهم في سجون القاهرة و لم يفرج عنهم حتى لحظة لقائنا بعبدالهادي . ما أشعرنا بشيء

من الأمان بعد قصة عبدالهادي هو أننا نعرف الشخص الذي نصحنا بالهيبي و هو أبو أحمد و هو يعرف أباصهيب شخصياً و الذي هو شريك للهيبي . محاولة محاولتان لم تنجحا فلا بد من محاولة ثالثة مجدداً . أعلمنا الموظفون بأنه يجب علينا النزول استعداداً للرحلة التي ستنطلق اليوم . نزلنا فعلاً و بدأت إجراءات السفر تصبح روتينية أكثر بالنسبة لنا .

مضت الحافلات بعد أن صعد جميع الركاب إليها و انطلقت في طريقها الذي لم يختلف عن المرتين السابقتين و هو طريق أنطاليا . مضت عشر ساعات و بدأنا نتوقع أن يتوقف السائق في أي لحظة إلا أنه مضى ما يقارب الساعة ثم توقف و بدأنا ننزل إلى الفندق الذي سنقضي به ليلتنا . كان فندقا يفوق جميع الفنادق السابقة في الترتيب و الأناقة و منظرُ المدينة قريب من أنطاليا إلا أننا لسنا موقنين بأنها هي سألنا أحدهم عن اسم المدينة فقال :" هذه ألانيا ". ألانيا كانت أكثر جاذبية و جمالاً من أنطاليا حتى تمنينا أن نقضي بقية مدة الإنتظار للرحلة في هذا المكان . في المساء بدأ الناس يصعدون في الحافلات التي ابتعدت قليلاً عن الفندق حتى لا تلفت الأنظار .

سارت السيارة مسافة ساعة من الزمن ثم توقفت بمكان أشبه بحديقة و طلب منا المسؤول عن تنظيم الرحلة النزول هنا . أجبنا طلبه و بدأنا ننتظر انطلاق سفينة أحلامنا. لم تجاوز منطقة انتظارنا في المرات السابقة غرف الفنادق أما الآن فنحن ننتظر في الحديقة "لاشك أن هناك شيئاً سيحدث ، لو كانت المسألة كذباً لبقينا في الفندق ثم عدنا من حيث جئنا أما الآن فلا شك أن المسألة حقيقية " .

بدأ الناس يهامس بعضهم بعضاً بهذه الكلمات و يأملون بأن الرحلة ستصبح حقيقية بعد لحظات . رغم أننا كنا شباباً إلا أن البرد بدأ يزعجنا مع أننا نرتدي ما يكفي من الثياب حسب اعتقادنا ، فلا شك أن الأمر سيكون أسوأ بالنسبة للأطفال و الذين بدأت أصواتهم ترتفع بالبكاء بين فينة و أخرى. حاول الناس البحث عن مكان دافءٍ يضعون به أطفالهم فوجدوا مقهى كبيراً يتسع لمعظم الناس و لديه طاولات تكفي العدد و ربما تزيد بالإضافة إلى أنه يستخدم مدفأة على الحطب . التم شمل جميع المسافرين داخل هذه القهوة و بدأوا يتداولون الحديث و يقضون الوقت و بعضهم نسي مسألة السفر من أساسها . أعطى المكان البعيد الذي ننزل فيه الجميع شعوراً بأننا بعيدون عن المراقبة فاختلط بكاء الأطفال بصراخ الكبار حتى غدا الصوت في هذا المكان يشعر مسؤول الرحلة بإمكانية إلغائها في حال تم اكتشافنا فبادر بالكلام بشكل لطيف أولاً قائلاً:" إخواني أحبائي لو سمحتم الصوت مرتفع جداً هلا كنتم أكثر حذراً". إلا أن أحداً لم يلق آذاناً صاغيةً له .

كرر الرجل كلامه مرةً أو مرتين ثم استشاط غضباً بعد أن رأى عدم فائدة الأسلوب الودي قائلاً:" يا حيوان يا قليل الفهم أنت وهو .. ". و استمر بإرسال الكلام جزافاً دون مراعاة احترام لكبير أو صغير و لم يتعرض أحد لإجابته أو إخراسه فمعظم الناس سلموا أن الرجل معه حق و قرروا لذلك السكوت .

رغم انزعاجنا من تصرف المنظم إلا أن مزيج التعب و الإرهاق الذي كنا نعانيه جعلنا نفكر بإيجاد وسيلة مناسبة للنوم خلال هذه الليلة التي يبدو أنها ستكون طويلة للغاية. مضى جل الليل و معظم

الموجودين مستيقظ إلا من شذّ من الأطفال فاستلقى بعضهم قرابة أمه و بعضهم اقترب من المدفأة التي لم تكن تغني عنهم شيئاً لاتساع مساحة المكان . مضت الليلة بصعوبة و بدأنا جميعاً نرقب تسلل أشعة الدافئة التي ستنسينا هذا البرد الذي تذوقناه . المطعم الذي نزلناه كانت تحيط به الأشجار المثمرة من كل مكان فوجد الناس شيئاً يتسلون به من قطاف الثمار بانتظار قدوم الحافلات و العودة من حيث جئنا . مع قرابة الساعة الثامنة وصلت الحافلات و بدأ الناس يتجمهرون حولها أولاً و كنا بعيدين عن المكان قليلاً فلم نفهم سر التجمع الكبير ثم بدأ صراخ عال و بدأت مشاجرة بالأيدي بين الركاب السوريين و سائق الحافلة التركي . لم تتوقف المشاجرة حتى وصلتالشرطة ففرقوا بين الطرفين و نظموا عودة المسافرين إلى الحافلات دون أن يضايقوا أحد . أبدى أحدهم إعجابه بتصرف الشرطة و انزعاجه من تصرف المسافرين فقال :" سبحان الله نحن ضيوف عندهم و قمنا بضرب السائق التركي و ها هم يقومون بإيصالنا إلى مكاننا دون مضايقة علينا أن نخجل من تصرفاتنا ". مضت الحافلات عائدة بنا إلى فنادق أخرى نقضي بها بقية الوقت حتى يأذن المهربون لنا بالعودة . خلال كل هذا الوقت كنا نقوم بشراء السندويش أو المعلبات حتى نتغذى عليها و مع محاولاتنا الفاشلة المتلاحقة بدأنا نشعر بأن لدى أبي أحمد حق في اتخاذه وسائل الاستيطان هنا . قرر أخي محمد أن يمضي ليشتري غازا صغيراً نستعمله في إعداد الطعام ليقضي بذلك على أوهامنا التي تربط بين إمكانية السفر القريب و بين اتخاذ وسائل العيش هنا . جلب محمد الغاز و دفع ثمنه ٣٠ ليرة تركية ما يعادل خمسة عشر دولاراً. كان المانع من شراء الغاز هو احتمالية السفر في أي وقت فقال محمد :" في اللحظة التي نسافر فيها سأرمي الغاز بالبحر ". لم نكن نستطيع أن نترك المهرب في حال رغبنا في ذلك فنقودنا لا تزال في جيبه فعلينا الانتظار حتى العودة إلى مرسين ثم نفكر في الذي يجب عمله . عدنا إلى مرسين و توجهنا إلى المكان الذي ننزله مباشرة في السولي وبدأنا نقلب الإحتمالات التي بين أيدينا هل الأفضل البقاء مع الهيبي

أم أن البحث عن مهرب آخر أصبح أمراً لا بد منه . قلبنا الأفكار دون أن نصل الى قرار في ترك الهيبي و إنما قررنا المحاولة معه مرة أخرى عسى أن تنجح المحاولة . لم يستمر انتظارنا طويلاً حتى أعلن المهربون عن رحلة جديدة . بات الأمر روتينا بالنسبة إلينا

"سنمضي الآن في طريقنا إلى أنطاليا و إذا قرر المهرب الإبتعاد أكثر فسنصل إلى ألانيا ثم نعود من حيث أتينا بعد أن نقضي في الفندق عدة أيام ". هكذا كانت خريطة الرحلة في أذهاننا إلا أن المحاولة أمر لا بد منه . مضت الرحلة فعلاً على الطريق الذي رسمناه في أذهاننا و كنا نتوقع النزول في أنطاليا إلا أن السائق استمر في السير دون توقف دون أن نعرف وجهتنا التالية.

جاوزنا في سيرنا أنطاليا و استمر السائق في السير ساعة ثم ساعتين ثم ثلاث ساعات ليتوقف أخيراً طالباً من الناس النزول . وصلنا في وقتٍ متأخر جداً جاوزت فيه الساعة الرابعة و الفندق الذي نزلنا عنده لم يكن يتسع لكل المسافرين إلا أن المنظم الجديد طلب منا الصبر هذه الليلة حتى نحظى بفندق

أكبر في اليوم التالي . قضينا الليلة كيفما اتفق و في صباح اليوم التالي أخذنا المنظمُ إلى فندقٍ يفوق كل الفنادق التي رأيناها حجماً و أناقةً و رفاهيةً إضافة إلى أنه يقدم إفطارا مفتوحاً. بدا البقاء في هذا الفندق ضرباً من الرفاهية و البذخ التي لا تناسب لاجئين يبحثون عن السفر و لا شك أن كلفته كانت مرتفعة . و في اليوم التالي كما ظننا جاء رجل من طرف المهرب يقول أنه وجد مكاناً أفضل بالنسبة لنا و علينا الإنتقال إليه . لم تستهوِ الفكرة معظم الناس و حاول بعضهم التهرب من الرجل و البقاء في الفندق فلا أحد يشك أنه لا يوجد مكان أفضل من هذا لكن لم يكن لنا في النهاية إلا التسليم لخيار المهرب و المضي معه حيث أراد . لم نعرف اسم المنطقة التي نحن فيها فسألناه فقال :" نحن الآن في فتحية ". "فتحية" هي محطة الإنطلاق الجديدة بالنسبة لنا و هي أبعد ما يكون عن مرسين فقد قضينا في الرحلة قرابة ١٣ ساعة . أخذنا الرجل إلى المكان الجديد الذي سنقضي به وقت انتظارنا ريثما يحين موعد الرحلة و كانت الغرفة كبيرة تتسع لأكثر من أربعة أشخاص فطلب منا أن ننزل بها نحن الستة أنا و أخواي بالإضافة إلى صديقنا أحمد و كلٍ من جلال و عادل .

كان النزل أشبه بالبيوت القروية التي تكون واسعة و بعيدة عن ازدحام المدينة . أعطى المكان الجديد لنا إيحاءً بأن الرحلة التي خرجنا في الأمس حتى ندركها ستتأخر أسبوعاً أو أسبوعين و ربما أكثر. بدأت الأيام تعود إلى طبيعتها يمضي الوقت ببطئ أولاً ثم يسرع حتى لم نعد نميز اليوم من سابقه . مضي يوم ، يومان ، أسبوع ، أسبوعان ، و لا شيء يبعث فينا الأمل سوى سؤال من له علاقةٌ بالمهرب عن توقيت الرحلة فيشعرنا بأن الرحلة على وشك الإنطلاق و ليس وجودنا هنا سوى بهدف تأمين الوقت المناسب .

لم نلتق حتى الآن بالهيبي أو بأبي صهيب إلا أن أبا مصطفى أخبرنا أنه لقي أبا صهيب و أنه طمأنه أن الرحلة على وشك الإنطلاق

حتى أنه قال له :" السفينة في عرض البحر و قد قمنا بإرسال كمية كبيرة من الخبز إليها أمس ".

لم يعرف أبو مصطفى مدى صدق أبي صهيب فأرجأ التفكير في صدقه لغاية انتهاء المحاولة أو مضي الرحلة . بعد مضي كل هذا الوقت دون محاولة انطلاق بات واضحاً لجميع الموجودين أنه لا يوجد رحلة و أن وجودنا هنا ليس إلا عبارة عن تضييع المزيد من الوقت فقرر أغلبنا عندها العودة إلى مرسين و البحث عن خيار آخر غير الهيبي بالنسبة لنا و غير أبي صهيب بالنسبة لكل من جلال وعادل . انطلقنا نحن الستة بالإضافة إلى أبي مصطفى العراقي و الذي بدأ يقترب منا منذ حلولنا في النزل الأخير . قررنا العودة هذه المرة بإرادتنا فاضطررنا لدفع ثمن تذاكر السفر إلى مرسين و التي بدأت تصبح أشبه بوطن جديد لنا وبدأت الإقامة بها تشعرنا بشيء من الأمان .

عدنا مجدداً إلى نزل أبي قاسم و الذي يبدو أننا سنسكن فيه حتى يحين موعد السفر . الأشياء التي كنا نمتنع من شرائها أو فعلها خوفاً من الشعور بالبقاء هنا بدأنا نبحث عنها حتى نقتنيها غاز أبي أحمد البازار الإجار بشكل أسبوعي كل ذلك لم يعد لدينا مانع من فعله. النقود بقيت مع أبي محمود و حتى نستعيدها لا بد أن نطلبها منه و كان الواسطة بيننا وبينه بشار الشاب الذي أخذ منا النقود أول مرة .

مضى محمد و أحمد إلى أبي محمود و طلبا منه المبلغ و الاتفاق السائد بين المهربين و اللاجئين أنه في حال رغبة أحدهم بالانسحاب فإنه ينسحب دون أن يأخذ منه المهرب شيئاً . أعطى الهيبي المبلغ النقدي لمحمد إلا أنه بقي معه جزء صغير من المبلغ و كان له دين على بشار أراد أن يستوفيه منه فأحال محمد وأحمد إلى بشار و طلب منهما أن يستوفيا نقودهما من بشار . عانينا بعدها في تخليص باقي النقود من بشار و الذي لم يكتف بالمماطلة بل حتى أنه أعاد المبلغ ناقصاً مئتي دولار .

لم يكن أبو أحمد سافر بعد كل هذا الوقت بسبب العطل التي كانت في أوروبا في مثل هذا الوقت من العام . قام أبو أحمد بمساعدتنا على استخلاص باقي نقودنا من بشار ليعود إلينا شعور الحرية من جديد .

رغم عودة شعور الحرية إلا أن الفشل الذي عانيناه خلال عدة محاولات كان يحثنا على البحث عن مهرب جديد فاستعنا بسؤال أصدقائنا السابقين الذين نجحوا في الوصول إلى أوروبا . نجح صديقنا عبدالله في الوصول إلى أوروبا بعد عدة محاولات انطلق بداية من الأردن بالطائرة إلى تركيا ثم بقي فيها بضع الوقت و بعد أن حاول عدة محاولات نجح أخيراً في الوصول إلى ألمانيا عن طريق تركيا أولاً ثم إلى اليونان ثم تابع الطريق البري حتى وصل إلى ألمانيا منذ ثلاثة أشهر تقريباً سألناه عن المهرب الذي تعامل معه فأرشدنا إليه فقام محمد بالتواصل معه مباشرة فأبدى الرجل استعداده و أن الرحلة على وشك الإنطلاق فعلينا المسارعة في اتخاذ القرار إن كنا نرغب بالسفر معه

فأخبره محمد بأننا جاهزون للسفر و النقود بأيدينا فقال :" عليكم أن تودعوا النقود في المكتب ". بالنسبة للمهرب الأول بقيت النقود معنا و لم نعطه شيئاً أما الهيبي فكنا ممن أعطاه المبلغ نقداً و معظم الناس الباقين قاموا بإيداع المبلغ المالي في مكتب الرشيد و الذي يودع النقود كأمانة عنده و يعطي للمودع كودا يبقى معه و إذا نجحت الرحلة يقوم المسافر بأعطاء الكود للمهرب الذي يستلم النقود أخيراً من المكتب .

رغم أن الإعطاء النقدي أسهل من هذه الدورة إلا أن الإيداع في المكتب أكثر أماناً . نزلنا عند رغبة المهرب و مضينا لإيداع النقود في المكتب و أخذ بالإضافة لذلك ٢٠ دولاراً كعمولة له و أعطانا الكود الخاص بنا .

عدنا بعدها لننتظر في فندق أبي قاسم بينما اجتمع كل من مصطفى و أبو جلال في السولي و بدءا البحث عن مهرب جديد هناك و افترق عنهم عادل الذي فضل البقاء مع أبي صهيب حتى يحين موعد الرحلة .في الحين الذي كان ينزل الآخرون في السولي بالمجان كنا نضطر لدفع تكلفة الشقة بشكل أسبوعي لأبي قاسم و بعد أن انتظرنا عدة أيام شعرنا بأن اختلاف المهرب لا يجدي شيئاً فليست علة عدم السفر المهربين و إنما العلة أن الرحلات غير قادرة على الإنطلاق إما لظغوط أمنية أحياناً و لضروف جوية أحياناً أخرى. و بعد شعورنا بأننا نتكلف مبالغ مالية كبيرة مقارنة بالباقين آثرنا العودة إلى أبي صهيب على مضض فطلب منا إبقاء النقود لدى صديقه مدير الفندق و اسمه أبو علي فوافقنا على ذلك و أعطينا النقود لأبي علي . كان انتقالنا من الهيبي إلى أبي صهيب اللذان يشتركان في نفس

الرحلة يبدو وكأن أبا صهيب سرق زبائن زميله فطلب منا عندها النزول في الفندق المجاور للفندق الأول فمضينا إليه و عدا ننتظر كما ينتظر غيرنا موعد انطلاق الرحلة .
أفلح أبو مصطفى و جلال في إيجاد عرض جديد و مقبول مقتضاه أن يبقيا في السولي مدة عشرة أيام تكفل المهرب أن يطلق الرحلة ضمنها و في حال عدم انطلاق الرحلة لا يطلب منهما المهرب شيئاً .
أعجب الرجلان بالعرض و وجدا أنه لا خسارة فيه فالأيام التي كانت تمضي مع أبي صهيب ستمضي مع مهرب آخر . و بعد أن عدنا نحن إلى كنف أبي صهيب سألت أبا مصطفى إن كان يفكر بأن يقتدي بعملنا فقال :" مستحيل يا رجل ما الذي تقوله يمكن أن أتقبل كل شيء من الشخص إلا أن يكذب . أبو صهيب كذاب كذاب . تخيل يا رجل قال لي المركبة عرض البحر و يتم إرسال الخبز إليها ثم نكتشف أنه لا يوجد خبز و لا سفينة ".
رغم أن ميزة المصداقية يجلّها الكثير من الناس إلا أن اتباع المهربين لمبدأ المصداقية في العمل أمر صعب جداً عليهم و يشعرون بأن أرباحهم ستنقص فيما لو كذبوا .انتظر الرجلان عدة أيام دون أن يحصل شيء و بعد مرور ما يقارب عشرة أيام اتصل بنا جلال و طلب منا المضي إليه فمضينا على عجل لنجد أن هناك حافلة صغيرة فقال جلال :"اصعدوا معنا ". رغم أننا لم نكن من ضمن المتعاقدين الأولين إلا أننا حصلنا على مقاعد في محاولة السفر الجديدة . انطلقت الرحلة و بدأ الموجودون يشعرون بأن المهرب يتعامل باحترافية مع مسألة سفره حيث أجبرنا على إغلاق الجوالات و طلب منا عدم المجازفة بفتحها حتى نصل إلى وجهتنا التي نقصدها فبدأوا ينفذون طلبه بسرور كونه يتصرف بجدية حسب رأيهم حتى قال أحدهم :" هكذا هو التهريب على أصوله ".
انطلقت الرحلة في طريقها المعتاد و رغم أن المهرب أصرّ علينا بعدم فتح الجوالات إلا أن أحد الركاب لم يلق بالاً لتنبيه المهرب وفتح جواله ثم فعل " الجي بي اس" أيضاً و عندما انتبه له أخي محمد شعر بالإحباط لإصرار الراكب على تجاهل التعليمات التي كررها المهرب أكثر من مرة.
الرحلة التي شعر الركاب بأنها احترافية جداً لم تكن كذلك فما إن مشينا عدة ساعات حتى بدأت سيارة الشرطة تمشي أمامنا و تلوح لنا فبدأ السائق يتبعها لنقف بعد مسافة قصيرة و نبدأ بانتظار ما سينتج عن لقائنا الثاني مع الشرطة . بدأ الشرطة بالتفتيش و بدأ الناس يتحدثون أنهم قد وجدوا مع أحدهم سلاحاً حاداً فاصطحبته الشرطة معها و أمرونا بالعودة من حيث أتينا . لم أعرف إن كانت الشرطة عثرت على أشياء أخرى بحوزة الرجل و ربما لم يكن الرجل يحمل شيئاً فالقصة وصلتنا قيل عن قال
.
عادت الرحلة أدراجها و مضينا عائدين مجدداً إلى مرسين . خروجنا في الرحلة الأخيرة جعلنا شركاء ضمن اتفاق جلال و أبي مصطفى و الذي هو عبارة عن عشرة أيام و في حال عدم نجاح المحاولة نستعيد النقود و نذهب حيث نشاء . وصلنا إلى الفندق و توجه الشباب مباشرة إلى المهرب حتى يعرفوا ماذا يفعلون فقال :" أمهلوني يومين يومين فقط ثم إذا لم تنطلق الرحلة فأنتم أحرار و بإمكانكم المضي حيث تشاؤون".

قبل الشباب بالإنتظار فالمدة لم تكن طويلة ثم قد أضعنا الكثير من الوقت دون أن ننجز شيئاً فلن يؤخر عدم انطلاقنا في هذين اليومين شيئاً. مضى اليومان على عجل و بدأنا نفكر ماهي الخطوة التالية التي يجب أن نقوم بها في حال انسحبنا من عند المهرب الجديد .

الخيار المقابل لخيار السفر عبر البحر هو الإنطلاق براً من طريق اليونان إلا أننا سمعنا أنه صعب جداً ، حتى أن أحد المسافرين أخبرني عندما سألته عن المانع من سلوكه طريق اليونان فقال :" الطريق صعب جداً ثم إنه مغلق . صديقي هناك منذ أربعة شهور و لم يتمكن من العبور حتى الآن".
سألت أخي محمد إن كان يفكر في السفر عن طريق اليونان و كان في البداية شديد الرفض للمسألة إلا أن انحسار الخيارات التي بين أيدينا جعله يعيد التفكير بالإنطلاق في هذا الطريق .
وجود أصدقاء في السفر شيء يبعث على الأنس و الاطمئنان إلا أن العدد الزائد أحياناً يوحي بأن هناك عراقيل يمكن أن يتجاوزها شخصان مفترقين و يعجزا عنها مجتمعين . بعد المحاولات العديدة التي جرت بالاشتراك مع أبي مصطفى و جهاد ظنّ الرجلان أن العدد الكبير هو سبب الفشل المتواصل في الرحلة فقررا أن يسحبا نقودهما من عند أبي علي .
و قد كانا منفصلين عنا في السكن فلم نعرف ما الذي ينويان فعله إلا أن غالب ظننا كان أنهما سيتابعان طريق السفر معنا. مضى كل من محمد و أحمد حتى يستعيدا النقود و عند وصولهما تفاجأا بوجود كل من جلال و أبي مصطفى لدى أبي علي و بأنهما يقومان بسحب النقود من الرجل فجزم عندها كل من محمد و أحمد بأن أبا مصطفى و جلال اختارا الانفصال عنا و المضي لوحدهم في محاولاتهم .
انزعج كلٌ من محمد و أحمد من موقف الرجلين إلا أنهما فضّلا عدم مواجهتهما بمشاعرهما .
استعدنا جميعنا نقودنا و عدنا مجدداً إلى المسكن الأول " فندق أبي قاسم " و بدأنا نفكر و ندرس إمكانية السفر عبر البر .
كان موعد تسيير الرحلات البحرية عائداً إلى المهربين مما جعلنا لا نفعل شيئاً سوى الإنتظار أما وقد عاد تحديد موعد الرحلة إلينا فلا بد من الإنطلاق بسرعة إلى وجهتنا الجديدة التي سننطلق منها و التي لن تكون أنطاليا هذه المرة و إنما "أزمير".

الأحداث التي كانت تجري في سورية كانت تلقي بظلالها علينا في كل لحظةٍ من اللحظات ، و أي حدث مثير يحدث في سورية يصبح مباشرة مادة للحوار و الجدل . في الوقت الذي كنا فيه في الأردن و كنا نسكن في منزل ماجد و الذي يعمل في المخابرات جاءه ضيف أعلى منه رتبةً إلا أنه متقاعد ، و مرّ علينا حتى يلقي التحية فدعوناه لشرب كأسٍ من الشاي فاستجاب الرجل و جلس معنا قليلاً.
رغم أن الجلسة كانت قصيرة إلا أن الأحداث في سورية وصعود نجم داعش في ذلك الوقت و دخول الحكومة الأردنية في مواجهةٍ معه من خلال التحالف الدولي الذي جرى أخيراً بين عدة دول من

المنطقة و دول معروفة و غير معروفة يصعب حصرها كل ذلك جعل الرجل ينقد تصرفات داعش و يقول :" معقول هذا إسلام . هذا ليس إسلاماً هذه ليست أكثر من تصرفات صبيانية ".
كان الرجل يحاول أن يصرف التهمة في حديثه إلى داعش كأنه يقول :" أنا أقصد داعش التي في سورية و ليس بالضروري أن يكون كل سوري داعشياً ". و لكن على الرغم من ذلك فما جرى في سورية جعل تهمة الداعشية تنحصر في الأشخاص القادمين من سورية و حتى عندما يتحدث أحد الأردنيين عن داعش ينظر إليك خلسة خوفاً من أن تكون داعشي . و عندما صحبنا ماجد مرةً بدأ يحدث سائق السيارة التي نركبها قائلاً :" تمكنت الحكومة يوم أمس من ألقاء القبض على عشرة عناصر من داعش و ذلك أن أحدهم كان يصمم قنبلة فانفجرت به ". لم نعرف هل كان ماجد جاداً أم هازلاً في كلامه فهو يتكلم كثيراً و لم نرغب بالتكلم بالموضوع أصلاً و ذلك أننا ضمن دائرة الاتهام أصلاً فبادر السائق الأردني و سأل ماجد :" سوريين ؟". فأجابه :" بعضهم سوريون و بعضهم غير سوري ". رغم أننا لم نتدخل في النقاش إلا أن وجود عناصر من داعش ليسوا سوريين أشعرنا بالإرتياح خوفاً من حصر التهمة في السوريين .
و في سورية كنا ضمن خضم الأحداث نؤثر بها و نتأثر . و بعد أن وصلنا إلى تركيا و انتقلنا من دائرة التأثير إلى دائرة التأثُر بدأنا نسمع الأخبار في سورية و نتجاوز فتح النقاش حولها لإنه غالباً ما ينتهي دون نتيجة سوى انزعاج الطرفين من بعضهما .
التنظيمات أو المجموعات التي كانت تقاتل في سورية كانت حديثة نوعاً ما في تأسيسها و قد جاوز عددها على الحصر إلا أن التنظيمات في العراق كانت صاحبة عمر و ربما خبرة أطول . الظلم الذي وقع على العراقيين بعد سقوط بغداد و الإحتلال الأمريكي لها ثم ما تلاها من أحداث سياسية و حرب طائفية بين السنة و الشيعة فيها جعل العراقيين يرون رد فعل التنظيمات المقاتلة و أفعالها مبررة أياً كان ما تفعله و كونُ تنظيم الدولة أو داعش موجوداً في العراق كان في نظرهم صاحب حق مهما فعل .
في معظم الأحيان التي تجري فيها نقاشات في السياسة أتجنبها لأنها تشعرني بالتوتر و ضغط نفسي خصوصاً إذا كان الطرف الآخر من المتعصبين لفكرته أو شبيحاً إلا أنني كنت أصرح بنقد داعش و أفعالهم أحياناً . و دار النقاش مرة حول ذات الموضوع و كان أبو مصطفى حاظراً فنقدتهم و قلت :" داعش يتبنى تحكيم الشريعة كشعار له كما كان النظام السوري يرفع شعار المقاومة فهو يتمسح به لا أكثر و عندما طلبت منه الفصائل النزول إلى شعاره و تحكيم الشرع لم يقبل ".
تأملَ أبو مصطفى وجهي ثم قال :" عبدالله أنت ماذا تعرف عن داعش ؟. أنصحك، لا تتكلم عنهم دون أن تعرف شيئاً عنهم ". لم أكن صاحب الاعتراض الوحيد على داعش و إنما كان هناك صديق لأبي مصطفى من العراق أيضاً إلا أنه يكره داعش و يصرح بذلك فاعترض أحمد النقاش و عرض موقف صديق أبي مصطفى وهو يضحك و قال :" ذاك أبو توفيق إذا قلت له داعش قال داعش صناعة أمريكية إيرانية إسرائيلية ".فقال أبو مصطفى موجهاً كلامه لي :" هذا كلام غبي كل من يقول القاعدة

صناعة أمريكية هو جاهل . يا رجل لم يستطع أحد أن يكسر أنف أمريكا و أيران في العراق غيرهم و في الوقت الذي كانت الحواجز الأمنية تسمع باسم أبي مصعب الزرقاوي كانت تصاب بالرعب ".
بدا التشكيك أو الطعن في داعش أمراً غير مستساغ بالنسبة لأبي مصطفى فحاولنا عدم التطرق للنقاش في هذا الموضوع خلال بقائنا معه . لم نكن الأشخاص الوحيدين الذين اكتووا بنار الأحداث في سورية فمعظم المسافرين خرجوا نتيجة مصائب سابقة تعرضوا لها أو لأن صبرهم قد نفذ من تردي الأوضاع في سوريا. جلال الذي قضى غالبية عمره خارج سورية عاد إليها مع اشتعال الأحداث و حتى يكمل مسيرته التعليمية كان عليه أن يبحث عن مكانٍ يختص فيه و كان حظه أنه اختير للعمل في مشفى ديرعطية و و التي كانت تحت سيطرة النظام و كان يضطر للسفر من مدينته حلب إلى غوطة دمشق لمدة تزيد عن ست أو سبع ساعات .
لم يكن يقوم بالسفر في نهاية كل إسبوع و إنما يعمل لمدة شهرين أو ثلاثة بشكل متواصل ثم يعود إلى مدينته لبعض الوقت . عرف جلال أنني كنت في السجن فبدأ يسألني عن أسلوب حياتنا داخل السجن و عن شعوري لحظة خروجنا من السجن . كان وصف تلك اللحظات يصعب علي و لا أدري كيف أتكلم عنها فصمت قليلاً ثم شرح لي جلال عن معاناته خلال دراسته في سورية إلا أن الشيء ملفت أنه قال :" في إحدى الليالي كنت مناوباً و معي زميلي في المشفى . رنّ جرس الهاتف فرفعت السماعة و سألت : من المتصل . فأجاب الطرف الآخر": نحن جبهة النصرة و سنقوم بالهجوم على المشفى خلال يومين" ثم قام بإغلاق السماعة". قال جلال هذا الكلام وعلامات التعجب تملأ وجهه محتاراً و كأنه يحاكي حالته عند تلقيه الإتصال . ثم قال :" أخبرت صديقي بذلك و في اليوم التالي نزلت إجازة ليس بسبب الهاتف و إنما تزامن توقيتها مع المكالمة و فعلاً حصل الهجوم و قتل ثلاثة من أصدقائي الأطباء . أخبرت أحد المنخرطين في الثورة ممن لديه بعض الاطلاع الشرعي بذلك فقال :" هكذا يعتبر أن الجماعة قامت بتبليغكم و الحفاظ على دمائكم أمر يعود إليكم " ". ثم راح يحكي عن بعض الأحداث الغريبة التي اطلع عليها خلال ذلك الهجوم و التي لم يعرف لها تفسيراً و منها أن بعض الناس قُتلوا بعد انتهاء الهجوم أي على يد النظام إلا أن المسألة كانت يصعب الجزم بها . ثم اختار جلال طريق السفر إلى ألمانيا و شاركه في ذلك أخو زوجته عبدالهادي و الذي كان من مدينة حمص و للهزائم المتوالية التي مني بها الثوار في حمص و التي انتهت بسقوط المدينة أخيراً و للظلم الذي وقع على أهل حمص عموماً كل ذلك جعله يرى في داعش الخيار الأمثل فيصرح بقوتهم أحياناً و ينقدهم على أخطائهم أحياناً أخرى . داعش لم تكن مادة جدلية في سورية و العراق فقط و إنما باتت مثار اهتمام العالم أيضاً. بعد أن اتفقت بعض دول غربية و أخرى إقليمية على القيام بتحالف ضد داعش أصبحت منطقة الشمال السوري عرضة لهجمات الطيارين من مختلف أنحاء العالم و كان الأردن مشاركاً في هذا التحالف و باتت متابعتنا للأخبار في سورية محصورة عبر وسائل التواصل. تفاجأنا باشتعال المواقع مرة و الموضوع الأكثر إثارة كان " داعش يعدم الطيار الأردني حرقاً ".

خرج معاذ الكساسبة حتى يقوم بجولته لضرب أهداف لداعش حسب ادعاءات الحكومة الأردنية -و حتى عند انحصار الأهداف بداعش يتم سقوط ضحايا من المدنيين و ذلك أن الاستهداف بالطيران أمر يصعب السيطرة عليه - و لم ينه معاذ جولته حتى سقطت طائرته و سقط معها معاذ أسيراً بيد تنظيم الدولة و استمر أسره فترة من الزمن حتى تم تصفيته أخيراً بطريقة الحرق . لم يكن قتل القاتل مسألة لتثير الأهمية لولا الطريقة التي تم استعمالها فمعاذ كان مهاجما لتنظيم الدولة بقصد قتل رجال منه و إن قام التنظيم بتصفيته فهذا من حقه أما أن يقوموا بحرقه فهذا جعل الناس تتساءل عن طبيعة هذا التنظيم.

لطبيعة أبي أحمد الفلسطيني الفضولية كان يسأل كل من يواجهه عن رأيه في عملية الحرق بهدف إثارة الطرف الآخر و كان ممن سأله أبا محمود و الذي وصلنا إليه عن طريق صديقنا عبدالله .

كان أبو محمود من إدلب و كان وقت اللقاء قصيراً فاستغل ابو احمد و سأله عن رأيه

فأجابه أبو محمود :" و ليكن ما المشكلة". لم يستسغ أبو أحمد رد فعل أبي محمود تجاه السؤال فقد كان ينتظر شيئاً من الاستنكار فقال :" المشكلة أن هذا لا يجوز لا في دين و لا في إسلام ".

كان أبو محمود مستعجلا لدرجة أنه أنهى النقاش بسرعة و قال :" يا رجل و هل هو صعد في الطائرة حتى يرش الورود ". أثم انصرف أبو محمود تاركاً أبا أحمد يبحث عن شخص يناقشه فيما جرى .

السفر باتجاه أوروبا كان خيار الغالبية و من صعب عليه تكلفة السفر العالية كان يستدين و يبحث عن كل وسيلةٍ ممكنة لتأمين المبلغ بقصد الوصول إلى أرض الأحلام أو كما سماها صديقنا أحمد " أرض الأمل " من بين المسافرين كان هناك صديق لأبي أحمد اسمه مشهور و لم يكن هو بالمشهور كاسمه و إنما قريبته كانت مشهورة فعلاً و هي بنت أخيه و هي الممثلة نسرين طافش حسب كلام أبي أحمد .

في الوقت الذي كنا ننتظر فيه المهلة الأخيرة في النزل الأخير جاءنا أبو أحمد لزيارتنا مصطحبا معه صديقه مشهور و كان عازفا للعود حسب كلام أبي أحمد إلا أنه لم يجلبه معه حين زارنا .

كان هدف الرجل الرحلة إلى أوروبا إلا أن مشاكله الصحية لم تكن تساعده على أن يمشي كثيراً بالإضافة إلى أن عائلته كانت معه مما جعل خياره محصوراً في السفر مع أبي صهيب عبر البحر .

أبو أحمد و مشهور ينتميان إلى الجيل الذي قبلنا راح مشهور يحدثنا عن أحداث الثمانينيات التي شهدها و تسبب في إصابة لساقه و بدأ يسرد تلك الذكريات و كأنها كانت صرحاً من خيال فهوى و بدأت أجري مقارنة سريعة بين الأحداث في ذلك الوقت و ما يجري في هذا الزمان و كأنه شيء يتكرر إلا أنه في مناطق مختلفة . جعلنا سرد مشهور لذكرياته نتأمل أن ما يجري من أحداث ستتحول يوماً ما إلى ذكريات نرويها لغيرنا .

في ظُلُمَات البَحر

مضينا إلى بيت أبي قاسم مجدداً و بدأنا نعد العدة للانطلاق في رحلتنا عبر الطريق البري . كنا نعرف أن الانطلاق يكون من أزمير عبر بحر إيجة باتجاه اليونان لكننا لم نتعرف على مهربين يساعدوننا في ذلك خلال وجودنا في مرسين . فالمهربون في مرسين اختصاصهم الرحلات البحرية عبر السفن. سألنا صديقنا عبدالله عن كيفية انطلاقه من تركيا فأرشدنا إلى مهرب لقبه جنكيز خان تواصلنا معه و أخبرنا أننا يجب أن نذهب الى أزمير أولاً فقمنا بإيداع النقود لدى أبي أحمد حتى يعطيها للرجل في حال نجاح رحلتنا . انطلقنا باتجاه أزمير و التي كانت تحتاج وقتاً أطول للوصول مقارنة بأنطاليا . انفصلنا فعلاً عن جلال و أبي مصطفى و اللذان سيمضيان في ذات الطريق و لكن بشكل منعزل عنا. مضينا حتى نقطع التذاكر الخاصة برحلتنا لنتفاجأ بجلال و أبي مصطفى يقومان بذلك في ذات التوقيت وكان توقيت رحلتهم في ذات توقيت رحلتنا . انطلقنا في الرحلة في تمام السابعة مساءً. مضت الحافلة لوقت طويل قرابة خمس ساعات تخللتها استراحتان ثم توقفت السيارة في إحدى المحطات و بدأ الركاب جميعهم ينزلون فنزلنا لنرى أن الثلوج قد كست جانباً من الطريق فاختبأنا بسرعة في الاستراحة الدافئة و بدأنا ننتظر انطلاق الرحلة . لم تكن مدة الاستراحة عادة تجاوز عشر دقائق أو ربع ساعة على أبعد تقدير إلا أن انتظارنا هذه المرة جاوز الساعة ثم الساعتين ثم شعرنا باليأس من إمكانية متابعة الرحلة اليوم و بدأ النعاس يجعل الناس يلقون رؤوسهم على الطاولات الموجودة حتى يناموا ثم يمنعهم البرد من الاسترسال في النوم . مضت الليلة الباردة عصيبة علينا فلم يمكن هناك وسيلة نستدفئ بها و أرهقنا التعب بسبب استيقاظنا المتواصل و في الصباح التالي و بعد أن جاوزت الساعة السابعة خرجت لأرى جرافات الثلج و قد بدأت بعملها بإزاحة الثلج المتراكم على الطريق . لم تكن كمية الثلج المتساقطة كبيرة و على الرغم من ذلك تم منع السير على الطريق لغاية تأمينه . صعد السائق إلى حافلته ثم تبعناه لنبدأ الرحلة مجدداً. خلال مسيرتنا من مرسين إلى أنطاليا ظننا أننا شاهدنا كل تركيا إلا أن المسافة التي سارتها السيارة توحي بأن لم نر إلا جزءاً بسيطاً من تركيا .

من مرسين في الجنوب إلى أزمير في الغرب التركي احتجنا ما يقارب أربعا و عشرين ساعة انطلقنا في السابعة مساء و وصلنا في اليوم التالي في السابعة مساء . و بعد أن وصلنا كان السؤال المطروح أين سنقضي هذه الليلة أو هل نستطيع السفر الليلة . بعد وصولنا مباشرة تكلم أخي محمد مع جنكيز خان و الذي أرشده إلى صاحبه الذي يعمل معنا و أخبرنا بمكان نلاقيه فيه . التقينا فعلاً بصديق جنكيز إلا أنه بدا سلبياً حسب رأي الشباب المسافرين فقد قال :" عليكم أن تنتظروا قد لا تتوفر رحلة اليوم أو غداً و هناك أناس ينتظرون منذ يوم الأربعاء الماضي". شكل كلام الرجل عقبة في تعاقدنا معه و

بدأ الشباب يفكرون بصرف النظر عن التعامل معه و البحث عن مهرب آخر أما عن النقود فلا تزال مع أبي أحمد و بإمكاننا استعادتها منه . أرشدنا الرجل إلى فندق نقضي به ليلتنا و كان علينا أن ندفع الأجرة من جيوبنا . دخلنا الفندق و الذي بدا متواضعاً جداً و أشبه ببيت أبي قاسم الذي كنا نسكنه .
دخلنا الفندق و الذي كان يتكون من طابقين فدفعنا الأجرة في الطابق السفلي ثم توجهنا إلى الطابق العلوي لنجد أن إحدى الغرف قد فُتح بابها و امتلأت بالشباب و الذين شكلوا حلقةً توسطها شاب أسمر يرتدي قبعة سوداء و ذقنه أطول بقليل من ذقون أصدقائه و بدأ يشرح لهم عن الوجهة التي يجب أن يختاروها فقال :" إذا قال لكم المهرب انزلوا ، يجب أن تسألوا عن اسم الجزيرة أولاً إياكم أن تنزلوا في الجزر العسكرية ستضطرون لقضاء وقت أطول و ستنالون نصيبكم من الضرب ". تصدر الشاب للكلام جعله أشبه بمرشد لمن حوله فسأله أحدهم :" أنا عراقي لماذا يجب أن أقول أني سوري ". فأجابه الشاب :" لا مشكلة في أن تقول أنك عراقي لكنك ستحتاج عندها لوقت أطول لإن السوريين في أغلب الأحيان يسمح لهم بمغادرة الجزيرة بعد يوم او يومين بينما العراقيون يحتاجون وقتاً أطول . فلا داع لأن تخسر هذا الوقت ، قل أنك سوري و انته من المسألة ".
بدأ الشباب العراقيين عندها يراجعون خريطة سورية و تقسيمها الجغرافي و يسألون عن المدن التي تشتبه لهجتهم بلهجة أهل العراق و كان الاختيار الأنسب لهم هو دير الزور و بدأوا يحفظون أسماء المدن التي يجب أن يذكروها في حال سألهم خفر السواحل عن موطنهم الذي أتوا عنه .
شاهدنا الشابُ لحظة دخولنا و استماعنا لحديثه فسألنا :" هل الشباب مسافرون ". فأجابه محمد :" نعم و أنتم ". فقال :" سننطلق الليلة في رحلتنا بعد ساعة أو ساعتين ".
دعا له أخي محمد بالتوفيق و أخذ منه رقم هاتفه ليتواصل معه و ليطمأن على نجاح محاولته . أخلدنا إلى النوم و في صباح اليوم التالي أخبرنا محمد أن الشاب الذي التقيناه أمس قد نجح في الوصول إلى اليونان .
بدا شيئاً أشبه بالخيال بالنسبة لنا فالبارحة كان الرجل هنا و الآن قد تجاوز الخطوة الأكبر في طريق السفر و هي اليونان بدأنا نأمل عندها أن تسير رحلتنا بسلاسة رحلة ذلك الشاب .
لم يُعجبِ الشبابُ بكلام المهرب أمس فقرروا البحث عن مهرب آخر فتواصلنا مع أبي مصطفى و سألناه عن المهرب الذي تعاقد معه فأعطانا رقمه و تواصلنا معه حتى نحدد موعداً للقاء . اتفقنا على اللقاء معه في أحد المطاعم و كان عراقياً أيضاً أخبرناه بوجهتنا و عما يريده من تكلفة فقال :" الف دولار للشخص الواحد ". الألف دولار هو المبلغ المتعارف عليه مقابل الوصول إلى اليونان و النظام الذي كان في مرسين لإيداع النقود و تسليمها هو ذاته هنا عبارة عن إيداع النقود لدى مكتب مقابل عشرين دولارا كعمولة.. انتقلنا من الفندق الأول إلى فندق أفضل منه و مكثنا فيه أياماً بانتظار حلول موعد الرحلة . لم نتوقف عن التقاء السوريين منذ دخلنا تركيا وحتى وصولنا إلى أزمير .
قريباً من الفندق الذي كنا ننزل فيه كان هناك أحد المساجد ، توجهت للصلاة فيه مرة ثم خرجت مسرعاً باتجاه الفندق و قد بدأ الجو يكتسي بالبرودة فصادفت طفلةً تتسول النقود . لم أعرف كيف

يجب أن أتصرف حتى لا أشعر بالذنب تجاهها فأعطيتها شيئاً من النقود ثم بدأت أتحدث و بدأت تظهر لي براعتها باللغة التركية عن طريق العد من واحد إلى عشرة . لم يكن بإمكاني أن أفعل لها شيئاً سوى أن أنظر نظرات الأسى باتجاهها ثم مضيت بعد أن عرفت أنها من حلب و أنها تنتظر والدتها التي ستأتي عن قريب لأخذها أما والدها فقد استشهد في حلب . بعد يومين أخبرنا أبو عمار أن الرحلة على وشك الإنطلاق و أن من الأنسب أن نتوجه إلى بيت يتبع له نقضي فيه ليلتنا بانتظار موعدة الرحلة و هو اليوم التالي .

أجبنا أبا عمار و مضينا معه إلى المنزل و تركنا أبو عمار عندها في عهدة شخص جديد لا نعرفه . تبعنا الرجل فدخلنا لنجد هناك أناساً يرغبون بالسفر أيضاً منهم سوري و آخر عراقي بالإضافة إلى شاب صغير في السن لا تبدو عليه الرغبة في السفر . مضينا إلى الغرفة التي يفترض أن نقضي بها ليلتنا و تركنا باقي المسافرين يستمتعون بسهرتهم .

بعد قليل دخل الرجل العراقي و الذي كان رأسه مكتسيا بالشيب و قد حلق ذقنه و شاربه و جسمه النحيل يوحي بأن عمره جاوز الخمسين .دخل الرجل و بدأ يتحدث مع الشباب عن رحلته فبادلناه بالسؤال عن رحلته فقال :" أنا أنتظر هنا منذ ثلاثة أيام ". قال ذلك و يبدو أنه قد فقد الصبر من الانتظار . استرسل أحمد بالحديث معه حتى عرف أنه كان جديداً سابقاً في الجيش العراقي فازداد أحمد فضولاً و قال :" أريد أن أسألك سؤالاً ما الذي يجبرك على العمل مع جيش يبرز فيه الشيعة و أنت رجل سني ". لم يعرف الرجل كيف يجيب أحمد إلا علامات البساطة كانت بادية على الوجه فقال لأحمد :" بالنسبة إلي أهم شيء هو رضا ربي ثم عائلتي و لم أفعل شيئاً يغضب ربنا ". عرف عندها أحمد أن الرجل بسيط جداً ربما لا يملك من أمره شيئاً. سألنا الرجل عن الطريقة التي سيركب بها البحر وكم هي الأجرة التي سيدفعها فقال :" سأنطلق بالقارب السريع مدة الرحلة ربع ساعة أو أكثر بقليل وقد دفعت الفا و ثمانمائة دولار ". ثم سألنا عن رحلتنا فقال محمد :" سننطلق بالقارب الصغير " البلم " مدة الرحلة ساعتان و ربما ثلاثة و الأجرة الف دولار . الزمن أطول بالطبع من القارب السريع إلا أن مبلغ ثمانمائة دولار يشكل لنا نحن الأربعة مشكلة ".

استمر الشباب بمغالبة النعاس بعض الوقت ثم صرعهم النوم . استيقظنا في اليوم التالي لنجد أن الكهرباء لا تعمل على غير العادة لم أفهم ما السبب فمنذ وصولنا إلى تركيا و الكهرباء تعمل دون انقطاع و شارف شحن جوالي على الانتهاء سألت الشاب الصغير الذي كان مرافقاً للمهرب :" ألا . يوجد كهرباء ". فأجاب بجلافة و كأني أطلب شيئاً منه :" لا . مقطوعة ".

لم يستوعب عقلي أن تنقطع الكهرباء في تركيا فلم تكن تنقطع في الأردن أبداً فكيف لها أن تنقطع في تركيا و التي يفترض أنها تتقدمها في الحداثة . مضى معظم النهار و لا كهرباء ثم فهمت أن ذلك الشاب قام بقطع الكهرباء. رغم أن وجود الكهرباء أو عدمها لم يكن يشغل بالنا كثيراً إلا أن تصرفات الشاب الأرعن " سراج " بدت و كأنه يعدنا سجناء في بيته لا ضيوفاً رغم أنه يفترض أننا زبائن عنده فلم يكتف بقطع الكهرباء فقط بل قام عندما خرج من البيت لفترة قليلة بقفل الباب علينا عند خروجه

ثم عاد وقفله عند دخوله . لم أتوقع أنني سأقابل شخصيات كهذه بعد خروجي من السجن . حاولت جاهداً أن أتحاشا سراج بعد أن أبغضته و بدأنا ننتظر موعد الرحلة و الذي سيكون مساء هذه الليلة . كنا نحن الأشخاص الذين سننطلق في رحلة الليلة و ذلك أننا سنبحر باستخدام " البلم " بينما من سيركب الزورق السريع فلن ينطلق الليلة. سألنا أبا عمار عن موعد انطلاق كل من جلال و أبي مصطفى فقال إن أبا مصطفى مضى إلى المطنقة التي تسكن عائلته فيها فتوقعنا أن عودته نتيجة ظروف عائلية تستدعي حضوره فتوقفنا عن طرح الأسئلة . بدأت الشمس بالغروب و بدأنا نستعد لرحلتنا التي سنركب خلالها البحر .

كان من النادر أن يصدق المهربون في وعودهم فغاية ماكان يأتينا منهم هو المواعدة بالانطلاق في التوقيت الفلاني ثم يتأخرون عن موعدهم و عند وصولهم نمضي إلى نصف الطريق و نعود جارين أذيال الخيبة .

لم يكن أبو عمار في نظرنا سوى مهرباً من المهربين و لكن لم يكن لنا إلا الانسياق وراء كلامه . بعد أن اشتدت الظلمة اتصل بنا أبو عمار و قال :" البحر هادئ تماماً اللية لذلك ستنطلق الرحلة اليوم فجهزوا أنفسكم ". جهزنا ستر النجاة التي سنرتديها و بدأنا ننتظر اللحظة الفاصلة التي ستنقلنا إلى البحر .

مع حلول الساعة العاشرة جاءنا الرجل الذي حللنا عنده ضيوفاً أو بتعبير أدق "أسرى" بانتظار انطلاق الرحلة و طلب منا مرافقته فقال :" اتبعوني و حاولوا أن تبقوا على مسافة متوسطة مني كأنه لا علاقة لكم بي و عليكم بالإسراع و في حال رأيتم أن الشرطة قد استوقفتني فامضوا و لا تقتربوا مني حتى أكون أنا الذي آتيكم هل هذا مفهوم؟ ". فأعلنّا قبولنا لأوامر الرجل و بدأنا نتبعه في طرقات أزمير مشى أولاً في شوارع منارة ثم بدأ ينسل في الشوارع الجانبية المظلمة . مشى الرجل حتى شعرنا بالتعب ثم دخل شارعاً مظلماً تماماً و فيه حافلة تركن إلى جنب الطريق قام بفتح الباب ثم نظر إلينا يستعجلنا فهرولنا و دخلنا الحافلة التي لم نكن أول من أوصلها ثم قال الرجل لنا :" الآن ستقودكم الحافلة إلى النقطة التي ستنطلقون منها اتبعوا تعليمات السائق و قوموا بإغلاق الجوالات و أرجو لكم التوفيق ". ثم نزل و أغلق السائق باب الحافلة بسرعة . ظلمة الطريق زادتها الحافلة إيحاشاً و الناس الموجودون فيها كانوا ساكنين لا حراك لهم و لم يكن المنطلقون هذه المرة من الذكور فقط و إنما بعضهم من النساء و كلهم تغلب عليهم السمرة كأنهم من البلاد الأفريقية . انتظر السائق قليلاً و ظننت أن الأجراءات الاحترازية التي قام بها المهرب مبالغ بها نوعاً ما و لكنّ ظنوني تبخرت بعد أن رأيت سيارة الشرطة تمر بجانبنا فأطبق الصمت تماماً و أشار إلينا السائق بأن علينا قطع أنفاسنا حتى لا تبوء محاولتنا بالفشل . حبسنا أنفاسنا للحظات ثم تنفسنا الصعداء بعد أن مضت سيارة الشرطة دون أن تتوقف بجانبنا . انتظر السائق بعد مرور سيارة الشرطة بعض الوقت ثم أدار عجلة المحرك و بدأت السيارة تمضي في طريقها .

ما بين صعود و هبوط و مرتفع و منخفض سارت السيارة و توقفت خلال الطريق لينظم إليها أناس جدد و لتبدأ الحافلة بالضيق على راكبيها. مضت السيارة قرابة خمسٍ و أربعين دقيقة ثم توقفت و نزلنا منها لنجد أنفسنا على قمة منحدر مرتفع عن البحر مسافة طويلة و النزول إلى البحر يبدو متعباً و خطيراً. بدأنا نتّبع تعليمات السائق و نمضي خلفه و هو ينساب بين الأشجار و الأعشاب الطويلة التي تكسي هذا المرتفع . مَيلان المرتفع عن سطح البحر كان يشكل معه ما يشبه زاوية بارتفاع ٤٥ درجة .

استعنا ببعضنا البعض و نزلنا أخيراً إلى الشاطئ . و أخيراً نحن على الشاطئ الذي ينطلق منه الناس باتجاه أوروبا . فرحتنا بوصولنا إلى الشاطئ بدأت تتبخر لعدم وجود القارب الذي يفترض أن ننطلق به .

بدأ الناس يتكلمون كلٌ بحسب لغته لنستمع إلى بعض الكلمات العربية تنطلق من شابين فتوجهنا إليهما و سألناهما من أي البلاد هما فأجابا :" من سورية ، من حلب ". ها نحن نلتقي مجدد بأناس من حلب عازمين على السفر . لعل زيادة عددالمسافرين من حلب مقارنةً باعداد الناس من المحافظات الأخرى يعود إلى كبر حجم حلب و إلى الجوار بين حلب و تركيا .

كان أحد الشابين يتكلم اللغة التركية فتوجه إلى السائق و سأله :" ماذا ننتظر هنا ". فأجابه السائق :" انتظر قليلاً سيأتي القارب بعد قليل ". بدأنا نخشى أن المرحلة الأخيرة لن تتم حتى بدأ يظهر في عرض البحر قارب ينسل عبر الماء بانسيابية و كأن المياه تحمله دون حركة منه . استمر بالمشي بسلاسة حتى وصل إلى مسافة قريبةٍ منا فبدأ يضطرب يمنة و يسرة دون أن نفهم سر هذا الاختلاف في سير القارب فقال الشاب الحلبي الآخر :" يبدو أنهم يدربونه ". لم أفهم من يقصد الشاب بقوله "يدربونه" فسألته :" يدربون من؟ ". فأجاب :" يدربون السائق الذي سيقوم بقيادة المركب بنا . من تظن أنه سيقوم بإيصالنا ؟". شعرت بالصدمة للحظات فالسائق الذي سينطلق بنا سنكون نحن عبارة عن تدريب له و لا ندري هل سينجح بمحاولته الأولى أم سيفشل ، فقلت له :" ما الذي يجبرنا على الركوب في مركب بحاره مبتدأ ".

فقال :" ليس هناك خيار آخر . أنت دفعت ألف دولار حتى تركب ، أما الربان فإنه يقبل بهذه المهمة لإن هناك تبعات أمنية عليها فقد تعتقله الشرطة فيقبع نتيجتها بالسجن ، و لإنه لا يملك النقود التي دفعها كل منا أجرة لهذه الرحلة ، قبل بأن يقود المركب ". وصل المركب إلينا و بقي بعيداً عنا بضعة أمتار داخل الماء فانتظرنا حتى يصل إلينا تماماً فلا نضطر عندها للمشي في الماء إلا أن المركب توقف و نزل منه راكبان و بقي شخص نحيل جعله قصره يبدو شاباً صغيراً جداً. نزل الراكبان و بدأا يرطنان بالتركية و يشيران إلينا بالصعود إلى المركب . سارع الأفارقة للصعود في المركب و اخذوا أماكنهم و حاول أخي محمد أن يستوثق قبل الصعود عن الوجهة التي سنمضي إليها فسأل السائق مستعينا بالشاب الحلبي كمترجم :" إلى أي جزيرة سنذهب ؟". فأجابه الشخص الذي نزل من المركب :" إلى جزيرة ساموس ". بدأ أخي محمد يتردد فساموس حسب معرفته جزيرة عسكرية و

النزول بها قد يتسبب لنا بأخير و بمشاكل نحن بغنىً عنها فاستشار عندها عبدالله عبر الهاتف فكتب له عبدالله:" لا تتوقف . إن كنت وصلت إلى البلم فاصعد إليه أيّاً كانت وجهته ". تردد محمد قليلاً ثم قال لنا :" يقول عبدالله اصعدوا أيّاً كانت الوجهة ".

الرحلة التي طالما ناضلنا للوصول إليها بدأنا نخشى من الانطلاق بها . سلمنا عندها بالأمر و بدأنا بالصعود على عجل ، و لم نكن المترددين الوحيدين فقد وقف الشاب الحلبي المترجم متردداً جداً حتى بدا أنه يهم بالعودة من حيث أتى . انتبه له الرجل التركي فأمره بالصعود إلا أن الشاب الحلبي جمد في مكانه فسارع عندها إليه الرجل التركي و دفعه إلى المركب قائلاً له :" يلا يلا ". و كأنه معتاد على تردد كثير من المسافرين في مثل هذا الموقف ، فالرحلة عبر البحر شيء جديد بالنسبة لنا و يبقى للمحاولة الأولى رهابها الذي لا ينقضي إلا بانقضائها . كان الأفارقة سبقونا لاحتلال المركب المطاطي و الذي كان طوله قرابة ثلاثة أمتار تقريباً أو أو أكثر بقليل و عرضه يتراوح بين متر و متر و نصف أرضه خشبية و محيطه هو المطاط الممتلأ بالهواء . أسند الأفارقة ظهورهم إلى المطاط و دخلنا نحن في منتصفهم فأحاطوا بنا إحاطة السوار بالمعصم . ثلاثون شخصاً نجتمع في مساحة ثلاثة أمتار مربعة أو أكثر بقليل . ضاق المكان علينا فاضطررت لثني ساقي لدرجة اصطكاك ذقني بركبتيّ و لصقت بظهر أخي أحمد حتى كاد يضيق بي ذرعاً . أخيراً سننطلق في الرحلة التي لطالما انتظرناها ، بدأ ربان المركب بالسير بهدوء عبر البحر و بدأنا نشق صفحات البحر رويداً رويداً. ظلام مطبق في السماء و لا شيء خلفنا سوى المنحدر الذي نزلناه منذ قليل و قد بدأنا نبتعد عنه و بدأت رؤيته تصعب علينا ، و أمامنا و على مسافة بعيدة كانت هناك أنوار وسط البحر يجزم المنطلق من تركيا أنها اليونان . سرنا في البلم و بدأت النجوم تأخذ مكانها في السماء . كان البحر هادئاً و السائق يتعامل معه كأنه ربان محترف و لم يكن هناك شيء يعكر صفو هذه الليلة سوى سوط محرك البلم . أخبرنا الرجلُ التركي أننا سنمضي إلى جزيرة ساموس و أعلنّا قبولنا بالأمر الواقع حين صعدنا في المركب أما الأفارقة فلم يكونوا يعرفون عن الوجهة شيئاً . مضى المركب باتجاه الأضواء و التي كانت بادئ الأمر على اتجاه واحد بالنسبة إلينا إلا أنه ومع إيغالنا في الإبحار ازداد عدد الأضواء و ازدادت الجهات التي تقع فيها فبدأنا نشعر بالحيرة و نسأل أنفسنا:" أين هي الوجهة الصحيحة هل هي إلى الأمام ؟ أم أن علينا الإنحراف إلى اليمين إلى الأضواء التي تبدو أقرب ؟". بقينا في حيرةٍ من أمرنا و نتساءل عن الطريق الذي سيختاره البحار المبتدئ . تابع الربان الإبحار إلى وجهته الأولى ثم اعترض أحد الشباب الأفارقة الضخام و قال باللغة الإنجليزية:" اذهب إلى اليمين ". بدأ أخي محمد يناقش الشاب الضخم باللغة الإنجليزية و يخبره بأن الأنسب أن نتابع في وجهتنا التي نسير إليها فقد قطعنا باتجاهها وقتاً طويلاً.

بدأ الشاب الأفريقي يجادل أخي محمد و قال له :" هناك لا يوجد فنادق و يجب أن ننزل جزيرة تحوي فنادق ". فقال له محمد :" يجب أن نضمن الوصول إلى الشاطئ أولاً ثم نبحث بعدها عن الفنادق ".

فتجاهل الشاب الأسمر كلام أخي محمد و وجه كلامه إلى الربان و الذي يبدو قزماً أمام الإفريقي و أمره بالانعطاف نحو اليمين . أطاع السائق أمر الشاب الإفريقي مباشرةً و بدأ بالاتجاه الذي يرغب . كان حجم الشاب السائق يصعّب عليه إدراكَ الطريق بوضوح لوجود أناس ضخام أمامه فبدأ يطلب منهم الإنحناء أو توجيهه حتى يتجنب الأمواج الكبيرة . انعطف مركبنا باتجاه اليمين و بدأ الشاب في مقدمة المركب يرشد السائق القابع في مؤخرة المركب . بدأنا نشعر بأننا لا نزداد إلا بعداً عن اليابسة و الأنوار التي نراها منذ أكثر من ساعتين لا تزال تبعد عنا ذات المسافة التي رأيناها منها أول مرة .

مع دخولنا في الساعة الثالثة من الرحلة بدأنا نشك بأننا نبحر في الاتجاه الصحيح و بدأ القلق يدفع كل واحد منا للإدلاء برأيه . أصر الشاب الإفريقي على مضينا نحو اليمين بحثاً عن الفنادق و بدأ القلق يدفع أصدقاءه للاعتراض على قراره و بدأوا يطلبون من السائق العودة إلى الإتجاه الذي كان يسير نحوه . لم يكن السائق ليرد كلام أحد فحجمه يوحي بأن سنه لم يجاوز الثامنة عشر .

عاد السائق مجدداً و غيّر الاتجاه و بدأ البحر الذي احتملنا مدة ثلاث ساعات يضيق بنا ذرعاً و بدأت أمواجه تضطرب و بدأ ركاب المركب يضطربون مع كل حركة من حركات المركب طلب السائق من الركاب الهدوء و قال :" يا واش يا واش ". لم نفهم معنى الكلمات إلا أننا عرفنا أنه يطلب منا الهدوء و بدأ الركاب يستعملون هذا المصطلح مع السائق كلما رأوه توجه نحو الأمواج أو أسرع بشكل مخيف.

الهدوء الذي ساد طوال ساعات إبحارنا بدء يتحول إلى اضطراب أمواج و بدأ يشتت أفكارنا و لم نعد نعرف أين هي الوجهة الصحيحة هل نتابع إلى الوجهة الجديدة أم نعود إلى الوجهة السابقة .

مضت أربع ساعات و بدأت زخات قليلة من المطر تهطل و بدأت تتشكل قريباً منا دوامة كبيرة . بدأ الرعب يدب في قلوبنا و بدأ كل إنسان يلتجئ إلى ربه يدعوه عسى أن ينجيه و بدأ أحدهم يهتف كلما شعر بالرعب " جيسوس " بدأت أشعر بدوارٍ لم أعد أستطيع بسببه التنفس فبدأت أطلب من الشاب الأسمر الذي يجلس بجانبي أن يفسح لي المجال قليلاً إلا أنه لم يحرك ساكناً ، تدخل محمد و حاول أن يشرح له باللغة الإنجليزية أنني احتاج بعض المساحة لأتنفس إلا أن الرجل رفض أن يجلس على القسم المطاطي فقال محمد :" إنه خائف جداً ليس لك إلا أن تصبر ".

أوشكنا الدخول في الساعة الخامسة و الأضواء التي كنا نراها لا تزال على ذات المسافة منا . اقترح محمد أن يتصل بخفر السواحل اليوناني فنحن لا شك على مقربة منهم فاعترض الركاب أول الأمر ثم و بعد ازدياد شعورنا بالخوف و الخطر سلم الركاب بخيار محمد و طلبوا منه أن ينفذ عرضه . اتصل محمد مباشرةً و بدئ يكلمهم باللغة الإنجليزية ثم أغلق سماعة هاتفه بعد قليل و أخبرنا بما جرى معه

فقال ": إنهم يقولون أنهم لا يستطيعون القدوم الآن و البحث عنا في البحر فهم يحتاجون ساعة للوصول إلينا حسب كلامهم و طلبوا منا إن كنا نملك ضوءاً أبيضاً أن نقوم بإشعاله و إطفاءه باستمرار

حتى يستطيعوا العثور علينا" . بدء الإياس يدب في قلوبنا و بدءنا نشعر بأن الرحلة التي طالما سعينا للانطلاق بها ستحمل لنا نهايتنا.

كلما شارفنا على الموت رفعنا أيدي الدعاء نبتهل إلى لله أن ينجينا من هذه المهلكة . ازداد الخطر و لم يعد هناك بد من البحث عن كل وسيلة للنجاة . أخرج أحدهم قداحته و يبدأ يشعل ضوءها و يطفئه باستمرار إلا أن مدة ساعة قد تنتهي حياتنا . فكر الشابان الحلبيان بحل آخر و قاما بتنفيذه دون تأن و هو الاتصال بخفر السواحل التركي هذه المرة . تكلم الشاب الحلبي مع السلطات باللغة التركية و أخبرهم بأننا نعوم في البحر منذ أكثر من خمس ساعات و قد أوشكنا على الهلاك ثم أغلق سماعة الهاتف .

لم تسمح الضجة الموجودة في القارب بسبب الخوف و اضطراب القارب للآخرين بسماع اتصال الشاب الحلبي ولم يخطر ببالهم إلا أن من يأتي سيأخذنا هو خفر السواحل اليوناني . بعد لحظات بدأ شيء يظهر على مسافة بعيدة منا و يقترب نحونا بسرعة فجزمنا أنهم الخفر اليوناني فبدأنا نوجه الإضاء باتجاههم و نصفر لهم . لم أكن قادراً على معرفة الاتجاهات في وسط هذا البحر إلا أن السفينة الأولى أتت من يمين القارب فمضينا باتجاهها و بعد لحظات ظهرت سفينة أخرى من الجهة المعاكسة فبدأنا نشعر بالحيرة و لا ندري أين نتجه و هل السفينة اليمنى هي اليونانية أم أنها اليسرى ، توجهنا نحو اليمين أولاً ثم عادت الحيرة التي كنا نعانيها في المرة الأولى بسبب اختيار الجهة المضاءة التي نتجه إليها نعاني منها مرة أخرى.

اليمين أم اليسار ما هو الأنسب ؟ . إلا أن السفينة التي كانت على يمينا قطعت حيرتنا بسرعة عندما بدأ قاربنا يضطرب نتيجة اقترابها منا مسافة كبيرة . بعد أن كان البحر خالياً منذ لحظات أصبح الآن يعج بالسفن و بدا وكأننا في ميناء. بدأنا نرى حجمنا صغيراً أمام هذه السفينة الكبيرة . وصلت السفينة و مرت أمامنا و على مقدمتها رجلان و بدأ أحدهم يتكلم باللغة العربية :" أين الوجهة شباب ". أفقدنا الخوف الذي كنا نعانيه تركيزنا و بدأت أظن بعد سماعي للهجة الرجل الديرية أن السفينة تتبع للنظام و بدأ الخوف من الغرق يتبدل إلى خوف من الأسر . أغرقت في الأوهام للحظات ثم تفطنت و قلت في نفسي:" يا لي من أحمق كيف سنصل إلى مناطق النظام و نحن نسير عبر البحر فلا شك أن المسألة تتطلب وقتاً أطول بكثير فيما لو كانت وجهتنا الشواطئ السورية ثم إن النظام الآن يعاني من ضبط الأمن في البر فكيف سيضبطه في البحر ".

بدأت أوهامي تنجلي مع بدأ العلم التركي في مقدمة السفية يتضح مع انبثاق أولى خيوط الفجر .

رمى الجندي الموجود في السفينة سلماً لنا حتى نتسلقه و أوصانا بالروية في الصعود قائلاً:" رويداً رويداً يا شباب لا تُخلوا القارب بسرعة و حاولوا موازنته كلما صعد أحدهم ". حاولنا الالتزام بنصيحة الرجل ما استطعنا و مع ذلك تمايل القارب عدة مرات كدنا أن نسقط خلالها في الماء و ذلك لرغبة كل إنسان أن يكون هو أول من يصعد السلم . صعدت النساء أولاً ثم تبعناهن الواحد تلو الآخر حتى

اعتلينا جميعاً السفينة و طلب منا الجندي التركي المتحدث بالعربية أن نجلس حتى يرى ضابطه التركي ماذا يريد أن يفعل . تدرجت مراحل خوفنا من الغرق أولاً ثم من الأسر لدى النظام و أخيراً الخوف من زيارة السجون التركية و لا نعرف عندها متى ستم إخلاء سبيلنا.
خرج الضابط بعد قليل و معه مترجمه فقال :" من منكم اتصل بنا؟". لم يجبه أحد و استمر الضابط بترديد السؤال و استمرّينا جميعاً بالتجاهل . حاول عندها أن يستجوبنا بشكل منفرد فوجه سؤاله باتجاه أحد الشباب السمر و بدأ يكرر الكلام معه إلا أن ذلك الشاب تجاهل كلام الضابط التركي تماماً و تصرف و كأنه لا أحد يحدثه . علا صراخ الضابط حتى يخرج بنتيجة إلا أن محاولاته باءت بالفشل . كنت أتوقع أن يشعر أخي محمد بالاضطراب نتيجة صراخ الضابط التركي إلا أنه تصرف بهدوء تام حتى أنه قام بانتزاع بطاقة السيم من هاتفه و خبأها في ثنية أسفل بنطاله و لم يلق بالاً لتهديدات الضابط .
شعر الضابط بغضب شديد فانصرف و تركنا لوحدنا . كان أشدنا خوفاً الشاب الذي تولى قيادة البلم فقد يعاقب على ذلك بالسجن و كان يوصينا خلال البلم قائلاً :" لا يدل علي أحد ". مضى تحقيق الضابط على خير دون أن يتضرر أحد و بدأنا ننتظر اللحظة التي سنصل فيها إلى اليابسة مجدداً.

انقشع الظلام أخيراً و بدأت الشمس بالشروق و كان الجو مشوباً بلحظات يتساقط فيها القليل من المطر ثم يتوقف . مشى المركب الجديد بسرعةٍ كبيرة و ثباته خلال البحر يوحي بأننا على الأرض لا على سطح
البحر . توقف المركب أخيراً و أمرنا الضابط بالنزول و المشي خلفه . نفذنا الأوامر و بدأنا نتساءل عن المدينة التي وصلنا إليها بعد إبحارنا لكل هذا الوقت فسألنا المترجم فقال :" أنتم في أزمير ".
صدمة لم نكن نتوقعها سرنا أكثر من خمس ساعات في البحر شارفنا خلالها على الغرق و بعد ذلك نعود إلى نفس المدينة التي انطلقنا منها لا شك أننا كنا ندور حول أنفسنا . طلب منا المترجم أن ننتظر في الخارج و بعد ساعة أو أكثر بقليل بدأ ينادينا الواحد تلو الآخر نقوم خلالها بإعطاء البيانات الشخصية للمترجم الآخر الذي يترجم لأحد الضباط الموجود في إحدى المكاتب التي ننتظر أمامها . الإبحار عبر البلم أمر خطر للغاية يجعل الآخرين أحياناً يتساءلون عن سر اختيار هذه الطريقة . دخل أخي أحمد حتى يعطي بياناته و بعد أن انتهى سأله الضابط :" لماذا تسافر بهذه الطريقة الخطرة ما الذي يجبرك ؟".
فقال :" لا يوجد طريقة أخرى". لم يكتف الضابط بالتساءل و إنما قام بإعطاء أخي أحمد حلاً بديلاً و قال :" لماذا لم تذهب الى مرسين هناك تنطلق سفن كبيرة خير لك من هذه المخاطرة ".
لم يتوقع أخي أحمد أن يأتي هذا العرض من الضابط الذي يريد منعنا من السفر فأجابه :" انتظرنا هناك أكثر من شهرين دون نتيجة ". ضحك الضابط ثم أمره بالانصراف .

أدلينا ببياناتنا الشخصية و بدأنا ننتظر اللحظة التي سيأذن بها لنا الضباط بالمغادرة . مرت ساعة و ساعتان دون أن يقترب منا أحد و بدأنا نغالب النعاس و لم يكن هناك مكان متوفر للنوم فنحن على الشاطئ و معظم الأماكن مبتلة و ما أن تجد مكاناً جافا تجلس فيه حتى تبلله قطرات المطر التي تتساقط بين حين و آخر. أصابنا إرهاق شديد حتى أن أخي محمد بدأت عيناه تنفتحان بصعوبة و بدأ يحاول إيجاد مكان ينام فيه فاستند إلى أحد الأعمدة و حاول النوم قليلاً. وصلنا في الساعة السادسة و كنا نعتقد أننا ننتظر السيارة التي ستقلنا إلى مكان آخر إلا أنه في الساعة الثانية خرج إلينا المترجم و قال :" امضوا في طريقكم ". فمضينا مسرعين نبحث عن أول سيارة تعيدنا إلى المنطقة التي انطلقنا منها . بعد الرعب الذي أصابنا خلال الرحلة قرر صديقنا أحمد أنه لن يركب البلم مجدداً حتى و لو كان بالمجان و قال :" أمي تقول لي
دائماً: ليس المهم النقود المهم أن تصل بأمانٍ و سلام إلى وجهتك ". رغم أن فرق التكلفة كان كبيراً إلا أن محمد بدأ يميل مع رأي أحمد فقررنا عندها الطلب من أبي عمار أن يرسلنا بالمركب السريع و الذي لن تستغرق رحلته أكثر من ربع ساعة. كنا نتداول هذه الأفكار خلال عودتنا إلى منطقتنا التي انطلقنا منها . اتصل محمد بأبي عمار و أخبره بما جرى معنا خلال الرحلة فطلب منا أبو عمار لقاءه و حدد لنا مطعماً نلتقب به. التقينا أبا عمار و هنأنا بالسلامة و بدأ يسألنا عن سبب تغير رغبتنا في طريقة السفر فأخبرناه أن ذلك نتيجة الخطر الذي تعرضنا له فقال :" لا مشكلة و لكن رغم أن القارب السريع يصل إلى هدفه بسرعة إلا أن حركةً بسيطة في البحر قد تقلبه لذلك عليكم الإنتظار طويلاً و أنا أنصحكم بعدم الإنتظار فهناك رحلة ستنطلق اليوم بالبلم أيضاً فرافقوها ". بدا أحمد مصرّاً على ركوب القارب السريع و بدا أبو عمار أكثر إصراراً على أن البلم أنسب لوضعنا . تحطم إصرار أحمد أمام إصرار أبي عمار و وافقنا على الانطلاق برحلة ثانية الليلة. لم تكن المشكلة بالنسبة إلي أنني سأركب البلم مجدداً و إنما كانت مشكلتي أنه في حال تعاقدنا مع أبي عمار فسنضطر عندها للالتقاء بسراج مجدداً و هذا ما لم أكن أتخيله لكن لم يكن باليد حيلة . عدنا مجدداً إلى أبي عمار و مضينا معه الى البيت الذي نزلنا فيه في المرة السابقة. مضيت بسرعة باحثاً عن الفراش حتى أنام و تمنيت أن يكون المهرب كاذباً هذه المرة فلم أكن قادراً على فتح عيناي . حاولت أن أنام بسرعة إلا أن الخوف من انطلاق الرحلة الآن أربكني . لم تجاوز الساعة التاسعة حتى اتصل أبو عمار ليخبرنا أن الرحلة التغت هذا اليوم . حمدت الله على هذه النعمة و نمت مستغرقاً حتى صباح اليوم التالي . مع مساء اليوم التالي بدأنا نعد أنفسنا لرحلة جديدة و على ذات الخطوات التي سرناها أول مرة بدأنا نسير في المحاولة الثانية حتى وصلنا أخيراً إلى الحافلة . انطلقت الحافلة مجدداً و لم يكن ضمن الركاب هذه المرة أحد من إفريقيا و بدأت اعتقد أن جلهم إن لم يكونوا كلهم سوريين فهم من العرب. توقفت الحافلة على منحدرٍ كسابقه إلا أنه هذه المرة قليل الأشجار و ارتفاعه أقل نزلنا جميعاً و جلسنا على مقربة من الشاطئ و طلب منا السائق الانتظار . بدأت أستمع لأحاديث المسافرين فتبين أن غالبيتهم من أكراد سورية و بعضهم من العراق إضافة للشابين الحلبيين اللذين التقينا بهما أول مرة .

جلسنا و بدأنا ننتظر دون أن نعرف ماذا ننتظر و بعد قليل التقينا بأناس جدد لنتفاجأ بالشخص العراقي الذي كان يعمل في الجيش سابقاً قد جاء لينطلق في هذه الرحلة مع أنه أخبرنا أنه سينطلق في القارب السريع فسألناه عن سر قدومه فقال :" لم أعد استطيع الانتظار و أخبرني المهرب أن هناك رحلة ستنطلق اليوم فأصررت على مرافقتها ". رغم أن الرجل دفع ألفاً و ثمانمائة دولار إلا أنه سيسافر بالبلم ،

جيدٌ أننا لم نتورط و نتعاقد مع المركب السريع لندفع ثمناً أكبر و نمضي بعدها في ذات الطريقة .

وصلنا إلى الشاطئ قرابة منتصف الليل و بدأنا ننتظر دون أن يحدث شيئاً.

طال انتظارنا فبدأت أبحث عن مكان استلقي فيه ريثما يحين موعد انطلاق الرحلة أو موعد إلغائها .في الثالثة تقريباً شاهدت أناساً ينزلون من المرتفع الصخري و معهم شيء يتشاركون في حمله على الأكتاف صاح أحدهم :" وصل القارب ". و فعلاً كان الشيء المحمول هو البلم . قام الشباب الذي يحملون البلم بوضعه قرب الشاطئ و بدؤا بنفخه ، سارعنا جميعاً و التففنا حول وسيلة النقل التي ستقلنا اليوم . وقف أحدهم أمام المركب و بدأ يتحدث بلهجة عربية ضعيفة و قال :" شباب أنا سأقود بكم المركب ، إذا تعرض لنا الخفر اليوناني فالرجاء منكم ألا يقوم أحد بخرق البلم . فأنا معي أولاد و زوجتي حامل ، إذا أعادونا سنحاول مرة أخرى لا مشكلة لكن الرجاء عدم خرق المركب ".

خرق المركب عمل يقوم به المسافرون في حال طلبت منهم السلطات اليونانية العودة من حيث أتوا فيضع المسافرون الخفر عندها تحت الأمر الواقع فيقوم الخفر بإنقاذهم و إيصالهم إلى إحدى الجزر اليونانية .لم نكن لنفكر بتلك المسألة طبعاً فأنا لا أعرف كيف أسبح أصلاً فما الذي يجبرنا على هذه المخاطرة . أعلن الجميع موافقتهم لكلمات الرجال و أطلقوا عبارات التأييد و أحب أحدهم أن يعرف موضع هذا المتكلم فسأله :" حضرتك من سيقود بنا البلم ؟". فقال :" نعم أنا و لا تخافوا هذه ليست أول مرة بالنسبة لي و الآن اسمحوا للنساء بالركوب أولاً لو سمحتم ثم ليأخذ كل منكم مكانه ."

جلسنا في البلم جميعاً و كان عددنا مقارباً للمرة الماضية إلا أن الفئات العمرية تنوعت هذه المرة ما بين أطفالٍ و شباب و مسنين . جلسنا جميعاً و جلس سائق البلم في مكانه في الخلف و بدأ يمشي عبر البحر و ينساب بين أمواجه بسهولة و يسر و بدأ يعامل الأمواج كأنه بحار محترف . بدأنا نبتدأ عن الأضواء التي خلفنا و فجأة برزت خلال الأضواء سفينة فبدأ البحار يبتعد عنها بسهولة و مضى في طريقه حتى ابتعدنا عن الأضوية التي كانت خلفنا و كان هناك بعض الأضواء في البحر كأنها علامات للسفن تجاوزناها و غدا كل شيء وراءنا و بدا بأننا نمضي هذه المرة في الاتجاه الصحيح .

انطلقنا في قرابة الساعة الثالثة فجراً و المدة التي نحتاجها حسب كلام البحار هي ساعتان و نصف أو ربما ثلاث ساعات . بعد دخولنا في الساعة الثانية للرحلة بدأت تبرز أمامنا قطع صخرية كبيرة جداً ظنناها جبالاً أول الأمر ثم قال لنا السائق :" انتبهوا ربما تكون هذه صخور سأمشي الآن على مهل و عليكم أن تنتبهوا لما يعترضنا في الطريق من عقبات فقد تصطدم إحدى الصخور التي في البحر

بقاربنا . حاول أحدهم أن يكون في مقدمة المركب و أن يرشد السائق إلى الطريق الصحيح . كاد النظر يخدعنا أكثر من مرة و مررنا بجانب عدة صخور ظنناها جزراً في البداية ثم تبين أنها مجرد صخور . تمكن السائق أخيراً من إيجاد المكان المناسب الذي يستطيع من خلاله الوصول إلى الجزيرة القريبة منا و مشى باتجاهها ببطئ إلى أن توقف البلم تلقائياً عن الحركة ثم صاح السائق :" تهانينا يا شباب لقد وصلنا ". و أخيراً ها نحن في أوروبا .

لم يستطع القارب الوصول إلى اليابسة تماماً فنزلنا في الماء و الذي بلغ إلى مستوى الخصر فمشينا على عجل باتجاه اليابسة . الأمر الذي قمنا به أولاً هو إتلاف البلم و تفريغه من الهواء و لم يكتف أحدهم بذلك بل قام بإحراق محركه حتى يضمن عدم العودة . بدأنا نصعد عبر الصخور المفترقة حتى وصلنا أعلى المكان و نظرنا باتجاه الأسفل و إذا فيه بعض البيوت الصغيرة و البحر المحيط بها يشكل ما يشبه البحيرة الخاصة . انتظرنا قليلاً ثم اقترح أحدهم أن نتصل بالخفر اليوناني فلن يقوموا بإعادتنا الآن . اتصل كل من يملك هاتفاً بالخفر اليوناني و أخبرهم أننا وصلنا و لكننا لم نعرف كيف نحدد لهم مكاننا فطلبوا منا الانتظار في مكاننا ريثما يأتون . لم نكن لننتظر الخفر اليوناني فقد جربناهم في المرة السابقة و ربما لا يعرفون كيف سيصلون إلينا . بحثنا عن مكان آخر نذهب إليه فوجدنا كنيسة عرفناها عبر جرسها البارز فمضينا باتجاهها و عند وصولنا إلى هناك وجدنا أحد الشرطة فلم يزد على ان ابتعد عن طريقنا . دخلنا جميعاً الكنيسة و بدأنا ننتظر و بعد قرابة ساعة وصلت سيارة فنزل منها أناس طلبوا منا مرافقتهم . صعدنا في السيارة على عجل و التي كانت أشبه بسيارة السجن فقد كان هناك انفصال تام بين السائق و الركاب. مشت السيارة لبعض الوقت ثم توقفت و فُتح الباب و طلب منا الرجل الذي فتح الباب النزول .

نزلنا و بدأنا ننتظر ثم بدأنا ندخل إلى المكان الذي يشبه قسم التحقيق يقوم الرجل الذي فيه بالتقاط صور شخصية لنا ثم يأمرنا بالإنتظار في الخارج .

انتظرنا بعض الوقت ثم جاءت سيارة أخرى صعدنا فيها و أقلّتنا باتجاه الكامب الذي لا نعرف كم سنقضي فيه من الوقت . وصلنا إلى الكامب أخيراً و الذي لم يكن خالياً و إنما زاده وجودنا ازدحاماً . في الوقت الذي وصلنا فيه كان يتم توزيع الغداء و الذي هو عبارة عن قطعة خبز مع صحن حساء . أخذ كل منا وجبة غداءه إلا أنه كان جديداً علينا فتركناه قليلاً عسى أن نستغني عنه بشيء نعرفه . لم يكن هناك مكان لنا فكان علينا أن ننتظر جميعاً في الغرفة الأخيرة من الكامب . انتظرنا حتى حل المغرب ثم أتانا أحد الجنود مرتدياً بدلاة زرقاء و بدأ يأخذ كل أربع أو خمسة أشخاص معه و يودعهم عندها في إحدى الغرف توزعنا جميعاً على الغرف و بدأنا ننتظر ماذا يمكن أن يسفر عنه يوم الغد .

الكامب عبارة عن غرف بجانب بعضها تمتد على خط طولي ينتهي بالبحر و هناك خط مرتفع و أخر منخفض و أثاث الغرفة عبارة عن مجموعة من الأسرة الحديدية كل سريران فوق بعضهما بالإضافة إلى حمام داخلها. أخذنا نحن الستة غرفة واحدة مجموعتنا بالإضافة إلى الشابين الحلبيين و اللذان بدا أنهما سيرافقانا في بقية الرحلة .

و صلنا يوم الجمعة و في اليوم التالي و منذ الصباح مضينا باتجاه مركز الإدارة حتى نعرف ما الذي يجب علينا فعله . التقينا ببعض الشباب العراقيين الذين سبقونا إلى هذا المكان فسألناهم عن كيفية سير العمل فأرشدونا إلى المكان الذي يجب أن ننتظر به . بدا أننا مستعجلون جداً مقارنة بمن سبقنا فالشباب العراقيون موجودن هنا منذ خمسة عشر يوماً. لم نكن نعرف إن كنا سننتظر مثلهم أم أنه يمكن أن نخرج قبل ذلك. بعد أن قاربت الساعة العاشرة بدأ الشرطي ينادي بالإسماء و يدخل الواحد تلو الآخر إليه و يقوم بوضع بصمته الإلكترونية بالأنامل العشرة ثم ينصرف بعدها إلى سريره بانتظار ما سيجد في وقت لاحق . الوجبة التي رفضنا أكلها أول الأمر ألجأنا الجوع إليها في النهاية . و في اليوم التالي قام القائمون على المركز بتوزيع وجبة الغداء و التي كانت قطعة لحم مع الأرز .

لم نجترأ على أكلها فنحن لا نعرف إن كان ذبحُ حلالٍ أم لا فاكتفينا بأكل الخبز و بالوجبات التي لا تحتوي اللحوم و كان القائمون على المركز يسألونا إن كنا نرغب بشراء شيء فيقومون هم بشرائه لنا بعد أن ندفع الثمن و لكن هذا الشيء كان متوفراً لمرة واحدة في اليوم .

الفترة التي استغرقتها الأحداث السورية كانت طويلة للغاية و الأشخاص الذين كانوا في بداية الثورة موجودين أغلبهم ماتوا أو قتلوا . كنت أنام باكراً فلم يكن هناك شيء يستدعي السهر و قد وصلنا إلى وجهتنا إلا أن باقي الشباب كانوا يستمرون في السهر إلى وقت متأخر ففاتني عندها الكثير من الحديث و بعد فترة قال لي أخي أحمد :" إن محمود الشاب الحلبي الذي يعرف التركية كان يعمل مع المخابرات السورية و كان في من دخل الجامع العمري في بداية الأحداث ".

لم أتخيل أن يتقلب الدهر هكذا حتى يمسي أحد عناصر المخابرات سابقاً شريكا لنا في السكن . شكرت ربي أنه لم يخبرني بذلك إلا بعد أن افترقنا عنه .

الأزمة التي جعلت السوريين يتوحدون في بدايتها عند انطلاق المظاهرات في بداية الثورة لم تكن المرحلة الأخيرة لوحدتهم فها هم يتوحدون على طريق صعب آخر و هو طريق اللجوء .

لم ألتق أكراداً إلا عندما كنت في الجامعة التقيت بشاب كردي و لم ألتق بعدها غيرها و لم أكن أعرف أن عددهم في سورية كبير إلى هذه الدرجة . غالبية المسافرين الذين صحبناهم في المركب كانوا أكراداً و لم تكن لدينا مشكلة في ذلك فبدأنا نتحادث مع الموجودين و من ضمنهم كان هناك رجل مسن قد ابيّض شعره و تساقط شعره الأمامي و معه امرأة ليست بالشابة و ليست بالعجوز ترتدي بنطالاً و شعرها مكشوف و بدأ صديقنا أحمد يحدثه فاسترسلا في الحديث فبدأ الرجل الأصلع و اسمه أبو يوسف يحدثه أنه تعرض لظلم في سورية من بعض الأشخاص فقال :" أنا رجل معروف بالأمانة و الحمد لله إلا أن بعض الناس ادعى أني سرقت نقوده و لم يكتف بذلك بل قام بنشر صورنا على مواقع التواصل". لم نعرف إن كان أبو يوسف صادقاً في الكلامه أم أنه ليس كذلك و على كلٍ هذا أمر لا يعنينا فلسنا بحاجة لمحاكمته . قال أبو يوسف :" وضعت بعض النقود عند قريب لي و طلبت منه أن لا يعطيها لأحد حتى يقول له كلمة السر".

لم يثر اهتمامَنا براءةُ أبي يوسف أو عدمها و إنما انشغلنا في التفكير في كلمة السر التي سيختارها رجل كردي يضع النقود عند أحدهم ترى هل هي كردستان ؟ . سارع أحمد بسؤاله و قال :" و ما هي كلمة السر؟". فأجابه أبو يوسف :" كردستان ". فانفجر أحمد ضاحكاً و قال :" مذ أخبرتني أنك وضعت كلمة السر لم يخطر في ذهني غيرها ". فقال أبو يوسف :" لا لا صدقني إذا لم تكن عنصرياً فلن أكون عنصرياً معك أما إذا كنت عنصرياً فسأعاملك بالمثل " . لم يكن أبو يوسف الكرديَّ الوحيد الموجود في الكامب و إنما كنا نحن العرب أقلية و كان الباقون أكراداً .

مع حلول اليوم الثالث بدأ الموجودون يشعرون بالملل فجاء سائق المركب إلى شاب عراقي كردي يتقن اللغة الإنجليزية فقال له :" احمد ! قل لهم أن زوجتي بحاجة الخروج و أنها ربما تلد اليوم ". كانت زوجة

السائق على وشك الولادة فعلاً إلا أن ذلك ليس هو الدافع لطلب السائق و إنما لأنه بدأ يرغب بالخروج . نفذ الشاب العراقي طلب الرجل و قال للشرطي ما أملاه عليه الرجل فرد الشرطي الحارس للكامب :" صديقي إذا كانت زوجتك تشعر بآلام الولادة فسنأتي بالسيارة بعد قليلة لتأخذها إلى المشفى ثم تعود إلى هنا بعد أن تطمئن على وضعها ". لم يكن سائق المركب يهدف إلى إرسال زوجته إلى المشفى ثم إعادتها إلى هنا فلم تكن زوجته تعاني من ألم أصلاً و إنما كان يرغب في إخراجنا جميعاً من هذا المكان .

لم يكن سائق المركب استثناءاً فقد كان كردياً أيضاً و لم تستثن الأحداث في سورية أحداً فكل قد نال جزءاً من المعاناة حتى الأكراد الذين تداخلت آمالهم بإيجاد الدولة الكردية مع قيام الثورة السورية حتى أصبحت منطقة الشمال مليئة بالفصائل المختلفة التوجهات و من بين الفصائل كانت وحدات حماية الشعب الكردي و التي تهدف لإيجاد الدولة الكردية و لم يسلم منها حتى الأكراد أنفسهم أخبرني سائق البلم و هو شاب كردي أن حزب البي كي كي احتجزه و كادوا يرغمونه على القتال معهم إلا أنه فضل الانزواء بعائلته و السفر معهم بعيدا نحو أوروبا و لم تكن رحلة السائق هي الأولى حسب كلامه بل كان يقود المراكب قبل ذلك في أيام السلم وهو ما أكسبه الخبرة التي أوصلتنا إلى هذا المكان .

مضى يوما السبت و الأحد باكتفاء القائمين على المركز بأخذ بصماتنا الإلكترونية و في يوم الإثنين جاءت مندوبة من الأمم المتحدة و بدأت تسألنا عما نحتاجه و بدأت تشرح لنا وضعنا كلاجئين إن كنا نرغب بحق اللجوء هنا وما لنا و ما علينا ، و اهتمام القادمين كان منصباً على لحظة انصرافنا من المكان لكنها لم تشف غليلنا بإجابتها .

كان عددنا في البلم ثلاثين شخصاً و هو عدد استعظمناه أول مرة ثم وجدناها في المرة الثانية مقبولاً و لم نكن الرحلة الأخيرة التي تصل إلى اليونان . تجولنا يوم الإثنين صباحاً قبل قدوم مندوبة الأمم المتحدة ووجدت أحدهم قد ابتل شعره و لف نفسه بغطاء يستدفئ به و هو يرتجف و يحاول انتظار أشعة الشمس عسى أن تخفف من برده شيئاً سألته :" يبدو أنك قادم جديد ؟". فقال و هو يرتجف :" نعم ". سألته عن سر حالته المزرية و عن ظروف رحلته فقال ": خرجنا في البلم خمسين شخصاً و

عندما رأى أحدهم سفينة خفر السواحل قام بخرق البلم و بدأنا نغرق حتى أنقذنا خفر السواحل و فقدنا أمتعتنا التي غرقت في البحر ."

كان عدد الثلاثين في مساحة البلم الصغيرة كبيراً بالنسبة إلي أولاً أما الآن فهو رقم مقبول جداً .

مضى الوقت و وصل يوم الثلاثاء فنادانا القائمون على المركز عبر المذياع فسارعنا بتلبية النداء فقاموا بإعطاءنا الخارطيات و التي هي كالبطاقات الشخصية للاجئين الواصلين إلى هنا فأخذناها و مضينا بعد أن فتح لنا الباب فخرجنا من الباب المشبك و كأننا نخرج من السجن.

من عاصمَة الإغريق أثينا إلى مقدونيا

أخيراً فتُح باب الكامب لنا و سنمضي الآن مسرعين مختارين أقصر الطريق للوصول إلى أرض الأمل " ألمانيا" . حططنا رحالنا على شواطئ جزيرة كيوس اليونانية يوم الجمعة ٢٠١٥/٢/٢٧ و أطلق القائمون على الكامب سراحنا يوم الثلاثاء ٢٠١٥/٣/٣ .

الشيء الذي كان يدفعنا على التعاقد مع المهربين خلال وجودنا في تركيا هو استحالة قطع البحر منفردين و إن كان بعضنا فكر في ذلك. فقد فكر جلال بعد أن يأس من انطلاق السفينة بشراء جرافة بحرية تقوده هو و من يسافر معه للوصول إلى الشواطئ الإيطالية إلا أن الأمر بدا خطيراً و مكلفاً فقد يضطر حسب تقديراته للبقاء خمسين ساعة في البحر هذا في حال اختار الطريق الصحيح الذي يوصله إلى وجهته و ربما يتعرض لما تعرضنا له من التوهان في البحر فيغرق دون أن يعلم به أحد فانصرف عن الفكرة .

فارقنا أبو مصطفى و جلال في أزمير و عندما سألنا أبا عمار عنهما أخبرنا أن أبا مصطفى سافر إلى عائلته و لكن بعد أن وصلنا إلى اليونان و خرجنا من الكامب اكتشفنا أنهما قد ذهبا إلى مدينة فتحية حتى يسافرا من هناك بواسطة القارب السريع . بدأنا نتجول خلال الجزيرة و التي كانت صغيرة للغاية حتى بدأنا نشك أن ساكنيها هم فقط القائمون على الكامب . خرجنا في الصباح و مضينا إلى مكاتب السفر التي تسير الرحلات البحرية إلى أثينا عبر البحر . قطعنا التذاكر و بدأنا ننتظر قدوم السفينة و التي ستسافر ليلاً في الثامنة و النصف .

الأنوار المتوزعة على أرجاء الجزيرة و البحر المحيط بها أعطيا الجزيرة منظراً فائقاً عند الغروب يصعب على الوصف الإحاطة به . مضى الوقت و جاءت السفينة أخيراً.

حدثني صديقي مرة أن معنى التايتنك هو " تحدي الخالق " و لا أعرف إن كان مصيباً في الترجمة أم لا إلا أن السفينة القادمة كانت ربما تفوق سفينة " التايتنك" حجماً . بدأ كل شيء يدخل في قلب هذه السفينة العملاقة من شاحنات ضخمة و سيارات و دراجات نارية و هي تتابع ابتلاع الأشياء حتى ظننت أنها لم تبق شيئاً على ظهر الجزيرة . دخلنا السفينة و بدأنا نتجول في طوابقها التي أعيانا التعب و نحن ننتقل من طابق إلى آخر.

السفينة مقسمةإلى طوابق و الطوابق إلى فئات . الطابق الأول للشاحنات و الأمتعة و باقي الطوابق للناس إلا أنها تختلف حسب قدراتهم المالية فبعضها مرفّه جداً مخصص للدرجة الأولى و بعضها له خدمات محدودة و البعض الآخر و الذين هم نحن لم يكن لنا فئة معينة و إنما أخذنا بطاقة ركوب فقط تسمح لنا بدخول السفينة . ٤٥ يورو دفعها كل شخص مقابل الإنتقال من جزيرة كيوس إلى أثينا .

كان من ضمن القادمين إلى الكامب قبل أن نخرج عدة شباب من سورية من حمص . التقينا بهم و نحن نتجول في السفينة فأخبرونا بأنهم قد استأجروا غرفة يقضون بها ليلتهم . لم نقدّر قيمة الغرفة إلا عندما بدأنا نصاب بالنعاس و لا نجد مكاناً دافئا ننام به . السفينة مليئة بالكراسي إلا أن النوم عليها متعب جداً حاولت أن أنام قليلاً فلم أستطع فخرجت حتى أرى البحر فوجدت الظلام قد أحاط بالسفينة من كل اتجاه و لم تبق إنارة إلا السفينة التي نركبها تتوهج و كأنها لؤلؤة وسط الظلام و يشكل سيرها السريع نسمة باردة تلفحك عند خروجك من الباب الذي يفصل داخل السفينة عن خارجها . نحن الآن على متن جزيرة تسبح عبر البحر و المسافة العالية التي تفصلنا عن البحر توحي بأن السقوط من هذا المكان كاف للقضاء على حياة الشخص .

حاولنا أن نتوضئ للصلاة إلا أن الشخص الذي ينظف الحمامات منعنا من ذلك و لم نعرف ماذا نفعل حتى تذكرنا الشباب القادمين من حمص فتوضأنا عندهم . مضى الليل بسرعة و خرجنا مع قرابة الساعة السادسة من قلب السفينة العملاقة و التي بدأت تلفظ كل شيء دخلها عند وصولها إلى أثينا .

و أخيراً نحن ندخل أولى العواصم الأوروبية . لا مناظر ملفتة عند وصولنا إلى أثينا ، لا مشاهد طبيعية خلابة كما في تركيا أو في جزيرة كيوس ، و لا شيء من بقايا الحضارة اليونانية من تماثيل أو غيرها من الآثار .

بدت أثينا عاصمة الحضارة اليونانية و موطن الفلاسفة أرسطو و أفلاطون و غيرهم كمدينة من مدن الشرق المتخلفة .

الطريق الآن بأيدينا و علينا أن نواصل الطريق حتى نستطيع الوصول في أقصر وقت . مضينا إلى الساحة المركزية في اليونان و هي ساحة أمونيا و ذلك بهدف قضاء بقية اليوم هنا في إحدى الفنادق ثم نتابع في طريقنا . نزلنا في ساحة أمونيا و بدأنا نبحث عن فندق يستقبلنا . كثيراً ما كنا نرى مشكلة تعميم خطأ بعض الناس على كامل المجتمع الذي يعيشونه و كنا نظن انحصار تلك المشكلة في بلاد الشرق إلا أنها كانت موجودة هنا في الغرب أيضاً. دخلنا أحد الفنادق فتكلم معه محمد بالإنجليزية و كان مجيداً لها يتحدثها بطلاقة و بعد أن كلم الرجل عاد إلينا قال :" رفض أن يؤجرنا لإننا سوريون ". يبدو أن السوريين الذين سبقونا إلى هذه الفنادق أعطوا انطباعا سيئاً لأصحابها حملهم ذلك الانطباع على عدم تأجير السوريين مطلقاً. بحثنا حتى وجدنا أخيراً فندقاً قبل باسقبالنا فدخلناه على عجل و قمنا بتنظيف أنفسنا و سارعنا للنوم استعداداً للعمل الذي سنقوم به هذه الليلة . و بعد أن استيقظنا بدأنا نقوم بتهذيب أشكالنا و التي كانت مزرية لدرجة كبيرة . حلاقة ثم ملابس جديدة ثم قمنا بعمل كل ما يمكن لإثبات أننا لسنا لاجئين نسعى إلى تسلل الحدود .

المرحلة الأولى بعد أثينا هي الإتجاه إلى المدينة المجاورة للحدود المقدونية و هي " سالونيك " قطعنا تذاكر القطار باتجاه سالونيك و بدأنا ننتظر موعد القطار . ظننا أننا بعد هذا التعديل لأشكالنا لن يفطن لنا أحد إلا أن ظننا حطمه أحد السوريين و الذي كان يمشي أمام أمام المقطورات فرآنا و نحن على وشك الدخول إلى المقطورة فنادانا قائلاً:" الشباب سوريون ؟". فشعرنا عندها أن كل جهودنا في

تغيير أشكالنا ذهبت سدى . أخذنا أماكننا في القطار و الذي يفترض أن ينطلق في منتصف الليل . و بالفعل انطلق القطار في منتصف الليل و سار حتى وصلنا إلى وجهتنا قرابة الساعة السادسة. لم يكن الظلام قد انقشع بعد و علينا أن نتزود ببعض الأشياء التي تساعدنا على قطع الطريق و أهمها بطارية شحن للجوال و الذي سيعمل كمرشد لنا في المرحلة التالية.

أشرقت الشمس و بدأت الحياة تدب سريعاً في مدينة سالونيك و التي بدت تفوق العاصمة أثينا جمالاً و تطوراً. تزودنا بما نحتاجه ثم مضينا إلى محطة الإنطلاق و قطعنا التذاكر باتجاه النقطة الأخيرة في اليونان و هي منطقة إفزوني و التي تلاصق مقدونيا. لم نتوقف عن التقاء السوريين طوال فترة الرحلة . الشخص الأخير الذي التقيته كان جالساً في محطة الانطلاق و أردت أن أسأل عن مكان الحمامات فسألت أحدهم باللغة الإنجليزية فأجاب :" أنت سوري ؟". لا أعرف كيف كان الآخرون قادرين على اكتشاف أني سوري بهذه السهولة، مضيت حيث أرشدني الرجل ثم عدت لأجد أن أصدقائي قد وجدوا سورياً آخر و كان لِحَظنا يعمل في التهريب أيضاً. بدأ الرجل يبين لنا المخاطر التي قد نتعرض لها في حال بقائنا في المحطة فقال :" إذا أتت الشرطة إلى هنا فسيقومون بترحيلكم من هذه المنطقة مباشرة ".

سألناه عن السبب في ذلك فقال :" لإن هذه المنطقة حدودية و أنتم ممنوعون من الاقتراب هنا و لو لم أكن مضطراً إلى القدوم إلى هنا لما أتيت و لذلك سأمضي على عجل و أعود إلى إفزوني ".

حان موعد الرحلة فانطلقنا بها و لم تكن تبعد كثيراً عن محطة الانطلاق ، ساعة فقط كانت كافية حتى نصل إلى آخر مراحل اليونان وبعد ذلك يتوجب علينا المشي باتجاه فندق " حارة " آخر مكان مسكون بين اليونان و مقدونيا . نزلنا من الحافلة و مشينا مسافة ربع ساعة لنصل أخيراً إلى " فندق حارة ". وصلنا عصراً و كان الشاب الذي التقيناه في محطة الانطلاق يعمل في تهريب الأشخاص فأخبرنا أنه على استعداد لإيصالنا إلى داخل الحدود المقدونية ثم علينا متابعة الطريق منفردين بعدها و ذلك مقابل مائة و عشرون يورو ، وافقنا على عرضه ، و بمجرد وصولنا إلى فندق الحارة بدأنا بخطوتنا الثانية و هي الدخول إلى مقدونيا . تبعنا المهربَ و بدأنا نمشي بين السهول و الهضاب و بدأ المطر بالهطول بزخاتٍ قليلة ليحول المناطق الترابية التي نمشي فيها إلى مناطق طينية يصعب المشي خلالها .

قال لنا المهرب اللاذقاني بلهجته الساحلية :" سنضطر إلى الإسراع مسافة مئتي متر لإنها منطوقة مكشوفة و إذا رأتنا الشرطة اليونانية فسنخسر الكثير من الوقت و نتعرض لمشاكل نحن بغنىً عنها ".

مشينا حسب تعليمات المهرب و عندما حان موعد الركض انطلقنا بأقصى سرعة لنا و كان علينا عندها المشي عبر جسر تحته طريق ترابي ثم قمنا في آخر الجسر بالنزول منه عبر التراب الذي يتجمع في الجهة الأخرى من الجسر . شرح لنا المهرب ما هي الأخطار التي يمكن أن نتعرض لها فقال :" هناك قطّاع طرق أفغان علينا أن نكون حذرين و أن نبتعد عنهم قدر الإمكان ".

مشينا طوال الطريق حسب تعليمات المهرب و بعد نزولنا من حافة الجسر كان علينا المشي عبر السهول أيضاً و بدأت تظهر أمامنا بعض البيوت المنفردة . مع غروب الشمس كنا قد وصلنا الى الحدود المقدونية أخيراً ودعنا المهرب و قال لنا عندها :" ها قد وصلتم يا شباب الآن عليكم متابعة الطريق بمفردكم . في حال فشلتم في الدخول فأنا مستعد لمساعدتكم مرة أخرى". انصرف المهرب بعد أن تركنا بين الأمل و اليأس و بدأنا ننتظر حلول الظلام حتى ندخل قرية جفجيلية و وجدنا كوخا قريباً فبقينا خلفه مبتعدين عمن يمر من الطريق الزراعي .

لا تتوقف قوافل المهاجرين و بين لحظة و أخرى يصل أناس جدد يسيرون في ذات طريقنا . بدأ صوت خطوات كثيرة يقترب منا وبدأنا نرقبها خلسة حتى سمعنا صوت ألسنة عربية تتكلم فعرفنا أنهم سوريون يسيرون في ذات طريقنا . اختبأ القادمون الجدد بجانبنا بانتظار حلول الظلام للدخول إلى القرية . آخر مرحلة للدخول إلى اليونان كانت هي تجاوز الجسر الذي يبعد عنا بعض الأمتار و الذي يمر تحته نهر صغير . كان بادياً على القائمين الجدد أنهم يسيرون تحت قيادة شاب منهم يحاول تنظيمهم ما استطاع و هم لا يجدون مانعاً في اتباع أوامره أخبرونا بأنهم سيدخلون جفجيلية و سيتابعون السير حتى يدخلوا إلى القرية الثالثة من القرى المقدونية و التي لا يعرفون اسمها .

حل الظلام و حان وقت الإنطلاق للدخول إلى مقدونيا. زمن قصير فصل بين اللحظة انطلقنا فيها و اللحظة التي ركضنا فيها على الجسر . استمرينا بالركض بسرعة و أوغلنا في الحدود ما استطعنا .

لم نكن نعرف ما هي الخطوة التالية بالنسبة لنا سوى أنه علينا الوصول إلى آخر مدينة حدودية في مقدونيا تفصلها عن صربيا وهي "كومونوفو" . قضى صديقنا عبدالله الذي وصل إلى ألمانيا قرابة شهرين في سجن مقدونيا و ذلك أن السلطات المقدونية قبضت عليه و هو يجتاز الحدود فأوصانا بالمشي حتى الوصول إلى القطار أو بأن نكون حذرين جداً في حال ركوبنا مع التاكسي .

جاوزنا الجسر بسرعة و ركضنا على سكة قطار أيضاً لم نكن مدركين لوجودها . بدأنا نمر قرب البيوت و لا شيء يوحي بالحياة بها سوى أضواء خافتة تنير بعضها و بعضها الآخر مظلم تماماً. حاولنا اجتناب أي شخص يلقانا حتى لا نتورط مع الشرطة حتى أوقفنا في النهاية شخصان و بدءا يحدثانا باللغة الإنجليزية ":أين تتوجهون؟ ."تولى أخي محمد الكلام معهم و أخبرهم بأننا منضي باتجاه العاصمة "سكوبي "

وبعد ذلك إلى كومونوفو فقالا له ": نحن على استعداد على إيصالكم إلى لويان مقابل ٣٠٠ يورو لكن عليكم إعطاؤنا ٢٥ يورو يقوم صديقي بتعبئة السيارة بالوقود و العودة إلى هنا سريعاً ."لويان مرحلة تتجاوز سكوبي وكذلك كومونوفو و بالتالي نحقق عندها مكسباً مضاعفا . قال محمد": هؤلاء يريدون ٢٥ يورو و عرضهم مغر فيما لو كانوا صادقين و أغلب الظن أنهم كاذبون و أعتقد أن أفضل شيء نفعله هو إعطائهم المبلغ لنتخلص من شرورهما . فنحن لا نعرف ما الذي قد يفعلناه فإن عادا فنحن الرابحون و إن لم يعودوا نكون قد كفينا شرهم ."وافقنا على اقتراح محمد و بدأنا ننتظر الشخصين ريثما يعودان بعدها أعطيناهما النقود.

دفعنا النقود للرجلين دون انتظار مقابل منهما لذلك لم ننتظرهما طويلاً. فبعد مضي نصف ساعة على انتظارنا لهما بدأنا نمضي باتجاه محطة الحافلات حتى نقطع التذاكر باتجاه العاصمة " سكوبي " . دخلنا المحطة و كان الوقت متأخراً و جميع الرحلات قد توقفت حتى يوم غد . فقطعنا التذاكر في أول رحلة تنطلق في صباح اليوم التالي و هي في الساعة السادسة صباحاً. كانت الساعة قد جاوزت التاسعة و لا مكان نقضي به بقية ليلتنا و لا يوجد فنادق و ليس بإمكاننا البقاء في العراء خصوصاً و أن كثافة المطر قد بدأت بالازدياد . حاول أخي محمد مستخدماً لغته الإنجليزية الطليقة إيجاد أي مأوىً كان .

سأل عدةَ أشخاص حتى وجدنا بائعاً في إحدى الصيدليات فسأله محمد إن كان بإمكانه مساعدتنا في إيجاد مأوىً لهذه الليلة فتأمل الرجل وجوهنا ثم أشفق على حالنا و رفع سماعة الهاتف و اتصل بأحدهم ثم قال لنا :" انتظروا و لا تجعلوا الآخرين يرونكم ". حاولنا الاختباء عن أعين المارة ريثما يفي الرجل بوعده". و بعد لحظات جاءت امرأة و دخلت الصيدلية و هي تتلفت يمنة و يسرة فخرج إلينا الصيدلي و أشار إلينا و قال :" اتبعوا هذه المرأة ".

تبعنا المرأة و أبقينا مسافة أمان بيننا و بينها و هي تتابع طريقها و تتلفت نحو اليمين و اليسار و تنظر إلينا كل فترة حتى تتأكد من أننا لا زلنا في الطريق الصحيح. وقفت المرأة أخيراً أمام بيت مضاءٍ و أمامه كوخ من خشب قد استغلته في وضع ما عندها من أغراض فيه . المطر المتواصل شكل مستنقعات من المياه متفرقة في كل مكان عبرناها لندخل الكوخ المتهاوي والذي دخلنا إليه لنصبح و كأننا أغراض غتيقة من أغراضه . أرشدتنا المرأة إلى الكوخ و دخلت بيتها و أوحت إلينا بإشاراتها بأن علينا البقاء في الكوخ حتى لا نعرضها للخطر. ستة أشخاص نجلس في مكان لا يتسع لشخصين في أحسن أحواله و المطر ينهمر بغزارة و أرض الكوخ ترابية تبث فينا شعوراً بمزيد من البرد . بعد لحظات المرأة مع رجل مسن يبدو أنه زوجها فسلم علينا و أفهمنا بالإشارات بأنه علينا البقاء في هذا الكوخ حتى شروق الشمس فقط .

مضى جلُّ الليل دون أن نستطيع النوم فلا يوجد مكان مؤهل لذلك و بعد أن جاوزت الساعة الثالثة ألقى الزوج نظرة علينا فشعر بالأسى علينا و طلب منا مرافقته . مضينا معه و أدخلنا عندها إلى غرفة مفروشة و قام بتشغيل المدفأة الكهربائية و التي باتت تشكل فارقاً هنا في حين لم تكن تغني عنا شيئاً داخل الكوخ . أوشكت الشمس على الشروق فنبهنا الزوج بأنه علينا الانصراف الآن فخرجنا على عجل و أعطيناها مبلغ خمسين يورو كتعبير عن شكرنا لاحتوائه لنا في هذه الليلة .

مضينا إلى محطة الانطلاق و دخلنا في الحافلة المنطلقة إلى سكوبي . قبل انطلاق الحافلة بقليل صعد رجل يرتدي الزي العسكري و صاح طالباً البطاقات الشخصية. لم نفهم ما قاله أولاً إلا أن رد فعل باقي الركاب جعلنا نعرف ما يريد . تجول الرجل خلال الحافلة حتى وصل إلي فأظهرت له تذكرة السفر فظهرت علامات الاستغراب على وجهه ثم قال :" أفغانستان؟". فهززت رأسي نافياً فقال :"

سوريا ؟". فحركت رأسي بالإيجاب فأشار إلي باتجاه باب الحافلة فنزلت و تبعني من كان في الحافلة من السوريين و الذين كانوا يشغلون أكثر من عشرة مقاعد .

مضينا باتجاه السيارة العسكرية و بقينا عندها في حين سارع الشباب الباقون بالفرار . ندمنا بعد لحظات لإننا لم نمض مع الشباب الباقين و لكن أوان الندم كان قد فات فقد جاء العسكري و أمرنا بالصعود إلى سيارته العسكرية فدخلناها و بدأنا ننتظر ما الذي يمكن أن يحل بنا هل سيمضون بنا إلى السجن أم أنهم سيعيدوننا من حيث جئنا .

سارت بنا السيارة مدة عشر دقائق حاول محمد خلالها أن يعرض الرشوة على الشرطي مقابل أن يخلي سبيلنا إلا أن كلماته ضاعت هباءً أمام صراخ العسكري. توقفت السيارة على هضبة مرتفعة قليلاً و أمرنا العسكري بالنزول فنزلنا الواحد تلو الآخر و العسكري يقوم بضرب كل واحد منا على مؤخرته ضربة و يصرخ به و كأنه يقول لنا :" هذه اليونان و إياكم أن تحاولوا العودة مجدداً".

دخلنا الحدود اليونانية مجدداً ثم ترددنا بين المضي إلى اليونان أو المحاولة مجدداً ثم شحنّا إرداتنا و قلنا :" لا يزال الوقت مبكراً و لا بد من المحاولة مجدداً". بدأنا نتسلل بحذر و نتابع الطريق و ما يمر به من سيارات محاولين تجنب لفت أي نظر . لم تكن السيارة العسكرية قد ابتعدت بنا كثيراً عن الحدود المقدونية

فقد وضعتنا عند آخر نقطة تتبع للحدود المقدونية . فعاودنا الدخول مجدداً بعد أن تجاوزنا عقبة الخوف من المحاولة . رغم نجاحنا في الدخول مجدداً إلا أن المشكلة في الانتقال إلى العاصمة لا تزال قائمة حتى الآن . دخلنا و بدأنا نبحث عن وسيلة تقلّنا إلى سكوبي حتى وجدنا سائق تاكسي قبل بأن يقل أربعة أشخاص ثم رفض عندما أعلمناه أننا ستة . استمريّنا بالبحث دون جدوى و مضى معظم النهار و لم نحقق أي تقدم فاقترح عند ذلك الشاب الحلبي محمود أن نتابع في سيرنا إلى القرية التالية فلربما تكون الأمور هناك أسهل . استمعنا لنصيحة محمود و مشينا مسافة طويلة و حاولنا اجتناب كل سيارة نشتبه أنها للشرطة و في حال رآنا أحد الشرطة تصرفنا و كأننا أبرياء تماماً.

سرنا عبر قرية جفجيليا مسافة كبيرة و كان هناك أحد المطاعم موجوداً في آخرها و كأنه في مكان منعزل عن العالم . دخلنا إليه و بدأنا ننتهي من شعور الجوع الذي صاحبنا فترة طويلة و نستمتع بألوان الطعام و بدأ أخي محمد يبحث عن الطريقة الأنسب لمتابعة الطريقة . بحث بجد حتى تمكن من العثور على رقم مهرب يتواصل معه . فتكلم معه و شرح له وضعنا فأخبره المهرب بأن هناك مجموعة تقطع الأراضي المقدونية و إذا كنا نرغب بالسير معهم فعلينا العودة إلى نقطة تجاوزناها تبعد عنا ربما أكثر من عشرة كيلو متر.

أصابنا خبر محمد بالصدمة فكل المسافة التي قطعناها ستذهب هباء و علاوة على ذلك علينا العودة من حيث أتينا و لم يكن بيدنا حيلة فخرجنا من المطعم بعد أن قضينا فيه قرابة الثلاث ساعات و عدنا أدراجنا. مضينا عائدين إلى الموقع الذي ظنناه صحيحاً في البداية ثم تبين أنه خاطئ و بأن علينا المشي

إلى أولى نقاط جفجيلية . مشينا إلى تلك النقطة و وجدنا أحدهم يقف قريباً من سكة القطار و يصرخ بأعلى صوته و يلوح لنا :"أسرع أنت وهو أسرع يجب أن نمضي بسرعة ".
حاولنا الإسراع حتى ندرك هذا الرجل و أصحابه إلا أنه استمر في الركض حتى أعيانا عن اللحاق به فظننا أنه قد أضاعنا ثم ظهر بعد لحظات من مكان بعيد و أشار علينا بالإسراع . الركض خلال الأرض الزراعية يكون صعباً في أيام الصيف فكيف سيكون ممكناً الآن و قد تحولت معظم الأرض إلى طين . الشاب الذي كان يصرخ كان برفقة مجموعة أخرى أيضاً فازداد العدد الذي نشكله .
مضينا بين السهول الزراعية دون أن نعرف أين نتجه بين الأشجار و بين الكروم و ليس لدينا دليل إلا هذا الشخص الذي لا يتوقف عن الصراخ . وجدنا كوخاً مفتوحاً فدخلناه لبضع لحظات فهمت خلالها لماذا رفضت معظم الفنادق استقبالنا باليونان . قام أحدهم بأخذ معطف كان في الكوخ و بدأ يعيث به فساداً فنصحته و قلت له :" اهدأ يا رجل ماذا تفعل تخيل لو قدم صاحب الكوخ فكيف سيكون رد فعله ". فبدأ يسب صاحب الكوخ باستهتار فصمت و انتظرت متابعة المسير حتى أفارق هذا الشاب الأهوج .
لحظات قليلة ثم عاد الشاب الذي لا يتوقف عن الصراخ إلى صراخه و طلب منا أن نتبعه على عجل قبل أن تسبقنا المجموعة التي يجب أن نلتحق بها . صراخ الرجل المتواصل جعلني أجزم أنه جاهل بالطريق و أنه يصرخ فقط حتى نتبعه دون أن يعرف هو أين نتجه لكن لم يكن هناك مناص من اتباعه .
تبعناه حتى وصلنا أخيراً إلى نهر يفصل بيننا و بين الجانب الآخر من الطريق . فأشار الدليل إلى الجهة الأخرى بأصبعه و قال :" اتبعوني إلى هناك ".
كنت أجزم في نفسي أن هذا المهرب جاهل بالطريق أما و قد اقترح هذا الاقتراح فلا بد أنه مجنون و مضيُّنا معه سيكون جنوناً منا . بدأ الشباب بالتردد في المضي في الطريق خوفاً من مياهه المتدفقة و عرضه الكبير .
لم يتوقف جنون الدليل عند الإشارة إلى الطريق فقط بل زاد على ذلك و دخل النهر و مشى و هو يطلق صيحاته التي لا تتوقف :" اتبعوني هيا بسرعة يجب أن ندرك الآخرين لا تترددوا هيا بسرعة".
كان لابد من إيقاف هذا الجنون حتى و لو اضطررنا إلى العودة إلى اليونان فصرخت بمحمد و باقي الشباب :" توقفوا يا شباب هذا الرجل مجنون . لا تتبعوه . لا شك أنه لا يعرف من الطريق شيئاً توقفوا عن هذا الجنون ".
لكن لم يستمع إلى كلامي أحد و دخل باقي الشباب النهار و تبعهم إخوتي و استمريت بإرسال الصيحة التي عاد صداها علي . نزل كل الشباب النهر و بقيت الشخص الأخير أنا و أحمد الحلبي و الذي حاول أن يحكم عقله و يستوقف باقي الشباب إلا أنهم لم يلقوا له بالاً .
دخل أخي أحمد النهر و قال :" تعال هل ستبقى لوحدك ؟". فقلت له :" يا رجل هذا مجنون و اتباعه جنون منا ". فقال :" و إذا بقيت هنا ماذا ستفعل ". سلمت بالأمر الواقع عندها و دخلت النهار و وقفنا

بوجه تيار الماء حتى نشكل سلسلة بشرية تقينا من احتمالية سحب الماء لنا . بدأنا نمشي بشكل عرضي عبر النهر و المياه تزداد قوة كلما تقدمنا خطوة و كادت رجلي أن تنزلق فتمسكت بالباقين و عاودت الوقوف بصعوبة و تابعنا المشي حتى وصلنا أخيراً إلى ضفة النهر الأخرى و قد ابتلّت ثيابنا تماماً.
الأعياء الذي كنا نشعر به ازداد أضعافاً بعد وصولنا إلى الضفة الأخرى و استمر المطر بالتساقط لنشعر بأن أجسامنا أوشكت على التجمد أو الانهيار . لم يكن الوصول إلى الضفة الأخرى من النهر هو نهاية الرحلة و إنما كنا لا نزال في البداية . بدأ صوت الدليل يخفت أخيراً فاستغربت ذلك ونظرت إليه فبدأ يلوح لنا بيده مشيراً بأن علينا الاختباء خوفاً من الشرطة . أجلت النظر مسرعاً حتى تمكنت من رؤية سيارة الشرطة فاختبئت كما اختبئ الباقون خلف أحد الأبنية الكبيرة . لحظات ثم مضت السيارة و بدأنا نمشي و نرى أناساً لم يكونوا معنا في الرحلة فعرفنا أننا قد التقينا أخيراً بالمجموعة الثانية . لا نعرف ما هي خطة سير المجموعة الثانية و لم نكن قادرين على السؤال عن ذلك فتبعناهم دون أن نتساءل عن الطريق . كان السير خلال السهول المبتلة صعباً إلا أن تلك الصعوبة بدأت تتلاشى أمام المرحلة الجديدة و هي السير على السكة الحديدية. لم ننم جيداً منذ أن وصلنا إلى اليونان و قضينا ليلة أمس بصعوبة و شكل السير الأخير لأجسادنا إرهاقا كبيراً.
مشيت و حاولت أن أدرك الناس الذين كانوا يمشون أمامي و الذين بدأت أراهم بصعوبة و تزول خيالاتهم في عيني عن مكانها أحياناً و تختفي تماماً أحياناً أخرى. بدأت أشعر باليأس و لم أعد أستطيع المشي فالحصى المتناثرة على السكة الحديدية تجعل مشي عدة أمتار متوازناً أمراً مستحيلاً. وصلت إلى لحظة اليأس و ألقيت نفسي على السكة بعد أن مشينا أكثر من ثلاث ساعات . في الوقت الذي كنت فيه منهاراً كان لدى محمد بقية رمق تمكنه من تفقدنا كل حين . فقدني فنظر إلي و أشرت إليه قائلاً: "لم أعد قادراً على المشي ،لا أستطيع المتابعة ". استلقيت على ظهري و بدأت أرقب السماء التي رغم توقفها عن المطر لا تزال تمتلئ بالغيوم . أغمضت عيناي للحظات ثم فتحتها و صيحات محمد فوقي :" هيا بسرعة اصبر . هذه هي المرحلة الأخيرة بعدها سترتاح كما تريد لكن يجب أن لا نبتعد عن الناس حتى لا نضيع ".
حاولت استجماع الطاقة المتبقية لدي فقمت و عاودت السير مسرعاً حتى لا تفوتني الرحلة . استمريّنا بالسير أربع ساعات حتى يأسنا بعدها من احتمالية وجود سيارة أو قطار ينقلنا .
أشار إلينا الدليل الجديد باتباعه فتبعناه فدخل الجميع إحدى البيوت المهجورة و بدأت أطالع العدد و إذا هو يربو على العشرين . لحظات اليأس التي كنا نمر فيها جعلت الشباب الذين يحاولون إشعال نار تدفئهم يقولون :" ما الذي حملنا على هذا الجنون ، ألم يكن البقاء في بلادنا خير لنا من هذا العناء ". و لكن وقت الندم كان قد فات . لم يكن الكوخ مؤهلاً ليقينا من البرد و حتى مع وجود النار فهي لا تكاد تضيء . طلب منا الدليل اتباعه مجدداً و دخل إلى أحد البيوت و بدأ يتكلم مع صاحبه ثم أذن لنا بالدخول فدخلنا جميعاً. إلى بيت لم نر من ملامحه شيئاً سوى أنه يحوي غرفتين ، غرفة دخلها البعض و الغرفة الأخرى بقي فيها البعض الآخر . حاولت استغلال تلك اللحظات بالنوم كيفما كانت الطريقة

فجلست انا و احمد على اريكة في الغرفة التي دخلناها و أغلقت عيناي لبعض الوقت و الذي مر سريعاً لتنفتح عيناي مجدداً بسبب صراخ الرجل الذي كان يرحب بنا منذ لحظات . لم نفهم سر هذا الانقلاب في تصرفات الرجل فقد أعطيناه منذ قليل خمسين يورو عنا نحن الستة و هو الآن يطردنا ، يبدو أنه مجنون . لم يكن لنا إلا الاستجابة لرغبة صاحب المنزل فخرجنا على عجل و لم يكن الليل قد انتهى بعد.

انفرط عقد المجموعة بعد خروجنا من البيت و مضى كل منا في اتجاه دون أن يعرف أحد ما الذي سيلاقيه.

يأسٌ وَتَراجُع

خرجنا من عند الشخص المقدوني الذي استقبلنا و هو يضحك و ودعنا بالشتائم و هِمنا على وجهنا في الظلمات لا نعرف أين نذهب ، هل نعود إلى المرحلة السابقة أم نتابع في طريقنا .
كنا نجتهد عند دخولنا إلى مقدونيا في تجنب الشرطة أما الآن و بعد كل هذا الإحباط بدأنا نتمنى لو أننا نلتقي بالشرطة حتى يعيدوننا إلى النقطة السابقة لننام بعض الوقت . تركنا طريق السكة الحديدية المنعزل قليلاً عن الأبنية و مضينا باتجاه البيوت عسى أن نجد من يساعدنا . قام صديقنا أحمد بقرع أحد الأبواب فنزل إليه شخص على عجل و هو يتساءل في نفسه :" من يكون هذا الشخص الذي يقرع الباب الآن؟ ". لم يعرف صاحب المنزل ماذا يريد أحمد فبدأ يصرخ في وجهه " بوليس بوليس " و يشير عليه بالابتعاد . تمنينا لو أن الشخص قام بالاتصال بالشرطة فعلاً إلا أنه اكتفى بالتهديد فقط .
وجدنا أحد الأبنية الإسمنتية المتهالكة فدخلناه و قمنا بجمع القليل من الحطب و أشعلنا النار و بدأنا نتدفأ عليها بانتظار شروق الشمس حتى ننظر في أمرنا . الإرهاق الذي أصابنا جعلنا نشعر بأن المزيد من الماء كفيل بالقضاء على حياتنا فآثرنا التيمم و أدينا صلاة الفجر على عجل . لا شيء نستطيع فعله ملابسنا مبتلة تمنعنا من النوم و أقدامنا منهكة من السير و بدأ الجوع يضاعف معاناتنا .
مع انجلاء الظلام تماماً قررنا العودة إلى النقطة الأخيرة في اليونان إلى فندق الحارة و الاستعانة بعدها بأحد المهربين . بدأنا نمشي و منظرنا أشبه بالمتسولين و نحاول لفت نظر كل من نظن أنه شرطة أملاً في أن يقوم بإعادتنا إلى اليونان فيختصر عندها علينا الكثير من الوقت و المجهود إلا أن كل محاولاتنا ذهبت أدراج الرياح . بعد مشي طويل وصلنا إلى المطعم الذي دخلناه في المرة السابقة ففكرنا بأن نتناول الطعام ثم نمضي في طريقنا إلا أن أبواب المطعم كانت مغلقة . اعتقدنا لوهلة أنه مغلق بسبب عطلةٍ ما و لكن تبين بعد قليل أنه مغلق في وجوهنا فقط . انتظرنا أمام المطعم قليلاً ريثما ينفتح بابه فخرج أحدهم و مضى عندها صديقنا أحمد من درعا إليه و بدأنا نرقب ما هي النتيجة التي سيصل إليها فكلمه بإنجليزيته البسيطة وقال :"إننا نرغب بالدخول لأكل الطعام ".فأجابه الرجل بلغة ركيكة أيضا :" أنا آسف و لكن لا أستطيع إدخالكم . إذا علمت الشرطة بالأمر فقد تتسببون لي بمشاكل كبيرة أقلها السجن ".
راقبنا أحمد و بدأنا نضحك منه عندما عائد خائباً و حدثنا بما قال له الرجل .
لم يكن عندها أمامنا إلا المتابعة حتى نصل إلى فندق الحارة قبل الغروب . ظننت لفترة أن الخوف الكبير من السلطات محصور في بلاد الشرق و لكن تبين أن النظام في مقدونيا مرعب لجميع السكان . المرأة التي أدخلتنا بيتها و زوجها أيضاً و رجل المطعم و كل شخص نسأله مساعدتنا كان الخوف

من ملاحقة السلطات يظهر جليّاً في وجهه ، بدأنا نغادر هذه القرية و التي لم نسمع فيها إلا نباح الكلاب الذي لا يتوقف وربما عدد الكلاب يفوق عدد السكان .

الرحلة التي سرناها أكثر من مرة جعلتنا نحفظ الطريق و نسير به دون مبالاة . وقفنا أخيراً على مشارف اليونان و فندق الحارة يبعد عنا مسافة كيلان . استعان محمد بال جي بي اس فاعطاه الإرشادات إلا أن صديقنا أحمد و عند مطالعته للطريق الذي اقترحه الجهاز قال :" مستحيل ، هذا ليس الطريق الصحيح . الطريق الصحيح من هنا" وأشارإلى اليسار بينما كان الجهاز مشيراً إلى اليمين . لم أعرف أيهما أدق أحمد أو الجهاز و لكننا مشينا في النهاية حسب إرشادات أحمد و التي تبين لنا في النهاية أنها هي الصحيحة .

لم يكن من عادة الجهاز أن يعطينا إرشادات خاطئة و لكن ربما تعرض لخلل ما و لكنني تحيرت أكثر من استنتاج أحمد للطريق الصحيح بمجرد النظر في منطقة لم نعهد الحياة فيها من قبل .

دخلنا مسرعين إلى فندق الحارة و أردنا استأجار غرفة واحدة فرد علينا الموظف :" الغرف كلها محجوزة". اكتفينا عندها بتناول الطعام و خرجنا نبحث عن فندق آخر . مشينا لمسافة قصيرة حسب إرشادات الجهاز هذه المرة و الذي نجح في العثور على فندق آخر قريب . كانت أبواب الفندق مغلقة فطرقناها ففتح لنا أحدهم و قال بعد أن عرف أننا عرب :" ماذا تريد ؟". فأخبرناه بحاجتنا فقال :" حسناً ادخلوا ".

دخلنا و أعطيناه الخارطيات كوسائل إثبات لشخصياتنا . فنزلنا نحن الأربعة من درعا في غرفة و نزل الشابان الحلبيان محمود و أحمد في غرفة أخرى . لم يكن الفندق المصدر الوحيد للدخل بالنسبة للرجل العربي الذي التقيناه أخيراً فنحن في منطقة حدودية و تهريب الأشخاص هو العمل الأكثر شعبية هنا و خصوصاً في هذا الوقت مع ازدياد عدد المهاجرين .

قال لنا رجل الفندق و هو من فلسطين :" إذا كنتم مسافرين فأستطيع إيصالكم مقابل ١٥٠٠ يورو للشخص الواحد ". مادفعنا لمحاولة العبور وحدنا هو توفير بعض النقود و لكن بعد كل هذا العناء فضّلنا دفع النقود للوصول بأقصر وقت و أقرب طريق إلى هدفنا. بدأ أخي محمد بالبحث سريعاً عن مهرب يتواصل معه حتى نقطع طريق مقدونيا حتى تمكن من العثور على شخصٍ جيد حسب توصيف الآخرين له .

تواصل معه محمد مباشرة فقال :" عليكم العودة إلى سالونيك ثم الانطلاق منها ". لم يكن بيدنا حيلة و رأى محمد أن هذا الرجل موثوق فيما لم يعجبه رجل الفندق الفلسطيني رغم أن الشخص الأخير طلب كلفة أعلى بلغت ١٨٥٠ يورو مقارنة بالرجل الفلسطيني و الذي طلب ١٥٠٠ يورو فقط . لم يكن السفر حكراً على الرجال فقط فقد كان كثير من الرجال يصطحب معه زوجته و أطفاله أحياناً و كان هذا الفندق مقصدا للاجئين الذين لا يفلحون بعبور مقدونيا و كان حجم الفندق صغيراً يسمح بسماع أحاديث الناس الذين يقفون أمام الغرفة . سمعنا أصواتا ففهمنا أن هناك رجلاً و ابنته يتحدثون مع المهرب و الذي بدأ يشرح لهم الطريق فقال :" ارتاحوا اليوم جيداً و ارتدوا أفضل ثيابكم كأنكم

أوروبيون تماماً و عند صعودكما إلى القطار تقومين أنت بخلع حجابك ، مفهوم ؟. لا نريد أن نلعب . هذه ضرورة و الضرورات تبيح المحضورات ". شرح الرجل الذي أصبح فقيهاً لهما كيفية خلع كل مبادئهما مقابل الوصول إلى غايتهما ثم انصرف كل منهم إلى شأنه . الشابان الحلبيان محمود و أحمد كانا متعبين مثلنا و لكن إمكانياتهما لم تكن تساعدهما على دفع مبلغ كبير للمهرب مقابل تجاوز عقبة مقدونيا قال لنا أحمد الحلبي :" دعونا نجرب مرة أخرى يمكن أن ننجح ". إلا أن أخي محمد كان يائسا تماماً من المتابعة دون مهرب فقال :" لم أعد أطيق الصبر سأدفع النقود للمهرب و انتهي من هذه المسألة ". عندها أجابه أحمد :" إذن لا بد أن نفترق هنا فنحن لا نستطيع دفع مبلغ كبير كهذا للمهرب سأواصل المحاولة حتى أنجح ". افترقنا عندها عن الشابين الحلبيين لنعود كما كنا بداية الرحلة أربعة أشخاص فقط . لم نكن أول من فشل في تجاوز مقدونيا فقد عاد أناس كثر حالتهم مزرية كحالتنا فشلوا في تجاوز هذه العقبة الكأداء . استغرقنا في النوم منذ السادسة مساء و حتى صباح اليوم التالي و بمجرد استيقاظنا ارتدينا ثيابنا و بدأنا نسلك طريق العودة نحو سالونيك . وصلنا إلى سالونيك و كان الاتفاق مع المهرب الجديد أن نلتقيه في أحد المطاعم . التقيناه أخيراً و كان رجلاً ضخماً قد جاوز سنه الأربعين و صوته خشن و لهجته ديرية و اسمه أبو عدي . اتفقنا مع أبي عدي على أن نعطيه مبلغ ١٨٥٠ يورو يتكفل هو بمقابلها بإيصالنا إلى العاصمة الصربية بيلجراد . نزلنا أحد الفنادق و دفعنا تكلفته منا بانتظار موعد الرحلة في اليوم التالي . اعتقدنا للحظات أن الشابين الحلبيين لن ينجحوا في مجاوزة عقبة مقدونيا مهما بذلوا من مجهود ، و خلال انتظارنا للرحلة في اليوم التالي اتصل أحدهم بأخي محمد فرد عليه مباشرة وبعد أن كلّمه تعرف محمد عليه وإذا به الشاب الحلبي أحمد الذي تركناه عند فندق حارة . لم تكن الصدمة في الشخص المتصل و إنما في المكان الذي يتصل منه فقد تغيرت تعابير وجه محمد عندما سأل أحمد الحلبي عن مكانه وبعد أن أنهى المكالمة قال محمد

:" هذا أحمد و محمود الشابان الحلبيان قد وصلا إلى بلجراد ". كان الخبر صدمة بالنسبة إلينا فقد وصلا دون عناء و مجهود بينما سنضطر نحن لدفع كلفة هائلة للحاق بهما . نجح الشابان الحلبيان حسب كلامهما بالركوب مع أحد قطارات الشحن المتوجه إلى بلجراد و الذي قبل بإقلالهما دون كثير أسئلة . ليس لنا الآن الندم على الطريق الذي اخترناه بل يجب أن نمضي فيه إلى نهايته .

و في اليوم التالي كان علينا الخروج مبكرين حتى نتمكن من جلب النقود . نقود السفر كانت معنا في تركيا متوفرة نقداً و لكن عندما هممنا بركوب البلم فكرنا أننا ربما نخسر تلك النقود إذا ابتلت أو ربما نتعرض للسرقة فقام محمد بتحويل كامل المبلغ إلى خالي في الإمارات و أبقينا مع كل شخص ٢٠٠ يورو مصروف جيب .

دفع محمد أجرة التحويل عند إرسال النقود ثم دفع أجرة التحويل مرة أخرى عندما استعدناها في اليونان . مبلغ ٧٠٠٠ يورو بلغت تكلفة تحويله ٧٠٠ يورو و خسرنا بالإضافة إلى ذلك ٢٠٠ يورو تبين أنها مزورة و لم نعرف أي مهرب هو الذي أعطانا تلك النقود المزورة . كان المهرب أبو عدي نفسه يسعى إلى السفر حسب كلامه فابنه و قريب له قد سبقاه إلى النمسا التي ينتظر لم شمله إليها .

الأحلام حول أوروبا لا تنتهي عند حد و أحياناً تجاوز المنطق و المعقول كان أبو عدي متزوجا من امرأتين و لديه الكثير من الأولاد
فقال :" ليس علي أن أعمل في النمسا . كل ما علي هو إنجاب عشرة أولاد يعطونني هم عندها راتب عشرة ألاف يورو ". لم أعد أعرف إن كان شيء من تلك الكلمات التي تصف أوروبا بالنعيم حقيقي أم لا و لكن من المبكر التفكير حول مستقبلنا في أوروبا . أعطينا الرجل المبلغ كاملاً و الذي بلغ ٧٤٠٠ يورو و بدأنا ننتظر قدوم السيارة التي ستأخذنا إلى وجهتنا . مع حلول الغروب مضى معنا أبو عدي باتجاه مكان السيارة و عندما وصلت ودعنا و دعا لنا بالتوفيق . صعدنا في السيارة فسارت بنا على عجل متبعة طرقاً معبدة أولا ثم انحرفت بعد نصف ساعة تقريبا متبعة طرقاً فرعية . توقفت السيارة و طلب منا السائق النزول بسرعة فنزلنا و مضى هو عائداً من حيث أتى . لم أكن أعرف كيف لشخص أن يجدنا و نحن بين هذه الأشجار العملاقة المتناثرة . بدأنا ننتظر شيئاً مجهولاً لا نعرف ما هو . و بعد ساعتين تقريباً جاءنا شخص نحيل يمشي بتأن و حذر و كأنه يبحث عنا . و بعد ان رآنا أشار إلينا بأن نتبعه فمضينا خلفه و لحسن حظنا كان يستطيع تحدث الإنجليزية. بدأنا نسير خلف هذا الشاب و الذي يرتدي معطفا سميكاً يبدو أنه يفوق حجمه و وزنه . حاول المرشد أن يكون مخلصاً في عمله إلى أبعد حد حتى أنه عندما هممنا بتجاوز احدى الطرق التي يجري الماء خلالها قام بحملنا على ظهره . شعرنا بتأنيب الضمير لتسخيرنا الرجل كي يحملنا في تجاوز مستنقع صغير مع أنه قمنا منذ يومين بتجاوز نهر عرضه أكثر من عشرة أمتار مع الدليل المجنون السابق . سرنا مع الشاب قرابة ساعتين حتى وصلنا إلى مكان فيه سيارة تنتظر . فصعدنا فيها و صعد معنا الدليل و بدأت تجوز الطريق بسرعة جنونية . كان بادياً على السائق أنه غير مبال بما يفعله فقد أطلق العنان لصوت موسيقى السيارة و الذي علا حتى آذى أذاننا . طلب منا الدليل مبلغ عشرين يورو لصديقه سائق السيارة فأعطيناه إياها دون نقاش و بعد نصف ساعة من السير بسرعة كبيرة توقفت السيارة و طلب منا السائق النزول . نزلنا و طلب منا الدليل البقاء قريبين من أحد الأكواخ و أن لا نسمح لأيٍ كان برؤيتنا ثم مشى هو حتى لم نعد نراه .
لا نعرف كم المدة التي يفترض أن ننتظرها و لا شيء بإمكاننا القيام به سوى الانتظار . مرت ساعة ثم ساعتان و لم يأتي إلينا أحد . بدأ البرد ينخر في عظامنا و لا نجد لدفعه حيلة فلم نكن نستطيع إشعال النار ثم إننا لا نملك قداحة . بدأنا نشعر باليأس من إمكانية عودة المهرب و لم يكن بإمكاننا العودة من حيث أتينا . اقتربنا من بعضنا حتى اصطكت مقدمة رأسي بمقدمة رأس أحمد و ركبتاي بركبتيه . أوشك الفجر على البزوغ و بدأنا نسمع أصوات أقدام كثيرة تقترب منا . اختبأنا حتى لا نلفت الأنظار، واستمر الصوت بالاقتراب منا حتى ظهر المرشد الذي أوصلنا في بداية الليلة . يبدو أننا لسنا الوحيدين الذين عانينا ليلة طويلة و باردة فالقادمون الجدد يمتزج صوت بكاء أطفالهم بصياح رجالهم و النساء تتكلم أيضاً. وصلنا إلى هنا بسهولة مقارنة بالواصلين أخيراً فَقدْ فَقَدَ أحدهم حذائه و جاء يمشي في هذا الطقس حافياً . أمرنا المرشد بالسكوت ريثما يأتي صديقه المسؤول الأكبر عن تنظيم الرحلة.

لحظات و جاء الشاب أخيراً مصطحباً معه بقية المسافرين . تحولت القيادة إلى المرشد الجديد "مايكل" و الذي أمرنا بالمشي خلفه و بعد أن وصل إلى حافة ترابية ترتفع عن الارض قرابة متر أمرنا بالاختباء خلفها و بالصمت

ثم قال :" ستنطلقون الآن على مجموعات متتالية كل مجموعة مكونة من شخصين باتجاه تلك الشاحنة " و أشار إلى شاحنة تبعد عنا قرابة خمسين متراً و قد أغلق بابها بشادر مطاطي . ثم قال :" اجروا بسرعة و لا تتوقفوا حتى تدخلوا في قلب الشاحنة و لا تنبسوا ببنت شفة حتى يُفتح عليكم الباب ".
بدأنا ننفذ أوامر مايكل بسرعة و جرينا بكل ما تبقى لدينا من طاقة حتى دخلنا الشاحنة و التي كانت مظلمة تماماً .

بدأنا ننتظر مضي الشاحنة حتى تأخذنا إلى وجهتنا التالية.

في شوارع بلغارد

لم يطل انتظارنا كثيراً ربع ساعة فقط كانت كافية حتى تنطلق الشاحنة في طريقها . سارت الشاحنة بسرعة دون توقف إلا بعد مضي ساعتين تقريباً. رُفع ستار الباب فبدأنا نرقب الوجوه التي ستطل علينا بقلق داعين ألا يكونوا من الشرطة . نظر الشخص الواقف أمامنا إلينا ثم أشار إلينا بالنزول سريعاً فنزلنا و قام بإدخالنا إلى أحد أبواب المحلات التجارية و الذي كان فارغاً تماماً من أي شيء ثم قام بعد ذلك بإغلاق الباب . بدأت أرى العدد الذي أصبحنا نشكله و بدا بأننا خمسة عشر شخصا . كان منظرنا مزرياً جداً إلا أن الواصلين الجدد كانوا أكثر إثارةً للأسى منا حتى قام أحد المرشدين و الذين بدأوا يتكاثرون عند وصولنا إلى المحل التجاري بإعطاء أحدهم حذاءاً و جوارب . أبدى الواصلون الجدد إعجابهم بتصرفات المرشدين حتى قال أحدهم :" هؤلاء مسلمون حقيقيون عن قناعة و ليسوا مثلنا أخذنا الدين بالوراثة ". انتظرنا مدة ساعة أو أكثر بقليل ثم جاءت سيارات أخرى طلب منا المرشدون الصعود بها على عجل . قامت السيارات بنقلنا إلى بيت يقع في آخر القرية التي وصلنا إليها و التي لم نعرف إن كانت هي لويان التي نسعى إليها أم غيرها. دخلنا البيت و طلب منا الرجل المضيف البقاء في عليّته حتى يحل الظلام ثم نتابع بعدها السير في طريقنا. حلّ الظلام و جاءنا أحدهم و أمرنا بأن نتبعه فنزلنا من البيت و بدأنا نمشي في الشوارع محاولين الإسراع ما استطعنا و كان العائق الأكبر في هذه المرة هو وجود الكثير من الأطفال و الذين جاوز عددهم الستة . قام كل شاب منا بالتناوب مع آخر للمساعدة في حمل الأطفال . بعد مشي ساعة من الزمن دخلنا أحد البيوت و بدا محطة سفر مشابهة تماماً للبيت الذي حللنا به زواراً في مدينة الميادين في سورية . حمام كبير على يمين الباب و على يساره غرفة قد اختلطت أدواتها حتى لم تعد معروفة هل هي صالة أم مطبخ أم غرفة نوم. فقد تجمعت فيها الصحون المتسخة و افترشها بعض المسافرين الذين سبقونا إلى المكان و في داخلها غرفتان غرفة دخلت إليها النساء اللاتي كن معنا و غرفة أخرى يقبع بها المهرب الجديد و أصحابه . أزعجنا النائمين بقدومنا فقد كان عددنا كبيراً و صوتنا مرتفعاً و كان علينا أن نقبع في ذات المكان الذي ينامون فيه . اخذنا مواقعنا و بدأنا ننتظر حلول موعد رحلتنا و الذي ظنناه أول الأمر بعد لحظات فأخبرنا المهرب بأن علينا الانتظار ريثما يكون الطريق آمناً حتى لا نتعرض لاحتمالية العودة إلى اليونان . كان الواصلون الجدد من مختلف مناطق سورية أبو شيماء كان من دير الزور و كان يصحب أبناءه الثلاثة شيماء و التي تبلغ من العمر سبع سنوات بالإضافة إلى ابنين آخرين و كذلك زوجته و كان يعمل في سورية حسب كلامه مديراً لمؤسسة حكومية مسؤولة عن الحبوب فكان نتيجةً لذلك يتعرض لمضايقاتٍ من داعش الذين يتهمونه بالعمالة و مضايقاتٍ من النظام الذي يعتبره إرهابياً لأنه من دير الزور. صبر أبو شيماء ما استطاع ثم ترك كل شيء خلف ظهره و مضى إلى أوروبا و

لم ينس كيف يتعامل مع داعش في حال اكتشفوا أمره فقام بتغيير رقم "الواتس اب " الخاص به إلى رقم سعودي حتى لا يعرف التنظيم أن أبا وشيما سافر هو و عائلته إلى " بلاد الكفر " فيستبيحون نتيجة لذلك أمواله .

أبو أحمد يصطحب زوجته أيضاً و ابنه الصغير أحمد الذي لم يجاوز عمره السنتان و رجل آخر اصحطب معه ابنه الذي جاوز عمره عشر سنوات حتى يقوم بلم شمل عائلته بسهولة .

بدأنا ننتظر اللحظة التي يحين فيها موعد الرحيل و اقتربنا من القادمين الجدد أكثر لبقائنا معهم في ذات المكان في " لويان " . بعد أربعة أيام طلب منا المهرب و الذي كان من الدير أيضاً أن نستعد حتى نمضي معه . قبل غروب الشمس بلحظات انطلقنا مع المهرب و بدأنا نجري خلفه . مضى الشباب العزاب باتجاه في حين مضى المتزوجون و عائلاتهم في اتجاه آخر . بدأنا نمشي و نجوز الطرق الترابية و الطينية راجين ألا نسمع اسم مقدونيا مجدداً. مشينا عبر الغابات وتجاوزنا سكة حديدية و واصلنا الطريق حتى وصلنا أخيراً إلى طريق دولي . أمرنا المهرب بمجاوزة الشارع و المضي إلى الطرف الآخر

و قال :" لينتظر أحدكم قريباً من الشارع و ليبقى الآخرون يراقبونه عن بُعد و بَعد بعض الوقت ستأتي سيارة لتقلكم ، فتخرجون معها بسرعة و إذا فشلتم في الرحلة فطريق العودة إليّ أصبح واضحاً بالنسبة إليكم أما أنا فسأنصرف من هنا". ودعنا المهرب و بدأنا ننفذ تعليماته بانتظار مجئ السيارة التي ستقلنا. انتظرنا ربع ساعة ثم بدأ الشاب الذي يراقب السيارات يلوح لنا بأن علينا المجيء إليه فركضنا مسرعين و صعدنا حافة الشارع و التي كانت ترابية منزلقة و دخلنا السيارة بسرعة خارقة و بدأ الشخص الجالس في المقدمة يعدنا :" واحد ، اثنين ، ثلاثة ... عشرة ". ثم قال :" اوكي . انطلق ". عشرة أشخاص نجلس في المقاعد الخلفية لسيارة لا تتسع في أحسن أحوالها لثلاثة أشخاص .

مضى السائق بسرعة كبيرة ، و بعد مشي قرابة ساعة أوشكنا خلالها على الموت لضيق أنفاسنا مد السائق يده نحونا مشيراً بأنه يجب أن نخفض رؤوسنا ما أمكن و قال :" بوليس كونترول " . حاولنا عدم التنفس حتى لا نلفت الأنظار و بعد لحظات عادت السيارة للمسير فظننا أننا على وشك الوصول ثم خابت ظنوننا بعد ان استمرت السيارة بالمشي ، و بعد مشي قرابة نصف ساعة عاد السائق يردد كلماته :" بوليس كونترول ". فنحاول عندها أن نكون حذرين ما أمكن.

و بعد ساعتين و نصف توقف السائق و فتح لنا الأبواب فنزلنا مسرعين نبحث عن هواء نتنفسه . و أخيراً تجاوزنا العقبة الأصعب " مقدونيا " و ها نحن نشاهد أضواء بلجراد تنير المكان . نزلنا من السيارة ثم أمرنا المهرب بالتوجه إلى سيارة أخرى كانت تقف بانتظارنا و كان سائقها يبدو مرتاحاً حتى أنه كان يرتدي بدلة رسمية لكن دون ربطة عنق . طلب منا السائق الجديد خمسين يورو فقلت له :" لم يكن هذا الاتفاق . فقد دفعنا التكلفة كاملة ". فقال :" لا أعرف و لكن عليك التكلم مع رئيسك . أعطني المبلغ أولاً ثم تصرف كيف شئت " قمنا بإعطاء الرجل المبلغ فأقلّنا إلى الكامب الذي سننزل فيه .

وصلنا متأخرين و كانت أبواب الكامب مغلقة فأطلت علينا إحدى الفتيات من النافذة و قالت :" أنتم ذاهبون إلى هنغاريا ". فأجبناها بنعم فقالت :" أعرف شخصاً يمكنه إيصالكم مقابل مبلغ بسيط ٤٥٠ يورو فقط ". فتساءلنا عن عدم متابعة طريقها إن كان الرجل موثوقاً كما تقول فقالت :" كنت سأتابع و لكنني لم أعد أملك النقود فاضطررت للبقاء هنا ريثما أستطيع المتابعة ".
حدثنا تلك الفتاة من خلف إحدى نوافذ الكامب فانزعج الموجودون القريبين منها فانصرفنا عنها حتى لا نسبب لها المشاكل و قالت لنا :" الأبواب مغلقة الآن عليكم الانتظارحتى الساعة الثامنة ".
بدأنا نحس بالاطمئنان لإن إمكانية إرجاعنا إلى مقدونيا الآن ضعيفة جداً. بدأنا ننتظر شروق الشمس و قمنا باشعال نار نستدفئ بها إلى حين موعد افتتاح الكامب. لم يكن قدومنا إلى الكامب بغرض الحصول على الراحة و إنما حتى نحصل على خارطيات نتمكن من خلالها التجول في شوارع بيلجراد بحرية .
عند حلول الساعة الثامنة بدأت أبواب الكامب تفتح فمضينا حتى ندخل إليها فوجدنا الناس يتجمعون أمام أحد الأبنية فوقفنا معهم . أطل شخص من البناء الذي يرتفع بابه عن الارض و بدأ بالعد لعشرة ثم توقف ثم أشار إلينا بظهر يده و كأنه يقول امضوا . ذهب أحدهم و حاول التحدث معهم بالإنجليزية فقال :" انتهت المسألة سآخذ عشرة أشخاص و الباقون ليس لديهم مكان عندي فليذهبوا إلى هذا العنوان ". أخذنا العنوان و بحثنا عن سيارة تقلنا إلى وجهتنا فوجدناها و مضينا معها . نزلنا في شوارع بيلجراد و حاولنا أيجاد فندق نقضي به ليلتنا إلا أن كل الفنادق كانت تشترط أن نكون نحمل خارطيات أو وثائق صالحة للسفر و لم نكن نملك شيئا منها . التقينا خلال تجوالنا في بلجراد بأبي شيما و الباقين فسألناه عن كيفية سير رحلتهم فأخبرنا أنهم انطلقوا من محطة الحافلات بيسر دون أن يتعرض لهم أحد .
أعيانا إيجاد فندق يأوينا الليلة فأخبرنا أبا شيما و من معه من عائلات بما قاله لنا الكامب الذي توجهنا إليه فمضوا عندها معنا إلى العنوان الجديد .
كان المكان هذه المرة قسم شرطة دخلنا جميعاً فنظر الشرطي إلينا و قال :" أنتم انصرفوا و عودوا غداً . و أنتم تعالوا معي ". ثم أخذ الرجال و زوجاتهم و مضى بهم و صرخ بنا مجدداً :" اخرجوا و لا تبقوا هنا ". خرجنا عندها مبتعدين عن هذا الشرطي المقيت و بدأنا ننتظر ماذا سيحل بأبي شيما و رفاقه و بعد لحظات خرجوا إلينا و قد نجحوا في الحصول على خارطيات تسمح لهم بالمبيت في الفنادق . عدنا جميعاً إلى وسط العاصمة حيث تكثر الفنادق أملاً منا بأن نجد فندقاً يقبل بإيوائنا لهذه الليلة.
النقود هي الوقود الأساسي في كل حركة من حركات السفر و لم نكن نحمل النقود فكان علينا نطلب من خالي أن يحول لنا القسم الباقي إلى صربيا . المشكلة في عملية التحويل بالنسبة لنا أنها تتطلب إثباتا مقبولاً للشخصية و معنا إثباتات إلا أنها غير مقبولة هنا لذلك قام أخي محمد بالطلب من أبي أحمد أن يذهب معه إلى مكتب التحويل حتى يحول المبلغ إلى اسمه فمضيا سوية ثم عادوا بعد قليل و

نظرات الإحباط بادية على محمد فسألناه عن السبب فقال :" يحتاجون إثباتا مقبولاً للشخصية و لم يقبل بجواز سفري " .
فسألناه :" و خارطية أبي أحمد ألا يقبلونها " فقال :" بلى يقبلونها و لكن المشكلة أن الاسم الموجود على
خارطيته ليس اسمه الحقيقي الموجود على بطاقته الشخصية الثانية ". لم نعرف دافع أبي أحمد إلى تغيير اسمه فسألناه عن ذلك فقال :" قالوا لنا حاولوا ألا تعطوا اسمكم الحقيقي حتى لا تواجهوا المشاكل في المستقبل ". لم نعرف من هم الذين قالوا له و لا ما هي المشاكل التي ستواجهه في المستقبل ولم نعرف ما سر هذه الدواعي الأمنية الطارئة التي اتبعها أبو أحمد و مع ذلك لم نقم بالسؤال و استعان محمد عندها برجل آخر من الموجودين و تم تحويل النقود إلى اسمه فأخذناها منه و فارقنا عندها أبا شيماء و باقي أصحابه الذين تمكنوا من إيجاد مكان يؤيهم في حين كان علينا نحن الأربعة البحث عن مكان نبيت فيه .
بدأنا نتجول في شوارع بلجراد و نسأل من نصادفه من السوريين و غيرهم عن حل لمشكلتنا دون أن نخرج بنتيجة . أول شخص سألناه كان جالساً على بعض الكرتون أمام أحد الفنادق ، سألناه إن كان يعرف مكان يستقبلنا فقال :" بعض الفنادق تستقبلكم و لكن عليكم الانتظار إلى بعد الساعة العاشرة و كذلك يشترط عليكم الخروج في السادسة صباحاً".
فكرنا في الذهاب إلى المسجد فربما نجد حلاً عند الإمام فمشينا باتجاه المسجد. كانت المسافة بعيدة فحاولنا أن نحقق الهدفين سويةً نصل إلى المسجد و نبحث في الطريق عن مكانٍ نأوي إليه . مشينا قرابة ساعتين و كانت شوارع بلجراد تبدو أكثر تطوراً و حضارة من شوارع أثينا .
وصلنا أخيراً إلى المسجد فدخلنا و صلينا العصر و لم نجد الإمام فانصرفنا حتى نتابع بحثنا . قريباً من بناء المسجد كان هناك بناء كبير مكتوب عليه اسم جمعية خيرية باللغة العربية مضى صديقنا أحمد باتجاه الباب فخرج إليه قبل أن يدخل شاب ضخم أبيض البشرة لا شعر له . بدأ محمد يكلمه بالإنجليزية طالبا منه المساعدة فأجاب الرجل :" أنتم من سورية ". فقلنا :" نعم ". فاسترسل بالكلام ، كنت أظن أحياناً أن أحداث الشرق لا يعرف عنها الناس في الغرب الكثير و لكن هذا الشاب غيّر كل توقعاتي فقال :" إذا كنتم أنتم هنا فمن يقاتل في سورية ". ظننا أنه لا يعرف من يقاتل في سورية فقال محمد :" النظام يقاتل المعارضة ". فقال الشاب :" مَن يقاتل مَن ؟ . أنتم خرجتم من هناك ، من سيقاتل الآن ؟ هذه بلادنا و يجب أن نقاتل من أجلها إذا أنت لم تقاتل و هو لم يقاتل و أنا لم أقاتل كيف سننتصر في النهاية ؟."
تركنا ذلك الشاب بعد أن أعطانا درساً في الوطنية و تبخرت كلماته بسبب فشلنا المتواصل في إيجاد فندق يؤينا . أثمر بحثنا في النهاية فوجدنا فندقاً سمح لنا صاحبه بالبقاء فيه هذه الليلة مقابل ٦ يورو للشخص الواحد على أن ندخل إلى الفندق في الساعة العاشرة و نغادر في اليوم التالي في الساعة

السادسة . لم تكن الساعة قد جاوزت السابعة بعد فخرجنا من عند الرجل و بدأنا نتجول و ننتظر حلول الساعة العاشرة حتى نعود إلى الفندق و نقضي به ليلتنا

تجولنا عبر شوارع بلجراد حتى وجدنا مطعما لبنانياً فدخلنا إليه لنقضي بعض الوقت ريثما يحين موعد عودتنا إلى الفندق . مضى الوقت بسرعة فعدنا إلى صاحبنا فأدخلنا إلى إحدى الغرف التي تحوي ستة أسرة خشبية كل سريرين فوق بعضهما فاتخذ كل منا فراشاً له و أوى إليه رأسه بانتظار انبلاج صبح جديد . كلما ازددنا تعباً شعرنا بأن المدة التي ننامها أقصر و لكن لم يكن لنا بد من الوفاء بوعدنا و ترك الفندق في السادسة صباحاً. رغم أن الوقت كان مبكراً إلا أن روح النشاط كانت تدب في أرجاء تلك المدينة . الخطوة التالية الآن هي الإنتقال من مدينة بلجراد إلى مدينة بودابست عاصمة هنغاريا أو المجر كما تسمى . بعد أن دفعنا كلفة كبيرة لتجاوز المرحلة السابقة آثرنا هذه المرة أن نحاول منفردين دون مهرب أملاً في ادخار بعض النقود و كان علينا الدخول إلى الحدود هنغاريا ليلاً حتى نتمكن من العبور دون أن نقوم بوضع بصمات أناملنا في هنغاريا و ذلك أنه في حال قمنا بالتبصيم في هنغاريا فقد نضطر بعد فترة إلى الرجوع إليها فيما إذا وصلنا إلى ألمانيا و ذلك حسب اتفاقية ديبلن بين الدول الأوروبية.

جلسنا في إحدى الساحات العامة و بدأنا ننتظر مضي الوقت و بعد لحظات أطل علينا وجهان نعرفهما جيداً و مع اتضاح الملامح عرفنا أنهما جلال و أبو مصطفى . سلمنا عليهما و سألناهما عن كيفية سير الرحلة معهما فقال أبو مصطفى :" سافرنا من تركيا إلى اليونان عبر البحر في القارب السريع ، لم تكن الرحلة طويلة ربع ساعة فقط كانت كافية لوصولنا إلى وجهتنا إلا أن الكلفة كانت مرتفعة فقد دفعنا ١٥٠٠ يورو ، ثم قضينا في الكامب اليوناني مدة يومين ثم توجهنا إلى اثينا بالطائرة و في مرحلة مقدونية دفعنا ذات المبلغ إلا أن المكان الذي جلسنا فيه في لويان كان أشبه بمعتقل فقد كان مغلقاً تماماً و لا يسمح لنا بالدخول أو الخروج و قد كادت الرطوبة الموجودة تتسبب لي بالمرض لولا أن انطلقنا أخيراً و ها نحن هنا ". دفعنا كلفةً أكبر للوصول إلى بلجراد إلا أن مضيفنا في بلدة لويان كان جيداً و لم نعان ما عاناه الرجلان ،

على كلٍ فقد انقضت تلك اللحظات و نحن الآن على وشك البدء في المرحلة الجديدة . لم أكن أرغب بمتابعة المسير مباشرة فقد كانت المراحل السابقة متعبة بالنسبة إلينا جميعاً، جلسنا في إحدى المقاهي و بدأت أتكلم مع أصدقائي و كان من بينهم عيسى و الذي سبقنا في الوصول إلى ألمانيا بزمن طويل .

كلمته أول مرة عندما كنا في المطعم المقدوني و سألته عما يمكن أن نفعله بعد أن شرحت له ما جرى معنا في الطريق فقال في تلك المرة :" عليكم متابعة السير حتى تجوزوا ثلاث قرى مقدونية على أقل تقدير ، لقد مشيت أنا و أصدقائي ربما ٤٠ كيلو متراً أو أكثر و استمرينا في السير أكثر من ١٢ يوماً أوشكنا خلالها على الهلاك فعليكم أن تصبروا ". و لكننا في المرة السابقة كنا قد فقدنا الصبر

فأكملنا الطريق مستعينين بأحد المهربين ، اتصلت به هذه المرة حتى استشيره مجدداً فقال :" إذا تمكنتنم من قطع مقدونيا فبقية الرحلة أصبحت مسألة سهلة لذلك أنصحكم بأن تستريحوا عدة أيام في بلجراد ثم تتابعون بعدها رحلتكم ، إياكم و الانطلاق الآن فالرحلة كانت متعبة ، خذوا وقتكم و امضوا و أنتم مرتاحين ، ثم إياكم أن تبصموا في هنغاريا إياكم ثم إياكم ، ها أنا أحذرك ". وافق كلام عيسى هوىً لدي فقد كنت أشعر بالتعب و احتاج بعض الراحة فأسمعت رسائل عيسى إلى أخواي و أحمد لكنهما لم يلقيا بالاً لكلامه و أصرّا على متابعة الطريق لهذه الليلة و قال محمد :" لا يوجد مكان ننام فيه الليلة و قد رأيت ما عانيناه يوم أمس حتى وجدنا مكاناً ننام فيه فلا بد من الانطلاق هذه الليلة و سنحاول ألا نضع بصماتنا في هنغاريا مهما كانت النتيجة". لم يكن بيدي حيلة فالثلاثة كانوا يصرون على الانطلاق هذه الليلة فكان علي السير حسب رغبتهم كيفما اتفقوا . المشكلة في المرحلة الجديدة هي أننا نسافر إلى منطقة حدودية مع هنغاريا و نحن لا نملك خارطيات و إذا قامت الشرطة بإمساكنا فقد يتعرض السائق لمشاكل هو بغنى عنها فكان علينا البحث جيداً حتى نجد السائق الذي يقبل بتوصيلنا . وجد محمد أخيراً سائقاً اتفق معه على أن نلتقيه في مكان لا يلفت الانتباه حتى لا نورطه .

مع غياب الشمس كان موعد انطلاق الرحلة قد حان فمضينا مسرعين إلى المكان المتفق عليه مع السائق و صعدنا في السيارة مسرعين . انطلق السائق نحو الوجهة الجديدة و هي آخر مدينة صربية و التي تحاذي مدينة " زغت" الهنغارية . لم تكن المسافة بعيدة ، ساعة و ربع تقريباً كانت كافيا لإيصالنا إلى آخر القرى الصربية . مضى السائق عائداً بسرعة بعد أن نزلنا من سيارته . علينا اتباع الآن أوامر المرشد الإلكتروني عسى أن يقودنا إلى مدينة زغت بأقصر الطرق و بعد دخولنا إليها نقوم باستئجار أول سيارة تنطلق إلى العاصمة بودابست . هكذا كان مخطط الرحلة في أذهاننا . بدأنا نمشي في السهول حتى ظننا أننا على وشك دخول الحدود الهنغارية إن لم نكن دخلناها بعد سير لأكثر من ثلاث ساعات وصلنا إلى نهر عرضه صغير لكننا لم نتجرئ على تجاوزه حتى لا نعاني مما عانيناه في المرة الأولى. مشينا بمحاذاة النهر دون أن نجد سبيلاً لتجاوزه . ثم وجدنا أخيراً ممراً فوق النهر فتجاوزناه بسرعة مشينا بعده عدة أمتار لنجد الأسلاك الشائكة فعرفنا عندها أننا أمام الحدود الهنغاريا . لم تكن كل المنطقة مغلقة بالأسلاك و كان هناك ممر عريض يوحي بانقطاع الأسلاك . ارتبكنا قليلاً ثم قررنا مجاوزة الممر و ما إن جاوزناه حتى أنار عمود الإضاءة الكهربائية القريب منه . لم نعرف ماذا يتوجب علينا فعله عندها هل علينا العودة من حيث أتينا أم أن الأفضل المتابعة في السير إلى الأمام ثم حزمنا أمرنا و مشينا نحو الأمام .

لم يكن هناك فارق زمني كبير بين اتخاذنا لقرار المتابعة و بين قدوم سيارة ضوءها يملأ الآفاق فعادت إلينا الحيرة مجدداً هل نقوم بالفرار من السيارة أم ننتظر ماذا سيفعلون بنا . بعد أن رأى أحمد الأضواء صاح مباشرة :" انبطحوا يا شباب ، سيارة ". نفذنا الأمر بسرعة كجنود مطيعين و لكن انبطاحنا لم يغن عنا شيئاً فقد استمرت السيارة بالسير حتى وقفت عندنا و كأن هناك من يرشدهم إلى مكاننا . نزل من السيارة شرطيان وقال أحدهما بالإنجليزية :" تعالوا ". أظهرنا الطاعة مباشرة حتى

لا نتعرض لعقوبة من الشرطة فطلبا منا الصعود في السيارة فصعدنا و بدأت السيارة تمشي على مهلها دون أن نعرف أي اتجاه تأخذه هل تعود بنا من حيث أتينا إلى صربيا أم أنها تقودنا إلى داخل هنغاريا . تجرأ محمد و سألهما :" صربيا أو هنغاريا ". فقال أحدهما :" هنغاريا ". شكرنا الله عندها أننا لن نعود إلى بلجراد و لم يتجرأ محمد على عرض الرشوة عليهما فبدأنا ننتظر أين سينتهي أمرنا ". مشت السيارة مسافة عشر دقائق ثم توقفت أم أبنية منبسطة يوحي باب أحدها بأنه باب محل تجاري . فتح الباب الخارجي للسيارة بعد ان قام السائق بمحادثة أحد الموجودين في الداخل ثم طلب منا الشرطي بعد ذلك النزول. نزلنا و وقفنا أمام باب يبدو أنه باب لمحل تجاري كان مغلقاً أولاً ثم فتح بطريقة إلكترونية . محل عملاق يحوي مئات الأسرة و مئات الناس قد سبقونا إلى هذا المكان دخلنا و وقفنا في الدور . و بعد أن وصل الدور إلينا قاموا بأخذ ما معنا من إثباتات شخصية و أجهزة إلكترونية و وضعوا أغراض كل شخص في مصنف يكتب عليه اسمه ثم يعطوننا علبة ماء و بعدها نؤمر بالانصراف باتجاه أحد الأسرة و التي يفصل كل صف منها عن الآخر بشريط .

مشينا حتى وجدنا بعض الأسرة الخالية فافترشناها و بدأنا نرقب شروق شمس اليوم التالي .

المحل كان واسعاً جداً و عدد الأسرة ربما يفوق المائة سرير و الأضوية المتدلية من السقف يفوق عددها ٢٥ ضوءا . جاوز الوقت منتصف الليل عند وصولنا و مع حلول الساعة السادسة بدأ الشرطة يقومون بإخراجنا إلى السيارات . سارت السيارة مسافة نصف ساعة تقريباً ثم أُمرنا بالنزول فنزلنا و بدأنا ننتظر الأوامر . ظننت لفترة أن " موضة الهجرة " منتشرة الآن لدى السوريين فقط و لكن عدد الناس الذين شاركناهم المبيت ليلة أمس و جنسياتهم بددت تلك الأوهام .

الناس على اختلاف جنسياتهم و ألوانهم و من كل حدب و صوب يتجهون إلى أوروبا ؛ أفغانستان باكستان سورية العراق و ليس الأمر حكراً على الدول التي تحوي اضطرابات أمنية بل حتى من ضمن بعض الدول الآمنة كتركيا. نزلنا و انتظمنا في الدور و جاء رجل مسن سمين قد بدت صلعته من حول قبعته التي يرتديها فبدأ يسأل عن اسمائنا و يتحدث مع من يجده عربياً باللغة العربية بلجهة مغربية مفهومة . كل ما يقوم به المترجم هو طرح بعض الأسئلة الشخصية عن الاسم و السن و الموطن ثم يأذن لنا بعدها بالمضي إلى المرحلة التالية . أنهى المترجم عمله معنا و دخلنا إلى سجن هو إلى القفص الحديدي أقرب منه إلى سجن .

بدأ عدد الداخلين إلى الزنزانة الصغيرة و التي لا يجاوز طولها ثلاثة أمتار و عرضها مترين بالازدياد حتى بدأنا نضيق المكان على بعضنا . كانت الزنازين مفصولة عن بعضها بقضبان حديدية و كان بابها الخارجي من القضبان الحديدية أيضاً فكان باستطاعتنا رؤية القفصين المجاورين لنا و كذلك نري الشرطة يتجولون أمامنا . بعد أن وصلنا إلى بلاد الغرب لم يعد العمل الأمني محصوراً في فئة الذكور فقد كان عدد الشرطيات يساوي تقريباً عدد الذكور . بدأ الوقت يمضي و بدأ الشرطة بأخذ الأشخاص الواحد تلو الآخر إلى أن حان دورنا أخيراً. مضيت مع الشرطي إلى المترجم و الذي اختزل المسألة ببساطة فقال :" هل ستبصم أم لا . إذا كنت لا تريد أن تبصم فسيتولى أمرك غيري و

إذا أردت البصم فسأكمل معك ". حاولت استغلال تشاركنا في ذات اللغة فشرحت له مخاوفنا عن إمكانية عدم قبول لجوئنا إلى ألمانيا في حال لو قمنا بالبصمة هنا فقال :" ابصم الآن و ستنطلق بعد ذلك في اي اتجاه ترغبه . ابصم ثم امضي إلى ألمانيا و لا تصدق كلام الناس الآخرين كل من وصل إلى هنا قام بوضع بصمته ثم مضى في الاتجاه الذي يريد ".

لم أكن أرغب بكثير من المناقشة و المجادلة مع المترجم كما أني لا أرغب في استمرار احتجازي في هذا المكان فأعلنت موافقتي و قمت بوضع بصمتي الإلكترونية بأناملي العشرة في هنغاريا . مضى كل شخص منا بمفرده إلى غرفة التحقيق و فضلنا نحن عدم الكفاح حتى نخرج دون بصمة إلا أن أحدهم خلال وجودي عند المترجم رفض أن يقوم بعملية التبصيم مع الشرطية فحاولت إقناعه أكثر من مرة فأصر على موقفه فنادت أحد الشرطة عندها يائسة و أشارت باتجاه الشاب ، جاء الشرطي مفتول العضلات و أشار للشاب بأن يدع الشرطية تنهي عملها إلا أن الشاب رفض فبدأت عملية ملاكمة من جانب واحد ضد الشاب . استمر الشرطي بإرسال الضربات المتوالية إلى جسد الشاب و استمر الشاب بالصبر ثم انصرفت عنهم دون أن أعرف ماذا فعل الشاب أخيراً.

التأم شملنا مجدداً في ذات الزنزانة و بدأ الشباب يواسون بعضهم فقال أحمد :" لا مشكلة، الستة شهور التي سنتأخرها حتى نحصل على الإقامة سنقضيها في تعلم اللغة". فبدأنا نواسي بعضنا بذلك .

لم نكن العرب الوحيدين فقد التقينا في ذات الزنزانة بشخصين عراقيين حالهما مشابه لحالنا فتعرفنا عليهم و بدأنا ننتظر متى سيتم إطلاق سراحنا بعد أن قمنا بوضع بصماتنا في هنغاريا.

فراق.. ونـهايَة حزينة لرحلة شاقّة

مضى الوقت و استمر احتجازنا دون أن نفهم سبب ذلك. و قبل غياب الشمس بقليل أتت الشرطية و قامت بفتح الباب علينا و طلبت منا متابعة السير خلفها . فخرج جميع من في الزنزانة و تبعناها حتى وصلت إلى باب من قضبان حديدية يساوي عرضه تقريباً عرض الزنزانات الثلاثة التي كنا فيها مجتمعة . فتحت الباب ثم امرتنا بالدخول فدخلنا و بدأنا نجد صعوبة في اختيار المكان الذي يجب أن نضيع فيه أقدامنا و ذلك للازدحام الكبير. كانت الزنزانة ضيقة علينا أما هذا المكان فعلى الرغم من مساحته الكبيرة إلا أنه يضيق بنازليه ، بدا التعبير الدارج " كبس مخلل " مطابقا للمكان الذي حللنا فيه .

بدأنا ننتظر أن يفي المترجم بوعده فقد قال أننا سنمضي اليوم إلى شأننا و لكننا خرجنا من عنده منذ أكثر من أربع ساعات و لا نزال ننتظر دون نتيجة . حوى المكان عينة من دول العالم من الشرق و الغرب اختلفت مواطنهم و اتفقت وجهاتهم . بدأ أحدهم يكلم الشرطي و يبكي و يتوسل إليه ألا يتم ترحيله و كان بصحبته شاب صغير فقال الشرطي بعد أن استنفر غضباً من تكرار ترجي الشاب للشرطة :" لن يتم

ترحيلك إلى وطنك ، اطمئن ، فقط القادمون من تركيا و كوسوفو يتم إعادتهم إلى بلادهم مباشرة فاطمئن ". رغم أن الشرطي طمأن الرجل إلا انه استمر بالبكاء و الترجي فابتعد عنه الشرطي حتى لا يفكر بضربه . غربت الشمس و حل الظلام فجاءت إحدى الشرطيات و نادت بأسمائنا و قالت اتبعوني فسارعنا بالخروج إليها و السير خلفها عسى أن تطلق سراحنا . طلبت منا الدخول إلى إحدى الغرف فدخلناها و وجدنا فيها موظفين أحدهما شاب يقف عند آلة التبصيم و الآخر شرطية تجلس خلف المكتب و تتابع عملها على الحاسب. تركتنا الشرطية في الغرفة و كان علينا بعد الدخول القيام بعملية تبصيم جديدة لم نعرف ما هدفها و لم نبال في السؤال عنها فقد بدأنا نتلهف للخروج من هنا بأسرع ما يمكن . بعد أن قمنا بعملية التبصيم قامت الموظفة بالإضافة إلى ذلك بإعطائنا تذاكراً للسفر عبر القطار باتجاه العاصمة بودابست ثم أذنت لنا بالخروج . خرجنا مسرعين برفقة الشابين العراقيين اللذين التقيناهما أخيراً و بعد أن جاوزنا المركز بعدة أمتار استوقفنا شاب و بدأ يحدث أخي محمد باللغة الانجليزية فقال لنا :" أنتم تمضون إلى أوروبا أليس كذلك؟". فأجابه :" نعم ". فقال :" لدي لكم عرض مغري ؛ يقوم كل واحد منكم بإعطائي مبلغ ٢٠٠ يورو و أنا أقوم بتوصيلكم ، آخذكم الليلة إلى فندق يديره أحد الرجال العرب و غداً أنطلق بكم فما رأيكم ".

خدعنا الشابان اللذان التقيناهما في قرية جفجيلية و لكنا كنا مضطرين وقتها للتخلص من شرورهما خصوصاً و أن الوضع كان خطراً نوعاً ما أما الآن فمعنا أوراق رسمية و لا شيء يجبرنا

أن ننخدع مرة أخرى و ذِكرُ هذا الشاب لشخص عربي يدير الفندق آثار الريبة في قلوب محمد و أحمد و قال أحمد :" ربما سيحصل لنا عندها ما حصل لجلال و أبي مصطفى ". آثرنا الانصراف عن الشاب و المضي في البحث عن فندق بمفردنا و إن كان الشاب قد جعل مسألة ركوبنا لسيارته هي الفرصة الأخيرة لنا . مضينا في طريقنا باتجاه محطة القطار و وجدنا في طريقنا أحد المطاعم فدخلناه. تعرفنا خلال جلوسنا على العشاء على الشابين العراقيين و كان أحدهما يريد البقاء في هنغاريا لأن خاله موجود بها منذ زمن في

حين كان الشاب العراقي الآخر و اسمه محمود يريد متابعة الطريق إلى ألمانيا .لم ينحصر الفرار من الحرب على المدنيين بل كان كثير من العسكريين يفر هارباً بعد أن يمل القتال أو حين يرغب في متابعة حياته و كان محمود العراقي كذلك ، فقد كان حسب كلامه يعمل مع الجيش العراقي ضد داعش و قد أو شكوا آخر مرةٍ على الإيقاع به لكنه تمكن من الفرار ثم ترك الحرب و هاجر إلى أوروبا . مشاركة الشيعة في الحرب مع الجيش العراقي لم تكن مستغربة بالنسبة إلي أما أن يكون من ضمن الجيوش التي تقاتل السنةَ سنةٌ شيء لم أكن أفهمه . توقفنا عن الحديث عن ماضي الأشخاص و بدأنا نفكر في كيفية متابعة طريقنا . وصلنا إلى محطة القطار فوجدنا أن القطارات قد توقفت عن الانطلاق الليلة و علينا الصبر حتى صباح يوم التالي . فكرنا في التجول ريثما يحين موعد انطلاق الرحلة إلا أن الأمر بدا مرهقاً جداً فآثرنا البحث عن فندق يأوينا ريثما تشرق شمس يوم الغد. بحثنا كثيراً حتى تمكنا من إيجاد فندق قبل بإيوائنا على مضض . نزل الشابان العراقيان في غرفة و نزلنا نحن الأربعة في غرفة أخرى و نمنا مباشرةً حتى نستطيع الاستيقاظ في الصباح الباكر فقد جاوزت الساعة الثانية. انتبهنا للوقت صباحاً و قد جاوزت الساعة السابعة فكان علينا الإسراع حتى لا يفوتنا قطار الثامنة . وصلنا إلى المحطة و كان القطار على وشك الانطلاق فركبنا به مباشرة . لم نكن نفهم اللغة التي كتبت بها التذكرة إلا أننا فهمنا من تقسيمها بأن علينا النزول من هذا القطار في المحطة التالية فنزلنا ثم تبين أننا أخطأنا في المحطة و بعد صعود و نزول في محطات القطار المختلفة وصلنا أخيراً وصلنا إلى عاصمة المجر " بودابست " كل ما علينا الآن هو المضي نحو ألمانيا بأقصر الطرق .

ودعنا الشاب العراقي الذين يقيم خاله في المجر و بقي معنا الشاب الآخر محمود الذي سيمضي إلى ألمانيا توجهنا برفقته إلى محطة القطار فقطع تذكرة نحو ألمانيا مقابل ٧٠ يورو و بدأنا ننتظر قيام محمد بنفس الخطوة إلا أنه لم يقم بها فسألته :" ما الذي يجري لماذا لم تقطع التذاكر". فقال :" لا لن نسافر بالقطار نريد طريقاً آمناً قد يتم ضبطنا فنعود عدة خطوات إلى الوراء لذلك سنبحث عن وسيلة أخرى".

تعجبت من رغبة محمد بالتمهل هذه المرة فقد كان الأكثر استعجالاً فينا منذ بدأ الرحلة و قلت له :" كل الناس يسافرون بالقطار لماذا هذا التعقيد دعنا نقطع التذاكر و نسافر فإن تم ضبطنا عاودنا المحاولة مجدداً و إن نجحنا نكون قد ادخرنا الكثير من النقود ". إلا أن محمد أصر على البحث عن سيارة نمضي معها و شاركه صديقنا أحمد في موقفه و لم يكن لي في النهاية أنا و أخي أحمد إلا السير حسب

رغبتهما لإن محمد هو من يدفع أجرة تنقلي انا و اخي احمد فيما يقوم صديقنا احمد بتحمل تكلفة رحلته منفرداً.

كان علينا عندها البحث عن مهرب يقوم بتسيير إجراءات هي الرحلة لنا فقام محمد ببحث متواصل عبر الأصدقاء و المعارف و المهربين الذين التقيناهم حتى تمكن أخيراً من العثور على مهرب اسمه عبدالرحمن طلب منا في حال كنا نرغب بالسفر بمساعدته أن ننتظر حتى يوم غد فعادت مشكلة إيجاد مكان يؤينا لهذه الليلة مجدداً .

اقترح أحمد أن نذهب باتجاه المركز الإسلامي في بودابست فربما نجد مكاناً مناسباً للنوم فوافقنا على الفكرة و بدأنا نمشي بسرعة إلى المركز و الذي كان يبعد عنا أكثر من ساعة مشياً على الأقدام . وصلنا المركز فدخلناه و أدينا صلاة المغرب ثم قام بعد ذلك أحمد بالتوجه إلى الإمام فسلم عليه و بادله الشيخ السلام ثم سأله إن كنا بحاجة نقود . لم نكن بحاجة نقود و لم يكن النوم في المسجد ممكناً. انتظرنا بعض الوقت ثم اتصل بنا المهرب يطلب منا التوجه إلى البناء التابع لشركة ماكدونالدز حيث سنلاقي هناك أحد رجاله و الذي سيتكفل بما نحتاجه . مضينا إلى المكان المتفق عليه و الذي لم يكن بعيداً عنا هذه المرة.

بعد أن نزلنا من القطار في العاصمة أول الأمر كان علينا ركوب قطار الشوارع " الترام " فركبناه دون أن نعرف كيف نقطع التذاكر و لم نفكر في شرائها أصلاً فقد ظننا أن تلك التذاكر التي أخذناها من مركز اللجوء أول الأمر كافية في إيصالنا إلى أبعد نقطة . و المنظر الملفت عند توجهنا إلى لقاء الدليل الجديد هو عدد الناس الواقفين أمام الإشارة الحمراء بانتظار تغير لونها مع أن الطريق خال تماماً ، و ظننت لبعض الوقت أن الترام يقوم بعمله بشكل مجاني فقد كانت المقطورات تضيق جداً بسبب عدد الركاب الكبير. وصلنا أخيراً إلى ماكدونالدز و بدأنا ننتظر قدوم الرجل .

بعد انتظار اتصل أحدهم بمحمد فبدأ محمد يشرح له عن مكاننا و عن كيفية التعرف علينا ، و قبل أن ينهي محمد مكالمته توجه إلينا شاب نحيل يرتدي معطفا أسوداً طويلاً مبتسماً و سلم علينا باللغة العربية. أخيراً أوشكنا على الانطلاق في آخر مراحل اللجوء و ها نحن نلاقي الدليل الأخير . الدليل من دور الزور أيضاً و بدأ يحكي لنا عن مشاهداته و عن استغرابه ليس من عدد القادمين و إنما من عدد الآيبين فقال :" سبحان الله الطريق يعمل بالاتجاهين كما أن هناك أناس تتوجه إلى هنا هناك أشخاص يعودون من حيث أتوا . أعرف شخصين وصلا إلى اليونان و يريدان الذهاب إلى تركيا عبر البحر و قاما بالمحاولة أكثر من مرة دون أن يفلحا منذ أكثر من شهرين ". بالنسبة لنا كان الحديث عن العودة لا يزال مبكراً فلم نتمكن حتى الآن من الوصول إلى وجهتنا . مشينا بصحبة الشاب و الذي أوصلنا في النهاية إلى مقهى صغير للانترنت فيه ستة أجهزة فقط و طلب منا قضاء الليل في المقهى بعد أن تكلم هو مع صاحب المحل .

صاحب المحل كان يبدو من ملامحه أنه صيني و طلب منا أن نجلس على أجهزة الكمبيوتر إلى بعض الوقت . تركنا الشاب الديري وقال :" موعدنا غداً صباحاً ".

بقينا بعض الوقت جالسين أمام الحواسيب دون أن يبعثنا الفضول على تصفح الانترنت فاكتفينا بتحريك الفأرة للتسلية و بدأنا ننتظر سماح الرجل لنا بالنوم . بعد ساعة تقريباً أشار لنا الرجل بيده فتبعناه و توجه هو و صعد درجاً ضيقاً قد غطاه بستارة بمحاذاة باب الدخول . المكان أشبه بقفص للفئران لكن لم يكن لدينا خيار آخر سوى قضاء هذه الليلة ريثما يحين موعد الانطلاق في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي . أوصانا الرجل قبل أن ينصرف بعدم الإزعاج فابنه نائم و يجب أن يستيقظ إلى المدرسة غداً في وقت مبكر. نفذنا طلب الرجل و غططنا في النوم بانتظار الصباح .

مع حلول الساعة السادسة بدأنا نعد أنفسنا لرحلة جديدة و بعد لحظات سمعنا صوت طرق الباب في الاسفل ثم فُتح و جاءنا صاحب النزل يخبرنا بأن دليلنا الذي سيقودنا في هذه الرحلة قد وصل .

خرجت أنا وأحمد إلى لقاء الرجل و ما إن وصلنا إليه حتى بدأ يشرح لنا التعليمات فقال :" ابقوا على مسافة متوسطة مني لا تضيعوني إذا رأيتم الشرطة قد أمسكتني فابتعدوا عن الطريق و اعتبروا أن الغملية قد ألغيت هل هذا مفهوم؟ ". وافقنا على كلامه و بدأنا نسير حسب تعليماته و أوشكنا مرة أن نضيعه في محطة القطار لكنه عاد ووجدنا و أمرنا بمتابعة السير . كان الشاب الإفريقي الذي نسير معه قد قطع تذاكر الترام لنا و عند وصلولنا إلى المحطة صعد إلى الترام فتبعناه ثم نزل بعد عدة محطات فتابعنا المشي وراءه إلى أن توقف أخيراً أمام إحدى السيارات و قال لنا قبل أن يمضي :" إذا طلب منكم السائق النقود فأعطوه مباشرة دون تردد و إذا أوقفتكم الشرطة و سألتكم عن جواز السفر فأجيبوا بنعم لا تنفوا شيئاً مفهوم؟".

ثم تركنا و مضى بعد أن أخذ منا مبلغ ٥٠ يورو . صعدنا إلى السيارة فتفاجأنا بوجود فتاة في مقدمة السيارة و شاب آخر في الخلف. دخلنا السيارة و كان الشخص الذي في المقاعد الخلفية هو شاب عراقي مسافر مثلنا بينما الفتاة كانت زوجة السائق . مشينا لبعض الوقت ثم طلب منا السائق نقوداً فسألناه كم يريد فقال :" ١٠٠ يورو ". ظننت لوهلة أنه يقصد أن أجرة الراكب ١٠٠ يورو و لكن تبين بعد ذلك أن الأجرة كاملة ١٠٠ يورو يعني أنه أخذ من كل شخص منا اقل من ٣٥ يورو في حين دفعنا للمهرب " ٤٠٠ يورو " للشخص الواحد . لم يعد الندم يجدي نفعاً فقد مضت السيارة و بدأت تجوز المسافات نحو محطتنا الأخيرة ألمانيا . قمنا بإعطاء السائق عنواناً أعطانا إياه المرشد الأخير من أفريقيا فوضع السائق العنوان في جهاز ال "جي بس اس " و بدأ يمضي حسب إرشاداته .

في الوقت الذي أقلتنا فيه السيارة قام أخواي محمد و أحمد بالصعود مع وسيلة نقل أخرى و هي الحافلة العادية . سبع ساعات كانت المسافة المقدرة لوصولنا إلى ميونيخ في ألمانيا ، و كان علينا أن نمر من حدود النمسا فمررنا بها دون أن ندخل إلى العاصمة فيينا ، ثم تابعنا السير بهدوء نحو ألمانيا .

من يصدق الرحلة التي كانت مستحيلة منذ زمن قريب أصبحت الآن حقيقة و الجولات الصاخبة التي خضناها خلال الطريق تنتهي بهدوء تام . بعدمسير سبع ساعات بدأنا نشاهد أبنية شاهقة و شوارع عريضة جداً توقف السائق و طلب منا النزول لإننا وصلنا .

وصلنا أخيراً إلى ميونيخ في ألمانيا و كان علينا انتظار أخواي اللذان انطلقا بعدنا ببعض الوقت و مع حلول المساء وصل محمد و أحمد و أخيراً و عندها قرر صديقنا أحمد بأنه سيمضي إلى صديقه شادي و الذي يقيم في مدينة دريزدن وهي بعيدة عنا و تكلفة الوصول إليها مرتفعة تبلغ ٢٠٠ يورو لذلك آثرنا البقاء في ميونيخ فيما مضى هو إلى صاحبه لتنتهي بذلك رحلتنا الطويلة التي بدأناها من تركيا إلى اليونان و وصلنا إلى اليونان بتاريخ ٢٠١٥/٢/٢٧ يوم الجمعة و وصلنا إلى ميونخ يوم الجمعة أيضاً بتاريخ ٢٠١٥/٣/٢٠ التقينا فيها أناساً و ودعنا آخرين و رغم وصولنا إلى وجهتنا التي طالما كافحنا للوصول إليها و لكن يبقى للوطن الأول بريقه الذي يغري أبناءه في العودة إليه في كل وقت حتى و إن تعرض ذلك الوطن لنكبات الزمان التي لا تستثني أحداً.

بينَ المَوتِ والحَيَاة ٥
من ظُلم النّظام إلى فوضى الثّورة... ٢١
بين النّجاح الفرد والفشل الجماعي... ٢٩
نُزوح ولُجوء... ٣٧
طريق طويل إلى بَلدٍ قريب ٤٤
تسرّع أم عَجرَفَة؟... ٦٧
منزل جَديد" كرفانة"وأصدقاء قُدامى.. ٧٥
مُحَاوَلةُ هُروب... ٨٧
حَياة جَديدة وَشُهَدَاء جُدد... ١٠٣
تنظيم أم تهجير!... ١١٥
بينَ السّفَر والتّهريب ١٢٨
اقتراحات سَهلة وخَيار صَعب ١٤٢
بينَ حَزم الخارج وخَطر الدّاخِل.. ١٥٢
في قَلب السّويداء ١٦٦
قذائف وشَهامَة... ١٨٤
من دُول الخِلافة إلى بِلاد الفَصَائل ٢٠٣
بَينَ الاستقرار والهِجرَة.. ٢١٥
في بِلاد العُثمانيّين.. ٢٣١
في ظُلُمَات البَحر ٢٤٦
من عاصمَة الإغريق أثينا إلى مقدونيا... ٢٦١
يأسٌ وَتَراجُع... ٢٧٠
في شوارع بلغارد ٢٧٥
فراق.. ونهايَة حزينة لرحلة شاقّة ٢٨٣